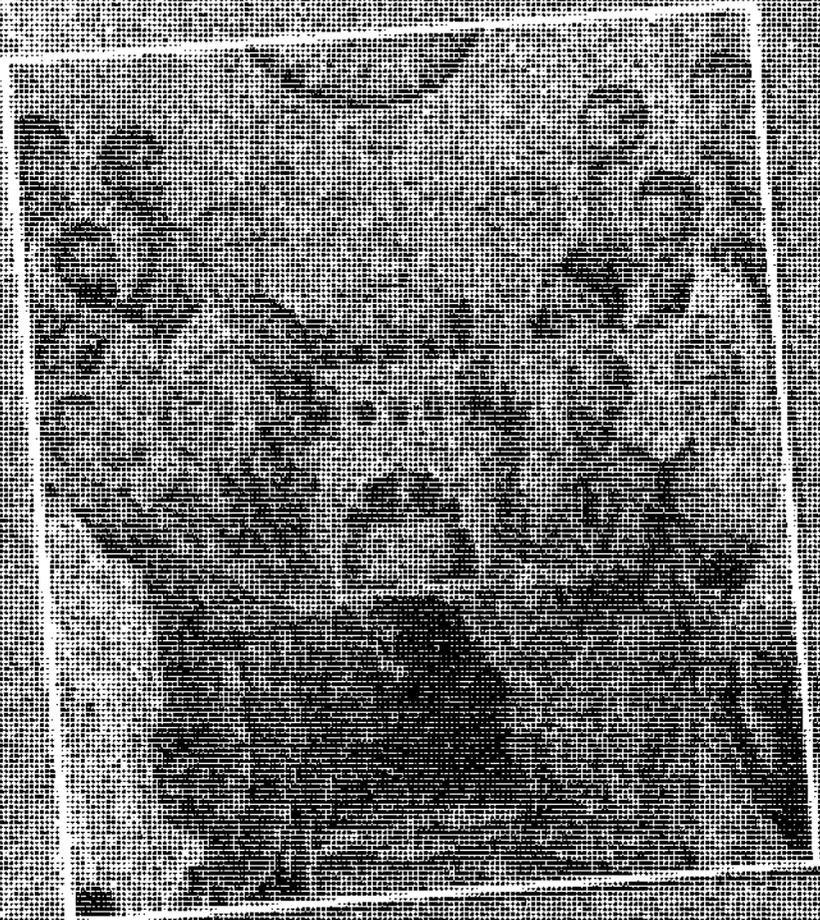


وہابی



صورة الغلاف:
الرسائل أركان الكنيسة.
أيقونة يونانية من أواخر القرن السابع عشر.

وَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
تَارِيخُ الْكَنِيسَةِ
المجلد الثاني
الكنائس الشرقية الكاثوليكية

جميع الحقوق محفوظة ، طبعة أولى ١٩٩٧
دار المشرق - ص . ب . ٩٤٦ ، بيروت - لبنان

ISBN 2-7214-4818-8

التوزيع: المكتبة الشرقية
ص . ب . ١٩٨٦ ، بيروت



وَيْلٌ إِلَى قِرَاءَةِ تَارِيخِ الْكَنِيسَةِ

المجلد الثاني

الكنائس الشرقية الكاثوليكية

ساهم في إصدار

«دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة – المجلد الثاني –: الكنائس الشرقية الكاثوليكية»

لجنة الإشراف
سيادة المطران يوسف ضرغام، المدير الفتيّ
نيافة الأنبا يوحنا قنّته، المستشار
الأب فاضل سیداروس اليسوعيّ، الأمين التنفيذيّ

المراجعة العامة
الأب صبحي حموي اليسوعيّ

التأليف
تسيق أسماء المؤلفين
تاريخ كلّ من الكنائس

فهرس المحتويات

٩	المقدمة
١٥	كنيسة الأرمن الكاثوليك
٤٥	كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك
١٢٣	كنيسة السريان الكاثوليك
١٤٣	كنيسة الأقباط الكاثوليك
٢٠٣	الكنيسة الكلدانية السريانية الشرقية الكاثوليكية
٢٤٧	الكنيسة اللاتينية: البطريركية اللاتينية الأورشليمية
٢٩٧	الكنيسة المارونية
٣٤٣	كنيسة أثيوبيا الكاثوليكية

المقدمة

ولقد طلبنا إلى متخصصين أن يوجزوا أهمّ ملامح كنيستهم. ولعلّ هذه النظرة الشاملة تساعد القارئ على تكوين فكرة متكاملة واضحة، وإن كانت مقتضبة، عن كل كنيسة من الكنائس الشرقية الكاثوليكية. وقد أتى الترتيب أبجدياً.

كما أننا أضفنا عرضاً للكنيسة الأثيوبية لما لها من علاقة وطيدة بالكنائس الشرقية، إذ أسستها كنيسة الإسكندرية.

لقد أشرق نور العنصرة على الرسل والتلاميذ وهم مجتمعون كلهم معاً في مكان واحد (رسل ١/٢). فامتألت أرواحهم بنعمة الروح المتجلى في السنة من نار، رمزاً إلى ان الروح يقود الكنيسة، من خلال رحلتها في تاريخ البشرية. فانطلق شهود سرّ التجسد والقداء والقيامة إلى جميع أرجاء المسكونة، كما أوصاهم معلمهم بذلك (مر ١٥/١٦) وكان شعلة إلهية قد أشعلت في نبضات قلوبهم، وعليهم أن يشعلوها في كل قلب وضمير. وسرت النعمة الإلهية لتقيم من الأسرة

صدر الجزء الأول من «دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة» وقد خلا من الحديث عن مسيرة الكنائس الكاثوليكية في الشرق، لأن المؤلف الفرنسي، جان كمي، اهتم، أول ما اهتم به، بتاريخ الكنيسة في الغرب. لذا رأت لجنة تعريب الكتاب ضرورة إضافة تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في الشرق، وذلك لدافعين: أولاً ليكون الكتاب بجزئيه، الأول والثاني، رؤية متكاملة لمسيرة الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً.

ثانياً: لأن للكنائس في الشرق العربي دعوة خاصة بها. فقد شاءت العناية الإلهية أن تحمل هذه الكنائس رسالة الإيمان بسرّ التجسد والقداء والقيامة في مناخ إسلامي، فظللّ شاهدة على الإيمان في بقعة من العالم انطلقت منها الأديان وكأنها منطقة تتسرّب بأسرار الروح، عطّرتها حياة نسكية عاشها آباء لنا وشهداء. ولم تزل هذه الكنائس في الشرق العربي، بالرغم من ضآلة حجمها في وطنها الإسلامي، تؤدّي رسالتها الهامة وكانتها الاتصال الدائم في مسيرة الإيمان خلال القرون العابرة.

الأحياء المتطرفة عن مركز المدينة، في حين ظهر اليهود قوةً منظمّة يضمّمهم رباط وثيق.

وإلى جانب اليهود والمسيحيين، ظلّت الأغلبية من سكّان شبه الجزيرة ترفض الديانتين، وكثير منهم آمن بالوحدانية أو بالحنيفية، نسبةً إلى إبراهيم الحنيف أي الآباء، يتطلّعون إلى دين متجرّد من العقائد والمذاهب، بساطة ويسرا.

وفي القرن الثالث الميلادي، بدت المسيحية راسخة قويّة في مصر وفلسطين وسورية ولبنان وآسية الصغرى. وكانت الإسكندرية قد توهّجت كمرکز ثقافي مسيحي، وكأنّها أضحت منارة العالم المسيحي اللاهوتية بمدريستها وعلمائها وقديسيها. ولم تتخلّف أنطاكية في سورية، إذ توهّجت مدرستها اللاهوتية بدون صبغة فلسفية غالبية. ونجحت المدرستان في أن تزوجا بين الثقافة الهلينية التي سادت قرونا طويلة والفكر المسيحي، بدون أن تشوّها المبادئ المسيحية أو تخفّفا من بهائها.

وفي فلسطين، نمت مسيحية في اللغة الآرامية، ومضت مسيحية الشرق في بلورة إيمانها في مناخ فكري هليني وفي وضع أسس طقوسها الرائعة لتعبّر عن العقيدة المسيحية في جلالها الإلهي. وكان اضطهاد ديوقليتيانس (٣٠٣-٣٠٤م) المحاولة الأخيرة لرأب الصدع وإنقاذ الإمبراطورية التي هز جميع تقاليدھا وتراثها إيمان يساري بين البشر كافةً ويعلن محبة الخالق لكل إنسان.

ولكن النور الإلهي أقوى من جميع ظلمات العنف والجهل، إذ بسطت المسيحية

البشرية كنيسة واحدة، ملكوت الله في الأرض، وليتدّ الجسد السريّ الواحد، رأسه المسيح الخلّص القادي، ليشمل كل إنسان يشاء أن يتحد به.

وكان من البديهي أن ينطلق الرسل إلى أنحاء فلسطين والبلاد المجاورة، حاملين إلى إخوتهم من أهل الشرق رسالة الإنجيل. ولم يكن الشرق الأدنى، في تلك الحقبة من التاريخ، إلّا ولاية رومانية، سيطر الرومان على شمال غربها وحكموا الشمال وفلسطين وأقاموا من القبائل العربية حلفاء لهم. وسيطرت فارس على شمال شرق شبه الجزيرة العربية وأرض أشور وبابل، وظلّت القبائل العربية منقسمة، ينتمي بعضها إلى الحكم الروماني وبعضها الآخر إلى الحكم الفارسي، حتى الفتح العربي.

ذكر العرب بين الشعوب المختلفة التي استمعت إلى خطبة بطرس الرسول بعد العنصرة (رسل ١١/٢). وتشير التقاليد إلى أن توما الرسول، في طريقه إلى تبشير الهند، أقام في شبه الجزيرة العربية وبشر أهلها بالإنجيل. فاعتنقت قبائل عربية مسيحية. وتكوّنت الجماعات المسيحية الأولى، متخذة طابع الحياة القبيلة، ورسم الأساقفة من أبناء كل قبيلة لخدمتها وللقيام بتعليمها وغرس القيم المسيحية فيها. وفي حقيقة الأمر، ظلّت المسيحية ذات أثر ضعيف في الحجاز، أو في شبه الجزيرة، في مكّة أو في المدينة، حيث لم يستطع المسيحيون أن يكوّنوا وحدة حقيقية، كما أعوزهم التماسك الاجتماعي. فظلّوا في قلب شبه الجزيرة أقلية، من صغار الناس، يسكنون

أشعتها على جميع أنحاء الإمبراطورية، واعترف قسطنطين بالمسيحية ديناً له (٣١٣). وحدث الانقسام الكبير بين الشرق والغرب في أعقاب مجمع خلقيدونيا عام ٥٤١، بعد صراع حاد على المفاهيم الخاصة بشخص المسيح وطبيعته الإلهية وطبيعته الانسانية. وأشعلت التعابير اليونانية المستحدثة للتعبير عن الإيمان خلافاً قوياً عمقه تنوع اللغات واللهجات واتجاه الفكر، وتأثير الفلسفة الأفلاطونية والأرسططالية في المدرسة الإسكندرية. وانتهى الأمر بانقسام خطير بين الكنائس الملكية البيزنطية المتحدة بكرسي رومة والكنائس الشرقية. وبدا الأمر، منذ نهاية القرن الخامس الميلادي، وكأن المسيحية قد أضحت مذهبين كبيرين، المذهب الأرثوذكسي أو اليعقوبي، والمذهب الملكي أو البيزنطي أو الكاثوليكي. وتفجرت صراعات واضطهادات مريرة بين الملكيين والكنائس الشرقية. وبدأت رحلة الانقسام والعزلة والانطواء وكان الأرض أعدت خصبة لظهور الإسلام وانتشاره، وهو الدين الجديد الذي حسم الموقف واكسح الإمبراطورية، وأعاد المنطقة العربية إلى الإيمان بالوحدانية، لا ثالث فيها ولا تعقيد لفهم الإيمان.

إن تاريخ الكنائس الشرقية هو، بحق، تاريخ الفداء والقيامة. لقد طويت صفحات من هذا التاريخ المجيد تحت ضغط عوامل كثيرة. فتوهجت الانتصارات الإسلامية الساحقة على أكبر إمبراطوريتين في ذلك العصر، وهما إمبراطورية فارس وإمبراطورية بيزنطية، فكان ذلك مثيراً للإعجاب. فقد ورث المسلمون

العرب الفاتحون جميع كنوز الإمبراطوريتين، ولم تكن الكنائس العربية بعيدة عن تأثير الفكر الإسلامي، بل عرف العرب الفاتحون المسلمون كيف يتعاملون مع أبناء جنسهم ودمهم، العرب المسيحيين، بروح سمحة، وتركت للكنائس حريتها في سنوات الفتح الإسلامي الأولى. ولكن لم يدم هذا التسامح الإسلامي طويلاً، بعد أن دخل الإسلام عناصر غير عربية تجعل تماماً التراث المسيحي العربي وأواصر الدم والنسب بين القبائل العربية. ومن ثم عانى المسيحيون أشد المعاناة من بعض الحكام ومن ثورات الرعاع، ولا سيما في زمن الحروب، طيلة قرون الفتح العربي الأولى.

وانطوت تلك الكنائس الشرقية على نفسها من جهة، والتفت حول بطاركها من جهة أخرى، وأضحت جماعات صغيرة، لكل كنيسة حياتها وطقوسها ورؤساؤها ورهبانها وكهنتها، تستميت في الدفاع عن جوهر الإيمان في خضم بحر متلاطم الأمواج، يضم شعوباً وأما تحت لواء الإسلام الفاتح الكاسح.

وانتهت تلك الكنائس إلى أن تصبح جماعات شبه مستقلة في داخل الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف، يتعامل الحاكم المسلم مع كل كنيسة على حدة، وتتوطد العلاقات حيناً وتتوتر أحياناً، ويزغ نجم مسيحي عربي فيصل إلى منصب هام في الدولة، ويتقرب إلى الحاكم، وبالتالي يرفع من شأن كنيسته، أو يغضب الحاكم على أبناء كنيسة، فيسقط عليهم غضبه ويضيق الخناق عليهم، فيتسلل بعضهم إلى الإسلام طلباً للنجاة، أو يهاجر بعضهم الآخر هرباً من



بطاركة الشرق الكاثوليك

ثمّ بابل وقبرس وموسكو الخ .
إن الغاية من هذا الكتاب هو أن نبيّن أن الكنيسة حيّة في الشرق، بالرغم من الصعوبات التي تعترض مسيرتها أحياناً. هي حيّة في المجالات اللاهوتية والروحية والرعية، وفي المجالات الثقافية والحضارية والتنمية والاجتماعية والتربوية. هي حيّة في خدمة المؤمنين والمجتمعات العربية على اختلاف أنظمتها.

ونحن لا نتكلّم على الماضي كمن يحاول بعث الاموات، بل لأن الحاضر لا يفهم إلا في ضوء الماضي، ولأن من لا تاريخ له لا جذور له، ولأن المسيحي يعرف أن الربّ هو سيّد التاريخ، وإن كان الإنسان هو صانعه. فحياة الإنسان في يد الربّ، وإن «شعرة من رؤوسكم لا تهلك من دون إرادة أبيكم» (متى ١٠/٣٠).

إن الضمير المسيحي الشرقي حيّ لا يتجمّد

جحيم التعصّب والاضطهاد. وفي لحظة مخاطفة، يمكن القول بأن الكنائس المسيحية في الشرق العربي، منذ الفتح الإسلامي حتى اليوم، تحيا في إطار يرتكز على أسس أربعة تسمح لكل كنيسة بأن تعتمد عليها كعناصر لا تتغير وتمنح المؤمنين الإحساس بالأمان والثبات: النظام البطريركي - النزعة العقائدية - التراث الطقسي ولغته - استقلالية كل كنيسة.

ففي القرن المسيحي الأول، كان الرسل يؤسسون الكنائس ويقىمون عليها أساقفة. وكان أساقفة المدن الصغرى يخضعون لأسقف العاصمة. هكذا أصبحت عواصم المقاطعات الرومانية المدنية مراكز لرؤساء الأساقفة الذين دعوا، في ما بعد، بطاركة. فالبطريرك هو إذا أسقف ذو سلطان على سائر الأساقفة المقيمين في حدود إيبارشيته. هكذا نشأت البطريركيات الأولى الكبرى: رومة، أنطاكية، الإسكندرية، وفي ما بعد، بيزنطية وأورشليم،

وفي نهاية الأمر، هو الروح القدس الذي يجمع مختلف الكنائس في شركة في ما بينها. هو صانع الوحدة وهو الوجه غير المرئي لهذه الوحدة، في حين أن البابا هو وجهها المرئي وخدامها.

إن كنائس الشرق الكاثوليكي ترحّب بالحركة المسكونية وترى فيها عمل الروح، وهي تشارك في الاجتماعات المنظمة الصادرة عن إرادة الربّ والمرتكزة على المحبة الصافية النابعة من قلب يسوع المطعون على الصليب، ناسيةً الخلافات القديمة وكل جدل عقيم، وذاكرة دم الشهداء المشترك بين جميع الكنائس، من دم إسطفانس إلى دم شهداء الدياميس، إلى دم شهداء الأنظمة الدكتاتورية الحديثة. وهي تقرّ الاعتراف بأخطاء الماضي وبالتوبة عنها وبقبول الآخر كما هو. كما أنّها تقرّ الاعتراف بكيانه وبدعم النظر إلى الماضي، بل إلى المستقبل: «أنسى ما ورائي وأتمطى إلى الأمام» (فل ١٣/٣)، وبالتعاون مع سائر الكنائس لبنيان الإنسان المسيحي والمجتمعات العربية، وبالاعتماد على روح الله الذي يجمع ما فرقه الإنسان، إمّا عن كبرياء وإمّا عن جهل.

والكنائس الشرقية الكاثوليكية تنطلق، في علاقاتها مع الإسلام، من تعاليم المجمع الفاتيكاني الثاني ومن رسائل بطاركة الشرق الكاثوليك، ومن توجيهات مجمع الحوار بين الأديان. فهي، إذ تنظر بعين الاحترام إلى المسلمين، تمدّ لهم يد التعاون في مجالات الحياة اليومية وتتصرف بإخلاص «إلى التفاهم المتبادل وإلى تعزيز العدالة الاجتماعية وصونها والخيور الاخلاقية والسلام والحرية لفائدة جميع

ولا يموت ولا يتخلق على نفسه. فهو يعي أنه جزء لا يتجزأ من كنيسة كبرى نصفها الثاني في الغرب، وأنه يحمل رسالة إلى عالمه الشرقي الذي لم يشأ يوماً أن يفصل عنه. تريد كنائس الشرق الكاثوليكية أن تكون منفتحة، محاورّة، متواضعة، محبّة. تريد أن تكون كنيسة من أجل العالم، كما يوضح ذلك المجمع الفاتيكاني الثاني في الدستور الرعوي حول «الكنيسة في عالم اليوم». هذه هي إرادة المسيح المؤسس. تريد أن تكون كنيسة خادمة، خادمة الكلمة والاسرار، وخدامة الناس. هناك رباط أخوي يشدها إلى محيطها الشرقي، يشدّ بعضها إلى بعض، كما يشدها إلى سائر الكنائس المنتشرة في العالم قاطبة.

تتعلم من التاريخ أنه، في الكنيسة الأولى، كانت عدّة مقاطعات يرأس كلاً منها أسقف لا يقوم بعمل إلا بالاتفاق مع إخوته الأساقفة، كما كان جميع هؤلاء الاساقفة يذكرون بعضهم بعضاً في الإفخارستيا التي هي سرّ المحبة والوحدة. إن معرفة هذه الحقيقة توجه كنائس اليوم نحو تجديد مستمر. ولكن هذا الرباط الأخوي الوثيق لا ينفي ما لكل كنيسة من خصائص ومميزات. فالحوار بين الكنائس يجب أن يقوم على احترام الفروقات التي تكون ثروة متبادلاً متكاملًا، إذ لا يمكن ان تعبر كنيسة واحدة عن ملء غنى المسيح وقامته. اننا نحافظ محلياً على وجود الكنيسة الجامعة التي تجمع البعدين المحلي والجامعي. ولكم شدّد الشرق على أهمية الأسقف والإفخارستيا، فتشيد حولهما الكنيسة المحليّة، والأسقف هو العنصر المرئي، والإفخارستيا هي العنصر غير المرئي.

الناس» (تصريح المجمع حول «علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحية»، عدد ٣). إن كنائس الشرق الكاثوليكية تريد تشييد علاقات جديدة مع محيطها، مبنية على العدالة والمحبة واحترام حقوق الإنسان، كما أنها ترحو أن يأتي هذا الكتاب حجراً في بناء عالم مشرقى أفضل وحمير

محبّة شاملة لا يحدّها زمان أو مكان، دين أو طائفة، حضارة أو عقلية. تلك هي نقاط نبطها في المقدمة، تساعد القارئ على تفهم تاريخ هذه الكنائس التي تعيش دوماً التجسّد والفداء والقيامة.

لجنة الاشراف

كنيسة الأرمن الكاثوليك

بقلم المطران بطرس مراياتي*

* مطران حلب .

إن الكنيسة الأرمنية هي من أقدم الكنائس الشرقية نشأةً وطقساً ولاهوتاً.

لقد بقيت هذه الكنيسة مرتبطة بالأرض والشعب واللغة عبر العصور؛ فأخذت طابعاً وطنياً متميزاً. لذا نتفهم ما صرح به أحد أساقفة كاراباخ قائلاً: «إن الأرمني الذي لا ينتمي إلى المسيحية لا يعدّ أرمينياً. إيماننا وهويتنا الوطنية ينبعان من مصدر واحد».

بالرغم من الأحداث السياسية والدينية، التي هزّت كيان المسيحيين في الشرق، وغيّرت مجرى تاريخ كنائسهم، فإنّ الأرمن ظلّوا محافظين حتى اليوم على وطنهم ولغتهم وإيمانهم وتقاليدهم، وهذا ما يجعلهم أشدّ التفافاً حول كنيستهم وأكثر تضامناً في ما بينهم وأقوى ارتباطاً بوطنهم الأم أرمينيا.

فلا عجب إن نقول إن الكنيسة الأرمنية قد قامت عبر التاريخ بدور يتخطى الحدود الطقسية والرعية والروحية، ويعود الفضل إليها في جمع شمل الأمة الأرمنية، وفي المحافظة على كيانها وهويتها، وفي تطور ثقافتها وعاداتها،

إن في الوطن الأصلي أو في بلاد المهجر.

لذلك فإنّ المؤمنين الأرمن، أينما وجدوا، وبالرغم من خلافاتهم المذهبية أو السياسية، يشعرون بوحدة قوية تجمع في ما بينهم من حيث الحضارة القومية والتاريخ المشترك والإيمان المسيحي. وإن الاضطهادات المتتالية التي تعرّضوا لها لم تفصلهم عن جذورهم، بل زادتهم تماسكاً وتعلّقاً بالدين، وجعلت من كنيستهم «كنيسة الشهداء».

ولمّا كان تاريخ الكنيسة الأرمنية مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالتاريخ المدني، لذلك اخترنا في عرضنا هذا تسلسل الأحداث التاريخية الوطنية لنبرز من خلالها دور الكنيسة وتطورها.

لا شك في أننا لا نستطيع أن نفني التاريخ الكنسي الأرمني حقّه في هذه المعجالة، لذلك أشرنا في مطلع دراستنا إلى أن ما نسعى إليه هو تقديم «نبذة» عامة وإلقاء نظرة شاملة إلى أهمّ الأحداث، تاركين للقارئ حرية الرجوع إلى المراجع الأكثر توسعاً.

١. أرمينيا قبل التاريخ المسيحي

وقد سيطرت اللغة الأرمينية التي تنتمي إلى الفرع الشرقي من اللغات الهندو أوروبية. وتأثرت بدورها على مر العصور باللغات اليونانية والسريانية والفارسية.

وبعد أن تولى الأرمن زمام مملكة أورارتو وصدّوا التوسع الآشوري، واجهوا خطراً جديداً، ألا وهو الغزو الفارسي من الجنوب الشرقي. فخضعوا لسيطرة الشعوب الإيرانية إلى أن تغلب الإسكندر الكبير على الفرس في العام ٣٣١، فاستعادت المملكة الأرمينية سيادتها وعرفت ازدهاراً كبيراً تحت تأثير الثقافة اليونانية. وكان أوج سلطتها في عهد الملك ديكران الكبير (٩٥-٥٥ ق. م) الذي وصل إلى سورية وأنشأ على حدودها مدينة على اسمه «ديكراناكيرد» المعروفة اليوم باسم «دياربكر» في تركيا.

كانت المعابد الوثنية منتشرة في أرمينيا. أما الآلهة التي كانوا يعبدون لها فكان بعضها من أصل فارسي مثل: أرامسد، الإله الخالق وتمثله الشمس، وأناهد، إلهة الحياة وتمثلها الماء. وفاهاكن، إله القوة وتمثله النار. وبعضها من أصل آشوري مثل بعلشامين وأسدغيك. وبعضها الآخر من أصل أرمني مثل فانادور ومهير.

إنّ العهد القديم يولي أرمينيا مكانة مرموقة، فقد وضع في حدودها جنة عدن، وجعل سفينة نوح ترسي على جبل أرارات. وذكر على لسان الأنبياء نداءات الاستنجاد بشعوب أرارات أو أورارتو.

لا نجد ذكراً لأرمينيا في العهد الجديد، ولكن ثمة إنجيل منحول يسمى «إنجيل الطفولة

تقع أرمينيا على الهضبة الشمالية الشرقية من الأناضول على ارتفاع يتراوح بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠ متر عن سطح البحر. وهي جزء من سلسلة جبال القوقاز سميت «الجزيرة الجبلية». أعلى قممها جبل أرارات (٥١٦٥م)، وفيها بحيرات جبلية (سيفان وفان وأورميا).

لقد تغيرت حدود أرمينيا الجغرافية عبر العصور، وكانت قبل دخول المسيحية تمتد بين ينابيع نهر الفرات غرباً وبحر قزوين شرقاً.

إن السلسلة الجبلية الأرمينية، التي تبدو لأول وهلة منيعة وحصينة، تخترقها في الواقع وديان ومعابر وتغور، مما يجعلها عرضة للتقسيم الجغرافي الطبيعي. وهذا التقسيم ساعد في خلق جماعات اقطاعية عشائرية كان من الصعب توحيدها تحت سلطة واحدة.

هذا وإن المناخ القاري طبع الشعب الأرميني بالحشونة، وحلت به مصائب التاريخ فزادته صلابه.

وأطلق الأرمن على أنفسهم اسم «هاي» وعلى بلادهم اسم «هايستاتان» نسبة إلى الملك البطل الأسطوري «هايك». أما اسم «أرمن» و«أرمينيا» فذلك ينسب إلى «أرمين» بن «هايك»، كما جاء في التقاليد الشعبية الأرمينية.

والأرمن ينتمون إلى العرق الآري، وهم مزيج من شعوب البلقان وجبال الألب الذين نزحوا شرقاً واختلطوا بشعوب القوقاز، أي «الأورارتو» ليكونوا أمةً واحدة، وذلك في القرن السادس قبل الميلاد.

الأرمني»، لأن الأصل فُقد، وبقيت الترجمة الأرمنية. وفيه تُذكر أسماء المجوس الذين زاروا المسيح الطفل في مغارة بيت لحم، وهم: كسبار وملكون وبغده صار. وهذه الأسماء لا تزال الأكثر انتشاراً بين الأرمن (كسباريان - ملكونيان - بغده صريان).

٢. بدايات المسيحية في أرمينيا

انهارت مملكة ديكران الكبير أمام زحف الجيش الروماني بقيادة بومبيوس في العام ٦٦، وبقيت أرمينيا في حماية الامبراطورية الرومانية من العام ٥٢ ق.م حتى العام ٤٢٨ ب.م يحكمها ملوك أرمن من سلالة الارشاكونيين. يفيد التقليد الكنسي بأن الرسولين تداوس وبرتلماوس بشرًا الأرمن بالدين المسيحي الجديد في منتصف القرن الأول للميلاد^(١).

ولكن ما تؤكده المصادر التاريخية أنه في نهاية القرن الثاني كانت قد تكوّنت جماعة كبيرة من المسيحيين في جنوب أرمينيا بفضل المبشرين السريان القادمين من مدينة الرها، التي اعتنق ملكها الأبجر التاسع الديانة المسيحية. أما في القرن الثالث فتشير الوثائق التاريخية إلى وجود أسقف أرمني في شرق قبدوقية اسمه

«ميروجان». وهكذا بدأ الأرمن ينفصلون عن الفرس الساسانيين ويميلون إلى الامبراطورية الرومانية، مما جعلهم عرضة للاضطهادات المجوسية.

٣. الملك درطاد والقديس غريغوريوس المنور

لما تولى الملك درطاد الثالث زمام الحكم في أرمينيا (٢٨٤-٣٠٥) تحالف مع الامبراطور ديوقلطيانس، واستطاع إبعاد الفرس الساسانيين عن الحدود الأرمنية. وجعل الملك في خدمته شاباً أرمينياً اسمه كريكور (غريغوريوس) يتقن اللغة اليونانية. وكان درطاد يجهل أن كريكور هو ابن آناج قاتل والده الملك خوسروف. وكان قد هرب آنذاك إلى قبدوقية حيث تنقّف وتنصّر.

وفي يوم عيد الإلهة أناهيد، رفض كريكور تقديم القرابين للوثن، وأعلن أمام الملك عن إيمانه المسيحي. فاستشاط الملك غيظاً ونكّل به أشدّ التنكيل. ولما كشف سرّه أمر بإلقائه في بئر عميقة حيث بقي اثنتي عشرة سنة، بحسب واضحى سيرته^(٢). وعلى غرار الامبراطور ديوقلطيانس، شنّ

(١) تولي الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية هذا التبشير أهمية تاريخية كبرى لتؤكد كونها كنيسة رمولية. ولكن بعض كبار المؤرخين لا يجدون لهذا التقليد مصادر تاريخية ثابته.

(٢) لا تزال هله البئر (خورفراپ: أي الجب العميقة) قائمة في جمهورية أرمينيا يؤمها الحجاج من كل حذب وصرب، ويتزلون إليها بواسطة سلال معدنية. وقد شيّد فوق فوهتها معبد صغير، وأنشئت على مقربة

منها كنيسة على اسم القديس غريغوريوس. وقد جرت العادة في شرقنا أن يأتي المؤمنون بآنية مملوءة بماء بئر المنزل إلى الكنيسة في عيد القديس غريغوريوس، وبعد بركتها يعودون بها إلى منازلهم فيرشونها على البئر («الجب») وفي أرجاء الغرف، طالبين شفاعته القديس لحمايتهم من الأمراض السارية ومن لدغات العقارب والحويوانات الزاحفة.

الملك درطاد حملة اضطهاد على المسيحيين المتشرين في مملكته. وفي تلك الحقبة استشهدت «هريسيمه» التي رفضت أن تستسلم للملك، واستشهدت أيضاً رفيقاتها اللواتي كنّ يتسكن في صوامع رهبانية على سفح جبل «أراكادز» بإرشاد رئيستهن القديسة «كاياتي»^(٣).

ويذكر واضح سيرة القديس غريغوريوس، كوريون، أن الملك درطاد أصيب بمرض نفسي رهيب غير أطباعه وشوّه حتى معالم وجهه، ولم يشف من ذلك المرض إلا عندما أمر بإخراج غريغوريوس من البئر، نادماً على ما فعل. واهتدى الملك إلى الدين المسيحي وتعمّد هو وحاشيته في نهر الفرات عن يد القديس غريغوريوس وكان ذلك في العام ٣٠١^(٤). ويفتخر الأرمن بكونهم أول دولة اعتنقت الديانة المسيحية ديانة رسمية، ولم يسبقها إلى ذلك سوى بعض الإمارات الصغيرة مثل إمارة الرها،

علماً بأن منشور ميلانو، الصادر عن الامبراطور قسطنطين، الذي يسمح بنشر الدين المسيحي، لم يعلن إلا في العام ٣١٣. ويجب انتظار العام ٣٨٠ لكي يعلن الامبراطور ثاودوسيوس الديانة المسيحية ديناً رسمياً للدولة.

٤. تنظيم الكنيسة الأرمنية

يُلقب القديس كريكور بالمنور، لأنه أدخل نور المسيح إلى أرمينيا وبفضله اعتنق الملك وحاشيته وأركانها وجميع أفراد الشعب الديانة المسيحية.

ولما كان كريكور علمانياً، فإن الملك والشعب أصرّاً على إعلانه بطريركاً ورئيساً روحياً عليهم. فذهب إلى قبدوقية حيث نال الرسامة الكهنوتية ثم الأسقفية عن يد أسقف قيصرية وحاز على لقب «كاثوليكس»^(٥).

وبالرغم من وجود بعض الجماعات

(٣) لا يزال ضريح القديسة هريسيمه حتى اليوم بالقرب من اشمادزين، وقد شيدت فوقه كنيسة تحمل اسم الشهيدة، وذلك في عهد الكاثوليكس «كوميداس» في العام ٦١٨، وهي من أقدم الكنائس الأرمنية وأجملها هندسة. وبالقرب منها شيدت كنيسة أخرى في عهد الكاثوليكس «بوز» في العام ٦٣٠، كُرست على اسم الشهيدة «كاياتي».

(٤) تستعد الكنيسة الأرمنية للاحتفال بمرور ١٧٠٠ سنة على تنصيب أرمينية، وسيتم ذلك في العام ٢٠٠١.

(٥) لا تقر الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية بالخضوع لكنيسة قبدوقية في أية حقبة من التاريخ، بل تؤكد «أوتوسفاليتهما»، أي استقلاليتها منذ نشأتها عن يد الرسولين تداوس وبرتلماوس. وما رسامة غريغوريوس

في قيصرية قبدوقية سوى رغبة منه في العودة إلى المدينة التي نشأ فيها.

وترفض الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية أن تُلقب بالكنيسة «الغريغورية»، كما جاء في الميثاق الروسي (Polojnie) نسبة إلى مؤسسها «غريغوريوس المنور». فهي لا تقبل بمؤسس غير الرسولين تداوس وبرتلماوس. وتشير إلى أن كلمة «غريغورية» قد تؤكد الالتباس مع «الغريغورية» البابوية الرومانية، كما هو الحال في كلمة التقويم «الغريغوري».

هذا وبالإضافة إلى اسمها الرسمي «الكنيسة الأرمنية الرسولية»، فقد قبلت أيضاً في مطلع القرن العشرين أن تعرف في الأوساط المدنية والمسكونية باسم «الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية».



القدس كريكور المنور

عن العادات الوثنية وتتلاقى مع النظام الكهنوتي في العهد القديم .

ويعود الفضل إلى القديس نرسيس الكبير (٣٥٣-٣٧٣) في تنظيم شؤون الكنيسة الأرمنية بعد عهد الكاثوليكس كريكور وخلفائه . فبعد أن نال الرسامة الأسقفية عن يد أسقف قيصرية في العام ٣٦٤ ، عاد إلى أرمينيا وسنّ الشرائع الكنسية، ووضع القوانين الرهبانية، ونظّم حياة الأديرة، وأنشأ الأبرشيات والمياتم ودور العجزة والمستشفيات، ووزّع على الكهنة قطعاً متساوية من الأراضي الزراعية ليضمنوا حياة عائلاتهم . ويقول كاتب سيرته: «في عهد نرسيس، لم تكن لتجد متسوكلاً واحداً في البلاد الأرمنية» .

لم تشارك الكنيسة الأرمنية في المجمع

المسيحية قبل تصير أرمينيا الرسمي ، فإنّ الفضل يعود إلى القديس كريكور في تنظيم الكنيسة الأرمنية من حيث التعليم الديني والطقوس الليتورجية التي أخذها عن كنيسة قبدوقية .

ويذكر واضع سيرة القديس أنّ كريكور رأى حلماً يشير فيه المسيح بمطرقة ذهبية إلى موقع إنشاء كنيسة مع تفاصيل البناء . وهكذا أنشأ في العام ٣٠٣ كنيسة جديدة بحسب الرؤية ، بالقرب من العاصمة «فاغارشاباد» ، على أنقاض معبد وثني ، وأطلق عليها اسم «اشتميادزين» ، أي «نزول الابن الوحيد» .

ولا عجب أن نعلم أنّ كريكور كان متزوّجاً ، ولكنه بعد رسامته ترك بيته وتفرّغ للعمل الرسولي وترأس الكنيسة الأرمنية طيلة ربع قرن . ورسم الكهنة والأساقفة ، وكان بعضهم من أبناء الكهنة الوثنيين المهتمين إلى الدين المسيحي . وترك لنا قوانين وخطابات وطقوس دينية .

ويعود الفضل إلى الكاثوليكس كريكور المنور في تصير البلاد المجاورة لأرمينيا مثل جورجيا والأغوان ، حيث أرسل جماعات من المبشّرين لتهدبهم إلى الدين المسيحي .

وتوفي كريكور المنور في العام ٣٢٥ وخلفه على السدة البطريركية ابنه الصغير القديس اريستاكيس (٣٢٥-٣٣٣) الذي شارك في المجمع المسكوني الأول المنعقد في نيقية العام ٣٢٥ . ثم خلفه أخوه البكر القديس فرطانيس (٣٣٣-٣٤١) الذي كان متزوّجاً ، وبعد وفاته خلفه ابنه القديس هوسيك (٣٤١-٣٤٧) . وهذه الخلافة العائلية في الرئاسة الكنسية كانت طبيعية في أرمينيا موروثاً



القديس مسروب
واضع الأبجدية الأرمنية

أضف إلى ذلك أن بعض الأمراء المياليين إلى الفرس عادوا إلى بعض الطقوس الوثنية، مثل عبادة النار، واستمالوا الكهنة الزردشتيين. أمام هذا المدّ الفارسي، الذي بدأ يشكل خطراً على الثقافة المسيحية، راح الراهب «مسروب» يبحث عن أبجدية أرمنية خاصة تساعد الأرمن على الحفاظ على استقلاليتهم كنيستهم من جهة وعلى الحفاظ على ثقافتهم القومية من جهة أخرى.

وتبني هذا المشروع الكاثوليكي «سهاك» وشجع الراهب «مسروب» على المضي قدماً في أبحاثه واستطاع، في العام ٤٠٦، أن يضع الأبجدية الأرمنية في ٣٦ حرفاً، مرتكزاً على الأبجديتين اليونانية والسريانية.

المسكوني الثاني الذي عُقد في القسطنطينية سنة ٣٨١، ولكنها تبنت جميع قراراته وتعاليمه.

وبعد هذه الحقبة الزاهرة من تاريخ الكنيسة الأرمنية، بدأت الأوضاع تتدهور في أرمينيا، إذ إن الامبراطورية الرومانية المنهارة أمام الجحافل البربرية الجرمانية، تخلت عن حماية الملوك الأرمن المسيحيين ضد الفرس الساسانيين الزردشتيين.

وهكذا استغل بعض الأمراء الأرمن ضعف الملك فأعلنوا الانشقاق واستمالوا عطف شاه الفرس فوضعوا أنفسهم تحت حمايته وأطاحوا بالملك في العام ٤٢٨، وتقاسموا في ما بينهم المملكة، فحوكوها إلى مقاطعات إقطاعية، وتخلّوا عن قسم كبير من أرمينيا لحلفائهم الفرس.

٥. الكاثوليكس سهاك والراهب مسروب يضعان الأبجدية الأرمنية

بعد مائة عام من تنصير أرمينيا، لم تترسخ الديانة المسيحية بعمق في نفوس المؤمنين. فكانت الصلوات والطقوس والقراءات الانجيلية تُقام باللغة اليونانية أو السريانية، وذلك لعدم وجود لغة أرمنية مقروءة. وكان رجال الكليروس يكتفون بالترجمة الشفوية إلى اللغة الأرمنية، ويقدمون بعض الشروحات البسيطة للكتاب المقدس. وكثيراً أيضاً عدد الكهنة غير الأرمن القادمين من قبدوقية أو الرها، مما أثار في استقلاليتهم الكنيسة الأرمنية، التي كانت على علاقة وثيقة مع كرسي القسطنطينية عن طريق قيصرية قبدوقية البيزنطية، ومع كرسي انطاكية عن طريق الرها السريانية.

الإشارة إلى أن بعض هذه الكتب فقد أصلها ولم يصل إلينا سوى الترجمة الأرمنية، مثل بعض كتب أفرام وإيريناوس والفيلسوف أفلاطون .

كما ظهرت كوكبة من الكتاب الأرمن أمثال ازنيك الكوليبي وكوريون وغازار باربتيسي ويغيشي وموسيس الخورييني، الذين وضعوا الكتب الدينية والتاريخية، فحافظوا على التراث الأرمني . وقد دعي هذا العصر بحق «عصر الثقافة الأرمنية الذهبي» .

لم تشارك الكنيسة الأرمنية في المجمع المسكوني الثالث الذي عقد في أفسس في العام ٤٣١ ولكنها قبلت جميع تعاليمه وطبقت جميع توصياته .

٦ . القديس وارطان ورفقاؤه الشهداء

لم يكفِ الملك الساساني شاهنشاه

نذكر منها: لهجة كسب وأورفا وعنجر .

واللغة الأرمنية غنية بمصطلحاتها بسبب التفاعل مع الحضارات المجاورة، فدخلت فيها الكلمات الأجنبية من أصل فارسي ويوناني وسرياني وعربي، وفي وقت لاحق تأثرت أيضاً باللغة الأوروبية الحديثة .

ولا عجب أن نقول إن اللغة الأرمنية لغة العريكة تستطيع أن تجد المصطلحات اللازمة للتعبير عن المعطيات العلمية واللاهوتية والفلسفية .

والحق يقال إنه بفضل الأبجدية الجديدة حافظت أرمينيا آنذاك على هويتها . لقد فقدت نفوذها السياسي ولكنها أنقذت كيائها القومي واستقلالها الروحي . ولعل هذه اللغة الأرمنية العريكة هي التي ساعدت الأرمن خلال تاريخهم على أن يحافظوا على كنيستهم ومصيرهم .

ويلقب القديس ساهاك «بمنور العقول» بنور الكتابة، كما يلقب القديس كريكور «بمنور النفوس» بنور الايمان، والقديس نرسيس «بمنور القلوب» بنور المحبة والأخلاق .

تحمس الملك «فرامشابه» لهذا الاكتشاف فعممه على جميع المناطق الأرمنية، وبدأت حملة تدريس الأبجدية الجديدة (٦) خاضها تلامذة القديس ساهاك ومسروب، وانكبوا على ترجمة الكتاب المقدس عن النسخة «السبعينية» . وتعتبر الترجمة الأرمنية من أمهات الترجمات .

وبالرغم من تفكك المملكة سياسياً، فإن الازدهار الثقافي وصل إلى أوجه في القرن الخامس، بفضل اكتشاف الأبجدية الجديدة . فدونت الطقوس الليتورجية والصلوات الجماعية والقوانين الكنسية . ونقلت إلى اللغة الأرمنية، عن يد مجموعة كبيرة من المترجمين، كتابات آباء الكنيسة وكتب الفلاسفة اليونان . وتجدر

(٦) الأبجدية الأرمنية تُكتب من اليسار إلى اليمين . وتجدر الإشارة إلى أن اللغة الأرمنية في ذلك العهد هي لغة أرمنية كلاسيكية تدعى «كراباره»، أي اللغة الأدبية، وهي تحاكي اللغة اللاتينية في قواعدها وتصريفها . وبقيت هذه اللغة متداولة حتى القرن التاسع عشر، إذ طفت عليها لغة شعبية جديدة . ولكنها لا تزال تُستخدم في الطقوس الدينية حتى يومنا هذا .
واللغة الأرمنية الحديثة تقسم بدورها إلى لهجتين متميزتين ولكن قريبتين:

- ١ . لهجة شرقية تُستخدم في أرمينيا والبلاد المجاورة، عدلت فيها قواعد الإملاء .
 - ٢ . لهجة غربية تُستخدم في الشتات، أي بلاد المهجر، وهي تحافظ على قواعد الإملاء الكلاسيكية .
- ثمة لهجات محلية تختلف باختلاف المناطق،



القديس وارطان ماميكونيان

ويحتفل الأرمن في كل عام بذكرى هذه
المعركة البطولية المصيرية.

أما الكاثوليكس «هوسيب» والراهب
«غيفونت» وسائر الكهنة وكبار الأمة الذين
شاركوا في المعركة أيضاً، فقد سيقوا إلى
السجون وماتوا في التعذيب في العام ٤٥٤،
وأبوا أن ينكروا إيمانهم المسيحي فطوّبتهم
الكنيسة أيضاً.

وبعد معركة «أفراير»، خضعت أرمينيا
لحكم الساساني، ولكنّ الشاه تخلى عن
سياسته القمعية وسمح للأرمن بالحفاظ على
ديانتهم المسيحية وممارسة شعائرهم الدينية،
تحت ولاية أحد أفراد عائلة مميكونيان يحمل
لقب «مارزيان».

وشهدت أرمينيا بعد تلك الأحداث

«هازكيرد» بولاء الأرمن له، فأصدر، في العام
٤٤٩، فرماناً يطلب إلى جميع سكان
الإمبراطورية، ومن في حكمها، أن يعتقوا
الزردشتية، وأرسل الكهنة المحرس وأعوانهم إلى
مختلف المناطق لبناء معابد لآلهة النار، وأمر
بقمع كل حركة عصبان.

ما ان وصل الجنود إلى أرمينيا حتى انتفض
الشعب بقيادة «وارطان ماميكونيان». فقد عانوا
الكثير من الفرس ولكنّ الكيل قد طفق وأصبح
الاضطهاد علنياً. واجتمع الأساقفة والأمراء في
«اشتيشاد» وبعثوا رسالة إلى الشاه يرفضون فيها
اعتناق الديانة الزردشتية ويؤكدون تمسكهم
بالدين المسيحي.

أمام هذا الاصرار، لجأ الملك «هازكيرد»
إلى الحيلة، فدعا أمراء الأرمن إلى العاصمة
«ديسبون» للتفاوض معهم، ولكن ما أن وصلوا
حتى احتجزهم. ولم يجدوا سبيلاً للافلات منه
سوى التظاهر بالمرور عن الدين المسيحي،
حينئذ أطلق سراحهم.

ولكن ما إن عادوا إلى بلادهم حتى بدأوا
شنّ حملة معاكسة، فأحرقوا المعابد الوثنية
وحطّموا هياكل النار، وقتلوا الكهنة الفرس.

حينذاك جهّز الفرس جيوشهم النظامية
وساروا بعدد كبير لإخضاع الشعب الأرمني.
وكانت معركة «أفراير» في العام ٤٥١،
استبسل فيها الجيش الأرمني بقيادة «فرطان»
ورفقائه الأمراء. ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة
الجيش الفارسي المتفوق بالعدد والعتاد،
فامتشهدوا على أرض المعركة.

وأعلنت الكنيسة الأرمنية قداسة فارطان
ورفقائه، لأنهم ماتوا في سبيل الايمان بالمسيح.

ازدهاراً كبيراً في مجال البناء والآداب والعلوم.

٧. مجمع خلقيدونية والانشقاق الكبير

بينما كان الأرمن، اكليرساً وشعباً، يدافعون عن إيمانهم المسيحي ضد هجمات الفرس، عقد مجمع خلقيدونية في العام ٤٥١، فلم تستطع الكنيسة الأرمنية المشاركة فيه.

ووصلت القرارات الجمعية ورسالة البابا لاون إلى الأرمن منقولة عن اليونانية بلغة غير دقيقة، مما دفعهم للاعتقاد بأن التمييز بين طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية هو نوع من الفصل في الشخص، وكأن مجمع خلقيدونية يقسم المسيح إلى شطرين.

فهم الأرمن أن الكلام عن طبيعتين، بشرية وإلهية في المسيح، هو عودة إلى النسطورية التي حرّمها مجمع أفسس، فتمسكوا بتعليم «كيرلس» القائل: «طبيعة واحدة لكلمة الله المتجسد». وبالتالي رفضوا قرار المجمع الخلقيدوني.

والكنيسة الأرمنية الارثوذكسية التي تلقب «بالمونوفيزية»، أي الطبيعة الواحدة، ترفض أن تكون هذه المونوفيزية بمعنى «أوطيخا» حيث الناسوت واللاهوت في المسيح ينصهران ويمتزجان. لكنها تقبل بالمونوفيزية أو الميافيزية، بمعنى «كيرلس» ومجمع «أفسس» كي يبقى المسيح واحداً في ناسوته مع لاهوته دون

اختلاط ولا امتزاج ولا مزج. والكنيسة الأرمنية ترشق بالحرم الكنسي كلاً من عقيدتي نسطور وأوطيخا.

ولكن مهما كانت الأسباب من سوء تفاهم في التعابير والمصطلحات اللاهوتية، بالإضافة إلى التنافس على النفوذ بين الكراسي البطريركية والسلطات المدنية، فقد وقع الانشقاق في الكنيسة الواحدة، ووجدت الكنيسة الأرمنية نفسها في طرف الكنائس اللاخلقيدونية، مع شقيقاتها الكنائس القبطية والسريانية اليعقوبية والأثيوبية.

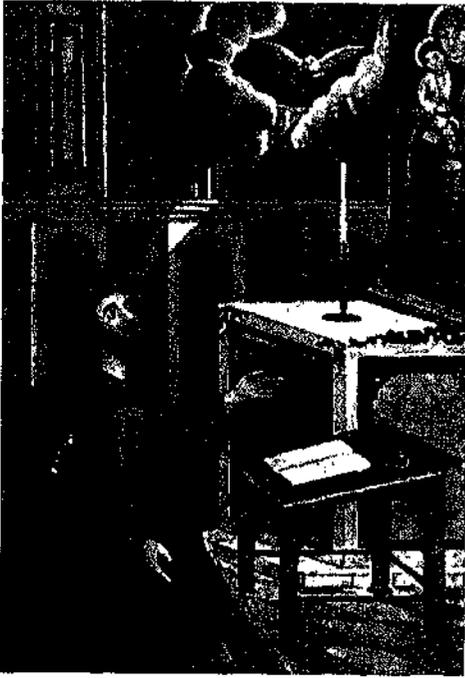
وفي مجمع «دفين» في العام ٥٥٤، ثبتت الكنيسة الأرمنية رفضها لتعاليم مجمع خلقيدونية، فانقطعت الشركة مع الكنيسة البيزنطية وكرسي القسطنطينية ورومة.

ولكن بالرغم من ذلك، فقد وجدت مجموعات من الأرمن التي قبلت بمقررات مجمع خلقيدونية، وظلت على اتصال مع الكنيسة البيزنطية. هذا وإن كنيسة جيورجيا التي رفضت مجمع خلقيدونية في بادئ الأمر، ما لبثت أن انفصلت عن الأرمن وانضمت إلى الكنيسة البيزنطية.

وقد وجد بعض البطارقة والرهبان في الكنيسة الأرمنية الذين اعترفوا بمجمع خلقيدونية وحاولوا إعادة الشركة مع الكنيسة البيزنطية، نذكر من بينهم الكاثوليكس بزر (٦٣٠-٦٤١) والكاثوليكس نرسيس الثالث (٦٤١-٦٦١) والكاثوليكس زكريا (٨٥٥-٨٧٧) (٧).

والسلاجقة. أما البعض الآخر من المؤرخين فيرى في ذلك نية صادقة للبحث عن الحقيقة وإعادة الوحدة مع الكنيسة الجامعة.

(٧) يرى بعض المؤرخين في هذا الاعتراف نتيجة لضغط الملوك البيزنطيين والنفوذ السياسي فكان التودد إليهم خير وسيلة لطلب مؤازرتهم ضد العرب



القدّيس كريكور ناريكاتسي

«كاكيك الأول» الذي مال إلى البيزنطيين فحوّل قصره إلى مدينة «آني» وجعلها عاصمة المملكة . وازدهرت حركة البناء في مدينة «آني» وكثرت فيها الكنائس حتى دُعيت «مدينة الألف كنيسة وكنيسة». وما لبث أن نقل إليها أيضاً الكاثوليكس سر كيس الأول مقرّ البطريك في قادماً من «اختامار» في العام ٩٩٢ .

ولعلّ كنيسة «أختامار» على بحيرة «فان» هي أهم ما شُيّد بين الأعوام ٩١٥ و ٩٢١ ، وقد جاءت آية في الفن المعماري الهندسي . وبقي فيها الكرسي البطريك من العام ٩٢٨ إلى العام ٩٩٢ .

لا شكّ أنّ النفوذ البيزنطي أثر في ازدهار العلوم الأدبية وفي انتشار تعاليم مجمع

٨ . الكنيسة الأرمنية والفتوحات العربية

يعلّمنا التاريخ أن الممالك والامبراطوريات تقوم وتزدهر وتصل إلى أوجها، وما لبثت أن تسقط وتنهار، فتظهر على أنقاض عروشها ممالك وقصور جديدة .

وهكذا كان الحال بالنسبة للإمبراطورية الساسانية . فبعد أن وصلت إلى أوجها، بدأت تضعف، وما لبثت أن سقطت تحت جحافل الفتوحات العربية القادمة من الجنوب .

ورحبّ الأرمن بقدم المسلمين الذين سينقذونهم من نير الفارسيين . وكان ذلك في العام ٦٤٠ . وبالرغم من اختلاف الدين، فإن الفاتحين العرب وقرّوا الأمان للأرمن وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الدينية شريطة أن يدفعوا الجزية ويحاربوا إلى جانبهم ويحفظوا الأمن .

وأقام العرب على مناطق أرمنية واليا يدير شؤون البلاد باسم الخليفة . وحافظ الولاة على النظام الاقطاعي، ولكن أولوا الرئاسة في الشمال لعائلة «بقرادوني» عوضاً عن عائلة «ماميكونيان» . وفي الجنوب أعطوها لعائلة «أردزروني» عوضاً عن عائلة «رشدوني» .

وقد تميّزت العلاقة بين العرب والأرمن بالعنف والشدّة أحياناً، وباللين والتسامح أحياناً أخرى . ولعلّ أفضل الأيام كانت في عهد العباسيين، إذ منحوا الحاكم «آشود البقرادوني» لقب «أمير الأمراء» ، دون الاعتراف باستقلالية الأرمن تماماً . ولكن الأرمن استطاعوا، في بعض المناطق الغربية، أن يستقلوا بالحكم وأعلنوا «آشود» ملكاً عليهم .

وكانت ظروف المعيشة صعبة فلم تنشط الحياة الثقافية إلا بعد العام ٩٨٩ ، بقدم الملك

خلقيدونية. وفي تلك الحقبة، عاش الراهب كريكور ناريكاتسي وترك لنا كتاب «الصلوات» الذي يعدّ من روائع الأدب الديني، وله قصائد ومدائح في العذراء مريم.

ونذكر أيضاً «كريكور ماجيسدروس» الذي أنشأ جامعة لتعليم الآداب واللغات الشرقية والأوروبية، والبطريك «أوهانيس» الذي وضع تاريخ الكنيسة الأرمنية وكنيسة الكرج. والبطريك «مشدودز» الذي جمع الصلوات الطقسية والترتبات الدينية في كتاب يحمل اسمه حتى اليوم. والفقير «مختار كوش» الذي جمع القوانين المدنية والشرع الكنسي في كتاب سماه «كتاب المحاكمات».

أما الرهبان الذين رفضوا الرضوخ للتأثير البيزنطي، فقد نزحوا إلى المناطق الشرقية فازدهرت حياة الأديرة في ساناهين وهاغباد وتاديف، وكثر عد الرهبان فيها.

وظهرت في تلك الآونة بدعة دينية جديدة لُقّب أتباعها «بالبولسيين»، وكانوا يرفضون التقاليد الكنسية والطقوس الدينية. وأمام انتشارهم السريع، لجأت الدولة إلى قمع الحركة وإلى القضاء عليها.

لم يكتف البيزنطيون بحماية العاصمة «آني»، بل طمعوا في الاستيلاء عليها فلم يقاومهم الأرمن حقناً للدماء. فتخلّى الملك «كاكيك الثاني» عن العرش في العام ١٠٤٥، وسلمّ البطريك «بيدروس الأول» مفاتيح المدينة إلى الامبراطور البيزنطي «قسطنطين مونوماك».

ولكن المملكة البيزنطية لم تصمد أمام زحف السلاجقة الأتراك. فكانت موقعة «منازكيرد» في العام ١٠٧١، انتصر فيها

السلاجقة على الروم واستولوا على مدينة آني وجميع المناطق الأرمنية.

٩. مملكة قيليقية والصلبيون

بعد سقوط مدينة آني وتشتت مملكة أرمنيا الكبرى عن يد السلاجقة، نزح الأرمن نحو الجنوب، وشاءت الأقدار أن ينشعوا في منطقة قيليقية ولايات صغيرة ما لبثت أن تحوّلت إلى مملكة دام عهدها من العام ١٠٧٣ إلى العام ١٣٧٥.

كانت قيليقية منطقة فاصلة بين البيزنطيين والعباسيين تقع شمال سورية ولها منفذ على البحر الأبيض المتوسط، تجمّع فيها الأرمن منذ بدايات الفتح العربي. فلما وصل النازحون الجدد رحّبوا بهم وساعدوهم في الاستيطان وأعلنوا قيام دولة جديدة في مواجهة الأتراك السلاجقة بزعامة الأمير «روبن الأول».

ويتزامن إنشاء هذه الدولة الجديدة مع قدوم الحملة الصليبية الأولى ١٠٩٥ - ١٠٩٩. فاستفاد الفرنجية من القواعد الأرمنية للانطلاق نحو إنشاء محميات صليبية مثل الرها وأنطاكية والقدس.

واستمرّ التعاون بين الأرمن والفرنجية فازدهرت البلاد اقتصادياً وثقافياً، ووصلت إلى أوجها عندما نصّب ليفون دي لوسينيان ملكاً على قيليقية بحضور ممثل بابا رومة وممثل الامبراطور، وذلك في العام ١١٩٨ في مدينة طرسوس.

وكثرت الزيجات المختلطة فظغت العادات الفرجية وكانت تستخدم في البلاط اللغات الأرمنية واللاتينية والفرنسية.



القدّيس نرسيس شنورهالي

اللاتينية، ونجحت بوادر الوحدة مع رومة، فبدأ الحجاج الأرمن يذهبون إلى رومة لزيارة ضريحي بطرس وبولس. وللقديس «نرسيس لامبروناتسي» أيضاً دراسات رائعة في الليترجية والآداب الأخلاقية.

ونسج على منوالهما الكاثوليكس «كريكور الشاب» ومن خلفه سعيًا وراء الوحدة. وتجدد الإشارة إلى الملك «هيتوم الثاني» (١٢٨٩ - ١٣٠٧) الذي تخلى عن العرش ليترهب عند الآباء البريمونترتي «Prémontrés».

ولكن هذا التيار الوجدوي لقي معارضة شديدة من أساقفة أرمينيا الكبرى، فلم يدم طويلاً. وبالرغم من ادخال بعض العادات الغربية في الطقوس الدينية، حافظت الكنيسة الأرمنية على تقاليدها العريقة وعلى طابعها الوطني.

دامت هذه المملكة ثلاثة قرون، ومع ضعف الصليبيين ضعفت هي أيضاً وبدأت تتقهقر رويداً رويداً تحت ضغوط المغول والتركمان والأتراك، إلى أن وقعت نهائياً تحت حكم المماليك. فسقى الملك «ليفون السادس» وحاشيته إلى مصر، ومن هناك انتقل إلى فرنسة حيث توفي ودفن في بازليك سان دونيس (St Denis) الملكية.

وهكذا طويت صفحة أخرى نيرة في تاريخ الأرمن ولم تصمد سوى إمارة زيتون في قيليقية ومملكة كاراباغ في أرمينيا الشرقية.

بعد سقوط مدينة آني، انتقل الكرسي البطريركي إلى قيليقية، فكان مقرّه الأول في «سياف لير» ثم في «دزوفك» ثم في «هرومكلا» (قلعة الروم) إلى أن استقرّ نهائياً في مدينة «سيس».

لا شك في أن الكنيسة أيضاً تأثرت بالوضع العام، فشهدت انفتاحاً نحو الغرب وبدأ عصر من العلاقات المسكونية مع الكنائس اللاتينية والبيزنطية والسريانية بهمة الكاثوليكس «كريكور فكاياسير» الذي زار القدس والاسكندرية والقسطنطينية ورومة سعيًا وراء التفاهم الكنسي.

وكان رائد هذه الحركة المسكونية الكاثوليكس «نرسيس شنورهالي» (١١٦٦ - ١١٧٣) الذي بدأ حواراً أحوياً مع الكنيسة البيزنطية. وترك لنا أعمالاً رائعة من صلوات وأناشيد وإرشادات ورسائل تعتبر من كنوز الأدب الأرمني القومي والديني.

وتابع عمله أسقف طرمبوس القديس «نرسيس لامبروناتسي» ولكن باتجاه الكنيسة

١٠. عصر الانحطاط والحكم العثماني

بعد سقوط مملكة قيليقية تعرضت البلاد الأرمنية لغزو السلاجقة، ثم المغول، ثم جاء تيمورلنك وشن ثلاث حملات عانت فساداً وخراباً في البلاد. وعمت الفوضى حتى القرن السادس عشر عندما تغلب السلطان «سليم الأول» العثماني على المماليك واستولى على البلاد الأرمنية في العام ١٥١٤. ولما قويت شوكة الدولة الفارسية واستردت «تبريز» و«يريفان» و«كارس» و«وان»، لجأت الدولة العثمانية إلى إبرام معاهدة صلح في العام ١٦٠٤، تدخل بموجبها المنطقة الغربية من أرمينيا تحت الحكم العثماني، والمنطقة الشرقية تحت الحكم الفارسي.

وهكذا عرفت أرمينيا في شرقها وغربها أحلك أيام تاريخها الثقافي والديني فلم تنشأ أي كنيسة. ولحسن الحظ أن كثيرين من الأرمن نزحوا إلى بولونيا هرباً من الحرب وأخذوا معهم عدداً كبيراً من المخطوطات، فأنشأوا جالية هامة في مدينة «لفوف» حافظت على التراث من الضياع.

لا شك أنه، بعد انهيار المملكة الأرمنية السياسية، بقيت المؤسسة الوحيدة التي ترعى الشعب هي الكنيسة. ولا عجب ان يكون للكاثوليكس دور هام في جمع شمل الأمة في تلك الظروف الصعبة.

ومع سقوط مملكة قيليقية، نشطت الحياة

الروحية في أرمينيا الكبرى في أديرة ساناين وهاباد وتاديف وكلايسور وكيفراد، لأن الشعب كان يجد فيها ملجأ الأخير للحفاظ على دينه وكيانه.

بعد تحلّي الكاثوليكس «كريكور موسايغيان» عن كرسيه البطريركي في «سيس» في العام ١٤٤١، طالب أساقفة أرمينيا الكبرى بإعادة الكرسي البطريركي إلى مقره السابق في اتشميادزين، بعد أن انهارت مملكة قيليقية ولم يعد هناك أي مبرر لبقاء الكرسي البطريركي خارج أرمينيا الكبرى.

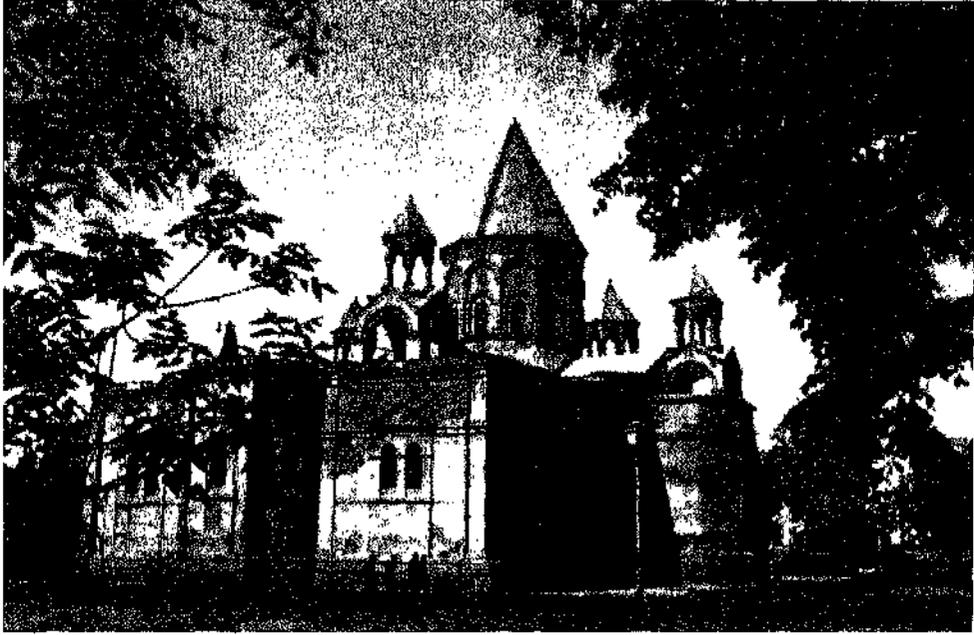
ولكن أساقفة قيليقية رفضوا نقل الكرسي البطريركي، وأصرّوا على بقائه في قيليقية التاريخية، برعاية الحكم الفارسي حيث كانت تقع اتشميادزين.

فكان الانشقاق وتم انتخاب بطريركين فأصبح للأرمن آنذاك كاثوليكس يقيم في «سيس» وله الولاية على أمن قيليقية، وكاثوليكس يقيم في «اتشميادزين» وله الولاية على الأرمن في أرمينية الشرقية.

أضف إلى ذلك أنه، في العام ١١١٣، كانت قد انفصلت كنيسة اختامار عن الكرسي البطريركي وأعلنت كاثوليكسية تمتد سلطتها على الأرمن المقيمين حول بحيرة «فان». وفي العام ١٢٤٠، نال أسقف الأغوان في كاراباخ رتبة كاثوليكس تمتد ولايته على الأرمن المقيمين في منطقة بحيرة القزوين، وجعل من دير كانتساسار مقره البطريركي (٨).

وأحيلت أملاكها إلى الكرسي البطريركي في القسطنطينية.

(٨) ألغيت كاثوليكسية كاراباخ في العام ١٨١٥ وأصبحت متروبولية تابعة لكرسي اتشميادزين. أما كاثوليكسية اختامار فقد ألغيت في العام ١٨٩٥



كاثوليكية إتشميادزين

ونظراً إلى ازدهار الأوضاع في العاصمة استنبول، بدأ الأرمن ينزحون من مدنهم وقراهم إلى استنبول، ويتولوا الوظائف الهامة في البلاط الملكي، وأنشأوا المدارس والكنائس، وساهموا مساهمة فعالة في نهضة العاصمة العثمانية عمرانياً ومهنيًا وتجاريًا.

أما في أرمينيا الشرقية الراضحة تحت الحكم الفارسي، فإن الكاثوليكس لم يحظَ بهذه الامتيازات وبقي الشعب بعيداً عن كل تطور وازدهار، لا بل استغل شاه عباس هذه الفرصة ليقود إلى إيران عدداً كبيراً من الحرفيين الأرمن مع عائلاتهم، وأنشأ لهم مدينة قرب «أصبهان» معروفة حتى اليوم باسم «تورجوغا». وكان لهؤلاء الأرمن الفضل الكبير في ازدهار الدولة الإيرانية.

أما في القدس فقد أنشعت بطريركية مستقلة في العام ١٣١١، بعد أن كانت أبرشية منذ القرن الخامس ترعى شؤون الحجاج الأرمن، دون أن تحصل على لقب كاثوليكية، بل بالعكس كانت تخضع لكرسي «سيس».

كما أن أبرشية القسطنطينية ما لبثت أن تحوكت إلى بطريركية في العام ١٤٦١، نظراً إلى وجودها في العاصمة العثمانية. وبالرغم من خضوع هذه البطريركية دينياً لكاثوليكس «سيس»، كان نفوذ البطريرك المقيم في استنبول، أقوى من الكاثوليكس مدنياً وإدارياً، وقد أركلت إليه السلطة العثمانية رعاية شؤون المسيحيين من أرمن وسريان وكلدان.

الرهبانية الحقيقية.

ثم عاد إلى بلاده ساعياً وراء إصلاح الحياة الرهبانية وتنشيط الحياة الدينية داخل الكنيسة الأرمنية الوطنية. وأنشأ في استبول في العام ١٧٠١ جماعة صغيرة من الرهبان المثقفين، ثم أرسلهم لتعليم الناس الإيمان الحق، ثم انكب هو شخصياً على تثقيف الرهبان والكهنة المتروّجين. وأطلق على رفقائه اسم «مختارين» وكانوا يجوبون المدن والقرى مبشرين بالمسيح وتعاليم آباء الكنيسة ويحظون باحترام المؤمنين العطاش إلى كلمة الرب.

ولكن البطريرك لم يفهم مأرب مختيار الصادق واتهمه بالتبشير بالكثلكة، فحاربه ومنعه من التعليم وحصل على قرار من الباب

وهكذا ضعفت أرمينيا الكبرى وشل اقتصادها وانحسرت الحياة الثقافية في الأديرة. ولعل الحدث الأهم هو دخول الطباعة إلى اشميازين في القرن السادس عشر. ويعود الفضل في ذلك إلى الكاثوليكس «ميكائيل السيباسدي» (١٥٤٢ - ١٥٦٤ - ١٥٧١) الذي أرسل الراهب «أبكار» إلى إيطاليا لتعلم فن الطباعة، وحمله رسالة توصية إلى البابا «يوس الرابع» ليسهل مهمته، واستطاع هذا الراهب بمؤازرة الرهبان الأفرنج أن ينشئ مطابع أرمنية في البندقية ورومة والقسطنطينية وشميازين وأصفهان وأستردام، حيث طبع الكتاب المقدس كاملاً في العام ١٦٦٦، بهمة الأسقف «أوسكان».

١١. حركة الإصلاح الروحية - الراهب مختيار من سياست

مع بدايات القرن الثامن عشر، بدأت الأمبراطورية الفارسية بالتدهور، وتقهقرت جيوشها في منطقة القوقاز أمام زحف الجيوش الروسية بقيادة «بطرس الكبير»، الذي احتل مرفأ باكو في العام ١٧٢٢. وهكذا دخلت أرمينيا في حماية الامبراطورية التسارية وأصبحت السدّ المنيع في مقدمة الحدود مع الامبراطورية العثمانية.

وفي تلك الفترة ظهر راهب مندفع اسمه مختيار من موالى سياست (١٦٧٦ - ١٧٤٩) في المنطقة الغربية من أرمينيا. وكان يبحث عن حياة رهبانية عميقة في الأديرة الأرمنية فلم يجدها. إذ ذاك لجأ إلى الرهبان الكاثوليك ليتلمذ على أيديهم ويتهل من معين الحياة



الأب مختيار

المدارس والكنائس واهتموا بتنشئة الشبيبة .
ويعود الفضل إلى الآباء المختارين في تكوين
كوكبة من الابداء والعلماء الذين درسوا على
أيديهم في فينسيا أو في فيينا، فأصبحوا النواة
الحركة في النهضة الثقافية الأرمنية التي شهدتها
القرن التاسع عشر .

١٢ . نشأة البطريركية الأرمنية الكاثوليكية

إن بذور الوحدة التي زرعها «نرسيس
شنورهالي» و«نرسيس لامبروناتسي» في
العلاقات المسكونية مع الكنيسة البيزنطية
والرومانية لم تعط الثمار المرجوة، ولكنها
تركت أثراً ايجابياً في نفوس من خلفهم من
البطاركة .

هكذا نجد كاثوليكس سيس «كريكور
التاسع موسابغيان» يرسل في العام ١٤٤٠ وفداً
إلى مجمع فلورنسا لإعادة الوحدة التي لم تستمر
طويلاً مع الأسف .

أما بطاركة اتشميادزين فكانوا أكثر انفتاحاً
نحو كرسي رومة ورفضوا الحرم عن مجمع
خلقيدونية والبابا لاون، ونذكر من بينهم
«موسيس الثالث» و«هاكوب الرابع» .

وكان بعض الأساقفة، التابعين
لاتشميادزين اولسيس، يستقبلون برحابة صدر
المرسلين اللاتين، ويرسلون هم أيضاً رهباناً
أرمن لمتابعة دروسهم اللاهوتية في المعهد
الأورباني في رومة .

ولكن هذا التيار الرحدوي ما لبث أن
انقطع في مطلع القرن الثامن عشر بأمر من
بطريك القسطنطينية «أفيديك»، الذي فاق

العالي للقبض عليه . فهرب مختار مع تلاميذه
المختارين إلى إيطاليا، حيث استقبله أمراء
البندقية، ووهبوه ديراً مهجوراً على جزيرة
«القديس عازار» على شاطئ البندقية .

وأنشأ «مختار» رهبانية من قوانين
القديسين بعد الحصول على موافقة قداسة البابا
وبركته، وامتد قوانين رهبانيته من قوانين
القديسين بندكتس وباسيليوس .

وكان للآباء المختارين الدور الكبير في
الحفاظ على التراث الأرمني الروحي والزمني،
فأسسوا مطبعة أرمنية، وجمعوا المخطوطات،
ونقلوا أمهات الكتب الروحية إلى الأرمنية،
وانكبوا على الدراسات الدينية واللغوية والعلمية
والأدبية .

ولما أنشئت البطريركية الأرمنية الكاثوليكية
في العام ١٧٤٢، انضمت الرهبانية المختارية
إليها . ولكن بالرغم من الاعتراف بالإيمان
الكاثوليكي فإن الآباء المختارين تحاشوا كل تأثير
لاتيني وحافظوا على نقاء الطقوس الأرمنية
والتقاليد الدينية .

وفي العام ١٧٧٣، ظهر تيار جديد متشدد
ضمن الرهبانية، فانشطرت إلى قسمين،
فأنشأت مجموعة من الرهبان ديراً جديداً في
مدينة تريستي الإيطالية، ثم انتقلوا في العام
١٨١١ إلى مدينة «فيينا» عاصمة النمسا، الذي
أصبح هو أيضاً مركزاً للاشعاع الروحي
والعلمي .

ولما حصل الأرمن الكاثوليك على
الاعتراف الرسمي من قبل الدولة العثمانية في
العام ١٨٣٠، عاد الرهبان المختاريون إلى
استنبول وقرى قيليقية ومنطقة القوقاز فأنشأوا

أردزيبيان» بطريركاً وأعلنوا شركتهم التامة مع كرسي رومة .

وسافر البطريرك المنتخب إلى رومة في العام ١٧٤١ لينال التثبيت من البابا، فاستقبله البابا بندكس الرابع عشر في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٤٢، وقبل اعترافه الكاثوليكي ومنحه الباليوم وثبته بطريركاً - كاثوليكساً على الأرمن في قيليقية .

وقد شاء أبراهام وحلفاؤه أن يضيفوا إلى أسمائهم لقب «بطرس» اعترافاً بولايتهم لكرسي رومة البطريرسي .

ولكن البطريرك الجديد لم يستطع العودة إلى حلب لأن الحكومة العثمانية وبتطيريك استنبول لم يعترفا به، لا بل أحكموا الاضطهاد على كل من يتبع البطريرك الكاثوليكي الجديد .

حينئذ لجأ البطريرك «أردزيبيان» إلى دير «الكريم» التابع للرهبان الأنطونيين الأرمن، والكائن في جبل كسروان - لبنان . ويعود الفضل إليه في تأسيس هذه الرهبانية، حين كان أسقفاً على مدينة حلب، فشجع أربعة إخوة حلبيين من عائلة مراديان للذهاب إلى لبنان والترهب عند الآباء الأنطونيين الموارنة في دير مار أنطونيوس قزحيا .

ثم ساعدهم لينشعوا رهبانية أنطونية^(٩)

الرهبان ما لبثوا ان انتقلوا إلى استنبول في العام ١٨٧٠ ليتابعوا رسالتهم بين الأرمن المقيمين هناك . ونشأت خلافاً بين أعضاء الرهبانية فقلص عدد الرهبان فيها وشححت الدعوات فألغيت في العام ١٩٢٣ بأمر من الكرسي الرسولي .

ومنذ ذلك التاريخ بقي دير مار انطونيوس خشباو

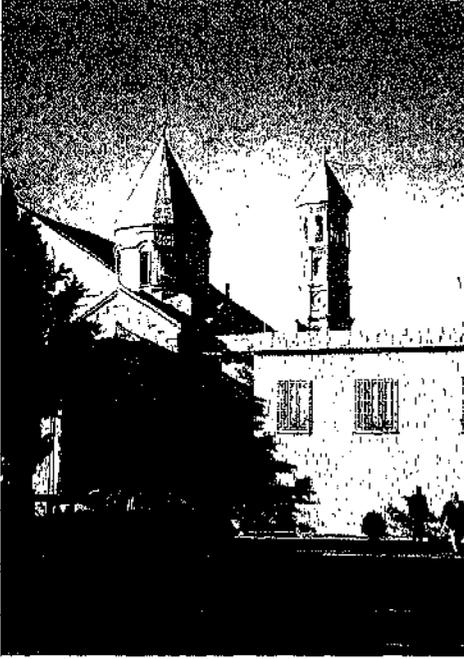
الكاثوليكس نفوذاً، فحرم كل من يجاهر بمجمع خلقيدونية وطرد الرهبان اليسوعيين من ارزروم، ومنع الراهب مخيتار وتلاميذه من التعليم، وأتهم كل من يؤم الكنائس اللاتينية «بالافرنج» .

لا شك أن بعض المرسلين اللاتين، وخاصة «الإخوة الموحديين» الأرمن المنتمين إلى الرهبانية الدومنيكانية، قد أدخلوا في القرن الخامس عشر بعض العادات اللاتينية في الطقوس الدينية، لكن معظم الأرمن الخلقيدونيين والرهبان المختارين ظلوا أمناء للكنيسة الوطنية والتقاليد الطقسية . ولكن أمام اشتداد الاضطهادات وتعثر المفاوضات في الأعوام ١٧٠١ و ١٧٠٣ و ١٧٠٤ للوصول إلى حل سلمي، بدأت تتبلور رويداً رويداً فكرة الاستقلالية وإنشاء بطريركية مستقلة .

حينئذ ازدادت الاضطهادات ضد أسقف ماردين «ملكون طازباز» وأسقف حلب «أبراهام اردزيبيان»، فترسخت فكرة إنشاء بطريركية مستقلة في نفوس الموالين إلى الوحدة مع رومة .

وقد تحقق المشروع في العام ١٧٤٠ عندما اجتمع في مدينة حلب في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر)، ثلاثة أساقفة ولفيف من الكهنة والمؤمنين وانتخبوا أسقف حلب «ابراهيم

(٩) ازدهرت الرهبانية الأنطونية . فنوا ديراً آخر لهم في غزير، على اسم مار انطونيوس خشباو في العام ١٧٦٠ . وتحول الديران إلى ملجأ للمضطهدين من أجل مذهبهم الكاثوليكي، ونقطة استراحة للحجاج الأرمن الداهبين إلى القدس . ثم بنوا الكنيسة الكبرى في العام ١٨٢٠، وهي آية في الفن الهندسي المعماري . ولكن



دير سيّدة بزمار

المرسلين، لا تزال تُعرف حتى اليوم باسم «جمعية كهنة دير بزمار البطريركية». وقد أعطت هذه الجمعية بطارقة وكهنة غيورين وشهداء إيمان. ويعود الفضل إليها في تنشئة

معالمه الأرمينية القديمة.

(١٠) شيّد الدير على اسم «السيدة العذراء» في العام ١٧٤٩. أما الكنيسة فشيدت في العام ١٧٧١ في عهد البطريرك ميكايل كسباريان الحلبي على اسم العذراء «سيدة الانتقال». هذا وقد تابع البطارقة على مر السنين تشييد أرجاء الدير فتحول إلى مجمع كبير يحتوي على جناح البطريرك، وجناح كهنة الدير وغرف للزوار، وجناح المتحف والمكتبة، وبناء الأكليريكية وقسم المشاريع الثقافية والاجتماعية، بالإضافة إلى معبد «سيدة بزمار» العجايبية.

أرمنية مستقلة في العام ١٧٢٠، فبنوا لهم ديراً في منطقة «الكريم» في جبل كسروان بمؤازرته أيضاً.

ولا عجب أن يستقبلوه بالترحاب ويضعوا أنفسهم في خدمته، فجعل من ديرهم مقراً للكرسي البطريركي.

ولكن البطريرك أردزيبيان كان يحلم دوماً بإنشاء مقر مستقل للبطريركية وإنشاء جمعية كهنة مرسلين يكونون في طوع البطريركية يرسلهم إلى الأبرشيات والرعايا الأكثر احتياجاً.

ولهذا الهدف اقتنى قطعة أرض كبيرة من عائلة الياس الخازن، تقع على هضبة عالية من منطقة كسروان تدعى «بزمار». ولكنه لم يشهد تحقيق هذا الحلم فتوفاه الله في العام ١٧٤٩ فدفن في كنيسة دير الكريم أمام هيكل القديس أنطونيوس.

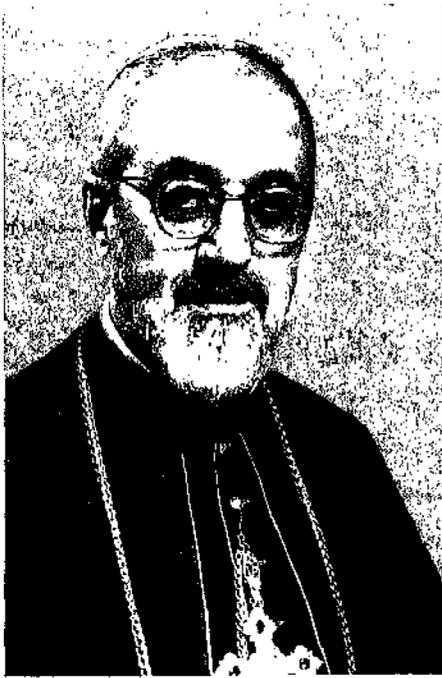
وتابع خلفه أسقف حلب المنتخب بطريركاً، يعقوب بطرس الثاني يسفیان، بناء دير بزمار (١٠)، ونقل إليه المقر البطريركي في العام ١٧٥٠. وتكوّنت حوله جمعية من الكهنة

مهجوراً، إلى أن بادرت الرهبانية المارونية اللبنانية (البلدية، الكليلك) إلى اقتنائه في العام ١٩٨٦، فرمّته وأبرزت معالمه الأثرية، وحوّله إلى مقر الرئاسة العامة، ولكنها حافظت على طابعه القديم وعلى جميع النقوشات المكتوبة باللغة الأرمينية وعلى جميع الأيقونات القديمة.

أما دير الكريم فقد تحلّت عنه الرهبانية الأنطونية الأرمينية لتتمركز في منطقة غزير الواسعة، فباعته للأب حنا حبيب مؤسس رهبانية المرسلين اللبنانيين، وهو اليوم في عهدهم وقد رمّموه وسعوا أرجاءه محافظين على

الحادي عشر عمانوئيليان أن يعيد الكرسي البطريركي إلى مقره الأسبق في دير بزمار، وتم ذلك في العام ١٨٩٩، ولا يزال الكرسي البطريركي في دير بزمار حتى اليوم .

وقد ازدهرت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية ازدهاراً كبيراً في تلك الحقبة بفضل تنظيمها وثقافة كهنتها العالية وانضباطهم في رسالتهم . فاهتمّ كهنة الأبرشيات، إلى جانب جمعية دير بزمار البطريركية، بالأمر الرعوية . وكانت البطريركية تشمل ست عشرة أبرشية وتسع نيابات بطريركية وإرسالية في بولونيا وإرسالية في جيورجيا، وأرمينيا الشمالية . أما الأمور التربوية والثقافية فكانت تقع على عاتق الآباء المختارين بفرعيهما: البندقية وهيينا، وعلى عاتق



الكردينال أغاجانيان

الأكليركيين وخدمة الرعايا في أرمينيا وفي المهجر بروح رسولية متميزة .

ولقد لجأ إلى دير بزمار أيضاً بعض الأساقفة الذين كانوا يديرون أبرشياتهم عن بعد بواسطة النواب هرباً من الحكومة العثمانية . وعندما كان يشتد الاضطهاد، كان النواب أيضاً يلجأون إلى الكنيسة المارونية وهي الكنيسة الكاثوليكية الوحيدة المعترف بها آنذاك في سورية ولبنان، أو يلجأون إلى النيابة اللاتينية في استنبول . وانتظر الكاثوليك العام ١٨٣٠ ليحصلوا على فرمان عثماني صدر في ٦ كانون الثاني (يناير) يعترف باستقلالية الطائفة الأرمنية الكاثوليكية . حيثئذ توقفت الاضطهادات وعاد المبعدون إلى مدنهم وتولّى الأساقفة المقيمون في المنفى زمام الأمور في أبرشياتهم وأنشأوا الكنائس ولموا شمل الرعية .

وأصبح من ذلك الوقت للأرمن الكاثوليك «بطريقاً» في استنبول وبتطيركاً في دير بزمار، إلى أن تمّ انتخاب البطريرك أنطوان حسون مطران استنبول، بطريركاً على الأرمن الكاثوليك في العام ١٨٦٧، فجمع بين المركزين ونقل الكرسي البطريركي من بزمار إلى استنبول .

ولكن دمج الوظيفتين لم يعط النتائج المرجوة . فنشأ خلاف ضمن الكنيسة الواحدة واشتد نفوذ العلمانيين . فاستقال البطريرك حسون في العام ١٨٧٧ وذهب إلى رومة حيث منحه البابا لاون الثامن لقب كريدنال .

واستطاع خلفه البطريرك غازاريان ان يسكّن القلوب ويعيد الوفاق إلى صفوف أبناء الطائفة، وفضل خلفه البطريرك بوغوص

الخاصة - الغفرانات - العصمة البابوية . . .
أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فهي
تعترف بجميع الجامع المسكونية وعقائدها
وتعاليمها.

١) قانون الإيمان

هذا وإن قانون الإيمان الذي تستخدمه
الكنيسة الأرمنية في الليترجية هو قانون الإيمان
«النيقاوي» الذي ساهم في وضعه القديس
أثناسيوس، والذي يتمحور حول سر التجسد.
وثمة قانون إيمان آخر، أكثر توسعاً، يُتلى في
أثناء الرسامات الكهنوتية والأسقفية، وفيه رفض
معلن لهراطقة أوطيخا، وتأكيده الطبيعة المتحدة
في شخص واحد بدون خلط أو مزج.

والكنيسة الأرمنية الكاثوليكية تستخدم في
الليترجية هذين النوعين من «قانون الإيمان».
وبعد أن أدخلت في القرن السابع عشر بعض
التعديلات على نص القانون «النيقاوي»، عادت
قبل سنتين وتخلت عن هذه التعديلات لتحافظ
على الأصل.

ب) الأسرار

إن الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية، وإن
كانت تقول بسبعة أسرار، فهي لا تعترف بسر
مسحة المرضى، وتكتفي بالصلاة على جثة
الميت. أما المرضى فتمنحهم سر التوبة أو سر
المنافاة. هذا وإن سر المعمودية يمنح مع سرّي
الميرون والمنافاة، فالأسرار الثلاثة الأولى تشكل
وحدة متكاملة يدخل بها الطفل المعمد في
الكنيسة جسد المسيح السرّي.

راهبات الجبل بلا دنس اللواتي أنشأهن البطريرك
حسون في العام ١٨٤٧. كما ساهم الآباء
اليسوعيون والفرنسيسكان في مجال التربية
والتعليم الديني والخدمة الاجتماعية. فأصبح
للأرمن الكاثوليك مئات المدارس وآلاف
الطلاب في المدن والأرياف. ولما وصلت
البطريركية إلى أوجها حلت بها مصيبة الحرب
العالمية الأولى ومجزرة عام ١٩١٥، فتهدم
كل شيء. وهكذا طويت صفحة مشرقة من
تاريخ الكنيسة الأرمنية لتفتح صفحة جديدة لا
تقل إشراقاً.

١٣. عقائد الكنيسة الأرمنية

تؤمن الكنيسة الأرمنية بالعقائد المعلنة في
الجامع المسكونية الثلاثة الأولى، وتجد في هذه
العقائد خلاصة الدين المسيحي: ألوهية السيد
المسيح وألوهية الروح القدس، وبذلك حقيقة
سر الثالوث الأقدس، واتحاد اللاهوت بالناسوت
في شخص يسوع المسيح من العذراء مريم
وبذلك حقيقة سر التجسد، وموت يسوع
المسيح ابن الله على الصليب لأجل خلاصنا
وبذلك حقيقة سر الفداء.

أما مجمع خلقيدونية وما بعده من
الجامع، فإن الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية لا
تعترف بها، وتعزو ذلك إلى أن هذه الجامع لم
تأت بعقائد جديدة، بل كانت محاولة لتفسير
عقائد معلنة في الجامع الأولى. والتفسير
والتعليم لا يدعوان بالضرورة إلى مجمع
مسكوني. ومن هذا المنطلق ترفض العقائد
التالية: الطيبعتان في شخص المسيح الواحد -
انبثاق الروح من الابن - المطهر - الدينونة

١٤ . الطقوس والرتب الدينية الأرمنية

يعود الفضل إلى البطريرك أوهانيس ماتناكوني في تكوين الليترجية الأرمنية، وذلك في أواخر القرن الخامس. وتنسب هذه الليترجية إلى القديس أثناسيوس، ولكنها قريبة جداً من ليترجية القديس باسيلوس. وفيها أيضاً طقوس مأخوذة عن كنيسة قبطية وكنيسة السريان، بالإضافة إلى الطقوس الكنسية الأورشليمية.

وفي مطلع القرن العاشر، أدخلت أيضاً صلوات من ليترجية القديس يوحنا الذهبي الفم، وفي القرن الثالث عشر، أي في عهد الصليبيين، أدخلت أيضاً صلوات من الطقوس اللاتيني، وآخر ما أُضيف كان صلوات للقديس كريكور ناريكاتسي.

هكذا نجد في الكنيسة الأرمنية انفتاحاً مسكونياً رائعاً في استقطاب معطيات من مختلف المصادر، ومرونة كبيرة في إخضاع هذه الأشكال لنموذج واحد من رتبة القديس الاحتفالي الذي يجمع بين الأرثوذكس والكاثوليك.

والكنيسة الأرمنية تستخدم في القداس الخبز الفطير والخمر الصافي دون مزجه بالماء. كما أنها تستخدم البرادي لفصل الهيكل عن الشعب تعبيراً عن السر الذي لا يقترب منه إلا الكاهن وحده.

في أثناء القداس تقام دورتان: واحدة بالإنجيل وأخرى بالقرابين. بالإضافة إلى الكلام الجوهري واستدعاء الروح القدس، تعتبر رتبة رفع القرابين قبل المناولة من أهم أجزاء

أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فهي تعترف بالأسرار السبعة ولها طقس خاص بسر مسحة المرضى. وتمنح الميرون فقط للطفل المعمد، وتترك سر المناولة إلى وقت لاحق تمنحه للأولاد في أثناء احتفال «المناولة الأولى».

ج) الشرع الخاص

تمنح الكنيسة الأرمنية الزواج من الأقرباء حتى الدرجة الرابعة، وتحرم مباركة الأكليل في أيام الصوم والأعياد السيديّة. أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فهي تمنح التفسيح من القرابة الدموية والأزمنة المحرمة لظروف خاصة.

تقبل الكنيسة الأرمنية برسامة المتزوجين كهنة. ولكن درجة الأسقفية لا تعطى إلا للراهب المثبت. ولا يجوز للكاهن المتزوج أن يتزوج ثانية في حال وفاة زوجته الأولى.

وقد عادت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية إلى هذا التقليد في السنوات الأخيرة وقبلت برسامة المتزوجين شمامسة أو كهنة، بعد فترة من الاختبار والدراسة اللاهوتية.

كما أن نظام الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية يولي العلمانيين دوراً هاماً في إدارة المجالس الماليّة والأوقاف واللجان الكنسية، وتخول خاصة عدداً كبيراً من الممثلين العلمانيين حقاً للمشاركة في مجمع انتخاب الأساقفة والبطاركة.

أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فلها شرعها الخاص، ضمن مجموعة القوانين الخاصة بالكنائس الكاثوليكية الشرقية.

القداس، يوزع بعدها القربان على المؤمنين في شكلي الخبز والخمر.

تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بالذبيحة الإلهية فقط في أيام الأحاد والأعياد، ولا يقيم الكهنة أكثر من قداس في الكنيسة الواحدة، وليسوا ملزمين بإقامة القداس اليومي. ويكون القداس احتفالياً دوماً تسبقه صلاة الفرض.

أما الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية فقد تبنت عادة الكنيسة اللاتينية في اختصار القداس الاحتفالي، وفي جعله قداساً بسيطاً قصيراً (Messe basse)، يقام في جميع أيام الأسبوع، وأكثر من مرة، لأن الكهنة ملزمون بإقامة القداس يومياً.

وبينما تتمسك الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية في طقوسها باللغة الأرمنية الكلاسيكية التي لا يفقهها عامة الشعب، فقد بادرت الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية إلى استخدام اللغة الأرمنية العامية، بالإضافة إلى بعض اللغات المحلية، لتكون أقرب إلى المؤمنين، محافظة على اللغة الكلاسيكية الأرمنية في التراتيل والأناشيد الأصيلة.

وجدير بالذكر أن رجال الكليروس وخدام الهيكل يلبسون أبيض الحلل الطقسية، ولا يخفى تأثير الكنائس السريانية والبيزنطية واللاتينية على الثياب والشارات الطقسية التي يستخدمها المحتفلون.

آ) السنة الطقسية

تدور السنة الطقسية الأرمنية في فلك عيد الفصح. فتتحرك الأوقات والأعياد وفق تاريخ عيد القيامة الذي يحسب عند الأرثوذكس

والكاثوليك وفق التقويم الغريغوري المعدل.

أما عيد الميلاد، فتحفل به الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية وفق التقويم اليولياني القديم، في ٦ كانون الثاني، أي بفارق ١٢ يوماً. وتحتفل في اليوم نفسه بعيد الظهور الإلهي المثلث، أي: الكشف عن ألوهية المسيح في يوم الميلاد وعند قدوم المجوس وفي أثناء العماد على يد يوحنا في نهر الأردن.

أضف إلى ذلك أن الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية تحتفل بسائر الأعياد المرتبطة بعيد الميلاد أو التجسد الإلهي بفارق ١٢ أو ١٣ يوماً عن رزنامة الكنيسة الكاثوليكية (عيد تقدمة المسيح في ١٤ شباط (فبراير)، عيد البشارة في ٧ نيسان (أبريل)).

ب) الأعياد الطقسية

تقسم الأعياد في الطقس الأرمني إلى نوعين:

١. الأعياد السيّدة الكبرى

وتسمى «سيّدة» لعلاقتها بالسيّد المسيح وسريّ التجسد والقداء. وهذه الأعياد الكبرى خمسة: عيد الظهور الإلهي (٨ أيام) وعيد القيامة (٥٠ يوماً)، عيد التجلي (٣ أيام)، عيد السيدة أو انتقال العذراء إلى السماء (٩ أيام)، عيد الصليب (٧ أيام).

وتتميّز هذه الأعياد السيّدة الكبرى بأنها تقع دوماً في يوم الأحد، ما عدا عيد الظهور الإلهي الثابت في ٦ كانون الثاني. وتتميّز أيضاً بكون ثاني يوم العيد مكرّساً دوماً لتذكّار الموتى، فيزور المؤمنون الأرمن مقابرهم خمس

ج) الرتب الدينية والتقاليد الشعبية

ما تتميز به الكنيسة الأرمنية أنها تبنت بعض الطقوس الوثنية التي كانت منتشرة في أرمينيا قبل دخول المسيحية إليها، فعوضاً عن منعها ومحاربة الناس المتعلقين بها، عمدت إلى «تنصير» و«تعميدها»، هذه العادات الوثنية الشعبية، فأدخلتها في صلب الرتب الدينية وأعطتها معاني جديدة.

سأل على ذلك: طقس إشعال النار في وسط الكنيسة، في عيد تقدمة المسيح إلى الهيكل، والانتفاف حولها. لا شك أن هذه العادة مرتبطة بعيد النار التي كان يعبدها الأرمن قبل تنصيرهم. ولكنهم حولوا و«قدموا» هذه الرتبة وجعلوا من النار رمزاً للمسيح «نور العالم»، كما قال سمعان الشيخ «نورا يتجلى للوثنيين».

سأل آخر طقس بركة العنب في يوم عيد السيدة، وتوزيعه على المؤمنين. لا شك أن هذا العيد أيضاً مرتبط بعيد آلهة الخمر والكروم عند الأرمن الوثنيين ويصادف في شهر آب (أغسطس) ويدعى «نفاسارت». فحافظت الكنيسة على هذه العادة الشعبية وأدخلت بركة العنب في صميم الطقس الكنسي، بعد أن أعطته معنى خلاصياً ابتداءً من نوح الذي زرع الكرمة إلى المسيح الكرمة الحقيقية، ومن عرس قانا الجليل الذي حول فيه يسوع الماء خمراً إلى العشاء الأخير حيث جعل من الحمرة رمزاً لدمه الأقدس.

وهكذا أيضاً يصادف عيد التجلي عند الأرمن عيد «أناهد» إلهة الماء والنبات، ولذلك

مرات في السنة، وقيمون القداديس والصلوات على نية موتاهم (مرة في ٧ كانون الثاني، وأربع مرات في يوم الاثنين الواقع بعد أحد الفصح والتجلي والسيدة والصلب).

وتتميز هذه الأعياد السيديّة بفترات صيام تسبقها، وأسابيع تذكارية تتبعها، لأنها تشكل محور الأزمنة الطقسية كما ذكرنا.

٢. الأعياد السيديّة الصغرى

هي أيضاً تذكارات للسيد المسيح وسريّ الجسد والفداء، ولكنها لا تشكل أزمنة خاصة مثل: جميع أيام الآحاد، وعيد الصعود، وعيد الثالوث الأقدس، وعيد تقدمة المسيح إلى الهيكل، والأعياد المريمية (البشارة، ميلاد العذراء، تقدمة العذراء، الحبل بالعذراء بلا خطيئة) وأعياد الصلب الثلاثة المختلفة عن «ارتفاع الصلب». وأخيراً أعياد «الكنيسة» السبعة وهي أعياد تتميز بها الكنيسة الأرمنية وتعتبرها رمزاً لسر الفداء.

هذا وإن الأيام التي تسبق الأعياد الكبرى تُعتبر أيضاً أعياداً سيديّة: مثل سبت النور و«بيرمون» أعياد الميلاد والصلب والسيدة والتجلي.

ونخلص إلى القول بأن مجموع الأعياد السيديّة الكبرى والصغرى مع أيام الآحاد العادية بلغ ١٣٣ يوماً

ومجموع أيام الصوم يبلغ ١١٧ يوماً ومجموع أيام تذكارات القديسين يبلغ ١١٥ يوماً فيكون جمعها ٣٦٥ يوماً. وهكذا تكتمل اللوحة الطقسية على مدار السنة الليترجية.

الدينية وإنشاء الأخويات التقوية، وصنع المذود في عيد الميلاد . . .

١٥. الفن الأرمني الكنسي

لا نستطيع في هذه العجالة أن نتحدث عن الفن الأرمني بشكل كامل، بل نخص بالذكر ما له علاقة وثيقة بالكنيسة وطقوسها:

أ) الفن الهندسي المعماري الأرمني في بناء الكنائس له طابع متميز، فتأتي القبة بشكل مخروط يرتفع نحو السماء، ويكون البناء في معظم الأحيان صغير الحجم وبلا أعمدة في الوسط. أما الهيكل الحجري فيكون على منصة مرتفعة لا يصعد عليها إلا خدمة الهيكل بعد خلع أحذيتهم. ويكون اتجاه الكنيسة دوماً نحو الشرق. هذا ويضع البناؤون الجرار الفارغة في القبة والجدران للحد من الصدى.

ب) «الحاجكار»، أو الصلبان المنقوشة في الحجر، هي أيضاً من اختصاص الفن الأرمني فهناك النماذج الكثيرة قرب الكنائس القديمة وفي المقابر، وتستخدم كشاهدة مسيحية توضع فوق قبور المتوفين، أو تقدم تذكارات لهم.

ج) تأتي المنمقات الأرمينية (Miniatures) في طليعة الفنون التي اقتص بها الرهبان في الأديرة، وقد زينوا بها الأناجيل المخطوطة وسائر الكتب الدينية. ولا تزال هذه المنمقات مواد بحث العلماء للكشف عن سر ألوانها والمواد المستخدمة فيها وطريقة حفظها. لقد فقد الكثير من هذه المخطوطات الرائعة، ولكن ما وصل إلينا

تسميه العامة عيد «الرشاشة»، لأنهم يرشون الماء بعضهم على بعض. وعيد الصعود يصادف عيد الربيع والزهور فيذهب الأرمن في ذلك اليوم إلى البساتين ويحتفلون بالألعاب والمسابقات، مثل «شمّ النسيم». وفي عيد الصليب، يكون عيد الرياحان، فيأتي المؤمنون إلى كنائسهم بالرياحين تقدمة للرب، كما كانوا يقدمونها في ما مضى لألهتهم الوثنية.

ونخلص إلى القول بأن أسلوب تصوير العادات الوثنية وإدخال قسم منها في الطقوس الدينية، بعد إضفاء الطابع المسيحي الكتابي عليها، هي عملية تربوية ناجحة تبنتها الكنيسة الأرمنية منذ نشأتها، محققةً بذلك مبدأ «الانثقاف» (Inculturation) قبل قرون.

وفي الطقس الأرمني رتب دينية أخرى من أصل مسيحي، مثل رتبة فتح الأبواب في عيد الشعانين، ورتبة التوبة في يوم الأربعاء من أسبوع الآلام، ورتبة الغسول، ورتبة «السهر» للتأمل في آلام المسيح يوم الخميس ليلاً، ورتبة دفن المسيح، وصور مار سركيس الذي يدعى عند بعض الكنائس صوم «نينوى».

أضف إلى ذلك أن رتب المعمودية وبركة الاكليل ودفن الموتى هي مزيج من العادات المسيحية والوثنية يولها الأرمن أهمية كبرى، ويقوم «الاشبين» بدور هام في حياة العائلة. أما الكنيسة الكاثوليكية فبالإضافة إلى هذه الطقوس تبنت أيضاً بعض العبادات المأخوذة عن اللاتين مثل «الصلاة الملائكية» وصلاة «السبحة» والشهر المريمي، ورتبة درب الصليب والاحتفال بالمانولة الأولى والتطواف بالأيقونات والسجود للقربان الأقدس واکرام التماثيل

هـ) هذا وقد ازدادت الكنائس أيضاً بأنواع أخرى من فنون الأشغال اليدوية التي تجيدها النساء الأرمنيات مثل الحياكة والتطريز وصناعة السجاد. . . وتختلف النماذج الفنية باختلاف المناطق التي كان يعيش فيها الأرمن .

و) تعتبر الموسيقى الطقسية الأرمنية من أجمل الألحان الشرقية، وقد هدّتها كبار الموسيقيين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر ودرسوا فن الموسيقى في الغرب . ولما عادوا إلى بلادهم وضعوها في أشكال النوتة العالمية، ووزّعوا فيها الأصوات وأدخلوا عليها المرافقة على الأرغن . نذكر منهم الراهب كوميداس، وقره موزا ويكماليان وكناجيان .

بالإضافة إلى هذه الألحان التي تستخدمها جميع الكنائس هناك أيضاً ألحان خاصة تختلف من منطقة إلى منطقة ومن دير إلى دير بحسب التقاليد الموروثة عن الأقدمين . وقد استخدم الأرمن في ما مضى حركات خاصة تسمى «خاز» عوضاً عن النوتة، ولم يكشف سرّها حتى اليوم .

١٦ . العلاقات المسكونية

إنّ الحركة المسكونية في الكنائس الأرمنية تتأرجح بين النشاط والفتور، وتخضع لتيارات عديدة تختلف بين كنيسة وكنيسة وبين منطقة ومنطقة، إن لم نقل بين رئيس روحي ورئيس روحي . نسعى في هذه العجالة لتلخيص الوضع المسكوني .



دخول يسوع إلى أورشليم
(منمنمة أرمنية)

يكفي للدلالة على الرقي الذي وصل إليه الفن الأرمني منذ القرن الخامس . وتحفظ هذه المنمنمات في المتاحف العالمية والمكتبات الوطنية والأديرة الكبيرة .

د) اشتهر الأرمن أيضاً بفن تصنيع الذهب والفضة والنحاس، فجاءت الآنية التي تستخدم في الكنائس آيةً في الفن اليدوي مثل المباخر والشمعانات وغلافات الإنجيل والصلبان. . . وقد نقشت على معظمها مشاهد مأخوذة من العهدين القديم والجديد . أضف إلى ذلك أن الأرمن برزوا في الحفر على الخشب وتطعيمه بالفضة . كما اشتهر أرمن كوتاهيا بصنع الخزف الملون .

آ) العلاقات بين الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية

إنّ العلاقات المسكونية تطوّرت بشكل سريع بعد المجمع الفاتيكاني الثاني. وتجدر الإشارة إلى أن ممثلين عن كرسي أشمياذين وكرسي انطلياس شاركوا كمراقبين في جلسات المجمع الفاتيكاني الثاني. وقد ساهم في هذا التقارب المثث الرحمات الكردينال أغاجنيان الذي كان رئيس مجمع انتشار الايمان، وأحد مدراء المجمع الفاتيكاني الثاني.

وقد جاء لزيارة قداسة البابا على رأس وفود رسمية، كلٌّ من كاثوليكس اشمياذين فازكين الأول، وكاثوليكس انطلياس خورين، ومن بعده كاركين الثاني. كما زار رومة بطاركة استنبول والقدس، وقد نتجت عن هذه الزيارات بيانات مشتركة وعلاقات ودية. وقد كان «للمجلس الحبري البابوي لتعزيز الوحدة بين المسيحيين» الدور الفعال في تنظيم هذه اللقاءات. هذا وان مؤسسة «برو أوريتي» Pro Oriente، التي ترعى التقارب المسكوني بين الكنائس غير الخلقيدونية والكنيسة الكاثوليكية، تسعى إلى تنظيم حوار رسمي بين الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، ولكنها تصطدم ببعض العقبات أهمها وجود كرسيين للأرمن وبالتالي سلطتين كنسيتين. فيجب عليهما أن يوحدًا وجهات النظر المتباينة قبل الدخول في حوار رسمي مع كنيسة أخرى.

أما علاقة الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية بالكنيسة الأرمنية الارثوذكسية، فتقتصر على

الاحترام المتبادل والمشاركة في بعض الاحتفالات الدينية والقومية، والزيارات الرسمية والتعاون في الخدمات الانسانية وفي المجالات الثقافية والحيرية. أما الحوار العقائدي فغير قائم. - ولا ننكر فضل الآباء المختارين في دعم هذه الروح المسكونية، فكانوا ولا يزالون الجسر المتين الذي يربط بين الكنستين الأرمنيتين الكاثوليكية والارثوذكسية.

هذا وإنّ حرية الدين التي أعلنتها الجمهورية الأرمنية الحديثة، وتواجد الرهبان والراهبات الأرمن الكاثوليك في أرمينيا لرعاية شؤون الكاثوليك، خلق أزمة مع كرسي أشمياذين، ما لبثت أن هدأت بعد أن قام وفد من الأساقفة الأرمن الارثوذكس بزيارة قداسة البابا، وقابلهم وفد آخر من أساقفة الأرمن الكاثوليك بزيارة الكاثوليكس فازكين الأول.

وقد ساهم في تطبيع العلاقات الكردينال سلفستريني رئيس مجمع الكنائس الشرقية الذي زار اشمياذين في ١٧ نيسان (أبريل) ١٩٩٤ باسم البابا وقدم للبطريرك فازكين ذخائر القديسين الرسولين برتلموس وتداوس المحفوظة في رومة.

وتجدر الاشارة إلى أن ممثلين عن كاثوليكسية انطلياس وممثلين عن بطريركية الأرمن الكاثوليك هم أعضاء في مجلس كنائس الشرق الأوسط ويشاركون جنباً إلى جنب في جميع أعماله بروح مسكونية منفتحة.

ب) العلاقات بين الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية والكنيسة الانجيلية الأرمنية هي ودية، ولكن لا تتعدى حدود الاحترام المتبادل والصلوات المشتركة والتعاون في المجالات

الحرية. وتجري اللقاءات الرسمية في نطاق مجلس كنائس الشرق الأوسط.

وخير ما نختم به هذا المقال ما جاء في خطاب قدااسة البابا يوحنا بولس الثاني الذي وجهه إلى أساقفة سينودس كنيسة الأرمن الكاثوليك المجتمعين في رومة في ١٩ نيسان (أبريل) ١٩٩٢:

«تغمر قلبي رغبة عارمة في رؤية ذلك اليوم حيث تجتمعون مع إخوتكم أساقفة الكنيسة الأرمنية الارثوذكسية لتصلوا وتتأملوا وترشدوا وتتخذوا القرارات في شركة تامة. وإنني لأكيد أن هذه الرغبة تملأ قلوبكم أيضاً. إنكم جميعاً أولاد شعب واحد منحدرين من

أما الآن، فقدم للرب آلامنا التي نتأبنا بسبب هذا الانقسام. وإننا على ثقة بأن الله سوف يحول آلامنا إلى حقيقة. ولا ننسى أن الالتزام الوحدوي المسكوني واجب من واجبات الكنيسة الأساسية.

إن العالم لا ينتظر لأنه بحاجة ماسة لأن يرى المؤمنين بالمسيح متحدين بالمشاركة التي يسمعون إليها والمحبة التي يبشرون بها».

«تغمر قلبي رغبة عارمة في رؤية ذلك اليوم حيث تجتمعون مع إخوتكم أساقفة الكنيسة الأرمنية الارثوذكسية لتصلوا وتتأملوا وترشدوا وتتخذوا القرارات في شركة تامة. وإنني لأكيد أن هذه الرغبة تملأ قلوبكم أيضاً. إنكم جميعاً أولاد شعب واحد منحدرين من

المراجع باللغة العربية

- تاريخ الكنيسة الشرقية، المطران ميشيل يتيم والارشمندريت اغناطيوس ديك، المكتبة البولسية، الطبعة الثالثة المنقحة، جونية ١٩٩١.
- أرمنية أرض وشعب، سمير عريش، مؤسسة دار الريحاني، بيروت ١٩٩١.
- الأرمن عبر التاريخ، مروان المدور، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٨٢.
- تاريخ الشعب الأرمني، فؤاد حسن حافظ، دار نوبار للطباعة، القاهرة ١٩٨٦.
- صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية، عثمان الترك، مطبعة الأهرام، حلب، ١٩٦٠.
- تاريخ الأمة الأرمنية، كيفورك استارجيان، ١٩٥٠.
- الشرق المسيحي، الأب اغناطيوس ديك، المكتبة البولسية، ١٩٧٥.
- أرمنية في التاريخ العربي، أديب السيد، المطبعة الحديثة، حلب، ١٩٧٢.
- مختصر تاريخ الأرمن، القس أنطوان خانجي، دير الآباء الفرنسيسكان، أورشليم ١٨٦٨.
- نبذة تاريخية عن أبرشية حلب للأرمن الكاثوليك، الأب يوسف قوشاقجي، حلب ١٩٩١.
- مجلة المرأة، للآباء البولسيين، حريصا، لبنان.
- مجلة المشرق، للآباء اليسوعيين، بيروت، لبنان.
- مجلة المارة، للمرسلين اللبنانيين، مطبعة الكريم، جونية، لبنان.
- نشرة أبرشية، الأرمن الكاثوليك، حلب، سورية.

كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

بقلم د. وسام كبكب*

* أستاذ تاريخ الكنيسة في معهد القديس بولس في حريصا.

مدخل

لتوضيح سرّ التجسّد . الأول في أفسس ، سنة ٤٣١ ، برئاسة القديس كيرلس الاسكندري الذي دان نسطور وأبرز وحدة الأقبوس في السيد المسيح . والثاني في خلقيدونيا ، سنة ٤٥١ ، برئاسة أوطيخا ، وقد أوضح حقيقة كل من الناسوت واللاهوت متحدين بلا امتزاج في وحدة المسيح الأقبوسية .

وكانت الجماعة الأنطاكية متزعجة بما نتج عن مجمع أفسس من مقولات لكيرلس ، ولم يتمّ الاتفاق إلا سنة ٤٣٣ ، بعدما قدّم كيرلس الإيضاحات اللاهوتية ، وبعدها قدّم التنازلات لصالح التعاليم الأنطاكية . هذا الأمر أدّى إلى انقسام في كل من المعسكرين ، فأنصار كيرلس لم يرق لهم تنازله للأنطاكيين ، وأنصار يوحنا الأنطاكي انزعجوا من اتّفاقه مع كيرلس .

ووقع الانقسام مرّة أخرى حول عقيدة أوطيخا الذي أنكر أنّ طبيعة المسيح هي طبيعتنا نفسها . وأطلق موفدو البابا والأنطاكيون على مجمع أفسس ، سنة ٤٤٩ ، اسم «مجمع اللصوص» .

تنتمي كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك إلى الكرسي الأنطاكي الذي يعتبر مرجعاً أصيلاً لفروع عدّة . فهي إذن شرقية المنبت ، ذات جذور عميقة تأصلت في أنطاكية منذ نشأتها باسم «الكنيسة الملكية» .

وتسمية ملكيين قديمة العهد ، تعود إلى القرن الخامس الميلادي الذي شهد الخلاف بين مدرستي الاسكندرية وأنطاكية اللاهوتيتين . فالفريقان اتّفقا على أنّ المسيح الواحد هو إله تام وإنسان تام ، ولكنهما اختلفا على طريقة التعبير عن الوحدة القائمة بين العنصرين وطريقة شرحها . فمدرسة الاسكندرية ركّزت على وحدة الطبيعة في المسيح وطابعه الإلهي ، معتمدة في التفسير على التأويل الروحي والرمزي . أما المدرسة الأنطاكية فاعتمدت التأويل الحرفي والتاريخي ، لذلك ركّزت على حياة المسيح الأرضية وعلى حقيقة البشرية المتحدّة بالألوهة .

هذا الخلاف أدّى إلى انعقاد مجمعين

وتبنى مجمع خلقيدونيا، سنة ٤٥١، وجهة النظر الأنطاكية، بدعم من البابا لأون الكبير (٤٤٠-٤٦١)، وتثبيت من الامبراطور البيزنطي مرقيانس (٤٥٠-٤٥٧)، مما زاد حدة الخلاف بين الفريقين.

وانطلق أهل المعارضة في تحديهم السلطة المركزية البيزنطية، فأطلقوا على أتباع المجمع الخلقيدوني لقب «الملكيين»، أي أتباع الملك، نسبة إلى الامبراطور مرقيانس، في حين أطلق أنصار المجمع على المعارضة لقب اليعاقبة، نسبة إلى يعقوب البرادعي.

وما لبث الشرق المسيحي ان انقسم إلى:

- يعاقبة، يقولون إن في المسيح أقنوماً واحداً وطبيعة واحدة. وقد أطلق يعاقبة مصر على أنفسهم اسم أقباط، أي مصريين.
- نساطرة، نسبة إلى نسطور، يقولون بأقنومين وطبيعتين في السيد المسيح.
- ملكيين، يقولون بأقنوم واحد وطبيعتين في السيد المسيح.

وهكذا نشأت تسمية «الملكيين» منذ القرن الخامس الميلادي، إثر مجمع خلقيدونيا، وظهرت للمرة الأولى على لسان اليعاقبة في الاسكندرية.

أما تسمية «الروم» فهي تسمية حديثة، إذ لم تكن معروفة في الدولة الإسلامية. فالاسم الذي كان شائعاً آنذاك هو «الملكية» أو

«الملكانية»، وقد استمر معروفاً حتى أوائل القرن الثامن عشر. أما كيف أطلق لقب «روم» على الكنيسة الملكية فهذا يعود بحسب الأستاذ حبيب زيات إلى خطأ في الترجمة الأجنبية للاسم. فكلمة «روم» مقتطعة من لفظة «رومانيين» (Romanian) الواردة في التواقيع السلطانية العثمانية نسبةً إلى الاسم الذي أطلق على القسطنطينية منذ تأسيسها، رومة الجديدة (La Nouvelle Rome). فقد انتسبت الكنيسة الملكية إلى القسطنطينية بترائها الفكري واللاهوتي والفني واللغوي. لذلك توهم الكثيرون أن المتسبين إلى هذه الكنيسة هم من أصل إثني إغريقي أو يوناني. ومما زاد الأمر التباساً تبنى الكنيسة الملكية للطقس البيزنطي باللغة اليونانية. فاقطعوا «روم» من «رومان» للدلالة على الانتساب الإثني لهذه الكنيسة، فوقعوا في خطأ فادح يصعب معه اليوم إصلاحه نظراً لشيوعه بشكل واسع.

أما الجزء الأخير من الاسم، وهو «الكاثوليك» فنتاج عن اتحاد فريقين من الكنيسة الأنطاكية الملكية برومة سنة ١٧٢٤، لذلك عُرِفَ المتحدون برومة بالروم الملكي الكاثوليك (Grecs Melkites Catholiques). أما الذين عارضوا الاتحاد فقد عُرِفوا بالروم الأرثوذكس (Grecs Orthodoxes)، مسقطين عنهم لقب الملكي^(١).

العمومية بمصر، ١٩٠١، ص ٦٧-٦٨.

Evangelos Htd: *Etude sur les Origines des Grecs Melchites*, imp. de la sacrée congrégation de la propagande. Rome, 1901, p. 5.

(١) لمزيد من التفاصيل حول التسمية، راجع حبيب زيات: الروم الملكيون في الإسلام، الجزء الأول، المطبعة البولسية، حريصا - لبنان، ١٩٥٣، ص ١-٢٩؛ يوسف جرجس وردة الدمشقي: كتاب الشهب الصحيحة في الكنيسة المسيحية، المطبعة

أولاً : مراحل النشأة

رسالة إلى البطارقة يُطلعهم فيها على ارتقائه السدة البطريركية، وعلى صورة إيمانه. وكان على البطارقة الاعتراف به وقبوله في شركتهم الروحية أو رفضه.

- يذكر كل بطريرك إخوته البطارقة في أثناء الذبيحة الإلهية.

- كان لكل بطريرك ممثل (مفير) لدى سائر البطارقة.

المرحلة الثانية: هي مرحلة القطيعة التي أعقبت خسارة البيزنطيين أمام العرب، واحتلال المسلمين معظم الشرق. فخضعت البطريركيات الثلاث، أنطاكية والاسكندرية وأورشليم، للحكم الإسلامي الذي كان يرى كل اتصال بالغرب عملاً مشوهاً يصنّف في خانة الخيانة. لذلك انقطع الاتصال بالغرب، وتتوّجت قطيعة الأمر الواقع في السنة ١٠٥٤ حين حصلت القطيعة الكبرى بين القسطنطينية ورومة، وتعاضمت بعد الحملات الصليبية، حين أصبح أقل اتصال مع الغرب، ومهما كان دافعه، يثير الرية والشك. وتعمّقت القطيعة بعدما تبنّت الكنيسة الملكية بعض الأفكار التي كان يروجها اللاهوتيون اليونان في مساجلاتهم العقائدية مع اللاتين. والجدير بالذكر ان الكنيسة الملكية لم يكن بينها وبين رومة أي خلاف مبدئي، كما أنه لم يتخذ أي إجراء رسمي لقطع العلاقات بين الكنيستين^(٣).

نشأت كنيسة الروم الملكيين من خلال انفتاح فرع من الكنيسة الملكية على الكرسي الروماني. فقد مرّت العلاقة بينهما بمراحل ثلاث.

المرحلة الأولى: كانت مرحلة الشركة الكاملة بين الكرسي الأنطاكي والكرسي الروماني من خلال نظام البطريركيات الذي أخذ يتبلور في الكنيسة منذ القرن الخامس، وكرّسه في ما بعد الدستور اليسطينياني. فالكنيسة توزّعت على كراسٍ خمسة: رومة، القسطنطينية، الاسكندرية، أنطاكية وأورشليم.

هذا النظام، وإن منح القسطنطينية مركزاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً مرموقاً، وهذا ما استفاد منه بطريرك العاصمة البيزنطية لتعزيز دوره الديني، فقد حافظ على أولية الكرسي الروماني على الرغم من اختلاف مفهوم الأولوية بين الشرق والغرب. كذلك حدّد هذا النظام العلاقة بين الكراسي الخمسة، فالبطريركيات مستقلة في شؤونها الداخلية، يجمع بينها وحدة المعتقد، في الدرجة الأولى، والقوانين التي كانت تسنها الجماع المسكونية، فضلاً عن الروابط التالية^(٢):

- كان كل بطريرك يُرسل، عند انتخابه،

(٣) المطران حبيب باشا: الروم الملكيون الكاثوليك، الهوية والرسالة (مترجم عن النص الفرنسي للأرشمندريت إغناطيوس ديك)، بيروت، ١٩٨٦، ص ٧٠-٧١.

(٢) المطران ميشيل يميم والأرشمندريت إغناطيوس ديك: تاريخ الكنيسة الشرقية، منشورات المكتبة البولسية، جويه - لبنان، طبعة ثالثة منقحة، ١٩٩١، ص ١٠٥.

رومة. وقد مهد هذا الاتصال، وإحياء الشركة بين الكنيستين، عاملان مهمان:

- العامل الأول: استمرار الحس الكنسي، داخل الكنيسة الملكية، الداعم لفكرة الوحدة في خطها التقليدي. فالكنيسة الملكية، على الرغم من حصول القطيعة، لم تتبن المشاعر العدائية اليونانية تجاه اللاتين^(٧).

- العامل الثاني: نشاط المرسلين الغربيين المتوافدين إلى الشرق منذ مطلع القرن السادس عشر، مستفيدين من نظام الامتيازات التي كانت فرنسا تتمتع به في أراضي السلطنة العثمانية.

وكان البابا يوليوس الثالث (١٥٥٠-١٥٥٥) قد طلب من اليسوعيين في براءته «Cum praesertim» فتح ثلاث مدارس في الشرق: واحدة في القدس، وأخرى في القسطنطينية، وثالثة في قبرص. وبسبب العوائق التي واجهت المشروع، وضعت الرهبانية بصرف البابا رهباناً لقيموا قصادات بابوية في الشرق: عند الأقباط (١٥٦١ - ١٥٦٣)، وعند الموارنة (١٥٧٨ - ١٥٧٩) و(١٥٨٠ - ١٥٨٢) و(١٥٩٦ - ١٥٩٧)، وعند اليعاقبة (١٥٨٣).

وقد اهتم البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥) بالشرق المسيحي فأسس في رومة، سنة ١٥٧٧، المعهد اليوناني، وفي سنة

ودلينا على ذلك هو أن البطريرك الأنطاكي بطرس الثالث كتب إلى قيرولابيوس رسالة، إثر خلافه مع القسطنطينية، امتازت بسمو العاطفة المسيحية والمحبة الأخوية^(٤) حرّضه فيها على الاعتدال في معاملة اللاتين «هؤلاء الإخوة الذين تبعدهم البساطة والجهل عن التقيّد باللائق من آداب السلوك، هؤلاء الأعاجم الذين لا يمكن أن يطلب منهم ما يحق طلبه من اليوناني المتمدّن»، ثم أضاف: «إني ألتمس من غبظتك الإلهية أن تسامر الأحوال، وأن ترتعد خوفاً عند افتكارك بآنك، وأنت تريد تضييد هذا الجرح، قد تصل إلى ما هو أشدّ ضرراً، أعني الانشقاق. فإذا كانت ملكنا الأرض في اضطراب فلا بد من أن اليكاء يعم المسكونة^(٥).

وإثر حصول الانشقاق بين القسطنطينية ورومة، عبّر البطريرك بطرس الثالث عن أمله قائلاً: «ليل نهار، تساءلت عن سبب القطيعة الكنسية، وكيف يمكن أن يستبعد خليفة بطرس الكبير، ويفصل عن جسم الكنائس الإلهية، وألا يسمع صوته في مجامع الأساقفة، وألا يتحمّل قسطه من الاهتمامات الكنسية، على أن يتلقّى منهم، هو أيضاً، توجيهاً أخوياً ورسولياً^(٦).

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الاستعادة الجزئية للشركة بين الكنيستين، إذ قام فرع من الكنيسة الملكية بوصول العلاقة المقطوعة مع

(٦) نقلًا عن المطران باشا، المرجع المذكور، ص

٧٠.

(٧) المرجع السابق، ص ٧١.

(٤) ييم - ديك، المرجع المذكور، ص ٢٠٥.

Dom. ch. POULEST, O.S.B., avec le (٥) concours de plusieurs collaborateurs: *Histoire du Christianisme*, Beauchesne, Paris, 1935, 9: 399.

١٥٨٤، المدرسة المارونية. وأوفد الراهب
الدومينيكاني ليونار آيل إلى حلب حيث رعى
انضمام البطريرك المستقبل ميخائيل السابع
الصباغ إلي الوحدة^(٨)، كما أسس أوربانس
الثامن (١٦٢٣-١٦٤٤)، سنة ١٦٢٢،
مجمع انتشار الإيمان الذي أخذ على عاتقه نشر
الكتلكة في الشرق، فتحوّل إلى مرجع لكل
الرهبان العاملين في الشرق الأدنى.

وهكذا توافد الفرنسيسكان واليسوعيون
والكوبوشيون والكرمليون إلى حلب ومنها انتقلوا
إلى دمشق وصيدا وطرابلس وجبل لبنان. وقد
استقبل مطران حلب ملاتيوس كرمه المرسلين
الأولين في دار المطرانية حيث أنشأوا مدرستهم
الأولى. وبعدها ترقى ملاتيوس كرمه السدة
البطريركية (١٦٣٤)، تفاوض مع رومة لإبرام
معاهدة وحدة بين الكنيستين الأنطاكية
والرومانية، إلا أنه توفي في أثناء المفاوضات.
ولعلّه دفع حياته ثمناً لخطواته الوحديّة، إذ قد
سرت إشاعات مفادها أنه مات مسمماً^(٩).

وحافظ خلفه افيميوس الثالث الصاقرى
(١٦٣٥-١٦٤٧) على علاقات طيبة مع
المرسلين وخصوصاً اليسوعيين الذين استدعاهم
إلى دمشق سنة ١٦٤٣، إلا أنه لم يتابع

(٨) راجع ذلك عند: د. أسد رستم: كيسة
مدينة الله أنطاكية العظمى، منشورات المكتبة
البولسية، جونيه - لبنان، ١٩٨٨، ٣: ٢٧ وما
بعدها.

(٩) الأرشمندريت إغناطيوس ديك: «طائفة
الروم الكاثوليك الملكيين»، مقال في مجلة الحارة،
السنة ٢٧ (١٩٨٦)، العددان الأول والثاني، ص
٧٠.

خطوات ملاتيوس الوحديّة^(١٠).

أما مقاريوس الثالث الحلبي (١٦٤٧-
١٦٧٢) فقد اعتمد النهج الشرقي التقليدي الذي
كان سارياً قبل الانشقاق الكبير. فبعث برسالة
إلى رومة مفعمة بمشاعر الود والاحترام، إلا أنه
لم يطلب الوحدة رسمياً.

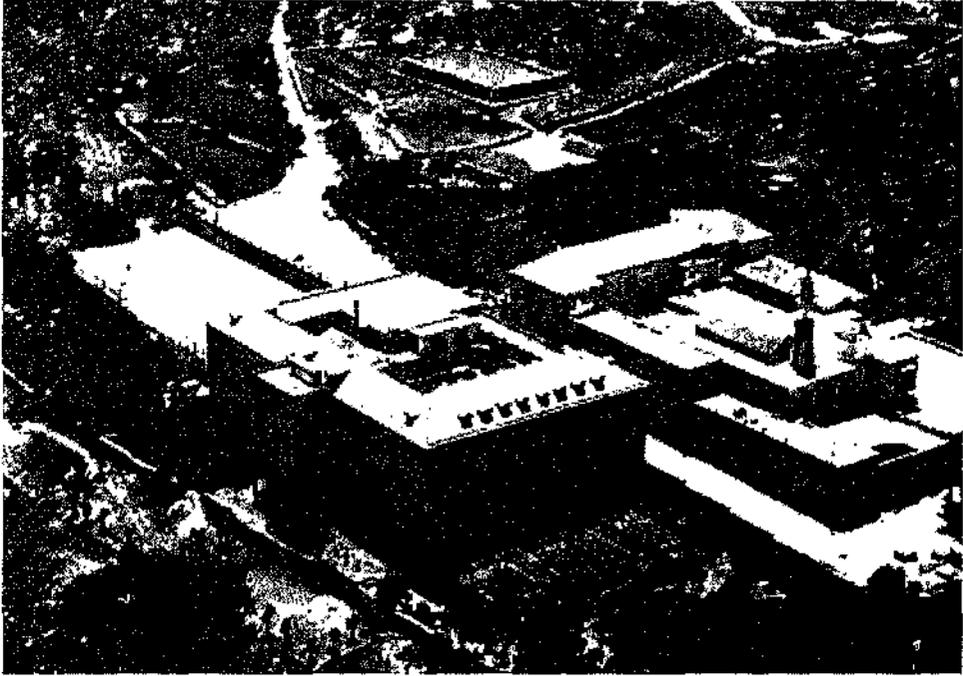
وقد اعتمد المرسلون في عملهم على التبشير
والتعليم، وحيث تعذّر الوعظ في الكنائس كانوا
يستعملون المنازل^(١١). وبدأ عمل المرسلين يفعل
فعله في حلب ودمشق وصيدا وبيروت منذ
أواخر القرن السابع عشر، بعدما أنشأ
اليسوعيون أديرة لهم في حلب (١٦٢٥)،
ودمشق (١٦٤٣)، وطرابلس وصيدا
(١٦٤٤)، وعينطورة (١٦٥٧)، متوجّهين
نحو الطوائف «المنفصلة» عن رومة^(١٢).
وتمكّنوا من خلق تيار اتحادي في الكنيسة
الأنطاكية الملكية، معتمدين على الوعظ
والتأليف وتأسيس الأخويات ودعم كل ميل نحو
رومة، كما نجحوا في استمالة بعض الأساقفة
دون ان يطلبوا إليهم الانفصال عن البطريركية
الأنطاكية.

وعلى الرغم من نشاط الإرساليات الغربية
الواسع هذا، فإنه لم يحدث أي انضمام

(١٠) الأب يوسف الشماس الخلصي: خلاصة
تاريخ الكيسة الملكية، الجزء الثاني، المطبعة الخلصية،
دير الخلص - صيدا (لبنان) ١٩٤٩، ص ١٧٠.

(١١) Basile Homsy: *Les Capitulations et la*
protection des chrétiens au Proche-Orient aux xv^e,
xvii^e et xviii^e siècles, Harissa, 1956 p. 262.

(١٢) اليسوعيون في الشرق الأدنى والعالم،
دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧١، ص ٦٢.



دير المخلص للرهبان الباسيليين المخلصين

الترغيب والإغراء للانضمام إلى الكتلكة. إلا أن الحدث الذي شكّل نقطة تحوّل أساسية في مسيرة الوحدة مع رومة كان رسامة المطران افيميوس الصيفي (١٦٨٢-١٧٢٣) أسقفًا على صور وصيدا، وهو من التلاميذ اللامعين للمرسلين اللاتين في دمشق. وهو يعتبر من أبرز الدعاة إلى الوحدة، خصوصاً أنه أرسل صورة إيمانه الكاثوليكي إلى رومة في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٦٨٣، أي خلال سنة من تولّيه الأسقفية. وقد عمد إلى تأسيس دير المخلص، بالقرب من قرية جون، جمع فيه باقة

جماعي إلى الكتلكة. بل كان هناك خطوات فردية، مثل الايقونومس ميخائيل بجمع الذي أعلن إيمانه الكاثوليكي سنة ١٦٧٤، والبطيريكين كيرلس الخامس زعيم (١٦٧٢-١٧٢٠) وأثناسيوس الثالث دباس (١٦٨٥-١٦٩٤ و ١٧٢٠-١٧٢٤) اللذين، على الرغم من تنافسهما على البطيركية، أعلنوا إيمانها الكاثوليكي من دون الانفصال عن الكراسي الأرثوذكسية الكبرى^(١٣).

وقد تعاطم عمل المرسلين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مع تكاثف وسائل

(١٣) ديك، المقال المذكور، ص ٧١؛ ٢٠١-٢٠٤.

الشماس، المرجع المذكور، ص ١٩٣-١٩٧.

المرسلين اللاتين وفي طليعتهم اليسوعيون، ومن خلال عمل الرهبانيتين الخنّصية والحنّاوية. وبدأت مناطق واسعة من لبنان وسورية تشهد انضماماً جماعياً إلى الوحدة، خصوصاً في حلب ودمشق وحران وجنوب لبنان والجليل وبيروت وجبل لبنان، وبعليك حيث انضم دير السيدة إلى الرهبانية الحنّاوية، وبيروود وقرى جنوبي حمص^(١٨).

وعلى الرغم من ان هذا التيار الوحدوي لم يعمد إلى إقامة سلطة دينية منفصلة، بل استمر في حالة شركة كاملة مع السلطة الملكية القائمة آنذاك، إلا أن اعتماد الوسائل القمعية من قبل البطريركية الملكية الأنطاكية بدءاً من مطلع القرن الثامن عشر، كنفى المطران الصفي ووفاته متأثراً بالعذاب، ونزوح جيراسيمس أسقف حلب والشماس عبد الله الزاخر إلى لبنان، حتم على الفريق الكاثوليكي إقامة سلطة منفصلة. وعندما منحت الفرصة بوفاة البطريرك أنثاسيوس الثالث، سنة ١٧٢٤، وشغور الكرسي البطريركي الأنطاكي، عمد الفريق الكاثوليكي إلى انتخاب سيرافيم طاناس، ابن أخت الصفي وتلميذ مجمع انتشار الإيمان في رومة، بطريركاً باسم كيرلس

من الرهبان «تعاونه بشكل ثابت في الرسالة وخدمة المؤمنين»^(١٤)، وما لبثت هذه الباقية أن انصهرت في بوتقة رهبانية بحسب قوانين القديس أنطونيوس ثم باسيلوس، فدعيت الرهبانية الباسيلية الخنّصية^(١٥). ويؤكد الأب قسطنطين الباشا الخنّصي أن الصفي كان ينوي إنشاء رهبانية قانونية من أبناء طائفة الروم ومن جميع الأبرشيات، لنشر مبدأ الاتحاد مع رومة، بواسطة الوعظ والتعليم والخدمة الكهنوتية^(١٦).

في هذه المرحلة بالذات، انضم بعض الشبان الحلبيين إلى دير البلمند الأرثوذكسي لممارسة الحياة الرهبانية. وكانوا على اتصال مستمر بمرشدهم الروحي الأب اليسوعي «فيسو». وبواسطة هذا الاتصال، ظل هؤلاء الشبان على علاقة روحية مع الكنيسة الكاثوليكية. وما لبثوا أن انفصلوا عن البلمند وانتقلوا إلى الخنّشارة حيث أسسوا دير مار يوحنا الصايغ بدعم من رومة ومن مجمع انتشار الإيمان. وفي ما بعد أسسوا رهبانية جديدة دعيت الرهبانية الباسيلية الحنّاوية^(١٧).

وهكذا بدأ تيار كاثوليكي قوي ينمو ويتسع داخل الكنيسة الملكية بتوجيه ودعم من

(١٦) الباشا، تاريخ طائفة الروم...، ١:

٢١٦.

(١٧) أنظر ظروف تأسيسها عند: الأب أنثاسيوس حاج: الرهبانية الباسيلية الشورية (الحلية - البلدية) في تاريخ الكنيسة والبلاد، جزءان، مطابع الكرم الحديثة، جونيه - لبنان، ١٩٧٤، ج ١، ص ٧٤-١٢٢.

(١٨) المطران باشا، المرجع المذكور، ص

٧٤-٧٦.

(١٤) الأب اندراوس حدّاد: هذا دير الخنّص،

مطبعة دير الخنّص، ١٩٦٥، ص ٥.

(١٥) أنظر تفاصيل تأسيسه عند: الأب قسطنطين

الباشا الخنّصي: تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية الخنّصية، القسم الأول، مطبعة دير الخنّص، صيدا - لبنان، ١٩٣٨، ص ٢١٠-٢٤٧؛ الأب قسطنطين الباشا: لحة تاريخية في الرهبانية الباسيلية الخنّصية، المطبعة الأدبية، ١٩٠٩، ٦٤ صفحة؛ الشماس، المرجع المذكور، ص ٢٠٤-٢١١.

ثانياً: الانطلاقة الأولى

تسلم كيرلس السادس السدة البطيركية في ظل انقسام واسع في الكنيسة الملكية الأنطاكية. وكان عليه، لضمان ثبات موقعه، الحصول على فرمان الثبيت من السلطة العثمانية، ولتأكيد مصداقية حركته كان عليه أيضاً الحصول على اعتراف رومة به. إلا أنه لم يحصل على أي من هذين الاعترافين. فعلى الرغم من أنه أرسل، فور انتخابه، كتاب خضوعه وإخلاصه للكرسي الروماني، فالبابا بندكتس الثالث عشر (١٧٢٤-١٧٣٠) تلكاً في الاعتراف به طيلة خمس سنوات. أما السلطات العثمانية، فلم تعترف به ولا بولايته على الكاثوليك لأنها اعترفت بالبطيرك سلفسترس القبرصي (١٧٢٤-١٧٦٦) الذي تدعمه البطيركية القسطنطينية والفريق الملكي الأرثوذكسي وكاثوليك حلب. وزودت السلطنة سلفسترس بفرمانين: الأول يسمح له بتبوء الكرسي الأنطاكي وبني كيرلس السادس مع أساقفته ومؤيديه، والثاني يلزم رعايا الروم بالخضوع له. لذلك بدأ سلفسترس ولايته بسلسلة من الاضطهادات والملاحقات دفعت بالبطيرك كيرلس إلى الفرار مع أساقفته وبعض مؤيديه إلى لبنان، وأقام في دير الخلص الذي تحول، على حد تعبير الأب قسطنطين الباشا، إلى «قلعة البطاركة وحصن المطارنة ومدينة الملجأ لكل أبناء الطائفة المضطهدين لأجل الإيمان»^(١٩).

(١٩) الأب ق. الباشا: هبة تاريخية في الرهبانية...، ص ٥٣.

السادس. وجرت الرسامة في دمشق، في ٢٠ أيلول سنة ١٧٢٤. إلا أن الأساقفة الأرثوذكس التأموا في سينودس انتخابي في القسطنطينية، في يوم الأحد ٢٧ أيلول (سبتمبر) وانتخبوا سلفسترس القبرصي بطيركاً على الكرسي الأنطاكي الملكي.

صحيح أن هذه الازدواجية في السلطة ليست جديدة على الكنيسة الملكية الأنطاكية، فقد حدثت حالات مماثلة سابقاً، لكن هذه المرة كانت الخطوة أخطر من سابقتها لأنها تعدت الأشخاص لتطال المبادئ. وصحيح أن البطيرك كيرلس السادس كان يصبو إلى أن يكون بطيركاً على جميع الملكيين، ولا على الفرع الكاثوليكي فقط، إلا أن امتناع السلطة العثمانية عن الاعتراف به، واعترافها بمنافسه سلفسترس، عرقل عمله وجعله بطيركاً لفئة من المؤمنين الملاحقين، وهذا ما دفعه إلى اللجوء إلى دير الخلص هرباً من الملاحقة.

وهكذا شهد خريف أنطاكية في العام ١٧٢٤ ظهور بطيركين على الكرسي الملكي، أحدهما أرثوذكسي تدعمه السلطة العثمانية والكرسي القسطنطيني، والآخر كاثوليكي يدعمه المرسلون اللاتين، ويدعمه الكرسي الروماني بحذر.

وأخذت الكنيسة الرومية الملكية الكاثوليكية تنمو ببطء وحذر، هاجسها الوحدة مع الكرسي الروماني ومجابهة خطر الليتنة والتفريع، والحفاظ على الشخصية الشرقية المتمثلة بالتراث الملكي البيزنطي والأنظمة والشرائع الشرقية.

كيرلس السادس بطريركاً على أنطاكية الملكية . وقد أرفق قرار التثبيت بعدة مراسم تلمزه بحفظ الأصوام والقطاعات والطقوس والعوائد الشرقية، وتمنع اشتراك الكاثوليك في القدسيات مع غير الكاثوليك. فوافق البطريرك على كل هذه المراسيم، وأبرز قسمه بحفظها والعمل بموجبها، أمام مندوب البابا الأب دوروثاوس الكيوشي، في احتفال كبير في كنيسة دير الخالص في ١٤ نيسان (أبريل) عام ١٧٣٠ (٢٣).

وما يلفت النظر أن كيرلس طاناس قد غالى في الخضوع التام لرومة، وتعهّد بمنع الكاثوليك من الاشتراك في القدسيات مع الأرثوذكس. وهذا ما أدى إلى سلخ فريق كبير من المؤمنين عن إخوانهم وعائلاتهم وكنائسهم وطقوسهم، وجعل الكاثوليك عرضة للاضطهادات من قبل بطاركة اليونان والسلطة العثمانية (٢٤). إلا أن قسطنطين الباشا يبرر ذلك بأنه كان ضرورياً، «حرصاً على سلامة الإيمان الصحيح الذي هو الركن الأول والأوحد في الدين» (٢٥).

للك المصالح قامت الكنيسة الملكية في إدارة كنيسة مستقلة استقلالاً تاماً عن الكرسي الأنطاكي .

(٢٣) راجع الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع عند: ق. الباشا: تاريخ طائفة الروم الملكية والرهانية المخلصية، القسم الثاني، الطبعة المخلصية، ١٩٢٩-١٩٤٥، ص ٨٦-١٠٠، ٢٢٥-٢٣٨ .
(٢٤) الشماس، المرجع المذكور، ٣: ٨-٩ .
(٢٥) ق. الباشا: تاريخ طائفة...، ٢، ٢٥٢ .

أمضى الفريق الملكي الكاثوليكي خمس سنوات مليئة بالاضطهادات والملاحقات القانونية، وتم إقفال كنائس كاثوليكية كثيرة ومصادرتها، وإبطال أبرشيات متعددة، باستثناء حلب التي استقبلت سلفسترس بحفاوة، لكنها تصدّت له عندما حاول فرض آرائه المعادية لرومة. وتمكنت المدينة، بما لها من نفوذ، من التحرر من سلطة البطريرك الأرثوذكسي ومن الالتحاق مباشرة بالقسطنطينية بواسطة أسقف معين من قبلها (٢٠).

أما في لبنان فقد صمد البطريرك كيرلس السادس مع مؤيديه على الرغم من الطعن بشرعية انتخابه (٢١)، واتهام الروم الكاثوليك «المنفصلين» مع البعثة اليسوعية بإدخال المنطقة في جو مشحون بالمؤامرات على الباب العالي (٢٢). هذا الصمود أمّته لهم الأمراء الشهابيون الذين كانوا يحكمون لبنان بانفتاح، بعدما حولوه إلى واحة للحرية. وهذا ما جعل الطائفة تنعم في لبنان بفترة هدوء طيلة خمس سنوات، حتى صدور قرار الكرسي الرسولي، في ١٥ آذار (مارس) سنة ١٧٢٩، بتثبيت

(٢٠) ديك، المقال المذكور، ص ٧٢؛ المطران باشا، المرجع المذكور، ص ٧٨ .

(٢١) رستم، المرجع المذكور، ٣: ١٤٢ .
(٢٢) «مخة حول تاريخ الكرسي الأنطاكي»، مقال في الرسالة (نشرة أبرشية جبيل والبترون للروم الأرثوذكس)، السنة الأولى، العدد الأول، عموز (يوليو) ١٩٨١، ص ١٦ . كما يضيف الكاتب (المقال غير موقع): إن الذي ساعد في تثبيت «الانشقاق» هو مصالح الدول الغربية الاقتصادية في الشرق. وإنه دعماً

سوراً منياً لكرامتها يمنع تعدي من كانت نفوسهم تسول لهم التعدي عليها وعلى حقوقها لاعتبارهم أنها مستضعفة مضطهدة من سلطان الزمان ورجال دولته ومن بطاركة اليونان ومطارنتهم وأعيانهم» (٢٧).

وتتوجت مساعي الكرسي الرسولي وفرنسا والنمسا، في سنة ١٧٤٥، بصدر فرمان سلطاني يسمح للبطريرك بإدارة شؤون كرسيه (٢٨). فامترجع كيرلس كرسي دمشق لمدة شهرين. تمكن بعدها سلفسترس من تجديد فرمانه وطرد كيرلس من دمشق وباشرة فصل جديد من فصول الاضطهاد ضد الكاثوليك.

وعاد كيرلس السادس إلى لبنان حيث مارس مهامه انطلاقاً من الدار البطريركية في دير الخالص، وتابع عمله في إدارة شؤون الملاكين الكاثوليك، فعقد عدة مجامع طائفية التأمت كلها في دير الخالص بالقرب من قرية جون، تناولت بعض الأمور التهذيبية والطقسية وتجديد أحكام بعض قوانين المجامع القديمة (٢٩).

وقد توفي البطريرك كيرلس طاناس في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٧٥٩ بعد كفاح طيلة ٣٥ سنة ونيف في سبيل إرساء أسس كنيسة الروم الملاكين الكاثوليك.

لقد شككت وفاة البطريرك كيرلس السادس خطراً حقيقياً على استمرار البطريركية

وفي أوائل تشرين الثاني (أكتوبر) عام ١٧٣١، عقد البطريرك طاناس مجعماً في جون حضره أربعة من أساقفته الثمانية لدرس موضوع القطاعات. وقرروا أن لا سبيل إلى العودة إلى القطاعات التي كان قد ألغها المطران الصفي. ووضعوا نظاماً جديداً للصوم قبل الأعياد (البارامون) تشدد البطريرك في تنفيذه، على الرغم من معارضة الرهبان المخلصين والحنائين. لذلك تدخلت رومة، في ٢٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٧٣٢، وألغته. وهذا ما أدى إلى تأخير تسليم الباليوم إلى البطريرك حتى سنة ١٧٤٤.

إلا أن موقف رومة لم يثن البطريرك عن القيام بواجباته الرعوية، فاهتم بالأبرشيات الشاغرة فرسم مكسيمس حكيم على حلب، سنة ١٧٣٢، وأثناسيوس الدهان على بيروت، سنة ١٧٣٦. وفي هذه السنة عقد كيرلس السادس مجعماً في دير الخالص لدرس موضوع توحيد الرهبانيتين المخلصية والحنائية، إلا أن الوحدة لم تتم (٢٦).

وفي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) العام ١٧٤٣، أصدر البابا بندكتس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨) براءته الرسولية «لما قلّد الرب حقارتنا» Demandatum التي جعلها «سياجاً لكرامة كنيسة الروم الملاكين الكاثوليك، بل

Ecclésiastiques, T. III, Lib. Letouzey et Ané, Paris, 1924, col 648, 649.

(٢٩) حول المجامع راجع: ق. باشا، المرجع السابق، ٣٤٧:٢، ٣٤٨، ٣٤٩-٣٥١؛ مختصر تاريخ طائفة الروم الملاكين الكاثوليكين، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٨٨٤، ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٢٦) أنظر المرجع السابق، ٢٨٧:٢-٢٩٠؛ Henri MUSSET: *Histoire du christianisme spécialement en Orient*, T. II, Imp. des PP. Franciscains, Jérusalem, 1948, p. 177.

(٢٧) المرجع السابق، ٢٩١:٢.

P. Cyrille KARALEVSKI: «Antioche», art. (٢٨) in *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie*

سنة ١٧٦٨، فتابع البطريرك دهان ولايته بسلام. وفي عهده صدر قرار عن مجمع انتشار الإيمان، في ١٣ تموز (يوليو) سنة ١٧٧٢، بموافقة البابا اقليمضس الرابع عشر (١٧٦٩-١٧٧٤)، بضم الاسكندرية وأورشليم إلى ولاية البطريرك الأنطاكي (٣٢). وإثر وفاة البطريرك الدهان، سنة ١٧٨٨، انتخب الأساقفة جوهرًا، بطريركًا قانونيًا (٣٣) حتى وفاته سنة ١٧٩٤.

وقد تعاقب على السدة البطريركية، بعد أنثاسيوس الرابع جوهر، ستة بطاركة لم تطل ولاية كل واحد منهم باستثناء الأخير، البطريرك إغناطيوس الخامس القطان، الذي دامت ولايته ١٧ سنة. لذلك لم يتمكنوا من القيام بإنجازات كثيرة.

أما من ناحية المشاكل فقد تركزت على الاضطهادات المتكررة من قبل الأرثوذكس، وتدخلت فيها السلطنة لصالح الأرثوذكس معظم الأحيان. وقد نتج عن هذه الاضطهادات القضاء على حركة الكتلكة في أبرشيات حمص وطرابلس واللاذقية. وخسر الكاثوليك معظم الكنائس والأوقاف والمدارس في سورية. حلب وحدها صمدت بيسالة، لذلك رسخت فيها الكتلكة وتأسلت (٣٤). كذلك فعلت دمشق بمساعدة الرهبانية الفرنسيسكانية والرهبان المختصين الذين خدموا رعية دمشق بشجاعة

الكاثوليكية. فقد واجهت البطريركية الفتية حملة قوية من الاضطهادات كادت تقضي عليها لولا بطولة الرهبان وشجاعتهم ودعم الأمراء الشهابيين الذين منحوها الأمن والسلام. كما واجهت خطرًا داخليًا تجسّد في الخلافات التي نشبت حول الكرسي البطريركي ومعارضة قسم من الأساقفة للبطريرك المنتخب المعين أنثاسيوس جوهر (٣٥). إلا أن الكرسي الرسولي بادر، بعد وفاة طاناس، إلى إلغاء انتخاب جوهر وعين مكسيمس الثاني حكيم بطريركًا في أول آب (أغسطس) عام ١٧٦٠. غير أن وفاته السريعة، في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٧٦١، أعادت الصراع إلى الواجهة. تبادى أساقفة المعارضة وانتخبوا ثاودوسيوس الخامس دهان بمباركة رومة. إلا أن جوهر عمد إلى جمع أنصار طاناس وانتخبوه بطريركًا فوقعت البطريركية الكاثوليكية في فوضى عارمة كادت أن تطيح بكل الإنجازات التي تحققت منذ العام ١٧٢٤.

وأدت هذه الأزمة البطريركية إلى تدخل رومة عدة مرات ورشقت بالحرم أنثاسيوس جوهر وأنصاره وقطعتهم من الشركة الكاثوليكية، وهذا ما دفع بالكثير من أنصار جوهر إلى الخروج من «الطائفة» في دمشق وبيروت وحمص وطرابلس (٣٦). لكن الوثام عاد إلى البطريركية بعدما تصالح الدهان وجوهر

(٣٥) حول ظروف انتخاب جوهر، راجع: P. Paul BACEL: «Une période troublée de l'histoire de l'Eglise Melkite (1759-1794)», art. in *Echos d'Orient*, T. XIV (1911), pp. 340-351.

(٣٦) مختصر تاريخ... ص ٢٠٥.

(٣٧) MUSSET, *op. cit.*, p. 179, Mansi, 46:575.

(٣٣) راجع حول حقبة الأزمة البطريركية: P. Paul BACEL: «L'Eglise Melkite au XVII^e siècle» art. in *Echos d'Orient*, T. X (1912), pp. 49-60, 226-233.

(٣٤) أنظر تفاصيل ذلك عند قسطنطين الباشا:

تاريخ طائفة الروم... ١٣٦٦:٢-١٨٩.

٣) كان الشعب الكاثوليكي يدفع رسوماً مضاعفة للكنيسة: رسم التورية والعماد والإكليل والجنّاز، رسوم للإكليرس الكاثوليكي وأخرى للإكليرس الأرثوذكسي، لأن الفريق الأول لم تكن السلطة العثمانية تعترف به، لذلك لم يكن يحق له القيام بالمعاملات الرسمية.

٤) تعرّض الكاثوليك والاكليرس الكاثوليكي لسوء معاملة.

٥) اضطرار البطريرك الكاثوليكي وأساقفته وكهنته إلى مغادرة سورية، وكل المدن والمناطق التي تمتد عليها يد العثمانيين.

٦) اضطرار الكاثوليك إلى دفع رسوم مضاعفة: مال الخراج أو مال الجزية للدولة العثمانية حماية لواقعهم «الانفصالي».

٧) إجبار الكاثوليك على تصفية تركة الميت وحصر إرثه في أقاربه وتوزيع الحصص عليهم قبل دفنه.

هذه المعاناة ظلّت واقعة على الكاثوليك حتى سنة ١٨٣٠، أي طيلة قرن ونيف من الزمن، حين عيّن السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩)، سنة ١٨٣٠، ناظرًا علمانيًا من طائفة الأرمن الكاثوليك للاهتمام بشؤون الروم الكاثوليك، بعد نجاح مساعي الحكومتين الفرنسية والنمساوية. وفي العام التالي، تمّ تعيين كاهن من الطائفة نفسها يدعى أغوب تشوكوريان عرف «البطريرك الأرمني» لأنه أخضع لسلطته جميع الطوائف الكاثوليكية

متخطين كل الصعوبات والمضايقات والاضطهادات. أما في لبنان فقد صمدت الكتلثة في بعلبك وصيدا، وشكل جبل لبنان والجليل «السياج الواقى للطائفة»^(٣٥) في ظلّ حكم الأمراء الشهابيين.

وبصورة عامة يمكننا القول إن معظم المناطق الواقعة شمالي بيروت، باستثناء حلب، تبعت الروم الأرثوذكس. أما البلاد الواقعة جنوبي بيروت مع دمشق والقلمون وهوران فقد ثبتت فيها الكتلثة ونمت^(٣٦). وهكذا توزعت الرهبانيتان المخلصية والحنّاوية حقوق خدمة الرعايا. فالأولى اهتمت برعايا صور وصيدا وعكا وحيفا وياقا وبانياس والبقاع ودمشق وهوران وجبل القلمون انطلاقاً من دير المخلص. والثانية اعتنت برعايا حلب وبيروت وحمص وكسروان انطلاقاً من دير مار يوحنا الصايغ في الشوير.

وقد نتج عن هذه المرحلة من الاضطهاد الديني نتائج ومظالم متعدّدة، أبرزها^(٣٧):

١) انقسمت بطريركية أنطاكية انقساماً مستمراً إلى قسمين. وكان لكل قسم بطاركة وإكليرسه وكنائسه وأدياره وأوقافه. ولكنهما تناغما من حيث وحدة الشعب والطقس لفترة طويلة من الزمن قبل أن يبدأ المؤمنون بالتمايز.

٢) ازداد الكاثوليك ضعفاً وتلاشياً بسبب الضغوطات المتنوعة التي أجبرتهم على الهجرة أو على الانضمام إلى طوائف مسيحية أخرى.

(٣٧) نقلًا عن: الشماس، المرجع المذكور، ١٧:٣-١٩.

(٣٥) بيم - ديك، المرجع المذكور، ص ٣٠٠.

KARALEVSKII, art.cit., col 648 (٣٦)



البطريك مكسيمس الثالث مظلوم

والشعب يتحمل من جرأء تحمله أعباء الاضطهاد والضغط المادي. في هذه الظروف القاسية توفي القبطان، في ١٣ آذار (مارس) العام ١٨٣٣. فالتأم السينودس المقدس، في ٢٣ آذار (مارس)، في دير القديس جاورجيوس في بمكين (سوق الغرب) المعروف بدير الشير، وانتخب بالاجماع مكسيمس مظلوم، متروبوليت حلب المستقيل ومدير إكلييريكية عين تراز، بطريكاً باسم مكسيمس الثالث.

وأرسل آباء السينودس، على جري العادة،

ص ٢٥١.

العثمانية، (٣٨). وهكذا بدأت مسيرة تحرير بطريركية الروم الكاثوليكية من نير اليونان لتصل إلى الاستقلال التام في عهد البطريك مكسيمس الثالث مظلوم.

ثالثاً: عهد التحرر والازدهار

يقسم هذا العهد إلى ثلاث مراحل تاريخية بارزة:

- المرحلة الأولى: زمن التحرر والاستقلال في عهد البطريك مكسيمس الثالث مظلوم (١٨٣٣-١٨٥٥).

- المرحلة الثانية: أزمة الحساب الغريغوري في عهد البطريك اقليمنضس بحتوث (١٨٥٦-١٨٦٤).

- المرحلة الثالثة: الازدهار في عهد البطريك غريغوريوس يوسف الأول ميور (١٨٦٤-١٨٩٧).

المرحلة الأولى: مكسيمس مظلوم وتحرر البطريركية

كانت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك، عشية وفاة البطريك اغناطيوس الخامس القبطان (١٨١٦-١٨٣٣)، تعاني أزمة حادة: فالكرسي البطريركي يترنح عاجزاً بسبب شيخوخة البطريك ومرضه، والأبرشيات شاغرة، والإكليروس غير كفؤ، والكراسي المهمة كدمشق وحلب معزولة عن لبنان،

(٣٨) الأب الياس أندراوس: الكنائس الشرقية البيزنطية، مطبعة القديس بولس - حريصا، ١٩٣١،

الملكية في القسطنطينية، لتحقيق البرنامج التالي^(٤٢):

آ) إقناع الباب العالي بوهن التشكيكات التي يقوم به لديه الإكليروس الأرثوذكسي اليوناني ضد «الطائفة الملكية الكاثوليكية».

ب) تحرير الكنيسة الملكية الكاثوليكية من سيطرة بطريركية الفناز تحميراً تاماً وذلك:

١. يكفّ الاضطهاد عن الكاثوليك واحترام حرياتهم، ثم إعادة الكهنة المنفيين إلى مراكزهم.

٢. بالاعتراف للكنيسة الملكية الكاثوليكية باستقلالها الديني والمدني لأنها متميزة تماماً عن الكنيسة الأرثوذكسية.

٣. بضمان الحرية الداخلية التامة لأساقفة الكنيسة الملكية الكاثوليكية ورعاياهم، في المملكة العثمانية، على مثل ما تمتع به الكنيسة الأرثوذكسية، فيقيم الأساقفة في ما بين رعاياهم بدون أي معارضة من الجانب الأرثوذكسي.

٤. بالترخيص «للطائفة الكاثوليكية» أن تتحوّل - حيث لا كنائس لها - بعض البيوت الخاصة إلى معابد لإقامة الصلوات والشعائر الدينية.

٥. بالاستناع، أخيراً، عن إثارة أي اضطهاد في المستقبل على «الطائفة

رسالة إلى رومة يطلعون الكرسي الرسولي فيها على انتخابهم مظلوم بطريركاً ويلتمسون فيها إرسال درع التثبيت والبايوم رمز الشركة الكنسية^(٣٩). إلا أن التثبيت تأخّر بسبب الدسائس التي كان يحاول بعضهم حبكها مذكّرين رومة بحالة جرمانس آدم ومجمع القرقفة. غير أن البطريرك مظلوم حسم الوضع بإعلانه لرومة عن موافقته المسبقة على أي حكم تصدره بشأن مؤلفات آدم ومجمع القرقفة. لذلك أصدرت رومة قرارها، سنة ١٨٣٥، بإلغاء مقررات المجمع المذكور وتحريم مؤلفات جرمانس آدم. وما لبث البابا غريغوريوس السادس عشر (١٨٣١-١٨٤٦) أن أرسل له صك التثبيت في أول شباط (فبراير) العام ١٨٣٦^(٤٠). وفي العام التالي أنعم عليه بلقب «بطريرك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم» إنعاماً شخصياً لا ينتقل إلي خلفائه إلا بموجب براءة رسولية^(٤١).

وكان البطريرك مكسيمس مظلوم على يئنة من المهام الشاقّة التي ستلقى على كاهله. فهو كان مطلعاً على أوضاع الكاثوليك واضطهاد الأرثوذكس لهم يوم كان في أوروبا طيلة ١٨ سنة (١٨١٣-١٨٣١)، إذ إنه سعى، سنة ١٨١٨، مع الكرسي الرسولي، والدول العظمى، النمسا وبروسيا، وبعض الشخصيات

(٤٠) الذكرى المئوية... ص ١٧.

(٤١) الشمس، المرجع المذكور، ١٢٤:٣؛ Jean CHARON: «L'Eglise Grecque Melchite Catholique», art. in *Echos d'Orient*, T. V. (1902), p. 145; MUSSIR, *op. cit.*, III: 138.

(٤٢) الذكرى المئوية... ص ١٢.

(٣٩) إنظر صورة ونص الرسالة السينودسية إلى رومة في: الذكرى المئوية الأولى لوفاة السيد الذكر البطريرك مكسيمس الثالث مظلوم ١٨٥٥-١٩٥٥، هدية مجلة المرأة السنوية عن سنتي ١٩٥٧ و١٩٥٨، المطبعة البولسية، حريصا (لبنان)، ١٩٥٧، ص ٣٢/٣٣؛ الشمس المرجع المذكور، ١١٥:٣-١١٨.

الملكية، بعد ان تكون قد استعادت حقوقها وكرامتها وكامل استقلالها.

لكن الظروف حينذاك والأحوال السياسية لم تكن مؤاتية لتحقيق هذا البرنامج، وجلّ ما تمكّن من تحقيقه هو الحصول على أمر سام يكفّ الاضطهاد عن الطائفة. لذلك حمل البطريرك مظلوم على كتفيه عبء هذا البرنامج الضخم منذ اليوم الأول لانتخابه، مضيئاً إليه حملاً جديداً وهو انتشار كنيسته من الأتون الغارقة فيه رعوياً. فتراه منذ الساعة الأولى يخوض حرباً لا هوادة فيها على الظلم والاستبداد لاسترجاع كامل الحقوق المغتصبة والمستباحة في دمشق ومصر وغيرها من المناطق. ويسعى جهده في العناية برعيته إكليرساً وشعباً ومؤسسات.

١) تحرير كنيسة الروم الكاثوليك

كان الجيش المصري، بقيادة إبراهيم باشا، قد اجتاح، منذ العام ١٨٣١، أراضي السلطنة العثمانية واحلّ فلسطين ولبنان وسورية، ووصل إلى مشارف الأستانة. فتدخلت الدول العظمى وأجبرت الفريقين على توقيع معاهدة كوتاهية، سنة ١٨٣٣، عشية تسلّم مظلوم البطريركية. وقد أقرّت السلطنة العثمانية بسلطة محمد علي باشا على مصر وبلاد الشام. لذلك سعى ولده إبراهيم باشا إلى نشر الأمن والسلام في تلك الربع. فأقام دواوين للشورى تمثّلت فيها الطوائف المختلفة لتحلّ مشاكل المواطنين. فاستغل البطريرك وجنود أحد الموظفين الملكيين

البارزين بين مساعدي إبراهيم باشا، وهو يوحنا البحري، لتسهيل تحرير الطائفة من بعض القيود. وتمكّن بمسعى من رعيته في دمشق من شراء قطعة أرض لبناء كنيسة جديدة بدلاً من التي صادرها الأرثوذكس. ودخل مظلوم إلى دمشق، في ٥ نيسان (أبريل) العام ١٨٣٤، في احتفال مهيب أذهل الأرثوذكس^(٤٣). وبدأت نيابة دمشق البطريركية تركز أسس الكتلكة في دمشق بشكل علني بعدما كانت نشاطات الكاثوليك تتمّ بالسر في البيوت أو في ديورة الرهبان اللاتين وكنائسهم.

وكانت السلطنة قد عينت آغوب تشوكوريان بطريكاً مدنياً على الطوائف الكاثوليكية كما سبق وذكرنا. إلا أن مظلوم لم يكن ليرضى بهذا الحل. بل تابع تحركه وتوجّه إلى مصر حيث كان الاضطهاد قد بلغ ذروته. فسافر براً، سنة ١٨٣٦، عبر فلسطين، ووصل القاهرة في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر). هذه الزيارة رفعت من معنويات الكاثوليك ودفعت الإكليرس الملكي المصري لاستبدال العمامة، المقروضة عليهم منذ عام ١٧٢٥، بالقلنسوة التي احتكرها الإكليرس الأرثوذكسي لنفسه^(٤٤). فنشب بذلك صراع جديد بين الكاثوليك والأرثوذكس ظاهره القلنسوة، أما باطنه فكان تثبيت كيان «الطائفة».

لذلك سعى البطريرك مع وكيله في الأستانة للحصول على فرمان سلطاني يحصر به حق التكلم باسم «الطائفة». فصدر فرمان من السلطان محمود الثاني، في ٣١ تشرين الأول

(٤٣) المرجع السابق، ص ١٨.

(٤٤) المرجع السابق نفسه.

(أكتوبر) ١٨٣٧ (أول شعبان ١٢٥٣هـ) يمنح البطريرك مظلوم الولاية على المسيحيين الكاثوليك في بطريركيّات أنطاكية والاسكندرية وأورشليم، ويمنحه أيضاً الامتيازات التي لزملائه البطاركة الأرثوذكس، ويعطيه الإذن ببناء الكنائس دون معارضة، وإدارة الأوقاف، ويسمح للمؤمنين بممارسة شعائرهم الدينية بحرية تامة^(٤٥).

وعلى الرغم من أن هذا الإنجاز يُعتبر خطوة كبرى إلى الأمام، فإنه لم يكن ليرضي البطريرك، لأنه، وإن أصبح المرجع الروحي الأعلى والأوحد «للطايفة»، فإنه ظلّ، في الحقل المدني، خاضعاً لسلطة الناظر الأرمني الكاثوليكي في الأستانة. لذلك قرّر البطريرك مظلوم زيارة الأستانة لحسم كل المشاكل العالقة، وأبرزها الولاية المدنية ومشكلة القلنسوة في مصر.

وصل مظلوم إلى الأستانة في ٢٣ آب (أغسطس) من عام ١٨٤١، في وقت كانت فيه الأبراطورية العثمانية قد استرجعت سلطتها على سورية ولبنان وفلسطين من محمد علي باشا الذي انسحب إلى مصر. وقد تمّ ذلك بمساعدة الدول الأوروبية العظمى. من هذا المنطلق نرى أن مهمة البطريرك في الأستانة كانت سهلة لأن السلطنة لطالما ربطت بين «الطايفة الملكية الكاثوليكية» والغرب. وإن

السلطان كان يدرك مدى ضعفه، ومدى ارتباط مصيره ومصير أميراطوريته بالدول العظمى. لذلك كان جاهزاً عملياً لتنفيذ طلبات البطريرك، وإذا حدثت أي ممانعة فهذا يعود إلى النفوذ القوي الذي كان يتمتع به بطريرك القسطنطينية الأرثوذكسي. والجدير بالذكر أن الزيارة إلى الأستانة تمّت في ظل جولة جديدة من الاضطهاد الأرثوذكسي ضد الكاثوليك في دمشق وحلب وبيروت وطرابلس بتحريض من البطريرك المسكوني أنثيمس.

عرض البطريرك، في الأستانة، معاناة كنيسته مع البطريرك المدني والضغط الأرثوذكسي. والتقى كل الفعاليات السياسية العثمانية طيلة سبع سنوات من الاتصالات والمراجعات المباشرة، وتكلّلت مساعيه بمقابلة السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١م)، مع وكيله المطران ملاتيوس فندي، والحصول على فرمانين: الأول بتاريخ أواخر شوال عام ١٢٦٣هـ يسمح بموجبه للإكليروس الكاثوليكي بلبس القلنسوة^(٤٦). والثاني بتاريخ آخر محرم ١٢٦٤هـ (٧ كانون الثاني (ديسمبر) ١٨٤٨) قضى بتحرير «الطايفة» من سلطة الكاهن البطريرك المدني، واعترف بسلطة البطريرك الملكي المطلقة على طائفته ومنحه كل الامتيازات التي يتمتع بها بطريرك الفنار^(٤٧). كما منحه نيشان الشرف المرصّع بحجارة من

(٤٥) أنظر نص فرمان عند: البطريرك مكسيمس مظلوم: نبذة تاريخية فيما جرى لطايفة الروم الكاثوليك منذ سنة ١٨٣٧ فما بعدها، عني بطبعها الخوري قسطنطين الباشا ب. م.، ص ٢٠٣-٢١١.

(٤٦) أنظر نص فرمان عند: مظلوم، النبذة التاريخية... ص ١٣٥-١٣٧.

(٤٧) أنظر نص فرمان في المرجع السابق، ص ٣٠٥-٣١٣.

الماس كالذي يحصل عليه بطارقة القسطنطينية. وتزوّد قبل عودته ببراءات شاهانية لأساقفته (٤٨). كما حصل في أواخر عهده على فرمان بتاريخ أوائل شوال ١٢٧٠هـ (١٨٥٤م) يمنحه الامتيازات السلطانية (٤٩).

وهكذا حقّق البطريرك مظلوم هدفه الأول القاضي باستقلال الروم الكاثوليك استقلالاً تاماً دينياً ومدنياً ومنحهم كياناً خاصاً مميزاً، وجعل مركز البطريرك الملكي مائلاً لكل الكراسي البطريركية الأخرى، أرثوذكسية كانت أم كاثوليكية، حتى إنه توصّل إلى الحصول على الامتيازات نفسها التي يتّمتع بها بطريرك القنار.

٢) إنهاض البطريركية الملكية

الهدف الثاني الذي رسمه البطريرك مظلوم لنفسه، والذي عمل له بشكل مواز للهدف الأول، كان إنعاش البطريركية وإنهاضها من كبوتها التي غرقت فيها منذ حوالي نصف قرن. وقد أسهمت القيود المفروضة على «الطائفة» والمظالم التي لحقت بها منذ عام ١٧٢٤ في عرقلة نموها وبعض الأحيان في تعثرها وتراجعها.

لذلك نراه في مطلع عهده يدعو إلى مجمع في عين تراز، في أول كانون الأول (ديسمبر)

عام ١٨٣٥، لدرس أوضاع «الطائفة» عموماً. ودامت أعماله ستة أيام سنّ خلالها أبناء المجمع قوانين هامة (٢٥ قانوناً) تتعلق بحياة ونظام الاكليريكيين، وبعض الشؤون الراعوية والرهبانية، والوصايا التي يجب على الملكيين العمل بها كالاشتراك في القديسات مع غير الكاثوليك، وتوضيح بعض العادات في توزيع الأسرار وقبولها (٥٠). ورفعت هذه المقرّرات إلى الكرسي الروماني الذي أقرّها وطبعها في رومة سنة ١٨٤١.

وقد درس المجمع أيضاً موضوع الرعايا في ديار بكر وآمد وفي الكرسي الإسكندري وتقرّر تعيين أساقفة عليها لدعم المؤمنين وتوجيههم نحو الكتلركة (٥١). فعين المطران مقاريوس سمّان، سنة ١٨٧٣ على ديار بكر (٥٢)، واستحدث النيابة البطريركية في القطر المصري، وعيّن عليها أول نائب بطريركي المطران باسيلوس كفوري الذي اعتذر عن قبول المنصب، بادئ الأمر، بحجة أنه غير أهل له (٥٣). وأنشأ الكرسي البطريركي في القدس بعدما حرّرها من وصاية الأرثوذكس ورعاية الفرنسيين. وعيّن عليها، في ٨ شباط (فبراير) عام ١٨٣٨، المطران ملاتيوس فندي (٥٤). وفي سنة ١٨٤٩ أنشأ أبرشية حمص وحمّاه وبيروث وتوابعها بعدما فصل القلمون عن بعلبك وألحقها

Ibid. (٥٢)

Joseph HAJAR: *Un Lutreur infatigable* (٥٣)
le patriarche Maximos III Mazloum, imp. St.-Paul,
Harissa, 1957, pp. 85, 86.

(٥٤) راجع: اللكوي الحوية... ص

١١٧-١٢٤.

(٤٨) الشماس، المرجع المذكور، ١٢٥:٣.

(٤٩) أنظر نص فرمان عند: مظلوم، المرجع المذكور، ص ٢٣٣-٢٣٦.

(٥٠) اللكوي الحوية... ص ٢٣.

(٥١) MUSSET, *op. cit.*, p. 137.

قرار غبطته فصل جبيل عن أبرشية بيروت وضمها لطرابلس، وخلاف متروبوليتي صور وحلب حول الأولية بعد البطريرك.

وبسبب المشاكل التي نشبت بين البطريرك وبعض الأساقفة، تأخر رفع المقررات إلى رومة حتى سنة ١٨٥١. وبعد أن استفحل الخلاف بين البطريرك والمطران أغايوس رياشي، امتنعت رومة عن أخذ قرار حتى تولي اقليمضس بحوث السدة البطريركية، سنة ١٨٥٦، فأعرب عن رغبته في إهمال المجمع نظراً إلى أن ذبول الخلافات ما زالت بارزة، فاستجابت رومة لطلبه (٥٧).

لقد تجلّت في البطريرك مظلوم مواهب الراعي الصالح الأمين على مصالح أبنائه الروحية، وليس أدلّ على ذلك من أسفاره المتعددة من أبرشية إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى، ومن قرية إلى أخرى، معانياً مشقة الأسفار، صابراً على المتاعب، مبشراً بكلمة الخلاص، مقيماً الرياضات الروحية، معلماً مبادئ الإيمان ووصايا الله وحتى في بعض الأحيان مبادئ القراءة، بانياً الكنائس قلب الكنيسة النابض ورمز وحدة الشعب مع الرعاة، ومنشأ المؤسسات الخيرية والروحية (٥٨).

وقد رفع البطريرك اهتمامه بالرعية إلى مستوى متقدّم عندما منح العلمانيين مسؤولية

بالأبرشية الجديدة، وعيّن عليها المطران غريغوريوس عطا. وقد جعل قرية يرود مركزاً للمطرانية لأنها كانت تضم أكبر عدد من الكاثوليك (٥٥).

كانت خطة مظلوم، يوم عقد مجمع عين تراز، وضع دستور كامل المادة تستند إليه البطريركية في تسيير أمورها القانونية والإدارية. فالبطريركية الملكية كانت تفتقر إلى مثل هذا التشريع. ومجمع القرقفة (١٨٠٦) الذي وضع التشريعات المختلفة قد ألقته رومة. لذلك جاء مجمع عين تراز تمهيداً لمجمع آخر يملأ الفراغ القانوني الذي تتخبط فيه البطريركية. وبالفعل وضع البطريرك مظلوم، خلال إقامته الطويلة في الاستانة (١٨٤١-١٨٤٨)، الخطوط العريضة لأهم المواد التي سيدرسها المجمع المرتقب. وما إن عاد من سفرته الطويلة حتى دعا إلى مجمع يعقد في أورشليم، في محاولة لدعم مركز النيابة البطريركية الجديد، على الرغم من اعتراض أساقفة صور وبيروت وبعلبك، ومطالبتهم بعقد في سورية، وحضور القاصد الرسولي ممثلاً للبابا. ولكن تأخر وصول الأساقفة أدى إلى تأجيل المجمع إلى ١٢ أيار (مايو) سنة ١٨٤٩ ودام انعقاده أربعين يوماً حتى ٢٠ حزيران (يونيو) (٥٦).

وقد وقعت خلال جلسات المجمع خلافات حادة بين البطريرك وميتروبوليت بيروت بسبب

في حريصا (لبنان)، ص ٤٤-٤٤٧ P. Cyrille CHARON: *Histoire des Patriarchats Melkites*, Rome, Paris, Leipzig, 1910, II: 227.

(٥٧) توما مظلوم، المرجع المذكور، ص ٤٨ (الحاشية).

(٥٥) المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٥٦) توما مظلوم: البطريرك مكسيمس الثالث

مظلوم (١٧٧٩ - ١٨٣٣ - ١٨٥٥)، سنوه الأخيرة (١٨٤٨ - ١٨٥٥)، عني تعليق حواشيها الأب الياس اندراوس البولسي، مطبعة القديس بولس

إلى ٧٨,١٠٠ سنة ١٨٥٥. وبدأ يتكوّن في «الطايفة» إكليروس من الكهنة العازبين الذين تبنوا المراكز الأسقفية، بعدما كان الإكليروس البطريركي والأبرشي يتكوّن في معظمه من كهنة متزوجين^(٦١).

لقد كان، مكسيمس مظلوم، في تاريخ كنيسةنا الملكية، عملاقاً من عمالقة الشرق المسيحي من حيث إنجازاته الكبيرة. أما بالنسبة إلى الأخطاء التي ارتكبها فمن الحق والعدل أن ننظر إليها بمنظار الواقع البشري.

لقد كان، على حد تعبير الأب جورج فاخوري البولسي، «واحدًا من ذلك النقر القليل عمدًا بنظره الثاقب إلى القمم، ويعتدو بمطامحه الكبيرة آفاق معاصريه... كان يهدف في عمله البناء، ضمن نطاق كنيسته، إلى «تجديده» هذه الكنيسة تجديداً جذرياً شاملاً. وكان له من إرادته الفولاذية ومن تفهمه النير للملايسات الأحوال، ومن معرفته الدقيقة للناس ما يمكنه من إصابة الأهداف التي كان يصبو إليها»^(٦٢).

المرحلة الثانية: اقليمتنضس بحوث وأزمة الحساب الفرغوري

إثر وفاة البطريرك مظلوم، التأم السينودس المقدس في دير المخلص، في ٢٠ آذار (مارس) عام ١٨٥٦، بدعوة من القاصد الرسولي بول

إدارة شؤون البطريركية المادية. فعين منهم وكلاء بطريركيين للشؤون المادية، ودعا المؤمن للإسهام في عملية البناء فلبوا النداء بسخاء^(٥٩).

لقد ظل البطريرك مظلوم حتى الرمح الأخير يجاهد في سبيل إعلاء شأن كنيسته، فراه «في سني حياته الأخيرة وهو لا يزال كأنه في سن الفتوة يعاني مشقة الأسفار، ويصبر على المتاعب، ويجول متقدماً أبناءه من بيروت إلى صيدا فصور فعكا فيافا فالقدس الشريف، فدمشق فأورشليم ثانية، ومنها إلى حلب فيروت أيضاً فصيदा ودير المخلص ودير القمر ودير القديس جاورجيوس في بمكين والقديس أنطونيوس القرقفة في كفرشما، فالزوق فعينطورة ثم بيروت وزحلة ودمشق ومنها إلى صيدنايا فالعرة فمعرونة ثم معلولا وبيروت والبيك ودير عطية وقاره، فراس بعلبك فالفاكهة وأخيراً بعلبك. ومنها إلى دمشق فالأقطار المصرية»^(٦٠). حيث توفي في الاسكندرية عن عمر يناهز السادسة والسبعين خلال سعيه لبناء كنيسة.

لقد قدّم البطريرك مظلوم خدمات جلّى للكنيسة الملكية، ومنحها فسحة من الازدهار الكبير الذي ساعدها على النهوض والانتشار. فقد ارتفع عدد المؤمن الملكيين من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٨٣٣، يوم تسلّم السدة البطريركية،

(٦٠) توما مظلوم، المرجع المذكور، ص ٦، ٧.

(٦١) راجع: CHARON: *Histoire des Patriarcats Melkites*, II: 278-279.

(٦٢) الذكرى المئوية...، ص ٢٨.

(٥٨) حول إنشائه، رجع: الشماس، المرجع

المذكور، ١٢٧:٣؛ الذكرى المئوية...، ص ٢٢، ٢٣، ٢٧، ١٠١، ١١٩، ١٤١، ١٤٢.

(٥٩) الذكرى المئوية...، ص ٢٢.

الحساب الغريغوري، انقسمت البطريركية إلى فريقين: الأول موالٍ ويضم أساقفة حلب وحمص وحموران وصور وعكا، والثاني معارض ويضم أساقفة بيروت وزحلة وبعبك وصيدا. وكانت حجة المعارضة أن استعمال الحساب الغريغوري قد يؤدي إلى انشقاق في أبرشياتهم، وقد يشجع حركة الليتنة وتفرغ الكرامى الشرقية من المؤمنين .

كذلك انقسم رجال الكليس وشمل الانقسام الأبرشيات المختلفة. وقاد المعارضة الدمشقية الأب يوحنا مساميري، في حين قاد المعارضة الاسكندرية الأب جبرائيل جبارة. وتبع ذلك انقسام في صفوف الشعب في كل من مصر ودمشق وصور وصيدا. وتأسست من بعض المعارضة كنيسة جديدة أطلق عليها اسم «كنيسة الشرقيين». ورفعت الشكاوى إلى الكرسي الرسولي والباب العالي والسفراء والقناصل (٦٦).

هذا الأمر خلق بلبلة وفوضى عارمة في البطريركية الملكية صعب حلها بعد تمسك الأطراف المختلفة بمواقفها. فلم يجد البطريرك أمامه إلا الأساقفة، في تموز (يوليو) عام ١٨٥٨، فوضع كتاب استقالته في دمشق ووقعه باسم «القس ميخائيل بحوث»، وتوجه ليلاً إلى دير الخالص (٦٧). لكن الدمشقيين

برونوني، وانتخب آباء المجمع رئيس أساقفة عكا والجليل المطران اقليمضس بحوث. وقد حصل على صك التثبيت والباليوم، من البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨)، في ١٦ حزيران (يونيو) من العام نفسه. وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) تسلّم الإنعام البابوي بلقب «بطريك أنطاكية والإسكندرية وأورشليم» على كنيسة الروم الملكيين (٦٣).

إن الازدهار الكبير الذي عرفته كنيسة الروم الكاثوليك في عهد البطريرك مظلوم تعرّض لنكسة عنيفة في هذا العهد. فقد أصدر البطريرك بحوث منشوراً، في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٧، قرّر بوجه اعتماد الحساب الغريغوري بدل البولياتي دون استشارة معظم الأساقفة (٦٤)، مما أحدث انقساماً في البطريركية. ويظهر أن هذا الموضوع قد طرح قديماً في البطريركية الملكية، لكنه كان يؤجل دائماً إلى ما يترتب عليه من انفصال عن التراث البيزنطي الشرقي. وهذا الحساب تعتمد عليه الكنيسة الغربية في حين أن البطريركيات الأرثوذكسية كانت ما زالت تستعمل الحساب البولياتي. وكانت رومة قد طلبت من البطريرك مظلوم بت هذا الموضوع، إلا أنه تمكّن من التحاشي عنه نظراً لانعكاساته السلبية (٦٥).

فبعد صدور المنشور البطريركي بفرض

du Seuil, Paris, 1962, pp. 288, 289.

(٦٥) الأب ألياس كوير الخلصي: هؤلاء هم أبائنا الخلصيون، منشورات الرهبانية الخلصية، ١٩٨٣، ص ٩١.

(٦٦) المرجع السابق، ص ٩٢.

(٦٧) مختصر تاريخ طائفة... ص ١٣٠.

(٦٣) «البطريك الصالح الذكر اقليمضس بحوث»، مقال في المسرة، السنة ١ (١٩١٠) ص ١٨٥.

(٦٤) راجع ملاحظات هذه القضية عند: حاج:

الرهبانية الباسيلية...، ١٨٨٢-٢٠٤، Joseph HADJAR: Les Chrétiens Uniates du Proche-Orient, Ed.



البطريرك غريغوريوس الثاني يوسف سيور

وانضبط المعارضون، اجتمع البطريرك بحوث بأساقفته، في ٢٤ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٦٤، في كنيسة دير مار يوحنا الشوير، وأعلن استقالته النهائية، وخرج من الكنيسة لينطلق إلى دير المخلص حيث عاش حتى وفاته سنة ١٨٨٢، مواظباً على الإمامة والتفشف وحياة الزهد والصلاة والتأمل (٧٢).

أما الأساقفة فقد اجتمعوا، في ٢٩ أيلول (سبتمبر) من العام نفسه، وانتخبوا المطران غريغوريوس يوسف سيور، مطران عكا، بطريركاً باسم غريغوريوس الأول.

Letouzey et Ané, Paris, 1952, p. 566.

(٧١) الشمس، المرجع المذكور، ١٤٤:٣.

(٧٢) المرجع السابق، ص ١٤٤، ١٤٥؛

«البطريرك الصالح الذكر...»، ص ١٨٩ كوبر،

المرجع المذكور، ص ٩٤-٩٦.

والأساقفة الموالين رفضوا هذه الخطوة وكتبوا إلى الكرسي الرسولي طالبين التدخل فأرسل البابا بيوس التاسع رسالته الشهيرة، في ٦ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٠٨، رافضاً الاستقالة وطالباً من البطريرك مواصلة مسؤوليته بروح الغيرة الرسولية والتقوى والنشاط، الصفات التي طالما اتصف بها إلى جانب القداسة والتجرد (٦٨). وفي الوقت نفسه أجبر المعارضين على الطاعة بعدما ألغى مجعماً غير قانوني عقده في عين الزوق بالقرب من زحلة، في ١٢ آب (أغسطس) عام ١٨٥٩ (٦٩).

إن التدخل البابوي الذي حصل لم يكن ليُلغى الخلاف الذي ظلّ كامناً في النفوس، إلا أن أحداث ١٨٦٠، والمذابح التي تعرّض لها المسيحيون في لبنان وسورية، واستعمال قناصل الدول، وعلى رأسهم فرنسا، الحساب الغريغوري، فضلاً عن استعماله من قبل الطوائف الكاثوليكية الأخرى، جعل الخلاف يضمحل من تلقاء نفسه (٧٠)؛ باستثناء قلة انضمت إلى الكنيسة الأرثوذكسية. أما الأب جبرائيل جبارة فقد أصرّ على معارضته حتى وفاته سنة ١٨٨٠، في حين انحاز الأب يوحنا مساميري إلى الروم الأرثوذكس، لكنه عاد إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية في عهد البطريرك غريغوريوس يوسف سيور (٧١).

وبعد ان استتب الوئام في البطريركية،

(٦٨) «البطريرك الصالح الذكر...»، المقال

المذكور، ص ١٨٧، ١٨٦.

(٦٩) مختصر تاريخ طائفة...، ص ١٣٠؛

MUSSET, *op. cit.*, p. 142.

Charles de CLERCQ: *Histoire des conciles* (٧٠)

d'après les documents originaux, Tome XI, Lib.

المرحلة الثالثة: غريغوريوس يوسف سيّور:
نهضة بعد تخرّ

تولّى غريغوريوس يوسف الأول سيّور (٧٣) السّدة البطريكية في ظروف صعبة ورثها من أيام سلفه البطريك بحوث. ومن عريب الصدف أن ينتمي الاثنان إلى الرهبانية المخلصية، وأن يخلف سيّور البطريك بحوث على كرسي عكا سنة ١٨٥٦، ومن ثم على السّدة البطريكية سنة ١٨٦٤.

وعلى جري العادة، أبلغ السينودس الانتخابي الكرسي الرسولي انتخاب المطران غريغوريوس بطريكاً، طالباً تشيته. وقد أرسل البابا يوس التاسع (١٨٣٦-١٨٧٨) صلح التثبيت والباليوم في ٢٧ آذار (مارس) عام ١٨٦٥.

لقد كانت البطريكية عشية انتخاب سيّور بطريكاً، في دير القديس يوحنا الصابغ في

الخنشارة، منقسمة على نفسها من جراء اعتماد الحساب الغريغوري، وتعاني الأمرين من ذيول أحداث ١٨٦٠، التي ألحقت بها أضراراً جسيمة. فالملكيون، مع غيرهم من مسيحيي دمشق، تعرّضوا لمذبحة كبرى، ليل ٨-٩ تموز (يوليو) عام ١٨٦٠، ذهب ضحيتها عشرة آلاف مسيحي، بحسب مصادر ذلك الزمان. كما تعرّضت أبرشية زحلة لنكبة كبرى إثر تعرّض المدينة للاجتياح. وكذلك تعرّضت أبرشيات جنوبي لبنان وفلسطين لحسائر فادحة أفلها تحوّل قرى مسيحية بكاملها، في فلسطين، إلى الإسلام لكي تحمي نفسها من الاضطهاد والابادة (٧٤).

وبذلك تكوّنت أمام البطريك الجديد ورشة عمل مثقلة للبناء:

أولها: معالجة ذيول الاضطراب الحاصل في البطريكية، من جراء الحساب الغريغوري في

سيور قد تبنى اسم والده يوسف مع اسمه ليصبح غريغوريوس يوسف وبالتالي يكون الأول بهذا الاسم. واما أن يكون قد حسب نفسه الأول بهذا الاسم في السلسلة الأنطاكية الكاثوليكية منذ سنة ١٧٢٤. لذلك فلما أن يلقب بغريغوريوس الرابع نسبة إلى السلسلة الأنطاكية للبطاركة، وإما أن يسمى بغريغوريوس يوسف الأول كما وردت على اللوحة التذكارية في باب المصلّى. وقد اعتمدنا الحالة الثانية مؤقتاً ريثما يتم إيجاد حل شامل للسلسلة الأنطاكية. أما المراجع الغربية فتطلق عليه اسم غريغوريوس الثاني يوسف، لأن السلسلة الرومانية لبطاركة أنطاكية لا تضم غريغوريوس الأول السينائي (٥٧٠-٥٩٣).

(٧٤) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت - لبنان، ١٩٦٩، ص ١٤٥.

(٧٣) يقول الأب يوسف الشماس المخلصي إن اسمه هو غريغوريوس الثاني يوسف؛ لأن غريغوريوس الأول قد تولّى السّدة البطريكية من سنة ٥٧٠ إلى ٥٩٣ م. ولما راجعنا سلسلة البطاركة الأنطاكيين وجدنا ذلك صحيحاً، لكننا وجدنا أيضاً غريغوريوس الثاني (٦١٠-٦٢٠) وغريغوريوس الثالث (١٤٨٣-١٥١١). فوقنا في حيرة وراجعنا بعض الوثائق والمستندات التي بحوزتنا فوجدنا أن غبطته كان يصدر كل مناشيره البطريكية بعبارة: «غريغوريوس الأول برحمته تعالى بطريك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم وماتر المشرق». كما وجدنا اسم غريغوريوس يوسف الأول على اللوحة التذكارية الموجودة على مدخل جمعية القديس جاورجيوس الخيرية في مخورنية باب المصلّى في دمشق، والتي تعود إلى غرة كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٨١. وبالتالي فلما أن يكون البطريك

عهد البطريرك بحوث سنة ١٨٥٦. ففتح باب الحوار مع المنشقين، واستقبل المطران يوانيكس المساميري، أسقف الميرا (تدمر) الأرثوذكسي. فأعاده إلى حضن كنيسته، وثبته في درجته الأسقفية بموجب إعلام بطريركي صادر بتاريخ ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٦٥ (٧٥).

ثانيها: معالجة الاضطراب الحاصل في الرهبانية المخلصية بين الرهبان البلديين والرهبان الدمشقيين. وقد عايش غبطته هذا الخلاف، وعرف كوامن النزاع المرير بين الفريقين يوم كان كاتماً لأسرار الرئيس العام اقيمس مشاقفة البلديين. وقد عالج البطريرك الجديد الموضوع بحكمته المعهودة ودرأته الفائقة، فأقنع الدمشقيين بالعودة إلى ديرهم في جون، وأعاد اللحمة إلى الرهبانية (٧٦).

ثالثها: إنهاض الكنيسة الملكية بعد النكبات التي حلت بها داخلياً، وخارجياً. وهذه الورشة استحوذت على الجزء الأكبر من اهتمام غبطته وجهوده طيلة فترة ولايته.

فقد عالج البطريرك سيور مسائل كنيسته بروية، وسياسة حكيمة، وبرنامج إصلاحية

شامل يشمل البشر والحجر. وكانت الخطوة الأولى العناية بالرعاة الموكولة إليهم أمور الرعية، أي رجال الإكليرس. فبدأ بتعيين أساقفة في الأبرشيات الشاغرة، أو التي شغرت خلال ولايته، وبلغوا ١٦ أسقفاً. وبأدر إلى ترميم إكليريكية عين تراز، سنة ١٨٦٦، التي دمرتها أحداث ١٨٦٠. كما أرسل الطلاب الاكليريكيين إلى رومة وفرنسة لتلقي العلوم في مدارسها الكبرى، وحضّ الرهبانيات الملكية على العناية بالتثقيف الرهباني وتطويره ليتمكن الرهبان من خدمة الرعايا بشكل كافٍ وسليم.

واهتم بالمدارس فوضع، في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٦٥، الحجر الأساسي للمدرسة البطريركية في بيروت (٧٧)، بعدما ازداد نشاط البروتستانت في بيروت وشكلوا خطراً على الكتلثة وجبت محاربتها (٧٨).

وقد استقبلت المدرسة طلاباً من أنحاء الشرق كافة، فتوافدوا إليها من لبنان ومصر وفلسطين وسورية والعراق. وكانت قادرة على استيعاب ٣٠٠ طالب في مرحلتها التأسيسية بفرعها الداخلي والخارجي (٧٩). وقد أسهمت في بث إشعاع المعارف والآداب في الشرق، حاضنة «شبان الوطن من كل ملة وجنس

(٧٧) أنظر نبذة عنها عند: الشماس، المرجع المذكور، ١٥٤:٣-١٥٦.

(٧٨) MUSSET, *op. cit.*, p. 144.

(٧٩) مايا صفا: «المدرسة البطريركية (١٨٦٤-١٩٩٤) الفضيلة قبل العلم...» مقال في مجلة الاعتبار، ٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٤، ص ٣١.

(٧٥) مختصر تاريخ...، ص ١٤٠؛ كوتر، المرجع المذكور، ص ١٠٩. والجدير بالذكر ان المطران يوانيكس هو الأب يوحنا المساميري المعارض للحساب الفريروري، الذي سبق ذكره، وقد انضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية وعين مطراناً على الميرا. وقد توفي في دمشق، في ١٣ أيلول (سبتمبر) عام ١٨٧٠.

(٧٦) مختصر تاريخ...، ص ١٤٠.

والمذهب، مراعية العواطف الدينية المذهبية حتى
المراعاة» (٨٠). وسجلها حافظ بالأعلام في اللغة
والأدب والسياسة والدين، الذين تخرجوا من
صرحها العريق مسهمين في بلورة حركة ثقافية
وسياسية كان لها الأثر العميق في حركة النهضة
الأدبية والعلمية في لبنان. نذكر من هؤلاء
الخريجين، على سبيل المثال لا الحصر، المطران
بطرس كامل مدور، سليم تقلا، عبد الله
البيستاني، خليل مطران، رشيد نخله، شبلي
ملاط، حبيب باشا السعد، حبيب أبو شهلا،
رياض الصلح، أمين نخله، عبد الله اليافي،
وغيرهم... (٨١).

وقد اهتم غبطته ببناء المدارس في كل أنحاء
بطريكيته، حتى قيل انه فتح مدرسة للأحداث
بجانب كل كنيسة لأنه كان يعتقد أنه «بدون
المدرسة لا تعمر الكنائس» (٨٢).

إلا أن أهم إنجاز له، في هذا المجال، كان
تجديده ببناء المدرسة البطريركية في دمشق،
والتي كانت قد أنشئت في عهد البطريرك
مظلوم واحترقت في أحداث ١٨٦٠. وكانت
الغاية من تجديدها تأمين مدرسة لسكان دمشق
تزوّد أبناءهم بالعلوم الصحيحة والمبادئ القويمة
وثقافة لائقة «بالطائفة»، والحفاظ على الطقس
الشرقي ومحاربة الليتنة بعدما عمد الآباء

أما عن حركة الاتحاد في عهد البطريرك
سيور، فقد شهد عهده حركة انضمام إلى
الكنائس كان مسرحها مناطق جديدة مرجعيون
وبانياس، وفلسطين، وشمال لبنان. ففي
بانياس والجديدة، رعى الحركة الأب بطرس
الجرجيري، من إكليروس زحلة. ولما تكاثرت
عدد المنضمين قرّر غبطته إحياء كرسي قيصرية
فيلبس القديمة، فعين عليها الأب المذكور أسقفاً

المرجع المذكور، ص ١٥٧-١٥٩؛ إغناطيوس
قروشان: «لحة تاريخية في المدرسة البطريركية
بدمشق»، مقال في المصوّرة، السنة ٢ (١٩١١)، ص
٣٢٥-٣٣٥.

(٨٤) راجع أسماء الكنائس التي بناها في:
مختصر تاريخ...، ص ١٥٤.

(٨٠) ناصيف جرجي أي زيد اللبناني: كتاب
الدليل المسعين إلى تاريخ وشرائع الروم الملكيين،
الطبعة العلمية في مصر، ١٩٠٤، ص ٣٥٢.

(٨١) مايا صفا، مقال المذكور، ص ٣٥.

(٨٢) الشمس، المرجع المذكور، ص ١٤٩.

(٨٣) المرجع السابق نفسه.

راجع نبذة عن تأسيسها وتاريخها عند: الشمس،

في ٢١ شباط (فبراير) عام ١٨٨٦^(٨٥). كما واجه، منذ سنة ١٨٨٦، حركة مماثلة في أيرشية طرابلس بعناية الأب بارنيه اليسوعي (P. Barnier). وكانت هذه الحركة سبباً لإنعاش أيرشية طرابلس وتسليمها إلى المطران يوسف الدوماني (١٨٩٧-١٩٢٢)^(٨٦). وواجه في فلسطين منذ سنة ١٨٨٥، حركة انضمام في نابلس والرملة في عهد النائب البطريركي اغناطيوس معقد (١٨٨٠-١٨٨٦)^(٨٧) الذي رعاها بموافقة غبطته ودعمه.

والكنيسة الملكية الكاثوليكية مدينة لهذا البطريرك بمنجزات ثلاث مهمة هي:

١) حرصه على حقوق الكنيسة الشرقية وامتيازاتها

كان المرسلون اللاتين يحاولون تأسيس رعايا تابعة لبطريركية اللاتين في الشرق. وكانوا يستغلون مدارسهم لاستقطاب المؤمنين الذين كانوا ينتمون إلى الكنائس الشرقية المتنوعة. كما كانوا يقدمون بعض الخدمات في السكن والمعيشة للرعايا الشرقيين في محاولة لجذبهم إلى الطقس الغربي. وكانت محاولاتهم تنجح في معظم الأحيان، نظراً إلى فقر الناس في الأبرشيات الشرقية. ولا مجال لتفصيل كل الحالات التي حصلت في ذلك الزمان. بل نستحضر فقط حادثة رواها دليل المسرة، لعام ١٩٤٧، نظراً إلى أهميتها

التاريخية، ويمكن أن تكون مثلاً حياً لعملية الليتنة في الشرق. ففي عام ١٨٨٤ علم الأب اغناطيوس معقد، النائب البطريركي في أورشليم، أن سبعمائة وعشرين أسرة من أبناء كنيسة الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس قد انضمت حديثاً إلى طائفة اللاتين. فعرض الأمر على السيد الذكر السيد منصور براكو بطريك اللاتين (١٨٧٣-١٨٨٩). ولما كان جوابه سلبياً، عرض الأمر على الكرسي الرسولي الذي طلب إعادة الأسر إلى طقسها الشرقي مع الإبقاء على ما تتمتع به من إحسانات وامتيازات (بيوت سكن، توزيع خبز). حينئذٍ اعترض أحد الرهبان الفرنسيين، لأن عملهم هذا سيلزمهم بمثل تجاه الموارنة والأقباط والسريان والأرمن. فحضر بذلك طائفة اللاتين معظم رعاياها. وهكذا بقيت تلك الأسر على الطقس اللاتيني^(٨٨).

هذه المعاناة التي استنزفت رعايا الكنائس الشرقية كانت تقض مضاجع الكنيسة الملكية. فلقد كان الروم الكاثوليك يشكلون أصغر الكنائس الشرقية، وهم لا يتحملون خسارة أعداد منهم، خصوصاً إذا كان تحول هؤلاء إلى الطقوس الغربية، لا الشرقية. من هنا نفهم مدى حرص غبطة البطريرك سيور على كنيسته، كما أن العلاقة التي نشأت بين الكنائس المتحدة ورومة كان يشوبها الكثير من

(٨٥) الشماس، المرجع المذكور، ١٥٢:٣.

(٨٦) المرجع السابق، ١٥٣:٣.

(٨٧) هو نفسه المطران جرمانس معقد

(١٨٨٦-١٩١٢)، مؤسس جمعية المرسلين البولسيين

سنة ١٩٠٣.

(٨٨) دليل المسرة لعام ١٩٤٧، مطبعة القديس

بولس، حريصا - لبنان (١٩٤٧)، ص ٩١.

التمسكة بأولية البابا وعصمته بحسب المفهوم الروماني. كما اغتاض البابا واستدعى البطريرك الكلداني، ووجه إليه كلاماً قاسياً نهرأً وتأنياً، وأجبره على الخضوع لكل ما فرضته البراءة الرسولية Reversurus، الصادرة بتاريخ ١٢ تموز (يوليو) عام ١٨٦٧، الموجهة إلى الأرمن والتي سمحت لكرسي رومة بالتدخل مباشرة بتعيين البطاركة والأساقفة.

أما البطريرك سيور فكان له موقف واضح من مسألة أولية البابا وعصمته التي، وإن كانت مسألة تنظيمية، فهي تشكل في تحديدها في ذلك الطرف خطراً كبيراً على عودة «الإخوة المنفصلين» إلى الوحدة الكنسية، فكيف إذا حوكلها إلى عقيدة إيمانية^(٩٠). لكن المجمع طرح المسألة على البحث، بالرغم من كل المخاض، في ١٣ أيار (مايو). وكان موعد البطريرك سيور مع الحدث في ١٩ أيار (مايو)، إذ اعتلى المنبر ليلقي خطابه الأول باللاتينية^(٩١)، والذي تضمن عرضاً مناقضاً لتقسيمات فضلي «الإيمان» و«الكنيسة»، وأقرّ بأن الكنيسة الشرقية تعترف بأولية البابا، ولكنها تتمسك دائماً باستقلالها وحقوقها، وأن اعتراف البابا بهذه الحقوق هو أساس اتحاد كنيستنا مع الكنيسة الرومانية، وأن الكنيسة الشرقية قدّمت أقصى تنازلاتها في مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩، وإذا طلبت رومة اليوم تنازلات أكبر تكون هي التي تهدم أسس الاتحاد. أما في ما يتعلق بالعقائد فإن الكنيسة

سمات التبعية المباشرة. وهذا لم يكن ليعجب بعضهم.

لذلك ما إن أصدر البابا براءته الرسولية الآب الأزلي (Aetemi Patris)، في ٢٩ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٨، داعياً فيها العالم المسيحي إلى مجمع مسكوني لدرس بعض القضايا الهامة التي تخصّ الكنيسة جمعاء، حتى هاج الشعب الملكي الكاثوليكي. فمسألة الحساب الغريغوري ما زالت ماثلة في الأذهان، وحرمة الليتنة ما برحت على أشدها، مسهمة في تفرغ الكراسي البطريركية الشرقية من المؤمنين. لذلك قرّر غبطة البطريرك سيور عقد مجمع للأساقفة لدرس الموضوع. والتأم السينودس، من ٧ إلى ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٨٦٩، في دمشق، وتقرّر فيه ذهاب البطريرك مع ثمانية أساقفة للمشاركة في أعمال المجمع، الذي افتتح أعماله قداسة البابا بيوس التاسع في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٦٩، متمسكين بموقف حازم، وهو المحافظة على حقوق الكنائس الشرقية الكاثوليكية^(٨٩).

وفي ٢٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٨٧٠، ألقى البطريرك الكلداني «أودو» خطاباً تكلم فيه عن العلاقة بين رومة والشرق، وشدد على أنها علاقة دينية، لا تهذيبية. ورفض التنازل عن حقوق الطقوس الشرقية وعوائدها. وقد أحدث الخطاب ضجة كبرى، وأثار الأكثرية المحافظة

فريجات الخلصي: الكنيسة الملكية والمجمع الفاتيكاني الأول، ظهر هذا البحث في مجلة «الوحدة في الإيمان»، ١٩٧٠، ص ٥٥-٦٢.

(٨٩) كوتر، المرجع المذكور، ص ١١٥.

(٩٠) المرجع السابق، ص ١١٨.

(٩١) أنظر ترجمة للخطاب عند الأخ فايز

لم يكن البابا مرتاحاً لهذا الموقف، وهو المعروف بخشونة طبعه وقسوة معاملته وحب السيطرة الذي يمتلكه. لذلك اجتمع بالبطريك سيور وزجره قائلاً: Testa Dura Gregorio، أي أيها الرأس العنيد يا غريغوريوس. وتقول بعض المراجع إنه أساء معاملته مما دفع بغبطته إلى مغادرة رومة، مع أساقفته، قبل حصول التصويت على أولية البابا وعصمته. إلا أن بيوس التاسع طلب من المعارضين، والأساقفة المتغيبين عن التصويت، إعلان موافقة خطية. وتروى البطريك قبل الإجابة، إلا أنه بعدما رأى خضوع معظم الأساقفة المعارضين، وبعدهما تزايد ضغط مجمع انتشار الإيمان على كاهله، كتب إلى رومة، في ٨ شباط (فبراير) عام ١٨٧١، ما يلي: «إني لا أتردد في إعلان موافقتي التامة وإيماني بالتعاليم التي تعلنها الكنيسة الكاثوليكية في جميع مجامعها بما فيه المجمع الفاتيكاني وجلسته الرابعة. إني أؤمن بجميع العقائد التي حدّتها هذه الكنيسة بما فيها ما يختصّ بالسلطة التعليمية المعصومة التي يتمتع بها رئيسها الأول ونائب المسيح المنظور... ولكن في ما يختصّ بالنظام الكنسي مع إذن نياقتكم، واعتباراً لازدهار الدين الكاثوليكي في الشرق، لا سيما في ما يختصّ بالطقس اليوناني، أرى لزاماً على ضميري أن أقوم بالتحفظ الذي عبّر عنه رسمياً المجمع الفلورنتيني بالعبارة: مع الحفاظ على جميع حقوق

(٩٢) راجع ترجمة الخطاب عند: فريجات، المرجع المذكور، ص ٦٣-٧١.
(٩٤) أيرص، المرجع المذكور، ص ٣٣٥.

الشرقية لا ولن تعترف بعقائد غير التي أقرتها المجمع المسكونة الكبرى للكنيسة جمعاء، قبل الانفصال لأنها تحفظ وديعة الإيمان بكل أمانة. وأخيراً دعا آباء المجمع إلى رفض التصميم بكامله وخصوصاً عقيدة العصمة البابوية، إنقاذاً لوحدة كنيسة المسيح (٩٢).

كان لخطاب البطريك سيور وقع مؤثر، فقد أثار الذعر عند الأسكترية المحافظة، ودفع بالبطريك الأرمني حسون والبطريك اللاتيني فاليرغا إلى الردّ بعنف على البطريك الملكي واتهامه بالغاليكانية. كما أن مجمع التفتيش بدأ بدرس إمكانية رفع دعوى على البطريك ورشقه بالحرم.

إلا أن البطريك لم يتراجع عن مواقفه، بل دبّج رداً على منتقديه ومعارضيه في خطابه الثاني الذي ألقاه أيضاً باللاتينية في جلسة ١٤ حزيران (يونيو) (٩٣). وقد قدّم في خطابه تصويراً حياً لتعديات «الرومانيين على استقلالية الكنائس الشرقية بانتهاكاتها الجسيمة لوثيقة الاتحاد والاضطهادات التي يتعرّض لها الأساقفة «الوحدويون» في أماتهم على حفظ طقسهم ونظامهم اللذين تعهّدت الكنيسة الرومانية باحترامهما على لسان الدوائر الرومانية والبروبغندا. فلما أن انتهت تلك التجاوزات وإما أن ينفصم الاتحاد بالكنيسة الرومانية، لأن الكنيسة الشرقية لا تقبل أبداً بالعقائد الرومانية المطروحة في هذا المشروع» (٩٤).

(٩٢) الأب ميخائيل أيرص: «البطريك غريغوريوس يوسف والمجمع المسكوني الفاتيكاني الأول»، مقال في المسرّة، السنة ٧٠ (١٩٨٤)، ص ٣٣٢، ٣٣٣.

وامتيازات البطارقة» (٩٥).

لقد ظلّ البطريرك سيّور متمسكاً بحقوق الكنيسة الشرقية، وحذراً من موقف كرمسي رومة، حتى أواخر ولايته، على الرغم من عطف لأون الثالث عشر (١٨٧٨-١٩٠٣)، خليفة بيوس التاسع، على الشرقيين. ولكن خوف البطريرك غريغوريوس وحذره بدأ بالتلاشي إثر المؤتمر القرباني الدولي الذي عقد، في أيار (مايو) عام ١٨٩٣، في أورشليم. ففي هذا المؤتمر اجتمع مندوب البابا الكردينال لونجينيو (Langénieux) ببطريرك ونداولا في أمباب تعترّ عمل الكرسي الرسولي، سواء من قبل المرسلين اللاتين أم من قبل الإكليروس الوطني، وسلّم إلى الكردينال تقريراً مسهباً شرح فيه شكواه من الأمور التالية (٩٦):

- حركة الليتنة بواسطة المرسلين اللاتين ومدارسهم، على الرغم من أوامر البابا بندكتس الرابع عشر (١٧٤٠-١٧٥٨)، وبراءتيه *Aelatae sunt* و *Demandatam*.
- تدخل القضاة الرسولين في شؤون البطريركية الداخلية.
- سهولة استقبال أبناء الروم الملكيين في الكنيسة اللاتينية.
- المعونات التي تندفق على اللاتين دون الطوائف الشرقية.

كما أن صدور براءة قدااسة البابا لأون الثالث عشر «*Praeclaram Gratulationis*»، في ٢٠ حزيران (يونيو) عام ١٨٩٣، والتي شدد فيها على شرعية التعددية في الكنيسة من ضمن الوحدة في الإيمان والسلطة العليا والاعتراف بالنظام البطريركي، أسهم في انفراج الوضع ومهد لدعوة من قداسته لصاحب الغبطة بزيارة رومة. فسافر سيّور في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) يرافقه كاتم أسرار الخوري ميخائيل شريم والنائب البطريركي في أورشليم فيليبس ملوك. واستقبل غبطته بحفاوة بالغة، استقبلاً يليق برؤساء الدول (٩٧). وفي ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) بدأت الجلسات الرسمية للقاء الذي شارك فيه بطريرك السريان بهنام (١٨٣٩-١٨٩٧)، والنائب البطريركي الماروني المطران يوسف الخويك وخمسة كرادلة. وفي هذا اللقاء أبدى قداسته حرصه على توحيد الكنائس الشرقية، واستعداده للعمل على توطيد سلطة البطارقة والحفاظ على امتيازاتهم وحقوقهم (٩٨).

وقد أثمر هذا اللقاء براءة رسولية بعنوان «*Orientalium dignitas*»، في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٣، أمر فيها البابا لأون الثالث عشر باتباع الشرع الشرقي عوضاً عن الحق القانوني الغربي، والعودة إلى روح

ميخائيل شريم: «رحلة البطريرك غريغوريوس الأول إلى رومة سنة ١٨٩٤»، مقال في المسرّة، السنة ٨ (١٩٢٢)، ص ٢٦٠-٢٦٤، ٣٩٢-٣٩٦.

(٩٨) حاج: الرهبانية الباسيلية الشويرية...، ٢٩٢:٢.

(٩٥) الأب اغناطيوس ديك: «الجمع الفاتيكاني الأول والأساقفة الشرقيون الكاثوليك»، مقال في لشرة أبرشية حلب للروم الكاثوليك، ١٩٨٣، العددان ٤ و ٥، ص ٤٢.

(٩٦) كويتز، المرجع المذكور، ص ١١٦.

(٩٧) يمكن مراجعة تفاصيل الزيارة عند:

مجمع فلورنسا، والحد من صلاحيات الرؤساء الكنسيين المحليين، وتعزيز الكنائس الشرقية وصيانة تراثها الروحي ونظمها وطقوسها وامتيازات بطارتها(٩٩).

كما كان من نتائج لقاء البطريرك سيّور والبابا لأون الثالث عشر أن منح قداسه البطريرك غريغوريوس الولاية الكنسية علي جميع الملكيين الكاثوليك في جميع أنحاء السلطنة العثمانية(١٠٠).

٢) تأسيس إكليريكية القديسة حنة

بنى الصليبيون في النصف الأول من القرن الثاني عشر كنيسة على اسم القديسة حنة في القدس، على أنقاض بيت القديسين يواكيم وحنة والدي العذراء مريم. وقد تحولت هذه الكنيسة، عام ١١٩٢، إلى مدرسة لتعليم الفقه الإسلامي على المذهب الشافعي بأمر من صلاح الدين الأيوبي، فعرفت منذ ذلك الحين «بالصلاحية»(١٠١)، وعندما نشبت حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٥) بين تركيا وروسيا، وقفت فرنسا إلى جانب السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) الذي خرج من الحرب متصبراً. لذلك قدّم السلطان لفرنسا مدرسة

الصلاحية، عرفاناً منه بالجميل. وتسلمت فرنسا كنيسة متداعية الجوانب، فباشرت فوراً ترميمها بإشراف المهندس موس (Mauss) الذي أعاد البناء إلى هندسته الأصلية(١٠٢) في سنة ١٨٧٧، وعرضت الحكومة الفرنسية على المطران لافيغري (١٨٢٥-١٨٩٢) والآباء البيض تسلمها. وبعد مفاوضات طويلة في رومة، وافق مجمع انتشار الإيمان، في ٨ شباط (فبراير) ١٨٧٨، على إقامة الآباء البيض في «الصلاحية» بصفة حراس وخدام. فأرسل المطران أربعة مرسلين باشروا درس اللغة العربية والاطلاع على أحوال البلاد تمهيداً لدرس فكرة إنشاء مؤسسة للدراسات الإنجليزية والأثرية(١٠٣)، إلى جانب عدد من المشاريع الأخرى.

وبنما هم في حيرة، زارهم البطريرك سيّور في ١٠ حزيران (يونيو) عام ١٨٨٠ فاستقبلوه بترحاب كبير، ولا سيما وأن غبطته كان على معرفة وطيدة بلافيغري من خلال الزيارة التي قام بها إلى الشرق، إثر حوادث عام ١٨٦٠، من قبل جمعية مدارس الشرق، ليوزع المساعدات على المسيحيين المتكويين. وكان لافيغري قد اكتشف عن كتب البؤس

(٩٩) المرجع السابق نفسه.

(١٠٠) الأب الياس اندراوس: الكنائس الشرقية البيزنطية، المرجع المذكور، ص ٢٥٥.

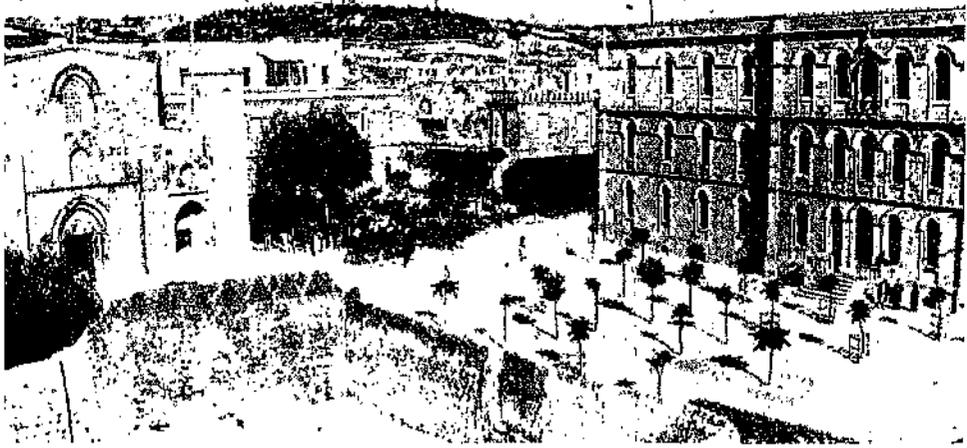
(١٠١) الأب جورج فاخوري البولسي: «مدرسة القديسة حنة (الصلاحية) تحفل بيوليها الأمامي»، مقال في المسرة، السنة ٤٥ (١٩٥٩)، ص ٦١٢.

Mgr Philippe GORRA: *Sainte-Anne de Jérusalem, Séminaire Grec Melkite dirigé par les*

Pères Blancs, Imp. St Paul, Harissa - Liban, 1922, p. 15.

(١٠٢) الحوري مخاليل بدين: «مدرسة القديسة حنة الإكليريكية للروم الكاثوليك»، مقال في المجلة الكهنوتية، السنة ٦ (١٩٥٥)، العدد الأول (كانون الثاني)، ص ٢٥.

Marius-Ary LEBLOMD: *Lavigerie et les* (١٠٣) *Pères Blancs*, Mame, Paris, 1938, p. 70.



إكليريكية القديسة حنة في أورشليم

ترميمها، إلى جانب المدرستين البطريركيتين في دمشق وبيروت. لكن غبطته كان يرى أنّ كنيسة بحاجة ماسة إلى إكليريكية كبرى تخرّج إكليروساً علمانياً لخدمة الأبرشيات في مختلف مرافقها القائمة، والمشاريع التي كان يؤمل تحقيقها (١٠٦). وكانت الرهبانيات من ناحية أخرى غير قادرة على تلبية حاجات العصر، وقد سبقها في المجال العلمي.

أطلع الآباء البيض رئيسهم الكردينال لافيجري علي رغبة البطريرك فأجابهم: «إنني أعلّق علي ما كتبتم إليّ بشأن المدرسة الرسولية أهمية كبرى بمقدار ما أعتقد بأن الطائفة الملكية

العميق الذي يعانیه المسلمون، وحاجة المسيحيين الكبرى إلى المساعدة المادية والروحية» (١٠٤).

وكرر البطريرك سيّور زيارته في ١٦ حزيران (يونيو)، وأمام حيرتهم قال لهم: «إن جمعيتكم تكون أدّت خدمة عظيمة إن رضيت أن تستقبل في هذا البيت بعض التلامذة من أولادنا الشرقيين لتعليمهم وتثقيفهم حتى يصبحوا يوماً إما معلمين من الكاثوليك وإما كهنة» (١٠٥).

إنّ هذا الاقتراح قدّم حين كانت إكليريكية عين تراز قد باشرت عملها، بعد

(١٠٦) الأرشمندريت فيلبس غرة: سنة الخمسين لتأسيس إكليريكية القديسة حنة بالقدس (١٨٨٢-١٩٣٢)، مطبعة القديس بولس في حرصا، ص ١٤.

Dom. F. MERCENIER: «Le Séminaire (١٠٤) Melkite de Sainte-Anne», art. in *Irenikon*, Tome IX, N° 6 (nov.-déc.), 1932, pp. 507-508.

Mgr BAUNARD: *le Cardinal Lavigerie*, (١٠٥) J. de Gigord, Editeur, Paris 1922, 2:117.

- أن يقيم المرسلون الحفلات الكنسية على هذا الطقس عينه، لأجل تلامذتهم الشرقيين .
لقد رأى الكردينال لافيغري في الشرق أملاً كبيراً بالعودة إلى تراث المسيحية القديم، حيث نشأ السيد وترعرع وصلى ومات وقام .
لذلك بذل جهوداً جبارة لتقريب الشرق من كنيسة رومة، باستغلال كل المناسبات . وكان رده عنيفاً على حركة ليتة الشرق، وإفراغه من روحانيته الخاصة . فكتب إلى وزارة الخارجية الفرنسية ومجمع انتشار الإيمان، معارضاً هذا المنحى في العمل الرسولي، ومظهراً الخطأ الفادح الذي ارتكبه الفرنسيون، ويرتكبه الكثيرون من المرسلين الكاثوليك في إبعاد الشرقيين عن طقسهم (١١١) .

ومن وحي هذه الروح الشرقية، قبل الكردينال لافيغري أن يتبنى مقدسات القديسة حنة، وأن يحول مزارها في ما بعد إلى إكليريكية، هدفها تزويد الطلاب بالفضيلة والعلوم الدينية، ليتحولوا في المستقبل إلى كهنة يندرون أنفسهم للعمل بين مسيحي الشرق .
ولقد حافظت الإكليريكية على روح مؤسسها، لا في الطقس والتعليم فقط، بل في طرق

هي الأكثر عدداً في الشرق وأن الروم الملكيين وإكليرسهم في حاجة قصوى إلى أن يساعدوا في هذا الشأن» (١٠٧) . وللحال اتصل الكردينال بحكومة غامبيتا (Gambetta)، وبين لها أهمية هذا المشروع، فقدم له البرلمان الفرنسي تسعين ألف فرنك لمباشرة العمل (١٠٨) . ولما أعلم قداسة الحبر الأعظم لأون الثالث عشر بالمشروع وافق فوراً قائلاً: «إنني أذن لك، لا بل أمرك بأن تؤسس في القديسة حنة بأورشليم إكليريكية للروم الملكيين» (١٠٩) . ولقد تلقى كذلك رسالة من رئيس مجمع انتشار الإيمان، في ١٨ آذار (مارس) عام ١٨٨٢، يعلمه فيها بأن المجمع المقدس قد وافق على مشروعه الذي ينوي تنفيذه في الشرق، وهو يتضمن أربع نقاط (١١٠):

- أن تكون القديسة حنة مجانية لأحداث الروم الملكيين، يستعدون فيها إما للكهنوت وإما لمهنة التعليم .
- أن ينشأوا على عوائد بلادهم وعلى طقسهم الخاص .
- أن تقام الصلاة في كنيسة المدرسة على الطقس الشرقي .

مقال في المرسرة، السنة ١٨ (١٩٣٢)، ص ٥٢٨
BAUNARD. *op. cit.*, T. II, p. 121; Mgr. Antonios FARAGE: *le Cardinal Lavigerie et l'esprit d'Apostolat en Orient*, imp. Saint-Paul, Harissa (Liban) 1932, p. 35.

(١١١) الأب الياس اندراوس البولسي: «أحد أصدقاء الشرق العظام الكردينال لافيغري (١٨٢٥-١٨٩٢)»، مقال في المرسرة، السنة ١٢ (١٩٢٦)، ص ٧٦، *BAUNARD op. cit.*, T II, p. 106.

BAUNARD, *op. cit.*, Tome II, p. 117. (١٠٧)

(١٠٨) الخوري نقولا دهان: «نبذة تاريخية في مدرسة القديسة حنة الإكليريكية» مقال في المشرق، السنة ١٠ (١٩٠٧)، ص ٨٦ .

(١٠٩) دليل المرسرة، ص ٩٥، P. PORTIER, «lettre-rapport à Mgr Lagier», in *Bull. d'O.E.O.* n° 410, (disc. 1932), p. 186.

(١١٠) نقلاً عن الأب الياس اندراوس البولسي: «الكردينال لافيغري وروح الرسالة في الشرق»،

العيش المادية أيضاً^(١١٢).

لقد أسهم لافيحري في الحفاظ على شخصية الكنائس الشرقية التي كان يريدنا شرقية، ويريد أبناءها شرقيين على مثال أجدادهم، لأنه أدرك بعقله الواسع الحضيف أنّ الشرق لا يرتقي ولا يعود إلى وحدة الإيمان إلاّ عن طريق عوائده وطقوسه^(١١٣).

إن المهمة الأساسية التي أخذتها الإكليريكية على عاتقها هي تنشئة كهنة «سوريين وفلسطينيين ومصريين» من حيث التطوع والطقس واللغة والخدمة. ولم تتمّ هذه المهمة من خلال الدروس النظرية وحسب، بل كذلك من خلال الدروس العملية التطبيقية التي قدّمها الآباء البيض إلى طلابهم ومثلهم الصالح وقداستهم الكهنوتية وأفكارهم الكاثوليكية وسيرتهم الرسولية الحقيقية^(١١٤). فكان خريج الإكليريكية يحمل علامات الآباء البيض من تواضع وتخلّ عن خيرات الدنيا وثقافة واسعة ونفس عالية. فأهلته هذه الصفات لخدمة النفوس على أكمل وجه.

كما أن البرامج التي أعدّها الآباء البيض لطلابهم كانت كافية لإعداد الكاهن الرصين والنشيط والكامل في آدابه الخاصة، والغيور على خدمة النفوس^(١١٥)، حتى إن شهرة «الصلاحية» انتشرت بين صفوف المسيحيين، فأصبحت الأمر الملكية في دمشق وحلب ومدن الشرق الأدنى العربي تفتخر بأن ترسل أولادها ليتلقّوا العلوم على أيدي الآباء البيض في القدس^(١١٦).

وعلى الرغم من المصاعب المادية الخائفة التي عانتها الإكليريكية فقد استطاعت أن تخرّج حتى عام ١٩٣٢ زهاء ٩٤٦ طالباً رسم منهم ١٣٤ كاهناً وثلاثة شماسة^(١١٧). ومن لم يرتسم منهم بلغ أرقى الوظائف، حتى أصبح ارتقاء الوظائف الرفيعة مرادفاً للتخرّج من «الصلاحية».

٣) ضراء مزار القديسة فيرونيكا

كان مقام القديسة فيرونيكا^(١١٨) ملكاً لعبد الرحمن حدوثة العلم. وهو يطالب بثمان

Maximos IV, imp. St-Paul, Jounieh - Liban, 1981, p. 15.

(١١٧) وسام كيبك: جمعية المرسلين البوليين، تأميمها، تنظيمها، دورها الرسولي. الجزء الأول (١٩٠٣ - ١٩٥١)، منشورات المكتبة البولسية، جزيه - لبنان، ١٩٨٧، ص ٢٧٧، ٢٧٨.

(١١٨) يرى التقليد المسيحي أنها المرأة التي مسحت وجه السيد المسيح بمندبل، فيما كان حاملاً صليبه على طريق الجلجلة. وبشكل هذا المقام المرحلة السادسة من مراحل درب الصليب عند الكنائس المسيحية.

(١١٢) Gorra, op. cit., p. 142 راجع قوانين الإكليريكية عند الأب نقولا دهر: «إكليريكية القديسة حنة المعروفة بالصلاحية»، مقال في المسرة، السنة ٤٣، (١٩٥٧)، ص ٥٨٤-٥٨٥.

(١١٣) أندراوس: «أحد أصدقاء الشرق...»، المقال المذكور، ص ٧٥.

(١١٤) محفوظات جمعية المرسلين البوليين، مذكرات الأب يولس سيور (مخطوط)، ص ٦٥.

(١١٥) دهر، المقال المذكور، ص ٥٨٥.

(١١٦) MAXIMOS IV Pasteur et Père, par les Religieuses de Notre-Dame du Perpétuel Secours, avec le concours de Collaborateurs intimes de

من السنة نفسها، أطلعه على مساعدة جمعية كولوني بـ ٦٢٥ فرنكاً.

وسعيًا وراء المساعدات المادية، سافر الأب معقد إلى أوروبا، فزار رومة وفريبورغ وستراسبورغ ومرسليا. وبعد العودة من أوروبا سعى إلى ترميم المزار. ولما حاول إنشاء الكنيسة، عارضته الدولة العثمانية بحجة أنها تقوم في وسط إسلامي، وأن قلة أفراد «الطائفة» لا تستدعي بناء كنيسة ثانية إلى جانب الكاتدرائية البطريركية. ولكن بعد إلحاح كبير ووساطات متعددة، واستناداً إلى قدم المزار في المسيحية وقربه من أمكنة أخرى تملكها طوائف مسيحية أخرى، وافقت السلطات على بناء الكنيسة سنة ١٨٩٤ (١٢١). وهكذا أصبح لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في أورشليم، مهمة البطريرك سيور، مدرسة إكليريكية بإدارة الآباء البيض، ومزار وكنيسة على طريق الجلجلة.

هذه الانجازات الكبرى التي حققتها البطريرك غريغوريوس يوسف سيور طيلة ٣٣ سنة، من الكفاح المضني في سبيل إعلاء شأن الكنائس الشرقية، وإنهاض كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك بعد تعثرات كادت أن تشرذمها، أو هنت قوى ذلك الشيخ الذي ناهز الرابعة والسبعين من عمره. وفي ٢ تموز (يوليو)

الأثناء كان الأب معقد قد ترك النيابة البطريركية تابع العمل في هذا المشروع الأب فيليب ملوك. يمكن مراجعة نص الترجمة العربية الرسمية للفرمان السلطاني حول السماح ببناء الكنيسة في المرجع نفسه، ص ٣٩٤.

عالٍ جداً، ولكنه كان بحاجة إلى يياره (١١٩) بالقرب من يافا تملكها البطريركية (١٢٠). فتمّ الاتفاق على شراء المقام بمبلغ ٣٠٠٠ ليرة فرنسية ذهباً (ل.ف.ذ.)، قبض منها عبد الرحمن ١٨٠٠ في أول نيسان (أبريل) عام ١٨٨٣، وتنازلت له البطريركية عن البيارة المذكورة في ٢٥ أيار (مايو) مقابل المبلغ الباقي وقدره ١٢٠٠ ل. وتمّ عقد البيع باسم اغناطيوس معقد مجرداً من صفته الكهنوتية، تسهيلاً للمعاملات. وجرى البيع الرسمي عن يد الحكومة بتاريخ ١٩ نيسان (أبريل) عام ١٨٨٣. وفي ١٧ تموز (يوليو) من العام نفسه كتب إلى البطريرك يطلعه على طلبه المساعدة من أوروبا لتغطية نفقات «حفر وتنظيف تلال التراب الموجود في البيت» وتأسيس «كابلًا لائحة بهذا المكان المقدس».

وكان رأيّه، كما عبّر عنه في رسالته إلى البطريرك المؤرّخة في أول آب (أغسطس) عام ١٨٨٣، أنه يمكن الاستفادة من المزار على وجهين: أولاً أن يجعل للقديسة فيرونيكا والوجه المقدس، وثانياً أن يكون المرحلة السادسة من درب الصليب. وفي الرسالة نفسها أطلع غبطته على أن مراسلاته مع أوروبا قد أثمرت مئة فرنك من إحدى المحسنات. وفي رسالة أخرى مؤرّخة في ١٢ أيلول (سبتمبر)

(١١٩) هي الحديقة التي يزرع فيها البرتقال وتروى من مياه الأبار.

(١٢٠) وهبها للبطريرك الأب جبرائيل ديانه المتوفى سنة ١٨٩٣، وقد دفن فيها.

(١٢١) «أبرشية أورشليم البطريركية»، مقال في المسرّة، السنة ٢٥ (١٩٣٩)، ص ٣٩١. في هذه

١٨٩٧ اشتد عليه المرض، وما لبث أن أسلم روحه لرب البرايا في ١٣ تموز (يوليو).

ونشارك المطران جرمانس معقّد بقوله، في أثناء تأبينه لغبطته، إن الكلام المنمق في هذا المقام لا يجدي، بل إن أعماله المبرورة ومآثره المشكورة هي التي توجز شخصيته (١٢٢).

وفي الحقيقة يعتبر هذا البطريرك من أعظم بطاركة كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك إلى جانب مكسيمس مظلوم، ومن بين أبرز بطاركة الشرق على الإطلاق.

رابعاً: البطريركية في القرن العشرين

ما إن بزغ فجر القرن العشرين حتى كانت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك قد انفردت بشخصية مميزة في علاقاتها الزمنية والروحية، وذلك بفضل البطريركين مكسيمس مظلوم وغريغوريوس سيور. وقد تولى السدة البطريركية، منذ وفاة سيور حتى اليوم، ستة بطاركة عملوا على توطيد أمور الكنيسة الملكية ورفع شأنها.

١) عهد البطريرك بطرس الرابع الجريجيري (١٨٩٨-١٩٠٢)

أصدر الكرسي الرسولي، إثر وفاة البطريرك سيور، إعلماً عين بموجبه المطران

كيرلس جحا، متروبوليت حلب، قائمقاماً بطريركياً لحين انتخاب بطريك أصيل، فدعا إلى عقد سينودس انتخابي، في ١٠ شباط (فبراير) عام ١٨٩٨، في دير المخلص للرهبانية الخلية في صربا (جونيه)، انتخب المطران بطرس الجريجيري بطريركاً (١٢٣).

وقد أصدر غبطته، من ديوانه البطريركي، في دير المخلص بصربا، في ٩ آذار (مارس)، منشوره الأول إلى أبنائه إكليرمياً وشعباً «ضمنه بأبلغ عبارة وأفصح مقال خلاصة ما في نفسه من صالح النيات وهي توجيه معظم اهتماماته البطريركية إلى مزيد إيقان استعدادات الطغمة الإكليريكية عالمية وقانونية في العلم والفضيلة وإسناد المدارس الكهنوتية والإكليريكية والرهبانية ورفعها إلى المقام الكافل للكنيسة خيرة الفعلة الروحانيين... والدأب في رعاية زمام جميع الشعوب المحيطة به... ومد يد الولاء والإخاء إليهم وإعطاء كل ذي حق حقه... وتربية الأحداث ذكوراً وإناثاً على مبادئ الدين المسيحي القويمة وأساس حب الوطن العزيز وتعزيز المعاهد العلمية... لأن الأحداث هم مستقبل الكنيسة المقدسة ورجاء الوطن المحبوب. ومساعدة الجمعيات الخيرية المليية وإعالة الفقير والبائس... وتعزيز أعمال وكلاء الكنائس ومنديري

المرفوعة لفضة السيد الجليل وراعي الرعاة النبيل كيرلس بطرس الرابع الجريجيري البطريرك الأنطاكي والاسكندري والأورشليمي وسائر المشرق الروم الكاثوليك الكلي الطوبى، مطبعة الفوائد، بيروت، ص ٣-٦.

(١٢٢) المطران جرمانس معقّد، كتاب سبيل الصلاح، الجزء الأول، الطبعة الكاثوليكية للأباء اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٨، ص ٢٤٩-٢٥٦. (١٢٣) راجع تفاصيل الانتخاب عند: قيسر بوز واسكندر خوري: التحفة المليية في الهاني البطريركية

الأوقاف . . . (١٢٤).

تحت ظل المراقبة. وجمع ما يتوفر من أموال الكراسي الأسقفية وأوقاف الأديار وتخصيصه للشروع في تأسيس معامل وطنية لنسج الأنسجة وصنع الأواني مما يكون سبباً لمنع الهجرة ولتشغيل العطل من الشبان وتقوم أود المساكين المعوزين وإغناء الوطن وقسم مما يحتاج إليه من البلاد الأجنبية إلى غير ذلك من الأعمال العائدة بالفائدة على الوطن وأهاليه» (١٢٥).

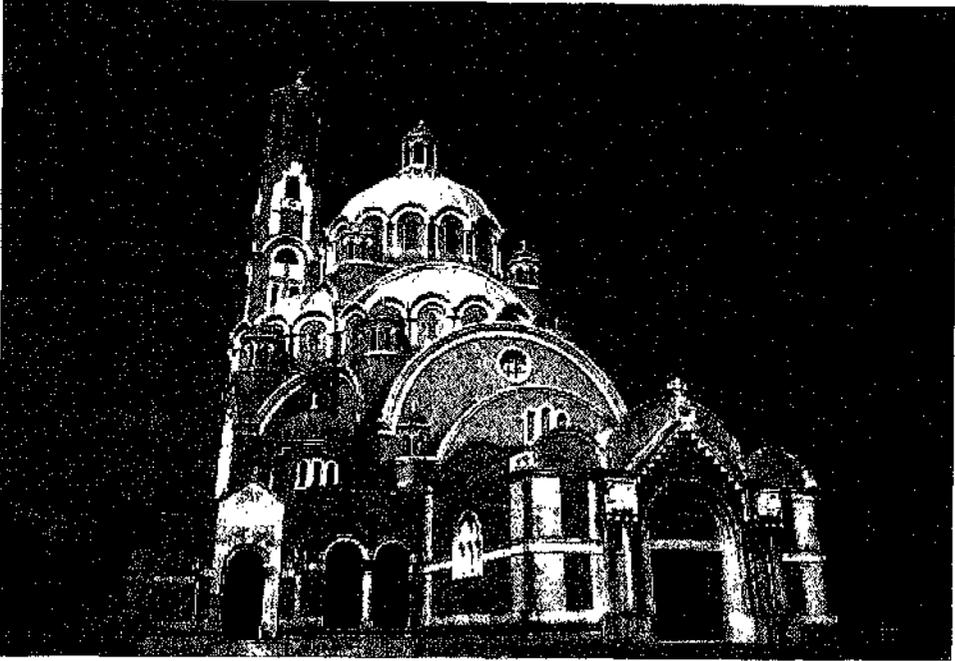
٢) عهد بطريك كيرلس الثامن جحا (١٩٠٢-١٩١٦)

إثر وفاة البطريك الجريجيري، عين الكرسي الرسولي المطران كيرلس جحا، مرة ثانية، مديراً رسولياً للكرسي البطريركي. فدعا أساقفة الكنيسة الملكية إلى عقد مجمع انتخابي في عين تراز، وفيه انتخب كيرلس جحا بطريكاً، في جلسة واحدة، نهار الجمعة ٢٧ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٢. وقد بارك البابا هذا الانتخاب برفقياً، ثم أعلن الكرسي الرسولي تشييته في المجمع المقدس، في ٢٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٣. أما الباب العالي فقد أنعم عليه فوراً بالوسام المجيدي من الدرجة الأولى، وأرسل له فرمان الاعتراف به مديناً. وكان ذلك أسرع صدور لفرمان عثماني في كنيسة الروم الكاثوليك (١٢٦).

إن ولاية البطريك الجريجيري القصيرة لم تسمح له بالقيام بإنجازات كبيرة وكثيرة، وإن كانت إمكاناته وظروف التأييد الشعبي تبشر بولاية غزيرة العمل والنتائج. إلا أنه من المنصف أن نذكر برنامج عمله الذي كان يتوق إلى تحقيقه، والذي كان مطلعاً عليه كاتم أسراره الخوري ميخائيل ألوف: «كان ينوي سنناً ومشاريع جليلة كشف عن بعضها الغطاء ومهدد لبعضها السبل ولكن لم يفسح له الأجل في تمهيد سائرهما ولا أبقى عليه الزمان ليظهرها إلى حيز النور وعالم الوجود. وأخصها توحيد الحساين الغربي والشرقي. وتأسيس مدرسة علمية كلية في القاهرة. ومدرسة صناعية في سورية. ومدرسة علمية كبرى للبنات في بيروت. ومدرسة أخرى للبنات التامى. ودير للراهبات على نسق أديار الراهبات الأفرنجية. وكنيسة كاتدرائية في بلدة باناماس باسم القديس بطرس الرسول تذكراً للمحل الذي قال فيه السيد المسيح لبطرس «أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني بيعتي». وإنشاء قوميسونات ملية في جميع الأبرشيات الأسقفية من خصوصياتها النظر في أعمال السادة الأساقفة والسيطرة على دخل الكراسي الأسقفية وخرجها. وتهذيب قوانين الرهبانيات ووضع ريع أوقافه ونفقته

(١٢٤) شعاع الفضائل في ترجمة وراث الجبر
الجليل الأكبر والعلامة المفضل الأبر والطيب العين
والأثر كيرلس كيرلس بطرس الجريجيري بطريك
أنطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق،
المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩٠٢، ص ٤٢، ٤٣.

(١٢٥) المرجع السابق، ص ٩٥.
(١٢٦) المطران نارتطس إلهي: أساقفة الروم
الملكين يحلب في العصر الحديث، مطبعة الاحسان،
حلب، ١٩٨٣، ص ٣٣٢.



كنيسة القديس بولس للمرسلين البولسيين (حريصا)

بتاريخ ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه، لإطلاق المشروع ودعوة المحسنين إلى دعمه. إلا أنّ وفاة البطريرك وتفتيش المطران عن مكان مناسب لتأسيس الدير أخيراً التنفيذ على الرغم من تصديق البطريرك الجريجيري المشروع برسالة وجهها من القاهرة بتاريخ ٢٤ شباط (فبراير) عام ١٨٩٩.

وقد تمكن المطران من بناء دير في حريصا لاستقبال الرعيل الأول من المرسلين. وبعد وفاة الجريجيري، سنة ١٩٠٢، التمس المطران معقداً من خلفه البطريرك جحا المصادقة على المشروع. فأعلن غبطته مباركته له في إعلام بتاريخ ١٦ تموز (يوليو) عام ١٩٠٢. فاكتملت بذلك الخطوط الأولى لتأسيس الجمعية. وبعد

أما أبرز الأحداث التي جرت في البطريركية خلال هذا العهد فكانت:

آ) تأسيس جمعية المرسلين البولسيين

شهد عهد البطريرك كيرلس الثامن جحا تأسيس جمعية آباء مرسلين، على اسم القديس بولس. مهمتها الوعظ والارشاد وعمل الرياضات في رعايا الكنيسة الملكية الكاثوليكية، على يد مطران بعلبك المستقيل جرمانس معقداً.

وكان المطران المذكور قد تقدم بطلب الإذن لتأسيس الجمعية إلى البطريرك سيور، في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٩٦، فوافق غبطته على المشروع وأصدر إعلاناً بطريركياً،

أن وصل الرعييل الأول، المؤلف من الأب بولس سيور والشماس جرجي جنن والأخ جوزف أشقر من إكليريكية القديسة حنة، أرسل غبطته إليهم كتاباً بتاريخ ١٩ آب (أغسطس) عام ١٩٠٣ يحثهم فيه على الثبات في مقاصدهم الصالحة «والاستعداد للجد والنشاط وبذل النفس في سبيل مجد الله وخير النفوس».

وهكذا فتحت بذور تلك الجمعية من الآباء المرسلين التي ستنتقل لنشر كلمة الله في أبرشيات كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في لبنان والشرق، وسوف تسهم برعاية حركة الاتحاد في أماكن متعددة بدعوة من أساقفة الأبرشيات (١٢٧).

ب) انعقاد «المجمع الملي» في عين تراز سنة ١٩٠٩

كان هذا المجمع في طليعة اهتمامات البطريرك كيرلس الثامن، وقد تأخر انعقاده بسبب مرض البطريرك السابق ووفاته. لذا عزم غبطته على عقد هذا المجمع لتدوين قانون كنسي كامل للروم الكاثوليك. فشكل لجنة لوضع مسودة المجمع قوامها الأساقفة: افتيمس زلحف (صور)، نيقولاوس قاضي (حوران)، كيرلس

مغيغب (زحلة)، غريغوريوس حجار (عكا). إلا أن عمل اللجنة طال، ولم يخرج المجمع إلى حيز التنفيذ. وكان المطران جرمانس معقّد (اللاذقية شرفاً) يتهم غبطته بالماطلة بعقد المجمع، وأبدى استعداده أمام المطران اغناطيوس حمصي لتحضير أعماله. فتجاوب البطريرك مع هذه الرغبة وكلف المطران معقّد في ٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٨ بتحضير أعمال المجمع (١٢٨). فكتب المطران معقّد إلى غبطته موافقاً على التكليف بالرغم من وضعه الصحي، وطالباً من غبطته حث الأساقفة، المكلفين بتحضير أجزاء من مواد المجمع، على الاسراع في عملهم، متعهداً بإنجاز العمل بأسرع وقت ليلتئم المجمع في صيف عام ١٩٠٨ (١٢٩). إلا أن الأعمال التحضيرية دامت حتى ربيع عام ١٩٠٩، فوجه غبطته إعلالاً إلى السادة الأساقفة، في ١٤ نيسان (أبريل) عام ١٩٠٩، دعاهم فيه إلى الاجتماع في عين تراز يوم عيد العنصرة في ٣٠ أيار (مايو) من العام نفسه (١٣٠).

وقد تناول مجمع عين تراز أموراً طقسية وقانونية وعقائدية (الأسرار) وقضائية توزعت على ١٠١٨ مادة قسّمت إلى أربعة أقسام. وختم المجمع أعماله في ٨ تموز (يوليو)،

(يونيو) عام ١٩٠٨، رقم ٣/١٢٣.

(١٢٩) المصدر السابق، رسالة من المطران معقّد إلى البطريرك بتاريخ ٢١ حزيران (يونيو) عام ١٩٠٨.

(١٣٠) محفوظات جمعية المرسلين البولسيين. سجل التحارير الواردة إلى المطران معقّد، سجل ٢، رقم ١٣.

(١٢٧) راجع تاريخ هذه الجمعية عند: د. وسام كيبك: جمعية المرسلين البولسيين، المرجع المذكور، ص ٧١٢.

(١٢٨) محفوظات جمعية المرسلين البولسيين، مراسلات جرمانس معقّد، رسالة من غبطة البطريرك كيرلس الثامن إلى المطران معقّد بتاريخ ٤ حزيران

وكلفت الجمعية البولسية بتفويض مقرراته وترجمتها إلى الفرنسية، بعد إضافة التغييرات التي أقرها آباء المجمع. وأُرسلت المقررات إلى رومة التي لم تجب سلباً أو إيجاباً عليها حتى الآن.

ج) تأسيس أول مجلة بطيركية

أطلع المطران معقّد أعضاء جمعياته البولسية على رغبته في إصدار مجلة باسم «المسرة» تكون غايتها تلافي بعض الأضرار الناجمة عن «ما تحدته النشرات المعادية للدين من الأضرار الباهظة للنفوس»^(١٣١). لكن قلة عدد المرسلين وتراكم أعمال الرسالة أخراً هذا المشروع إلا أن «المجمع المّلي»، المنعقد في عين تراز سنة ١٩٠٩، وافق على المشروع الذي تطور ليصبح مجلة صادرة باسم البطريركية وإدارة الجمعية البولسية وإشراف شخصي من المطران معقّد.

وقد صدر الاعلام البطريركي بشأن تأسيس المجلة وإدارتها في ١ نيسان (أبريل) ١٩١٠. وظهر العدد الأول من مجلة «المسرة» في مطلع حزيران (يونيو) عام ١٩١٠. واعتمدت في نهجها على نشر المقالات الدينية والعلمية والأدبية والأخبار «المّلية» والقوائد المتنوعة بعبارة فصيحة وقرية من متناول أفهام القراء العاديين.

د) نشاطات رعوية متفرقة

اهتم البطريرك كيرلس الثامن برعيته،

وكان يستغل كل مناسبة لتوجيه منشور الي المؤمنين يوضح لهم فيه معاني المناسبة، مسهماً في تعليم أبنائه وتثقيفهم. وكانت هذه المناشير فاتحة لاعتماد البطاركة اللاحقين هذا الأسلوب في التعاطي مع المؤمنين.

واهتم غبطته كذلك بالمدارس وبتثيف الناشئة، فقدم المدارس البطريركية، وأسهم في زيادة عدد طلابها الذي ارتفع من ٢٠٠٠ الي الضعف^(١٣٢). وأكد ضرورة التعاضد بين أبناء كنيمته لتحقيق مزيد من النجاح وتعزيز وجودها. واعتنى بالجمعيات الخيرية، وحضهاً على متابعة أعمالها المبرورة في خدمة المعوزين.

وفي سنة ١٩١١ انتقل إلى القطر المصري حيث استقر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، فلم يتمكن من العودة إلى سورية ولبنان. وعندما خلعت بريطانيا الحديوي عباس وعيّنت مكانه السلطان كامل، شارك غبطته في حفل المبايعه مما أغضب السلطنة العثمانية واعتبرت عمله هذا خيانة عظمية بسبب تابعيته للباب العالي. فعزلته عن البطريركية، أي سحبت منه السلطنة المدنيّة، وأمرت الأساقفة بانتخاب بديل عنه. لذلك أقام غبطته في مصر حتى وفاته. وفي خلال هذه الإقامة أسس إرسالية السودان سنة ١٩١٢.

وقد تنامي عدد أبناء الروم الكاثوليك في عهده حتى وصل الي ١٤٤١٩٥ مؤسناً سنة

(١٣٢) المسرة، السنة ٢ (١٩١١)، ص

(١٣١) المسرة، السنة ١ (١٩١٠)، مقدمة

١٩٠٧. واللوحه المرفقة تظهر إحصاء مفصلاً عن وضع الكنيسة الملكية في تلك السنة (١٣٣).

هـ) نكبة كنيسة الروم الكاثوليك خلال الحرب العالمية الأولى

اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ والبطريرك الملكي في القطر المصري، معزول عن ولايته المدنية في الأراضي الواقعة تحت سلطة الأتراك. وقد دعت الحكومة العثمانية أساقفة الروم الكاثوليك لانتخاب قائمقام بطريركي للشؤون الزمنية تاركة لهم حرية الاتصال برومة في ما يتعلق بالشأن الروحي. وإذا تخلّفوا عن الانتخاب فإنها سوف تسحب اعترافها «بطائفة الروم الكاثوليك». وتداركاً لتفاهم الموقف مع السلطة العثمانية، قدم الأساقفة مرشحين هما المطران باسيلوس حجار (صيدا) وكيرلس مغيّب (زحلة). فاختار الأتراك المطران حجار الذي أقام في دمشق، في حين ظل الأرشمندريت ديمتري سكركية نائباً بطريركياً للشؤون الروحية.

وفي ٩ كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٦ توفي البطريرك جحا في مصر، ووصل الخبر إلى الأساقفة في ١٨ شباط (فبراير)، في اليوم التالي لوفاة المطران حجار في دمشق. فعينت رومة مطران حلب ديمتريوس قاضي نائباً رسولياً لحين اختيار بطريرك جديد. وكانت السلطة العثمانية قد عينت موعداً لانتخاب خلف

للمطران حجار، في آذار (مارس) عام ١٩١٦. فاختار الأساقفة ديمتريوس قاضي وكيرلس مغيّب، فعينت الأساقفة المطران قاضي قائمقاماً بطريركياً. ولعلها قصدت بذلك توحيد السلطين المدنية والروحية بيد أسقف واحد، تخفيفاً للمشاكل التي قد تنشأ بين «الطائفة» والسلطنة العثمانية (١٣٤).

لقد عانت كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك كثيراً في الحرب العالمية الأولى: فالبطريرك معزول، مجبر على الإقامة في مصر. والأبرشيات كانت في حالة فوضى بسبب ترمّل بعضها بوفاة أساقفتها، أو نفي البعض الآخر، فكانت على الشكل التالي: البطريرك جحا متوفى منذ عام ١٩١٦. تسلم المطران ديمتريوس قاضي رئاسة الكنيسة بصفة قائمقام بطريركي. مطرانان متوفيان هما: مطران صيدا باسيلوس حجار، ومطران صور أفيموس زلحف. ستة مطارنة متغيّبون أو منفيّون: مطران طرابلس يوسف دوماني (منفي إلى سيواس)، مطران بعلبك أغايوس معلوف (منفي إلى أورفا)، مطران حوران نيقولاوس قاضي (منفي إلى حلب)، مطران عكا غريغوريوس حجار (في مصر منذ بدء الحرب ومحكوم عليه بالإعدام)، مطران بيروت أثناسيوس صوايا (في أوروبا)، المطران بولس أبو مراد (في مصر منذ بدء الحرب). أما المطارنة الذين ظلوا في أبرشياتهم فهم: مطران زحلة والفرزل والباق

(١٣٤) حاج، الرهبانية الباسيلية الشويرية... ٤١٨:٢.

(١٣٣) راجع الأب يوسف نصر الله: الكنيسة الملكية الكاثوليكية في خلال مئة سنة: مقال في المسرة، السنة ٣٤ (١٩٤٨)، ص ١٦٥-١٧٠.

عام ١٩١٩ بإعلام بطريركي إلى أبنائه في مصر، حرّضهم فيه على مساعدة الجمعية لشابعة دورها الرسولي في خدمة الانسان.

أما على صعيد المؤمنين فقد حلّ بأفراد كنيسة الروم الكاثوليك ما حلّ بغيرهم من المواطنين من النكبات مدة الحرب العالمية الأولى، فتشتت شمل الكثيرين منهم، ونفت الحكومة العثمانية عدداً غير قليل من أبنائها في دمشق وبيروت وبلبك وزحلة وغيرها من المدن إلى الأناضول حيث عانوا العذاب واستشهد البعض منهم (١٣٧).

إنه من الصعب جداً أن نرصد أعمال النائب البطريركي المطران ديمتريوس قاضي، خلال فترة نيابته بين عامي ١٩١٦ و١٩١٩. فلقد أمضى تلك السنين في تعب فكر دائم وانزعاج متواصل. فأبناؤه معذبون ومضطربون، وأعيانهم منفيون، والمعوزون يتسولون لقمة العيش. والنائب البطريركي منهمك في إرضاء جمال باشا السفاح لرد الحيف عن «الطائفة» رؤساءً وشعباً. وهو من جهة أخرى منهمك في تدبير شؤون الرعية الدمشقية و«الطائفة» جمعاء. إلا أن دخول الحلفاء دمشق وسورية في أواخر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ أنعش الآمال وأزال الضغط عن كاهل الروم الكاثوليك المتهمين أبداً

كيرلس مغنّب، مطران حمص فلايانس كفوري، مطران باتياس اقليمتضس معلوف، المطران اغناطيوس حمصي المقيم في عين تراز.

أما الرهبانيات فقد بذلت الكثير من النفقات، وأثقلت كاهلها بالديون لأجل إطعام الجائعين الذين كانوا يؤمون أديرتها يومياً بالمئات. فلقد خرج دير المخلص، في جون، من الحرب العالمية بديون ثقيلة على الرغم من وسع أملاكه وأطيانه التي تدرّ الغلال الوفيرة، وعلى الرغم مما كان يده من الأموال الطائلة من أوروبا عن طريق سويسرا (١٣٥).

أما جمعية المرسلين البولسيين الفتية فقد تعرّضت لهزة عنيفة كادت تؤدي بكل الجهود التي بذلها المرسلون أدرج الرياح. وعلى الرغم من كل ذلك فقد تمكّنت الجمعية من إسعاف مئات من الفقراء الذين كانوا يؤمون الدير، فتكبّدت مبالغ ضخمة في سبيل تأمين القمح لها وللفقراء، فبلغت ديونها حوالي ١٥٠٠ جنيه ذهبي (١٣٦). فضلاً عن ذلك قامت الجمعية بإسعاف المرضى المهملين الذين نذتهم أسرهم وقرامهم، وبدفن الجثث الملقاة على الطرقات. وإسهاماً في تخفيض عبء الديون التي سقطت على كاهل الجمعية، من جراء نشاطها الاجتماعي في محيط ديرها الرئيسي، توجه البطريرك ديمتريوس قاضي في ١٥ آذار (مارس)

٢٨-٢٩؛ يوميات الجمعية البولسية، سجل ١، ص ٩٩.

(١٣٧) الأب بولس سيور «أهم أخبار الطائفة الملكية مدة الحرب العامة»، مقال في المسوّدة، السنة ٥ (١٩١٩-١٩١٤)، ص ٤٥٦.

(١٣٥) جميل بحري: «الكليرس والجماعة»، مقال في المسوّدة، السنة ٥ (١٩١٩-١٩١٤)، ص ٤٥٧.

(١٣٦) الأب بولس سيور البولسي: الجماعة في سورية ولبنان، مطبعة الفنون المصرية، ١٩١٩، ص

بالتواطؤ مع فرنسا على السلطة العثمانية (١٣٨).

٣) عهد بطريك ديمتريوس الأول قاضي (١٩١٩-١٩٢٥)

بعد استتباب الوضع في الشرق، اجتمع أساقفة الروم الكاثوليك، في ٢٩ آذار (مارس) عام ١٩١٩، في دير المخلص في صربا، وانتخبوا ديمتريوس الأول قاضي بطريكاً أصيلاً.

وباشر البطريك الجديد مهامه فوراً، خصوصاً وان وضع البطيركية لم يكن يتحمل المماثلة. فعين ثمانية أساقفة، ستة منهم من خريجي إكليريكية القديسة حنة، وواحد من مدرسة رومة اليونانية، وواحد من الرهبانية الشويوية، إذ كان يعتقد بأن الوقت قد حان لتعيين أساقفة ذوي تنشئة جديدة تسمح لهم بإنهاض أبرشياتهم من الآتون الواقعة فيه من جراء نكبات الحرب العالمية الأولى (١٣٩).

واهتم خلال ولايته البطيركية القصيرة، التي دامت ست سنوات، بأمر ثلاثة:

أ) التعقيب

لقد كان غبطته يدرك حاجة رعيته إلى معاهد علمية تكون منبعاً لأمهات فاضلات مسيحيات شرقيات، بعدما رأى أن فتياننا يتخرجون من المدارس المتفرقة على عوائد

وطقوس غريبة عنهم، مما يقطع روابطهم بكنيستهم وكهنتهم. لذلك ما إن سنحت له الفرصة حتى اتفق مع راهبات المحبة، سنة ١٩٢١، على تأسيس فرع شرقي ينتمي إلى رهبانية اليزنسون، تحت إشراف غبطته، يظل محافظاً على الطمس الشرقي. وما إن تأسس هذا الفرع حتى عمدت الراهبات إلى تأسيس عدة معاهد علمية باسم الروم الكاثوليك في القاهرة والاسكندرية ودمشق تتعود فيها التلميذات طقسهن الشرقي، إلى جانب تلقينهن ثقافة علمية ووطنية عالية.

وقد أسس غبطته، سنة ١٩٢٠، مدرستين في باب المصلى على اسم القديس جاورجيوس، أولى للبنات وثانية للأحداث. واهتم ببناء الكنائس، منها كنيسة في دمشق وثالثة في السلط (شرقي الأردن)، كما بنى الدار البطيركية في الاسكندرية، وميتماً في دمشق (١٤٠).

ب) الأوقاف

إن مشكلة الأوقاف كانت تسبب متاعب كثيرة لكنيسة الروم الكاثوليك، وتكلفتها نفقات باهظة سواء لدفع تكاليف الدعاوى أو لإرضاء ورثة بعض الأساقفة. فالأوقاف كانت تسجل باسم الأسقف، لا باسم الأبرشية. لذلك توصل مع الجنرال فيغان إلى حل هذه

ZOGRAPHOS «Sa Béatitude Dimitri Ier (١٣٩) Qadi, Patriarche d'Antioche et de tout l'Orient, Topoténite d'Alexandrie et de Jérusalem», Extrait du *Stoudioun*, oct. 1925, pp. 185-187.

(١٤٠) الشمس، المرجع المذكور، ٣: ١٨٧.

(١٣٨) الأب الياس اندراوس البولسي: «الفاجعة الجلى وفاة المثلث الرحمات بطريك ديمتريوس الأول قاضي بطريك أنطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق ١٨٦١-١٩٢٥»، مقال في المسرة، السنة ١١ (١٩٢٥)، ص ٦٨٦-٦٩٠.

٤) عهد البطريرك كيرلس التاسع مغيب (١٩٢٥-١٩٤٧)

عين الكرسي الرسولي، بعد وفاة البطريرك قاضي، متروبوليت صور مكسيمس الصائغ مديراً رسولياً على البطريركية، في ٢١ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٥. وبناء على تعليمات رومة، دعا المطران الصائغ أساقفة كنيسته إلى سينودس انتخابي، في ٣ كانون الأول (ديسمبر)، في عين تراز. إلا أن الأساقفة اعترضوا على المكان، فتم الاتفاق على دير المخلص في صربا (١٤٤).

وقد افتتح المجمع أعماله، في ٧ كانون الأول (ديسمبر)، بحضور ١٤ مطرانا، ووكيل عن مطران صيدا. وأسفرت عملية الاقتراع عن انتخاب كيرلس مغيب بطريركاً لكنيسة الروم الكاثوليك. فأبرق قداسة البابا إلى غبطته مهتماً، ومنحه الباليوم في أواخر حزيران (يونيو) عام ١٩٢٦.

والبطريرك الجديد هو رئيس أساقفة الفرزل وزحلة والبقاع منذ سنة ١٨٩٩، والذي قام بأبرز عملية إعمار في أبرشيته، فبنى أربعين كنيسة وأنطوشاً ومدرسة حتى أطلق عليه لقب «المطران البناء» (١٤٥).

وقد نقل غبطته هذا اللقب من الأسقفية

المسألة. فأعطى الجنرال مهلة سنة لتفريغ العقارات من أسماء الأشخاص إلى أسماء معنوية، دون دفع رسوم الانتقال. وأخذ غبطته المبادرة إذ حول كل الأملاك التي على اسمه إلى اسم بطريركية الروم الكاثوليك. وفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى الأموال المسجلة باسمه في المصارف (١٤١). بعد ذلك وجه رسالة إلى الأساقفة والرهبنات والجمعيات والمعاهد العلمية، في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٣، ليحذوا حذوه (١٤٢).

ج) المجمع الملي

كان البطريرك قاضي يشعر بمدى الضرر الحاصل من جراء افتقار كنيسته إلى نظام عام واضح وثابت يمدد خطواتها ويوحد جهودها وينعش أعمالها (١٤٢). لذلك شكل لجنة، في مطلع عام ١٩٢٤، لتهيئة أعمال المجمع الملي لوضع قانون خاص بكنيسته الملكية وحضر إلى بيروت شخصياً ليشرح على أعمالها. وما لبث أن انتقل معها إلى دمشق ليسهل عليه مراقبة أعمالها، وملاحقة الفصول التي تضعها ليتمكن من إرشادها وإبداء ملاحظاته. لكن المنية وافته قبل إنجاز هذا المشروع، فتأجل عقد المجمع إلى عهد خليفته البطريرك مغيب.

(١٤٥) راجع نبذة عن حياته ودوره السياسي والديني خلال أسقفية على الفرزل وزحلة عند: وسام بشارة ككب: «دور المطران كيرلس مغيب في ولادة دولة لبنان الكبير»، بحث في المسرة، السنة ٨٠ (١٩٩٤)، العدد ٨٠٩، ص ٣٥٣-٣٨٤.

(١٤١) راجع وصيته في المسرة، السنة ١١ (١٩٢٥)، ص ٧٠٩-٧١١.
(١٤٢) اندراوس، المقال المذكور، ص ٦٩٧.
(١٤٣) المرجع السابق، ص ٦٩٤.
(١٤٤) أ. حاج، المرجع المذكور، ص ٤٢١:٢.

إلى البطريركية، فكان بناءً للكنيسة بشراً وحجراً. فاهتم بالكلمة، متوجّهاً إلى النفوس العطشى يروي تعاطسها إلى كلمة الله الحي. فاعتمد الوعظ والارشاد لتثقيف رعيته مستعملاً وسيلة المناشير الرعوية على طريقة البطريرك جحا، فأكثر منها حتى بلغت منشوراً في كل سنة ضمنها مواضيع روحية واجتماعية وتاريخية. كما بنى عدداً كبيراً من الكنائس في لبنان وسورية وفلسطين ورسالات شرقي الأردن والقطر المصري والعراق، واهتم بإرساليات السودان(١٤٦).

أما على الصعيد الطقسي فقد حقق هذا المعهد تجديدًا طقسيًا بارزاً إذ أثمرت جهود المطران الصائغ في سينودس تعانيل، المتعقد في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٦، تكليفاً رسمياً للآباء البولسين بترجمة كتاب الأورولوجيون (السواعية) وللمطران الصائغ بتحسين ترجمة الإنجيل المقدس المستعمل في القديس الإلهي. وظهرت السواعية بحلتها الجديدة سنة ١٩٢٨، في حين أنجز الإنجيل المقدس سنة ١٩٢٩. وبعد نقل المطران الصائغ من صور إلى بيروت، تعذّر عليه إنهاء كتاب

إلى البطريركية، فكان بناءً للكنيسة بشراً وحجراً. فاهتم بالكلمة، متوجّهاً إلى النفوس العطشى يروي تعاطسها إلى كلمة الله الحي. فاعتمد الوعظ والارشاد لتثقيف رعيته مستعملاً وسيلة المناشير الرعوية على طريقة البطريرك جحا، فأكثر منها حتى بلغت منشوراً في كل سنة ضمنها مواضيع روحية واجتماعية وتاريخية. كما بنى عدداً كبيراً من الكنائس في لبنان وسورية وفلسطين ورسالات شرقي الأردن والقطر المصري والعراق، واهتم بإرساليات السودان(١٤٦).

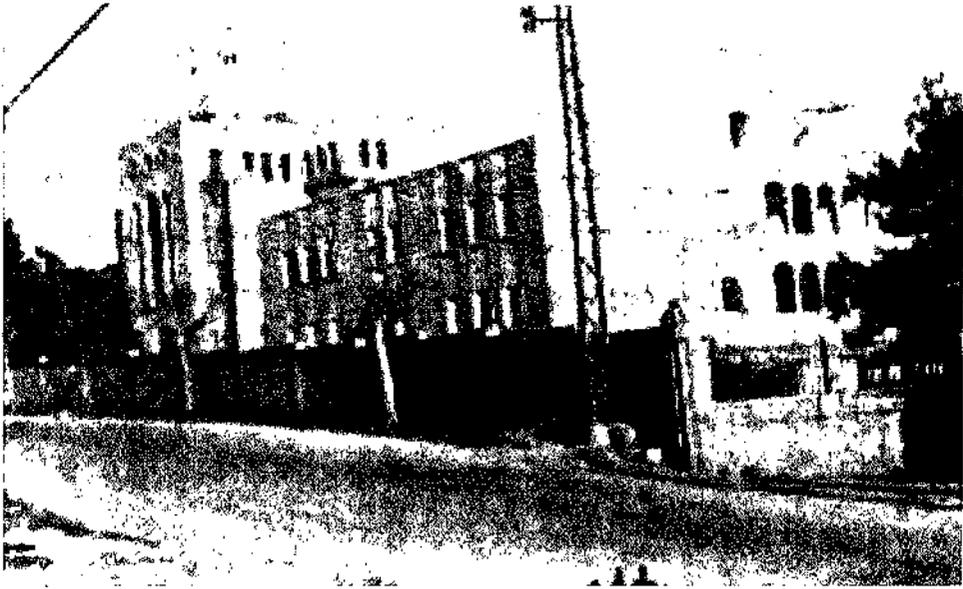
أما على الصعيد الطقسي فقد حقق هذا المعهد تجديدًا طقسيًا بارزاً إذ أثمرت جهود المطران الصائغ في سينودس تعانيل، المتعقد في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٦، تكليفاً رسمياً للآباء البولسين بترجمة كتاب الأورولوجيون (السواعية) وللمطران الصائغ بتحسين ترجمة الإنجيل المقدس المستعمل في القديس الإلهي. وظهرت السواعية بحلتها الجديدة سنة ١٩٢٨، في حين أنجز الإنجيل المقدس سنة ١٩٢٩. وبعد نقل المطران الصائغ من صور إلى بيروت، تعذّر عليه إنهاء كتاب

أما على الصعيد الطقسي فقد حقق هذا المعهد تجديدًا طقسيًا بارزاً إذ أثمرت جهود المطران الصائغ في سينودس تعانيل، المتعقد في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٢٦، تكليفاً رسمياً للآباء البولسين بترجمة كتاب الأورولوجيون (السواعية) وللمطران الصائغ بتحسين ترجمة الإنجيل المقدس المستعمل في القديس الإلهي. وظهرت السواعية بحلتها الجديدة سنة ١٩٢٨، في حين أنجز الإنجيل المقدس سنة ١٩٢٩. وبعد نقل المطران الصائغ من صور إلى بيروت، تعذّر عليه إنهاء كتاب

(١٤٦) راجع حول إنشاءاته: Joseph TAWIL: «Cyrille IX Patriarche d'Antioche, d'Alexandrie de Jérusalem et de tout l'Orient», art.in *Le LIEN*, Année XII (1947), nos 7 et 8, pp. 11-16.

إبراهيم بك الأسود: كتاب توير الأذهان في تاريخ لبنان، المجلد الثالث، المطبعة العلمية ليوسف صادر، بيروت ١٩٣٠، ص ٨٨: «القاجعة الكبرى وفاة المطوّب الذكر البطريرك كيرلس التاسع المغيب بطريرك انطاكية والاسكندرية وأورشليم وسائر المشرق ١٩٤٧-١٩٥٣»، مقال في المسرة، السنة ٣٣ (١٩٤٧)، ص ٤٦٩.

TAWIL, op. cit., p. 18. (١٤٩)



دير راهبات سيدة المعونة الدائمة المرسلات في حريصا

التي كانت تثيرها الدوائر الرومانية وهي منع تعلق الرهبانيات النسائية، ذوات النذور البسيطة، من حيث السلطة، برهبانية رجالية.

فقد خبر البولسيون ضرورة وجود راهبات للعمل الرسولي في الأوساط النسائية، وبين الأطفال، خصوصا وأن البولسيين عجزوا عن اختراق هذه الأوساط، نظراً إلى التقاليد السائدة في مجتمعنا الريفي الشرقي. والجديد في هذه الرهبانية أن البولسيين أرادوها جمعية راهبات تنطلق للعمل الرسولي بين المؤمنين، على غرار جمعية المرسلين، على أن تأخذ على عاتقها الإرشاد الروحي للنساء والأولاد،

وسام كككب، جمعية المرسلين البولسيين... ص ٤٧١-٤٧٥.

الرسائل فأوكل هذا الأمر إلى الآباء البولسيين الذين أخرجوه بكل عناية على صعيد التدقيق في الترجمة والصياغة اللغوية والطباعة المتقنة، مما حدا بالطيريك مغيب أن يأمر باستعماله في جميع رعايا الكنيسة الملكية (١٥٠).

بقي علينا أن نشير إلى إنجازين مهمين في الكنيسة الملكية في هذا العهد.

الإنجاز الأول هو تأسيس مرسلات سيدة المعونة الدائمة، الذي يعود الفضل فيه لعمق فهم الآباء البولسيين لشؤون العمل الرسولي، ولهمة المطران الصائغ الذي دعم المشروع مادياً وبعطفه الأبوي وتبناه قانونياً لتذليل المشاكل القانونية

(١٥١) أنظر الرقيم البطريكي في كتاب الرسائل، مطبعة القديس بولس في حريصا، ١٩٣٥. كما يمكن ملاحظة هذا النشاط الطقسي عند:

أسقفًا وتغيّب اثنان بداعي السفر واثنان لأسباب صحية. وقد ناقش آباء المجمع مسائل كنسية قانونية وإدارية ومسلكية وطقسية «ممثلين حياً بعضهم لبعض وغيره على خير رعاياهم وبلادهم» (١٥٢).

لقد خدم البطريرك مغنغب كنيسته طيلة ولايته الأسقفية التي دامت ٢٧ سنة (أيار/مايو) ١٨٩٩ - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥، وولايته البطريركية التي دامت حوالي ٢٢ سنة (كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ - أيلول (سبتمبر) ١٩٤٧)، بروح وثابة إلى العمل المضني والاهتمام بشؤون رعيته فاستحق لقب «المطران البتاء»، و«البتريك البتاء»، فتمت الكنيسة الملكية في عهده وتطورت حتى بلغ عدد المؤمنين ٢٤٧١٧٠ بين مقيم ومغترب و٣٠٧ خورنات و٣٧٨ كنيسة يرعاها ١٣٨ كاهناً بين متبتل ومتزوج و١٤٩ مدرسة للصبيان تضم ١١٨٩٠ تلميذاً و٤٧ مدرسة للبنات تضم ٤٧٩٠ تلميذة. يضاف إليهم ٢٩٩ راهباً و٤٠ مرسلًا و١١٢ راهبة و٣٧ مرسله (١٥٣).

لقد أثقلت كاهل البطريرك هموم كنيسته فبدأت قواه تنهار منذ شباط (فبراير) عام ١٩٤٧، لذلك قرّر غبطته بعد موافقة الكرسي

والشؤون التربوية والصحية والاجتماعية. فتكون هذه الرهبانية مغايرة للرهبانيات النسائية السائدة في الكنيسة الملكية الكاثوليكية آنذاك، وقد كانت بمجملها رهبانيات محصنة تنزل فيها الراهبة عن الحياة المدنية للتأمل والصلاة وتقديس الذات.

وقد تفتحت بذور هذه الرهبانية في رسالة مرمرينا، إذ التحق بها أنسات معلّمت، منذ أواخر عام ١٩٣١، يعشن حياة اختيارية مشتركة ومنظمة. وبعد خمس سنوات قضتها المعلّمت في جو من الروح الرسولية العابقة بالحبّة والعطاء والتضحية، نضجت الثمار التي زرع غرساتها البولسيون في وادي النصارى، وروتها جهود مرسلين مندفعين في العطاء وبذل الذات أمثال بطرس الشامي ويوسف المعلوف وباسيليوس بريدي بتوجيه أبوي دقيق من الأب العام أنطوان حبيب ورعاية روحية متفانية من الأب يوحنا الشامي. فحظيت الكنيسة الملكية عام ١٩٣٦ برهبانية نسائية من المرسلات الشرقيات برعاية قانونية ودعم مادي وأبوي من المطران مكسيم الصائغ (١٥١).

الإيجاز الثاني كان مجمع عام ١٩٣٩، الذي التأم بدعوة من البطريرك في عين تراز بين ٢٠ و٢٦ آب (أغسطس)، وشارك فيه ١٣

(١٥٢) المسوّدة، ٢٥ (١٩٣٩)، ص ٥٧٦.
راجع قرارات المجمع في المرجع السابق، ص ٥٢٩-٥٣٣؛ قرارات المينودس المقدس لطائفة الروم الملكيين الكاثوليكين المعقد في المقر البطريركي بعين تراز من ٢٠ إلى ٢٦ آب (أغسطس) ١٩٣٩. مطبعة القديس بولس في حريصا، ٨ صفحات.
(١٥٣) المسوّدة، ٣١ (١٩٤٥)، ص ٨-١٠.

(١٥١) راجع في ما يخص تأسيس الرهبانية وانطلاقها: كيكب، المرجع السابق، ص ٤١٥-٤٤٤؛ ويمكن الاطلاع على رأي الراهبات أنفسهن بمسألة التأسيس في المرجع المذكور سابقاً: Maximos IV Pasteur et Père الذي ترجمه إلى العربية الأب جورج خوام البولسي بعنوان مكسيم الرابع الراعي والأب، ١٩٨٨، ٢٦٠ صفحة.



البطريك مكسيمس الرابع الصائغ

كل عشرات السنوات، وفي ذلك ملاحقة سريعة لكل مشاكل البطريركية وقضاياها. وأجرى بعض الإصلاحات في مركزي البطريركية في القاهرة والاسكندرية، وفي دمشق وأورشليم. واستقطب حوله نخبة من رجال الإكليروس، وعلى رأسهم مساعده المخلص المطران بطرس كامل مدور، الذين شكّلوا الدائرة البطريركية التي كانت تزوّده بالدراسات المختلفة المتعلقة بالقضايا التي تهتمّ كنيسة الروم الكاثوليك. وكان من أبرزهم الأب أوريست كرامه، مستشار البطريرك ومطلق الحركة المسكونية في مصر وفي كنيسة الروم الكاثوليك؛ والمرحوم الأرشمندريت أدريانس شكور الراهب الحلبي الذي تسلّم أمانة سر البطريركية طيلة عهد الصائغ، ويعود إليه الفضل في تنظيم محفوظات عين تراز، والآباء ناوفيطس إدلبي وهيلاريون كبوجي وبطرس

الرسولي تعيين المطران بطرس كامل مدور معاوناً بطريركياً يخفف عن كاهله عبء المسؤوليات البطريركية في مرسوم صادر بتاريخ ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٤٣ تحت رقم ٣٦٩/١٦.

وفي ١٤ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٧، أصدر غبطته مرسوماً جديداً فوّض فيه المطران تفويضاً تاماً بصفة وكيل مطلق في تصريف شؤون البطريركية الروحية والزمنية من قضائية وإدارية ومالية وثقافية وأدبية.

وكان غبطته قد أمضى آخر سني حياته في مصر بين القاهرة والاسكندرية. وفي ٨ أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٧ كان الضعف الشديد قد شلّ جسده فأسلم روحه محققاً قول بولس الرسول «قد أتممت السعي وحفظت الإيمان فلم يبق لي إلا أن أنال إكليل المجد المعدّ لي».

إثر وفاة البطريرك مغنّب، عين الكرسي الرسولي المطران بطرس كامل مدور مديراً رسولياً على الكرسي البطريركي للإشراف على انتخاب بطريك جديد. فدعى سيادته الأساقفة إلى سينودس انتخابي في عين تراز في ٢٦ تشرين الأول (نوفمبر) عام ١٩٤٧. فاختر آباء المجمع المطران مكسيمس الصائغ بطريكاً على كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك باسم مكسيمس الرابع.

٥) عهد البطريرك مكسيمس الرابع الصائغ (١٩٤٧-١٩٦٧)

ما إن تسلّم البطريرك الصائغ السدة البطريركية حتى بدأ العمل بتنظيم شؤونها. فقرر أن تعقد المجمع سنوياً بدل أن تعقد مرة

الراعي والياس نجمة وكلهم أصبحوا في ما بعد أساقفة معاونين أو أبرشيين .

كما تابع خطة أسلافه في تثقيف أبناء كنيسة باللسان والقلم فاعتمد أسلوب الوعظ والخطب وديبج ١٤ منشوراً راعوياً في أمور متفرقة روحية واجتماعية وسياسية وقانونية .

والمطلع على نصوص مناشيره وعظاته وخطبه يستقي منها تعاليم مشرقة حول كل المسائل التي واجهت كنيسة خلال ولايته . ولا عجب من هذه الملكة التي اقتبسها من إكليريكية القديسة حنة ومن جمعية المرسلين البولسيين التي خدم بين صفوفها من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩١٩ ، عاملاً على «زرع سلام الله في نفوس الشعب المسكين» . فالواعظ برأيه لا يصل إلى القلوب ويؤثر فيها إلا بمقدار ما يقرب من حقائق الإيمان وتعاليم الإنجيل (١٥٤) . ولا يتم ذلك إلا بالاستعداد الطويل قبل الوعظ . فراه لا يرتوي من الكتابة في تأليف العظات وزرعها بين الناس من خلال الرياضات الروحية التي قام بها في أبرشيات كنيسة الروم الكاثوليك كلها حتى أحصي له بين عامي ١٩٠٦ و ١٩١٩ حوالي ٧٥ رياضة ، كانت بشهادة رجال الاكليس «جدولاً سلسبيلاً يسيل رقة وعدوبة أو إذا شئت فقل حنطة ممتازة منقاة على الطبلية» (١٥٥) . لذلك نراه يحمل رسالته هذه على كتفيه ، إلى

المهام التي أنيطت به ، سواء في أبرشية صور أو السدة البطريركية . وفي كل من هذه المهمات كانت المسؤولية تكبر وتعظم ، لذلك تتوسع المواضيع وتعدد لتطال كل مؤمني بطريركية الروم الكاثوليك .

اهتم غبطته كذلك بتوطيد دعائم كنيسة فعين خلال ولايته ١٧ أسقفاً (١٥٦) من بينهم ١١ من خريجي إكليريكية القديسة حنة المتحلين بصفات القداسة والتواضع والتقوى والتفاني في العمل والثقافة العالية ، ليمساعد أبرشيات كنيسة على النمو والازدهار . كما أنشأ عدداً من الكنائس والمدارس والإكليريكيات والميتم في بطريركيات دمشق والاسكندرية وأورشليم (١٥٧) . وعندما رأى أن رسالة وادي النصارى ، التي كان يتحمل أعباءها الآباء البولسيون ، قد تهيأت لتصبح أبرشية ، فصلها عن أبرشية طرابلس وأحيا أبرشية اللاذقية وتلكلخ ومصيف وسلّم مقاديرها إلى الأب بولس أشقر البولسي سنة ١٩٦١ .

ويعود إلى عهد البطريرك الصائغ الفضل في إنشاء الصندوق الطائفي العمومي لمساعدة الكهنة المعوزين والأبرشيات الفقيرة ، ومساندة مشاريع الكنيسة الملكية . وقد أقر هذا المشروع في سينودس آب (أغسطس) عام ١٩٥٠ بناءً على اقتراح المطران جاورجيوس حكيم .

(١٥٤) محفوظات راهبات سيدة المعونة الدائمة في حريصا: خواطر الأب يوسف الصائغ البولسي ، (مخطوط) ، خواطر ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٠٧ .

(١٥٥) «خبطة السيد مكسيم الرابع الصائغ البطريرك الجديد على الطائفة الملكية» ، مقال في المسرة ، السنة ٣٣ (١٩٧٤) ، ص ٥٣١ .

(١٥٦) راجع لائحة الأساقفة في كتاب مكسيم الرابع الراعي والأب ، المرجع المذكور ، ص ٧٧-٧٨ .

(١٥٧) راجع إنشائه في المرجع السابق ، ص ٦٧-٨١ ، ٨٥-٩٢ ، ٩٥-١٠٠ .

طريق تعيين أساقفة لهؤلاء المؤمنين لأن الدوائر الرومانية كانت تفرض على كل الكاثوليك، لأي كنيسة انضموا، الخضوع للأسقف اللاتيني المحلي.

لذلك سعى غبطته مع الرهبانيات لتأسيس رسالات لها في بلاد الاغتراب، فافتتح المخلصيون إكليريكية لهم في ميثيون ماسيشوسيتس، في ٣٠ أيار (مايو) عام ١٩٥٤، بموافقة المجمع الشرقي (١٥٩). وظلّ البطريرك يبذل الجهود الكثيفة حتى أثمرت مساعيه، في أواخر عهده، في ٩ آذار (مارس) عام ١٩٦٦، بتعيين إكسرخساً على الملكيين في الولايات المتحدة وهو الراهب الحلبي يسطينس نجمة. فكان هذا التعيين الخطوة الأولى التي أدت إلى خطوات لاحقة أتاحت للروم الكاثوليك أن ينعموا برئيس كنسي خاص بهم.

أما في أميركا الجنوبية فقد تمكّن غبطته من تحريك موضوع التنظيم المستقل للشرقين الكاثوليك في البرازيل، وقد كان ينعم برضى قداسة البابا بيوس الثاني عشر. وما لبث قداسته أن عين ثلاثة نواب عامين لكردينال البرازيل كامارا: الأول على الكنيسة الأوكرانية، والثاني على الكنيسة المارونية والثالث على الملكيين وهو الأرشمندريت الياس كوير. وفي ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٦٠، أُنجزت الخطوة الثانية على عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين الذي منح الأب كوير درجة الأسقف المساعد

كما قرّر سينودس أيلول (سبتمبر) عام ١٩٤٨ إنشاء لجنة طقسية دائمة برئاسة المطران بطرس كامل مدوّر للنظر في كل الكتب الطقسية الرسمية قبل إعادة طبعها. وأكد سينودس آب (أغسطس) عام ١٩٥٩ على ضرورة هذه اللجنة وأسند رئاستها إلى المطران فيليس نبعة، وعين الأب ناوفيطس إدلي أميناً للمسر على أن تشكل عضويتها من موفد من كل رهبانية ومن قبل الجمعية البولسية.

وتميّز هذا العهد بتحديد تنظيم المحاكم الكنسية على قواعد حديثة تضمنت تشكيل المحاكم وطريقة عملها، ولوائح الدعاوى، والرسوم القضائية.

وكان مصير رعايا الروم الكاثوليك في بلاد الاغتراب الشغل الشاغل الذي أخذ حيزاً مهماً من اهتمام غبطة البطريرك الصائغ. فالمغتربون توزّعوا في الأميركيتين وأفريقيا، وتنظّموا بشكل فردي بهمة بعض الكهنة أمثال كيرلس عنيد في باترسون وبرانار غصن في نيويورك (١٥٨). وتعود علاقة الصائغ مع المغتربين إلى عهد البطريرك قاضي عندما كلّف غبطته المطران الصائغ القيام بزيارة رعائية إلى أميركا الشمالية سنة ١٩٢١-١٩٢٢. لذلك ما إن تسلّم الصائغ السدة البطريركية حتى وضع نصب عينيه كيفية الحفاظ على رعايا الروم الكاثوليك الذين بدأوا يتوافدون إلى أميركا وأفريقيا بكثافة، وكيفية تأمين الدعوات الكهنوتية لهم. وكانت صعوبات جمة تعترض

(١٥٩) المرجع نفسه.

(١٥٨) المرجع السابق، ص ١٠٤.

الكردينال. وكان عدد الملكيين يربو على الخمسين ألفاً^(١٦٠).

أما في الأرجنتين فقد حقق غبطته الأمنية بعد بضع سنوات من إنجاز البرازيل، فأقرّ التنظيم المستقل للملكيين وتعيّن عليهم نائب عام هو الأب الياس اندراوس البولسي.

أما في فنزويلا فكان الأمر مختلفاً، إذ كتب الأب جورج فاخوري، سنة ١٩٥٧، إلى المهاجر في كاراكاس السيد جورج ديك، طالباً منه تأمين بعض المشتركين مجلة «المسرة». فأجابته: «قبل أن تطلب إليّ اشتراكات لأجل المسرة، أسعفونا وأرسلوا إلينا كاهناً يهتم بنا...»^(١٦١).

وهكذا تدخل البطريرك الصائغ، بعد تجاوب المطران بلانكو، رئيس أساقفة كاراكاس، مع الجمعية البولسية التي أرسلت الأب غفريل ديك للاهتمام بالجالية الحلية. وظل غبطته حتى أواخر سنه يبدل الجهود لتعزيز أوضاع الكنيسة الملكية في فنزويلا، والتي حظيت بعد وفاته، في ٣٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٦٨، بمجد على اسم القديس جاورجيوس في كاراكاس ككنيسة قانونية للرعية وتعيّن الأب ديك أول كاهن رعية رسمي.

أما في أفريقيا فقد طلب الكرسي الرسولي من غبطة البطريرك إيفاد كاهن إلى القارة الأفريقية لزيارة أبناء الكنيسة الملكية وتفقد

أرضاعهم. وقد كلف غبطة البطريرك الصائغ الأب بولس أشقر البولسي الذي جال على المغربين في أفريقيا بين كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٩ وتشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٥١. وقد وضع الأب أشقر خلال زيارته تلك إحصاء كاملاً عن المهاجرين اللبنانيين والسوريين وسائر أقطار الشرق الأدنى من مسيحيين ومسلمين. ويطلعنا الأب أشقر، في مذكراته، عن هذه الرحلة، عن زيارة قام بها لأمبراطور الحبشة هيلاسيلاسي في ٧ تموز (يوليو) عام ١٩٤٩ كان لها أثر كبير في وضع أبناء الجالية في أديس أبابا.

وعلى صعيد العمل المسكوني، أقام غبطته أطيّب العلاقات مع الكنائس الأرثوذكسية، خصوصاً في مصر. فقد صرح خريستوفورس الثاني، بطريرك الاسكندرية الأرثوذكسي لدى خروجه من لقاء مع الصائغ: «حتى الآن، كانت علاقتي ببطريركية الروم الكاثوليك ضعيفة للغاية، ولكنني منذ الآن فصاعداً سأصلح الماضي، وسوف أزوركم مراراً». إلا أن المرض منع البطريرك خريستوفورس من تحقيق رغبته.

كما تعرّف الصائغ إلى البطريرك المسكوني أثيناغوراس الأول في مصر. وتحوّلت العلاقة البروتوكولية سنة ١٩٥٩ إلى صداقة حميمة بين البطريركين^(١٦٢)، وتعمّقت خلال زيارة قداسة البابا بولس السادس إلى

(١٦٠) المرجع نفسه، ص ١٠٦-١٠٧.

(١٦١) المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٨.

كيبك: جمعية المرسلين البولسيين. ص ٣٥٨-

٣٥٩.

(١٦٢) مكسيمس الرابع الراعي والأب، ص

٨٨، ٧٩-٨١.

المجمع في مرحلة تهيئة مسودات الأبحاث الجمعية وفي المناقشات وفي التعديلات الكثيرة التي طرأت على الدساتير العقائدية والقرارات والبيانات قبل أن تأخذ شكلها النهائي.

ونشير إلى أمور أربعة كان فيها لموقف البطريرك الصائغ وأساقفته صدى بالغ.

الأمر الأول هو جلسة الافتتاح التي عدل غبطته عن المشاركة فيها، خصوصاً وأن البروتوكول الاحتفالي كان يفرض على البطارقة تقبيل ركة البابا، فهذه المسألة كانت غير مقبولة البتة. وكان موقف غبطته الاستكفاف عن حضور الاحتفال والجلسات لتقليص الأذلال إلى أقصى حد ممكن. صحيح أن غبطته لم يشارك في حفل الافتتاح، إلا أن مقرّ مكسيم الصائغ تموّل إلى مقر للمجمع بعد أن توافد إليه المستفسرون من آباء المجمع، وهذا ما رفع من معنويات غبطته ودفعه إلى المشاركة انسجاماً مع مواقف أساقفته الذي عبّر عنه المطرانان جاورجيوس حكيم وفيلبس نبعة قائلين: «نحن مقتنعون بأن رومة تسيء معاملة بطريركيتنا، وسوف ندافع عن موقفنا. ولكن يجب حضور المجمع والتحدث فيه بقوة من أجل تحقيق ذلك... والجميع ينتظر منا أن نقوم بدور رائد إبان المجمع... ثم إن أساقفة دون بطريركهم لا يمثلون الكنيسة الملكية تمثيلاً

القدس سنة ١٩٦٤، حيث التقى غبطة البطريرك الصائغ البطريرك المسكوني في الدار البطريركية الأرثوذكسية في القدس (١٦٣)، وفي اللقاء التاريخي الذي جرى بين الحبرين، يوم ٧ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٦٤، عندما قام البطريرك المسكوني برد الزيارة إلى البطريرك الصائغ (١٦٤)، وفي لقاء ثالث جرى في استبول عندما قام البطريرك الصائغ بزيارة الكرسي المسكوني في الفنار، في ٣٠ أيار (مايو) عام ١٩٦٤. لقد كان في هذا اللقاء تأكيد من الطرفين أن باب الحوار المسكوني، الذي فتحه البابا بولس السادس على مصراعيه، لن يستطيع أحد إغلاقه البتة. وكانت الكلمة الأخيرة في هذا اللقاء للبطريرك المسكوني: «كم تأخرنا حتى عرفناكم، وكم تأخرنا حتى أحببناكم» تعبّر عن مدى التقارب الذي أوجده البطريركان في العلاقات بين الكنيستين الأرثوذكسية والملكية الكاثوليكية (١٦٥).

لقد خاض البطريرك الصائغ أشرس معاركه وأكثرها تشرifa في المجمع الفاتيكاني الثاني. وإنه يتوجب علينا كتابة المجلدات إذا ما أردنا أن نسترسل في دور كنيسة الروم الكاثوليك في المجمع (١٦٦)، لذلك سوف نكتفي ببعض الإشارات المهمة والمعبرة.

لقد كان دور الروم الكاثوليك بارزاً في

المسرة، السنة ٥٠ (١٩٦٤) ص ٥٢٤-٥٣١.

(١٦٦) يمكن ملاحقة دور الروم الكاثوليك في المجمع الفاتيكاني الثاني في كتاب: *L'Eglise Grecque Melkite Catholique au Concile* الذي عربّه الدكتور بشارة صارحجي، عن مركز الأبحاث الرومي الملكي الكاثوليكي في القدس.

(١٦٣) راجع «البايا في الأماكن المقدسة»، مقال في المسرة، السنة ٥٠ (١٩٦٤)، ص ١٣٤-١٣٣.

(١٦٤) المرجع السابق، ص ١٤٧.

(١٦٥) راجع: الأب جورج فاخوري: «مكسيم الرابع يلقي أتيناغوراس»، خير في

مدخلاتهم طليعية، كشفت عن المسؤولية التي يتحملها الكرسي الرسولي الروماني في الانقسامات الكنسية^(١٦٩).

الأمر الرابع كان «معجزة المجمع» عندما تناول البطريرك الصائغ موضوع الجماعة الأسقفية، مصرحاً بأن الدوائر الرومانية يجب ألا تنفرد بمساعدة البابا. فمصفّ الأساقفة المتحد يرئسه أسقف رومة هو صاحب السلطة العليا في الكنيسة على قدم المساواة مع البابا بصفته رئيس هذا المصفّ عينه. فما من جسم دون رأس، ولكن ما من رأس أيضاً دون جسم^(١٧٠).

لقد حققت كنيستنا إنجازات كبرى في المجمع الفاتيكاني الثاني، تعود إلى عمق فهمها لدور كنيستنا بين الشرق والغرب وفي العمل المسكوني.

لقد دامت ولاية البطريرك الصائغ حوالى عشرين عاماً، قضاها في العمل الحثيث لتحقيق الوحدة المسكونية وإنعاش المسيحية. وقد توفي في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٦٧ عن عمر يناهز التاسعة والثمانين. فالتأم السينودس المقدس في عين تراز، في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر)، بدعوة من المدير البطريركي المطران بطرس كامل مدور، وانتخب المطران جاورجيوس حكيم بطريركاً باسم مكسيم الخامس.

حقيقياً. فإما ننسحب كلنا معاً، وإما على البطريرك أن يبقى، وأن يعمل معنا^(١٦٧).

الأمر الثاني هو اللغات المستعملة في المجمع، خصوصاً اللغة الليترجية. وقد انقسم آباء المجمع بين استعمال اللغة اللاتينية أو اللغات الحية. واحتدم النقاش مدة ساعتين دون جدوى حتى أعطي البطريرك الصائغ الكلام. فتكلم بالفرنسية خارقاً نظام المجمع، وألقى خطاباً تاريخياً أكد فيه «أن المسيح ورسله قد تكلموا بلغة معاصريهم. كما أن الكنيسة قد قبلت دائماً في احتفالاتها الليترجية اللغات جميعها. أما اللغة اللاتينية فقد أمست لغة ميتة، فيما الكنيسة حية دائماً وينبغي عليها التكلم بلغة مؤمنها اليوم»^(١٦٨) فجاء كلامه كدوي انفجار في كنيسة القديس بطرس، فعلا التصفيق حاداً من المشاركين في المجمع.

الأمر الثالث هو مناقشة مخطط الوحدة الكنسية حيث كان يفترض بالمداخلة أن لا تزيد عن الدقائق العشر. وبما أن الوقت لا يكفي فقد أتبع الروم الكاثوليك خطة ذكية بأن تناوب خمسة منهم الكلام بشكل متالي، فكان أن عبرت كنيستنا عن رأيها على مدى ساعة تقريباً في العمل المسكوني. وقد تناوب على الكلام غبطة البطريرك بالفرنسية ونقل المطران حكيم كلامه إلى اللاتينية، ثم تبعه المطران نبعة، والمطران الزغبى، والمطران إدلبي، والأب العام الشويري أنثاسيوس حاج. وكانت

(١٦٩) المرجع نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(١٧٠) المرجع نفسه، ص ١٢٩-١٣٠.

(١٦٧) مكسيم الرابع الراعي والأب، ص

١٢٢-١٢٣.

(١٦٨) المرجع نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

٦ عهد البطريرك مكسيم الخامس حكيم (١٩٦٧-٢٠٠٠):

تسلم البطريرك مكسيم الخامس السدة البطريركية وهي في ذروة التنظيم والازدهار. لذلك استمر غبطته بالتعاون مع معاون البطريركي، والعقل المخطط للبطريركية، المطران بطرس كامل مدور، واستعان بعدد من المستشارين وعينهم أساقفة معاونين بطريركيين، أمثال الياس نجمة وبطرس راعي ويوحنا منصور، بالإضافة إلى نيقولاوس الحاج الذي كان قد عينه البطريرك الصائغ. وحافظ على نظام السينودسات السنوي، الذي كان سارياً منذ عهد سلفه، لدرس شؤون الكنيسة في الشرق والشتات. وعمل على تجديد الهيئة السينودسية فرسم ٣٢ أسقفاً حتى الآن. منهم ستة في مطلع عهده، بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧١. وعمل على إنشاء مجلس أعلى لفعاليات الروم الكاثوليك في لبنان لدرس كل القضايا والمشاكل التي تعترض حياة الكنيسة والوطن، كما أحيى المجلس الملي في دمشق ووضع له قانوناً ينسق أعماله ويمكنه من إدارة مهمته بفعالية^(١٧١). وعمل على بحث وتنظيم الجمعية البطريركية لفرسان صليب أورشليم المقدس، التي أسسها البطريرك الصائغ، بأن وضع لها، في ٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٧٩، قانوناً جديداً مفصلاً. وأعاد تنظيم مجلة الرابطة التي أسسها في مصر، وانتقلت معه إلى أبرشية عكا، وحملها معه إلى السدة

البطريركية، ناطقة باللغة الفرنسية، رابطة بين البطريركية وأبنائها في الشرق وبلاد الاغتراب^(١٧٢). وأنشأ غبطته سلسلة من المدارس والإكليريكيات في لبنان وسورية، وأبرزها مشروع إكليريكية القديسة حنة في الربوة. كما أنشأ غبطته عدداً من الكنائس والمؤسسات الاجتماعية، وعزز وضع المدارس البطريركية.

وعلى صعيد الاغتراب: كان غبطته يتفقد شؤون الرعية بشكل متواصل ليحافظ على الرابط بين الكنيسة في المهجر والكنيسة الأم. ودافع عن حق الكنيسة في المهجر بتنظيم أمورهما وفق شرعها الخاص، لا سيما في ما يختص بالكهنة المتزوجين. وعمل على تنظيم الرعايا في بلاد الاغتراب، وسعى وآباء السينودس المقدس مع الكرسي الرسولي لإنشاء أبرشيات ملكية تحضن الروم الملكيين في الشتات، فأثمرت المساعي بأن توصلت أركان أبرشية نيوتن وسائر الولايات المتحدة منذ سنة ١٩٧٧، وكندا عام ١٩٨٠، وأستراليا عام ١٩٨٧. وتمكّنوا من إنشاء إكسرخميات في المكسيك وفنزويلا (١٩٩٠) وباريس (١٩٥٠) ومرسيليا (١٩٦٧). أما في رومة فقد نشأت أولى الرعايا في حزيران (يونيو) عام ١٩٧٢ بعدما وهب قداسة البابا بولس السادس كنيسة القديسة مريم إن كوزمدين (Santa Maria in Cosmedin) لغبطته. وفي بلجيكا نشأت أولى الرعايا سنة

في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٨٤، ص ٢٠.
(١٧٢) المرجع السابق، ص ١٣ - ١٤.

(١٧١) مكسيم الخامس حكيم بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، إعداد الأب جان جنيرت، طبع بمناسبة وضع حجر الأساس لمشروع الربوة السكني

١٩٨٠ بهمة بعض الكهنة البلجيكيين المتضمنين إلى الطقس البيزنطي، وعلى رأسهم الأب سيرج ديسي.

وبقي الهاجس الأكبر كيف نربط هذا العدد من المهاجرين المتنامي سنة بعد سنة بالوطن الأم. فعقب تشجيع السينودس المقدس والمجلس الأعلى للروم الكاثوليك في لبنان، وبطلب من غبطة البطريرك، ولدت فكرة تأسيس اتحاد عالمي للروم الملكيين الكاثوليك والذي عقد مؤتمراً في مونتريال، بين ٥ و٧ أيار (مايو) عام ١٩٨٦، وضع شرعة الاتحاد العالمي للروم الملكيين الكاثوليك (U.M.C.I.) (١٧٣).

وعلى صعيد العمل المسكوني: فقد درس آباء السينودس المقدس، منذ عام ١٩٦٨ حتى الآن، ما لا يقل عن ٣٧ وثيقة، بين مذكرة وتقارير لجنة ومشروع، تتناول العمل المسكوني. وقد شكّل سينودس عين تراز، في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٨، لجنة مسكونية بطريركية برئاسة المطران كامل مدور، وعضوية الأساقفة ناويفطس إدلبي ويوسف طويل وجاورجيوس حدّاد وغريغوريوس حدّاد، يضاف إليهم الرؤساء العامون الأربعة، إلا أن الخطوات المسكونية كانت محدودة بسبب الموقف السلبي الذي تقفه الكنائس الشرقية الأرثوذكسية من الكنائس الشرقية الكاثوليكية. ولطالما اعتبر الروم الأرثوذكس الروم الكاثوليك عقبة أمام الاتحاد. فنجابرة العمل المسكوني: بولس السادس، البطريرك

المسكوني أثناغوراس، مكسيمس الرابع الصائغ، قد رحلوا على التوالي، وعدنا بالعمل المسكوني إلى الوراثة. إلا أن يريقاً من الأمل لمع في عهد البطريرك حكيم والفضل مشروع لسيادة المطران الياس الزغبى، ففي ٢٥ آذار (مارس) عام ١٩٧٤، قدم سيادته اقتراحاً إلى اللجنة المسكونية يهدف إلى إقامة وحدة فورية بين شطري الكنيسة الانطاكية على أن تبقى كنيسة في شركة كاملة مع كرسي رومة الرسولي.

والمهم في هذا الاقتراح أنه، وإن لم يشر، حرك العمل المسكوني بعد جمود فترة طويلة. ومشروع المطران الزغبى كما عبّر عنه في مجلة المسرة الغراء يدعو «إلى إيجاد صيغة للوحدة بين شطري البطريركية الأنطاكية الخلقيدونية، أي بين بطريركيتي الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس، تكون بمثابة مرحلة اتحادية أولى، على أن ترضى بهذه الصيغة وتباركها الكنيسة الرومانية والأرثوذكسية. فعود كنيسة إلى الوحدة مع البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية مع بقائها على الشركة مع كرسي رومة الرسولي». على أن لا يكون هذا الانتساب المزدوج الغاية القصوى والأخيرة، بل «تجربة تعايش في واقع الحياة ومرحلة تمهيدية لصيغة اتحادية أوسع تشمل الكنيسة الكيرتية، الكاثوليكية الرومانية والأرثوذكسية، اللتين تؤلفان معاً كنيسة المسيح الجامعة ولا يتم بدون اتحادهما

(١٧٣) دليل كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك في العالم، صدر عن بطريركية أنطاكية وسائر المشرق

والاسكندرية وأورشليم، تنسيق الأب جورج باليكي اليوسفي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص ٤٢.

فقد قرّر آباء السينودس أنه، بعد كل الانجازات المسكونية، واستناداً إلى الوحدة هي جوهر الإيمان، فإن «المشاركة في القدامات هي اليوم ممكنة، وهم يقبلون بها تاركين مدى وطرق تطبيقها لما سوف يقرّه معاً سينودساً كنستي الروم الملكيين الكاثوليك والروم الأرثوذكس».

وقد أعلن آباء السينودس بقاءهم في الشركة الكاملة مع كنيسة رومة الرسولية، وسعيهم في الوقت عينه إلى التحوار معها لتحديد ما يقتضيه دخولهم في الشركة مع كنيسة أنطاكية الأرثوذكسية.

لقد أكد آباء السينودس تطّلعهم بشوق إلى اليوم الذي يعود فيه فرعاً كنيسة أنطاكية الملكية إلى وحدة البطريركية في كنيسة واحدة وبطريركية واحدة. وهم يؤكدون أن إعادة الوحدة لا تعني انتصاراً لأحد أو ذوباناً لكنيسة، بل الرجوع إلى الوحدة التي كانت سائدة قبل انفصال ١٧٢٤.

لقد تنوّجت جهود رواد الحركة المسكونية أمثال أوريمست كرامة والمطران بطرس كامل مدور والبطيريك مكسيمس الرابع والمطران الياس زغبى، واللجنة المشتركة المكوّنة من السادة الأساقفة جورج خضر والياس عودة وسليم بسترس والياس زغبى، بقرار سينودسي جريء من قبل كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك بانتظار موقف سينودس الروم الأرثوذكس والكرسي الرسولي.

Mgr. Elias ZOGHBY: *Tous Schismatiques?*, Beyrouth, 1981.
Ibid., p. 150 (١٧٦)

تحقيق التراث المسيحي الكامل» (١٧٤). إلا أن الكرسي الرسولي رفض الاقتراح. أما المطران زغبى فقد ثابر على تطوير اقتراحه وأصدر عام ١٩٨١ كتابه «ألسنا جميعاً منسحقين؟» (١٧٥)، أعلن فيه تجاوزه لتحفظات الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وأنه يعتبر نفسه في حالة اتحاد مع الاثنتين في آن واحد. مبادراً إلى تحقيق مشروع «الشركة المزدوجة» في ذاته. مصرحاً: «أعلن أنني أعيش وسوف أموت في اتحاد تام بالكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الممثلة محلياً ببطيركية أنطاكية للروم الأرثوذكس، وأعترف بأن الاثنتين مقدّستان رسوليتان متساويتان جوهرياً في الإيمان وفي الرسولية وفي الأسقفية وفي العبادة الكنسية وفي إقامة الأسرار» (١٧٦).

إن إعلان سيادة المطران زغبى شركته المزدوجة ظل موقفاً شخصياً، وإن تمحّول إلى صرخة نبوية أطلقها سيادته إلى الرعاة لإعادة وحدة القطيع المشتّت. إلا أن هذه الصرخة تمحّلت في سينودس تموز (يوليو) عام ١٩٩٦ إلى خطوة متقدّمة على طريق الوحدة المسكونية بعد التطور الذي حصل من خلال اللّجنة اللاهوتية الدولية المشتركة بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنائس الأرثوذكسية. فقد أعلنت وحدة الإيمان في العقائد الأساسية في أربع وثائق بين عامي ١٩٨٢ و١٩٩٣، وبقي نقطة للدرس وهي «دور أسقف رومة في الكنيسة والمجامع المسكونية».

(١٧٤) المطران الياس زغبى: «حول الوحدة المسيحية ووحدة البطريركية الأنطاكية»، مقال في المسرة، السنة ٦١ (١٩٧٥)، ص ٤٩٣-٤٩٤.

كما أنه يجدر التوقف، في هذا العهد، عن حدثين مهمين:

الأول: مؤتمر الإكليرس

في السينودس الأول الذي عقده البطريرك حكيم في عين تراز، في أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٨، درس اباء المجمع موضوع لقاء بين الرؤساء الكنسيين والاكليرس، تمثيلاً مع روح المجمع الفاتيكاني، وإفساحاً للمجال أمام الكهنة لدراس المسائل التي تخصهم وتخص الكنيسة. وقد التأم المؤتمر الأول في دير يسوع الملك (لبنان)، من ١١ إلى ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٦٩، وبحث المواضيع التالية (١٧٧): روحانية الكاهن وثقافته، وضع الكاهن الاجتماعي والمادي.

وقد التأم المؤتمر سبع مرات بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨٠. إلا أن الظروف المساوية التي عصفت بلبنان بعد ذلك التاريخ أوقفت المؤتمرات اللاحقة. وما زال مؤتمر الإكليرس متوقفاً حتى الآن على الرغم من تحسن الأوضاع السياسية والأمنية.

الثاني: المؤتمر العام لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

لقد أكد المجمع الفاتيكاني الثاني دور

جماعة المؤمنين الذين يؤلفون «شعب الله» في كنيسة المسيح. من هذا المنطلق بدأت تنمو فكرة «المؤتمر العام» في السينودس المقدس وتطور حول ضرورة إشراك المؤمنين في خدمة المسيح وكنيسته المقدسة (١٧٨). وتمكنت الأمانة العامة للجان السينودس برئاسة سيادة المطران غريغوار حداد من بلورة فكرة رائدة في محاولة تلاقٍ أقرها السينودس سنة ١٩٨٢ وتعذر تنفيذها حتى صيف عام ١٩٨٣. وقد حدّدت الأمانة العامة للمؤتمر هدفاً مزدوجاً: من جهة التباحث والتفاعل حول موضوع المؤتمر، ورفع التوصيات إلى السينودس المقدس الهيئة المؤهلة لاتخاذ القرارات، ومن جهة ثانية القيام باختبار حياتي لوحدة هذه الكنيسة على صعيد كل فئاتها. وهكذا التأم ثلاثة مؤتمرات (١٧٩) بين عامي ١٩٨٣ و١٩٩٢، شارك فيها مندوبون من أبرشيات الروم الكاثوليك المختلفة وناقشوا مواضيع المجالس الرعوية والحركات الرسولية والتربية المسيحية، وكنيستنا: تاريخ ورسالة، وكنيستنا: التمسك والانتعاش.

لقد تجاذب المؤتمر تياران، الأول يميل إلى المثابرة على عقد اللقاءات على الرغم من عدم إقرار أي توصية من توصياته حتى الآن، فإيجابيات اللقاء كثيرة وتستحق العناء. الثاني يميل إلى اعتبار المؤتمر قد تحوّل إلى مسرح لتurf

راجع أعمال المؤتمر الثاني في المسرة، السنة ٧٧ (١٩٩١)، العدد ٧٩١ (خاص)، ص ٨٩٧-١١٢٠.

راجع أعمال المؤتمر الثالث في المسرة، السنة ٧٩ (١٩٩٣)، العدد ٨٠٥ (خاص)، ص ٨٤٩-١١٢٠.

(١٧٧) دليل كنيسة الروم...، ص ٣٩.
(١٧٨) الكلمة الافتتاحية لصاحب الغبطة مكسيم الخامس حكيم في المؤتمر العام الأول، راجع المسرة، السنة ٦٩ (١٩٨٣)، ص ٥١٨.
(١٧٩) راجع أعمال المؤتمر الأول في: المسرة، السنة ٦٩ (١٩٨٣)، العددان ٦٩٣-٦٩٤ (خاص)، ص ٥١٣-٥٩٢.

وفسح بانتقالهم من أنطاكية إلى دمشق، وكان ذلك في عهد البطريرك الأنطاكي ثيودوسيوس الرابع (١٢٦٨-١٢٧٦) (١٨٠).

(٢) كرسي دمشق: كان الكرسي الثاني من حيث الأهمية بعد كرسي صور. وكان الكرسي رئاسة أسقفية تتبع لها ١٣ أسقفية. إلا أنه، مع انتقال البطارقة إليها، تحول مطرانها من رئيس أساقفة إلى وكيل بطريركي.

(٣) كرسي الاسكندرية: هي بطريركية قائمة بذاتها، لا يتبعها أبرشيات. فهي أبرشية واحدة مقرها في الاسكندرية والقاهرة معاً وتشمل ولايتي السودان وليبيا.

(٤) كرسي أورشليم: تمت كنيسة الروم الكاثوليك ببطء في القدس بين بطريركيتي الأرثوذكس واللاتين، وقد عين لرعايتهم المطران ملاتيوس فندي سنة ١٨٣٨. إلا أن معظم الذين تولوا النيابة البطريركية بعده كانوا من الكهنة، حتى عام ١٩٦١، عندما عادت البطريركية إلى تعيين أساقفة كنوآب بطريركيين.

يتبع الكرسي البطريركي كذلك مقرآن في لبنان:

الأول في عين تراز، أُعدّ ليكون إكليركية، ثم تحول في عهد البطريرك الصائغ إلى مقر صيفي للبطريركية. وهو يجسد تراث كنيسة الروم الكاثوليك بسبب السينودسات العديدة التي عقدت فيه، وبسبب مكتبته الثمينة

ويقول الأب يوحنا المعجبي في كتابه: التخيكون (مخطوط)، ص ٣٢١، إن هذا الانتقال تم سنة ١٥٣٠م.

فكري يمكن الاستغناء عن عناء تحضيره والاكتفاء بنشر المواضيع المثارة في المجالات الملكية الكاثوليكية. ومع الأسف توقف المؤتمر، دون أن ينتصر تيار على الآخر، بل لأسباب لا مجال لذكرها الآن تاركاً فراغاً كبيراً في كنيستنا التي كانت سبّاقة في الشرق لعقد مؤتمر الإكليرس والمؤتمر العام.

خامساً: هيكلية كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

تتألف كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك من: البطريرك، مصف الأساقفة، الإكليرس، العلمانيين.

* البطريرك

هو رأس الكنيسة الملكية والرئيس الروحي الأعلى له، والممثل الوحيد الشرعي لها، يرأس السينودس، ويختار الأساقفة بالتشاور مع آباء السينودس، ويرسمهم. يعاونه مستشارون برتبة أساقفة معاونين بطريركيين، ونوآب بطريركيون يتوبون عنه في إدارة الكراسي البطريركية التي تخضع لولايته، وهي:

(١) الكرسي الأنطاكي: مقره مدينة أنطاكية، وانتقل إلى دمشق إثر المفاوضات التي حصلت بين الأباطور البيزنطي ميخائيل الرابع والسلطان المملوكي بيبرس، فاعترف الملك الظاهر بيبرس برئاسة البطارقة الأنطاكيين

(١٨٠) د. أسد رستم: كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، منشورات المكتبة البولسية، جويليه (لبنان)، ١٩٨٨، الجزء الثاني، ص ٣٣٩-٣٤٠.

بالمخطوطات والوثائق والتي تعرّضت للنهب والسرقة في خريف ١٩٨٣، وما يزال مصيرها مجهولاً. في حين تعرّض المقر للقصف والحريق فدمرت أجزاء منه.

الثاني في الربوة، حيث أنشأت البطريركية، سنة ١٩٧٧، إكليركية القديسة حنة الكبرى بدلاً من القدس وحوّلت جناحاً منها لإقامة غبطة البطريرك ودوائره.

ويتبع الكرسي البطريركي أيضاً ثلاث نيابات بطريركية هي: نيابة العراق، وقد ألحقت، منذ عدة سنوات، بأبرشية شرقي الأردن، نيابة الكويت، نيابة استنبول.

كما يتبع الكرسي البطريركي أربع رعايا في أوروبا بانتظار تأسيس أبرشية أوروبا الغربية، وهي: باريس (١٩٥٠)، مرسيليا (١٩٦٥)، رومة (١٩٦٥)، بلجيكا (١٩٨٠).

* مصفّ الأساقفة

الأسقف هو رسم السيد المسيح الحبر الأزلي، والأسقفية هي ملء الكهنوت وذروته العليا. فالأسقف هو ملاك كنيسة كما دعاه يوحنا في سفر الرؤيا. وهو الراعي الأول للأبرشية والرئيس الروحي والقاضي والأب لإكليروسه وشعبه.

هناك نوعان من الأساقفة يرتبطان بشكل الأبرشية، والنوعان لا يختلفان إلا بحق التقدم، يتساويان بكل حقوق الأسقفية بحسب الشرع الكنسي. فنحن نتميز بين المتربوليت وهو الأسقف المعين على مدينة رئيسة بالترتيب الكنسي، وهناك رئيس الأساقفة وهو الأسقف المعين على أسقفية عادية. من هذا المنطلق نجد

في كنيسة الكراسي المتربوليتية والكراسي الأسقفية والكراسي المنشأة حديثاً خصوصاً في بلاد الاغتراب، إذ لم يكن لها وجود في التاريخ.

آ) الكراسي المتربوليتية: وهي ست: صور، حلب وسلوقية وقورش، بصرى، وهوران وجبل العرب، بيروت وجبيل وتوابعهما، بيروت وحمص وحماه، اللاذقية وطرطوس وتلكلخ ومصيف.

ب) الكراسي الأسقفية: وهي سبع: صيدا ودير القمر وتوابعهما، طرابلس وعكار، عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل، الفرزل وزحلة والبقاع، باناس وتوابعها، بعلبك، بترا وفيلادلفيا وشرقي الأردن.

ج) أبرشيات الاغتراب:

أبرشية نيوتن وسائر الولايات المتحدة (١٩٧٦)، أبرشية ساو باولو وسائر البرازيل (١٩٧١)، أبرشية كندا (١٩٨٠)، أبرشية أستراليا (١٩٨٧)، أبرشية فنزويلا (١٩٩٦).

* رجال الإكليروس

أقيم رجال الإكليروس منذ فجر الكنيسة لمساعدة الأساقفة في إرشاد النفوس وتوزيع الأسرار والوعظ الإنجيلي. إلا أن الكنيسة الشرقية كانت تعاني الكثير، من خلال الأحداث التي تلاحقت منذ القرن السابع حتى عشية نشأة الروم الكاثوليك سنة ١٧٢٤، من وضع رجال الإكليروس. في حين كان المرسل اللاتيني يقضي عشر سنين ونيفاً في الدرس ومباشرة أعمال الرياضة الروحية، فضلاً عمّا

الآن ٦٣ كاهناً، أي ٣٥٨ كاهناً على مدى ١١٤ سنة (١٨٣).

ورغم النشاط والازدهار اللذين أذكيا الحياة الرهبانية منذ القرن الثامن عشر، فإن هذه الحياة لم تستطع سدّ الفراغ الكامل الحاصل في القرى المختلفة التابعة لأبرشيات الكنيسة الملكية. فالرهبانيات المخلصية والشويرية والحليّة كانت تعاني، وما زالت، نقصاً من الناحية البشرية. والمطلّع على الجدول المرفق عن وضع الكنيسة الملكية الكاثوليكية الحالي يرى عمق المأزق الذي تعانيه من تناقص عدد الدعوات الكهنوتية بشكل خطير بات يستلزم تحركاً جدياً وجذرياً من قبل الأساقفة والكهنة والرهبان والراهبات والأسر المسيحية والمدارس والجامعات والحركات الرسولية... (١٨٤).

والوضع الحالي لرجال الكليسا في كنيسة الروم الكاثوليك هو على الشكل التالي (١٨٥):

أ) الكهنة

هم خدمة الرعايا، يُقسَمون إلى قسمين: كهنة متزوجين بحسب التقليد الشرقي، وكهنة

تموز (يوليو) ١٩٩٦.

(١٨٤) سينودس تموز (يوليو) ١٩٩٦: البيان الختامي.

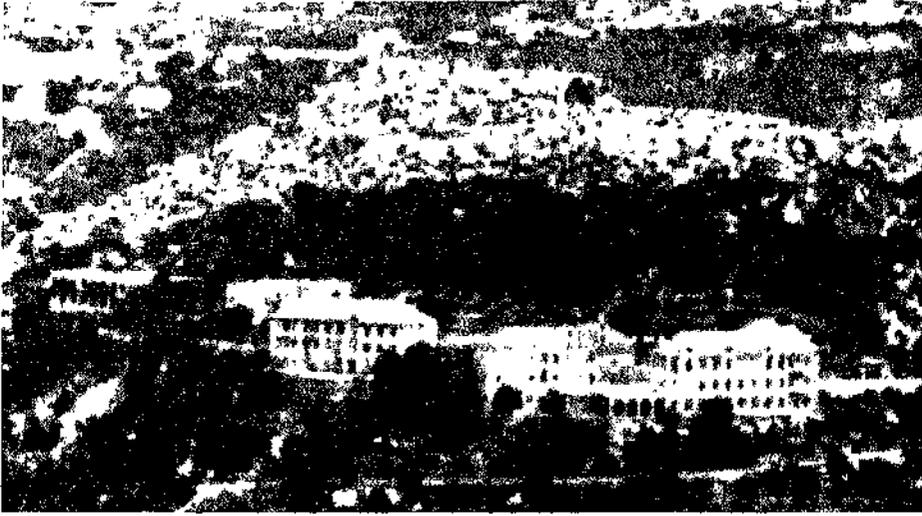
(١٨٥) اعتمدنا في هذا الجزء على المعلومات الواردة في دليل كيسة الروم الملكيين الكاثوليك في العالم، وهي معلومات تعود إلى تقارير سنة ١٩٨٧. أما الأرقام الواردة في الاحصاءات الحديثة فقد استقيناها من وثائق سينودس تموز (يوليو) ١٩٩٦، ومن قدس الأرشمندريت جورج حداد، أمين سر البطريركية.

هي عليه رهبانياته من الجاه والمال، فإن ثقافة بعض رجال الكليسا الملكي الكاثوليكي لم تتعدّ حفظ بعض المعلومات المتفرقة في علم اللاهوت الأدبي (١٨١). أما الجهاز البشري فكان يتألف من عدد ضئيل من الكهنة المتزوجين، أضيف إليهم من بعد عدد من الرهبان بعد تأسيس الرهبانيات الملكية. ولم تتطور أحوالهم الثقافية وتحسن، إلا مع إنشاء إكليريكية القديسة حنة عام ١٨٨٢. وكانت أبرشيات الروم الكاثوليك تزرع تحت عبء النقص الفادح في الدعوات الكهنوتية. فلقد كانت حاجة الكنيسة الملكية الكاثوليكية إلى الكهنة تزداد يوماً بعد يوم. ففي الربع الأول من القرن العشرين كانت هذه الحاجة ملحّة: فأبرشية صور مثلاً لم تنعم إلا بأربعة كهنة، بينهم بعض النفور، وهي بحاجة إلى ثلاثة آخرين، فيما الكاهن الواحد يعني بأكثر من قرية واحدة (١٨٢). ولم تستطع إكليريكية القديسة حنة في القدس أن تسدّ هذه الحاجة، فلقد خرجت، منذ تأسيسها حتى إقفالها سنة ١٩٦٩، ٢٨٩ كاهناً، ومن سنة ١٩٦٩ حتى ١٩٧٧، ٦ كهنة، ومن عام ١٩٧٧ حتى

(١٨١) محفوظات الجمعية البولسية: مراسلات المطران معقّد، رسالة إلى البطريرك، بتاريخ ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٥.

(١٨٢) محفوظات الجمعية البولسية: ملف مراسلات الأب بولس سيور، رسالة إلى المطران الصائغ بتاريخ أول تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ و ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٧.

(١٨٣) امتداداً إلى صكوك الرسامات في سجلات الكليريكية في الربوة، ومستندات سينودس



دير القديس يوحنا الصابغ في الشوير مهد الرهبانية الباسيلية الشويرية

مهمة جداً تُعتبر من كنوز تراث الروم الملكيين الكاثوليك .

قد تعرّضت الرهبانية إلى نكسة خطيرة بين عامي ١٩٨٣ و ١٩٨٥ إذ قصفت وفجّرت أديرة في جبل لبنان، ونهبت محتوياتها وصودرت إيقوناتها ومخطوطاتها. إلا أنها تمكّنت من تخطي الأزمة بعد نقل الدير الرئيسي مؤقتاً إلى جعيتا. وقد استعادت اليوم أديرتها وأملاكها وهي تتابع رسالتها في المحيط الذي غرست فيه منذ قرون ثلاثة وفتحت منه كوات إلى العالم لتضيء حياة الكثير من المؤمنين في بلاد الاغتراب. وقد قدّمت هذه الرهبانية إلى الكنيسة ثمانية بطاركة و٥٨ أسقفاً.

٢. الرهبانية الباسيلية الشويرية: أسسها جماعة من الرهبان الحلبيين المنفصلين عن دير البلمند. أسسوا دير مار يوحنا الصابغ في الخنثارة، سنة ١٧١١. ضمّت في حنايا

متبّلين: يبلغ عددهم اليوم في الشرق وبلاد الاغتراب ٢٨١ كاهناً: ١٥٠ متبلاً و ١٣١ متزوجاً. يخدمون رعايا ١٦ أبرشية في الشرق وه أبرشيات وعدد من الرعايا المتفرقة في بلاد الاغتراب .

ب) الرهبان

يعدّون ١٨٣ راهباً يتوزعون على ثلاث رهبانيات قانونية وجمعية مرسلين .

١. الرهبانية الباسيلية الخلفيّة: تأسست سنة ١٦٨٣ على يد مطران صيدا وصور الملكي افثيموس الصيفي. وهي من أعرق الرهبانيات في تاريخ كنيستنا لأنها حضنت في ديرها الرئيسي في جون (الشوف)، دير الخلص، حركة الكتلكة، وأوت البطاركة والأساقفة المضطهدين والملاحقين من قبل الأرثوذكس والسلطات العثمانية. ولأن الدير الرئيسي يضمّ مخطوطات ووثائق

تاريخها قسماً مهماً من تراث الروم الكاثوليك والشرق، فقد احتضنت الرهبانية في ديرها الرئيسي أول مطبعة في الشرق بالحرف العربي التي أسسها الشماس عبد الله الزاهر. إلا أنها تعرضت لهزة عنيفة سنة ١٨٢٩، إذ انشطرت إلى قسمين: الرهبانية البلدية (الشورية) والرهبانية الحلبية. وعلى الرغم من ذلك يعتبر الأب أنثامبوس حاج قب الرهائنين شقيقتين، تعمل فيها روح واحدة، كنهر أبي أن تنحصر مياهه من ناحية واحدة، فانقسم إلى شعبتين مكوناً دلتاً، ليستنى له أن يؤمن الخصب والحياة في مجال أوسع (١٨٦)، وقد قدمت الرهبانية للكنيسة ثلاثة بطاركة و٣٤ أسقفاً.

٣. الرهبانية الباسيلية الحلبية: تأسست إثر انقسام الرهبانية الخناوية إلى شورية وحلبية سنة ١٨٢٩. وقدمت للكنيسة كردينالاً، أكاكبوس كوسا، وعشرة مطارنة (منذ ١٨٢٩).

٤. جمعية المرسلين البوليسيين: تأسست سنة ١٩٠٣ على يد مطران بعلبك المستقيل جرمانس معقد (١٩١٢٦)، غايتها إقامة الرياضات الروحية وإلقاء المواعظ وتعليم قواعد الديانة وأصول التعليم المسيحي بشرح واضح بسيط. وعلى الرغم من حداثةها فقد قدمت للكنيسة بطريركاً و١٢ أسقفاً.

ج) الراهبات: عددهن اليوم حوالي ٣٧٢ راهبة ينتمين إلى ٥ رهبانيات، ثلاث رهبانيات

باسيليات: المخلصيات والشوريات والحلييات؛ جمعية مرسلات المعونة الدائمة، ورهبانية للخدمة: راهبات الخدمة الصالحة.

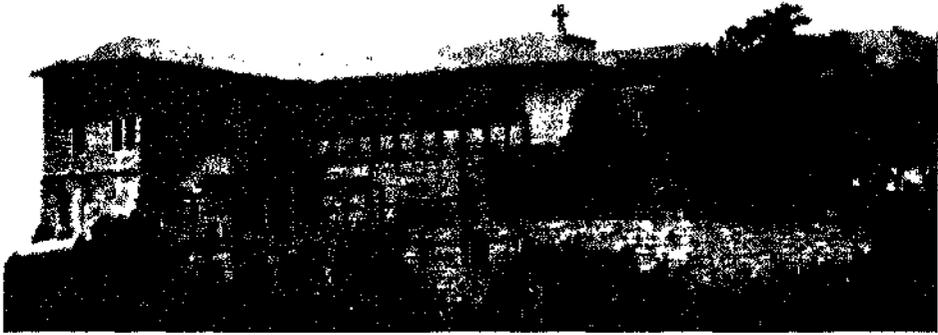
١. الراهبات المخلصيات: بدأت الرهبانية على شكل راهبات محصنات، تحوكن إلى راهبات مرسلات منذ سنة ١٩٤٩، تاريخ تشكيل أول هيئة قانونية، وتحوّل اسمها إلى «جمعية المرسلات المخلصيات».

٢. الراهبات الشوريات: تأسست الرهبانية الشورية منذ عام ١٧٣٠ على يد مجموعة من العابدات الحلييات اللواتي انتقلن إلى دير سيدة البشارة في زوق مكاييل سنة ١٧٣٧. ثم توالى أفواج الراهبات، مثلاً يحتذى في الزهد والتوبة، ونمت الحياة الرهبانية المحصنة في ظلال المحبة والمشورات الإنجيلية، ضمن إطار الليترجية والانتقاع إلى العبادة، في ظل القوانين القائمة على الصلاة والعمل. وقد تأثرت الراهبات بانقسام الرهبان الخناويين إلى فرعين: بلدي وحليي، فانقسم بدورهن، سنة ١٨٣٠، إلى راهبات شوريات، وراهبات حلييات. وفي سنة ١٩٤٠ بدأت ملامح تحوّل جديد في الرهبانية يقوم على الانتقال من الحياة المحصنة إلى الحياة الرسولية. وقد ثبت ذلك قداسة البابا، بإرادة رسولية صادرة بتاريخ ٢١ أيار (مايو) عام ١٩٥٣، معلناً تأسيس «جمعية خيرية مرسلات قائمة بذاتها».

الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٨، ص ١٥.

(١٨٦) الأب أنثامبوس حاج قب: صفحة من

تاريخ الرهبانية الباسيلية الشورية الملكية، المطبعة



دير سيدة البشارة للراهبات الباسيليات المتخصّصات

ديرها الرئيسي، على اسم سيدة المعونة الدائمة، يقع في حريصا، ويضم مركز الرئاسة العامة، ومراكز التنشئة الرهبانية، إلى جانب دير أساسي في مرميتا.

٥. راهبات سيدة الخدمة الصالحة: تأسست هذه الرهبانية سنة ١٩٥٣ على يد المطران يوسف معلوف، رئيس أساقفة بعلبك، لتأمين الخدمة المنزلية في الأديرة والمطرائيات والميتم والمأوى والمستشفيات وإدارة المدارس ضمن حدود أبرشية بعلبك.

* العلمانيون

لم يكن أبناء الرعايا الملكيين الكاثوليك يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بكنيستهم، فكانوا يتعدون عنها في كثير من الأحيان، ويمتنعون عن ممارسة شعائرها الدينية، لأي خلاف قد يقع بينهم وبين الكاهن، أو «استياء من تصرف بعض الكهنة» (١٨٧). وإن هذا الانقطاع قد

١٧١، مقرة ٢٧٣ (تورين).

٣. الراهبات الحليّات: نشأت عن انقسام الراهبات الباسيليات إلى راهبات شويريات وراهبات حليّات، كما ذكرنا. وفي سنة ١٩٤٥ بدأت أول محاولة جديدة للتحدّي في حياة الرهبانية بإيحاء وتوجيه من الأب أكاكبوس كوسا، أمين سر اللجنة البابوية لتدوين الحق القانوني الشرقي في رومة آنذاك وتم التحول القانوني والنهائي في ٢٥ تموز (يوليو) عام ١٩٥٣، وتحولت الراهبات إلى جمعية مرسلات تعمل في الحقل الرسولي.

٤. مرسلات سيدة المعونة الدائمة: تأسست جمعية المرسلات سنة ١٩٣٦ بسعي حثيث مشترك من الجمعية البولسية، في عهد الأب أنطوان حبيب، وسيادة مطران بيروت مكسيمس الصائغ. هي الرهبانية الوحيدة المتعلقة بالكرسي البطريركي.

(١٨٧) محفوظات الجمعية البولسية، سجل الرسائل، سجل رقم ١، رسالة طرابلس، ص

فإن هذا الأمر لم يكن يفقد بدقّة، خصوصاً بعد تحول هذه الإرساليات إلى تعاطي شؤون الناس الحياتية، فضلاً عن أن تحولها إلى النشاط التربوي لم يتمّ إلا بعد انطلاق المبشرين الأميركيّين في هذا الميدان (١٨٣٤). واقتصر نشاطها في الفترة السابقة على التبشير وتعزيز علاقة الكنيسة الشرقية برومة (١٩٢)، عبر لينة خطيرة كانت تحصل في بعض المناطق، كما حصل عام ١٨٨٤ في القدس عندما كان المطران معقّد نائباً بطريكياً. ولعلّ أبرز ما نستنتجه من ذلك الحدث أن محاولات الإرساليات في جذب الأرثوذكس إلى الكنيسة الكاثوليكية لم تكن تتم بوسائل عقائدية وتعليمية وتوجيهية بقدر ما كانت تتمّ بالمال تارة وبالتفسيرات الكنسية طوراً (١٩٣)، مع الخطر المتزايد من إفراغ الكنائس الشرقية من رعاياها بعد ليتها.

رغم جميع المحاولات التي بذلتها الحكومات المحلية لسدّ الفراغ الناشئ عن النقص في منجزات الإرساليات التربوية، ومع أن حكومة المتصرفية في عهد فرنكو باشا (١٨٦٨-١٨٧٣) قد جعلت التعليم الابتدائي إجبارياً، فإن عدد المدارس لم يزد في وقت

١٩١٤-١٩٢٠، دار الفارابي، بيروت، طبعة أولى، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٤، ص ٢٢٨. (١٩٢) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٣. (١٩٣) الخوري عيسى أسعد: الطفلة النقية في تاريخ المسيحية، مطبعة حمص، ١٩٢٤، ص ٣٣٨.

يحصل أيضاً بسبب عادات وتقاليد محلية كما كان شائعاً على سبيل المثال في جديدة مرجعيون: فالأهلون كانوا يمتنعون عن دخول الكنيسة إذا توفي أحد الأقارب، حتى يمر على وفاته عيد (١٨٨). كما أثرت الصراعات العائلية المحلية في عدم الالتزام بممارسة الشعائر الدينية، خصوصاً إذا انحاز كاهن الرعية إلى أحد الفريقين المتصارعين (١٨٩). وبصورة عامة، ساعدت هذه الأوضاع على تفتّش حالة من الجهل الديني وصلت إلى حد أن بعض أهالي راشيا الفخّار الشيوخ كانوا لا يعرفون الاعتراف والمناولة (١٩٠).

إلا أن الآفة الكبرى التي كانت تفرض هذا الجهل فرضاً هي الزواج المبكر الذي كان يتمّ عادةً عند الفتيان بين سن الخامسة عشرة والعشرين. أما عن الفتيات فكان من الممكن حصوله في سن الرابعة عشرة (١٩١). ومن السهل أن ينعكس هذا التقليد الاجتماعي علي وضع الطفل التربوي مديناً وروحياً، خصوصاً إذ كان الولدان أليافعان ضعيفين من الناحيتين التربوية والدينية.

ومع أن أبرز مهام الإرساليات التبشيرية التي أمّت لبنان كانت تعليم الفتيان والفتيات،

(١٨٨) المصدر نفسه، ص ١٤٢، فقرة ٣١٩. (١٨٩) من الأمثلة على ذلك خلاقات آل الشامي وآل الحرياطي في جون، وآل الهندي وآل الطرابلسي وعبد النور في كفرحونة، وآل حرّز وآل الفرّح في عين بوزاي - بعلبك. راجع المصدر نفسه، ص ١٢٦ و١٦٣. (١٩٠) المصدر نفسه، ص ١٤٠، فقرة ٣١٦. (١٩١) مسعود ضاهر: تاريخ لبنان الاجتماعي

واحد على أربع وعشرين أو خمس وعشرين مدرسة موزعة في مختلف أرجاء لبنان المتصرفية (١٩٤)، مع لفت النظر إلى أن أنظمة مدارس المعارف لم تكن تنعش التعليم الديني.

وقد اتضح لنا بصورة جلية، إنطلاقاً مما وقع بين أيدينا من معلومات مستقاة من بعض المراجع والمحفوظات، أن هذا الوضع المدرسي لم يكن يتمتع به إلا التجمعات السكنية الكبرى، نعني بها المدن الكبرى في الجبل والولايات ومراكز الأفضية. أما القرى الصغيرة والنائية، فقد ظلت على واقعها التام اجتماعياً وتربوياً، مع جواز حصول بعض الاستثناءات العرضية (١٩٥). ففي الوقت الذي كنا نجد فيه الكثيرين من شبان الروم وشاباتهم، في قضاء مرجعيون، يقرأون ويكتبون بفضل انتشار الإرساليات البروتستانتية التي كانت تسهم في تنقيف الناشئة، محاولة استمالتها دينياً، كانت مناطق الشمال على عكس ذلك تماماً (١٩٦)، ولا سيما في القرى التابعة لأبرشية طرابلس.

وإذا أضفنا الضغوط التي كانت تمارس على المسيحيين في بعض المناطق المختلطة (١٩٧)، تكوّنت لدينا فكرة واضحة عن حالة هؤلاء

(١٩٤) الصليبي، المرجع المذكور، ص ١٧٩.

(١٩٥) كسكان جرجوع مثلاً الذين تميزوا بثقافتهم، وسكان دير ميماس الذين كان بعضهم متضلعاً من الكتاب المقدس، أنظر سجل الرسالات ١، ص ١٨٢ و١٣٨.

(١٩٦) رفقي التميمي ومحمد بهجت: ولاية بيروت، مطبعة الإقبال، بيروت ١٩٦٦، أعادت دار لحد خاطر نشره بالتصوير عام ١٩٧٩، جزءان في مجلد واحد، ص ١٨٤.

المسيحيين في أوائل القرن العشرين. ولا شك في أن انتشار الإرساليات اللاتينية والبروتستانتية التي كانت تسعى إلى استمالة الشباب ولا سيما المثقفين، وتغلغل الماسونية في صفوف الشعب المسيحي (١٩٨)، قد ساعداً بوضوح على إذكاء الجهل الديني لأصول ممارسة الشعائر الدينية، وإن اختلفت الوسائل المستعملة.

وما من دليل أسطع برهاناً على الوضع الديني المتردي الذي كانت تواجهه الرعايا، من ذلك الوضع الذي واجهه المطران جرمانس معقّد خلال أسفقيته على بعلبك (١٨٨٦-١٨٩٤)، وذلك بالرغم من نشاط المرسلين اليسوعيين في البقاع منذ فترة مبكرة. فقد كانت الأبرشية تشكو أسوأ حالات التخلف المادي والاجتماعي والروحي. إذ كانت منطقة الرأس (رأس بعلبك) تضم ١٦٠٠ من الروم الكاثوليك، خمسون منهم فقط مطلعون على أصول الديانة، والباقيون لا يعرفون سر التثليث والتنجسد ولا شيئاً عن النصرانية. أما القاع فكان فيها زهاء ٨٠٠ نفس، يجهلون قواعد الديانة الضرورية. ولما استفسر المطران عن سبب هذا الجهل، أُجيب: «يا سيدنا، ما أحد،

(١٩٧) نورد مثلاً مستقى من سجل الرسالات

١، ص ١٨١. ففي قرية جباع، جنوبي لبنان، منعت الأكثرية الشيعية الأقلية المسيحية من تعليق جرس الكنيسة، ولم يعلق إلا بعد احتلال الحلفاء للبنان. ولم تبن قبة الكنيسة إلا عام ١٩٢٣.

(١٩٨) كان في برعشيت ١٧٥ عضواً ماسونياً. أنظر المصدر نفسه، ص ٢٤٠ (نقى سكان برعشيت الحاليين صحة هذه المعلومات).

لا سألتنا ولا علمنا لا مطران ولا خوري، ونحن من أين نعرف» (١٩٩).

وهذا الأمر يطرح على البحث موضوع وضع رجال الإكليرس وعلاقتهم بالرعية. فإن تدخل الكهنة في الشؤون المتعلقة بأبناء الرعايا، ومشاطرتهم الخوازمات المحلية قد أضعفا من شخصيتهم وعلاقتهم بالمؤمنين، فضلاً عن قلة عددهم، إذ كانت أكثر القرى بأسمى الحاجة إلى كهنة (٢٠٠). إن سبب عدم وصولهم إلى القرى كافة هو الجوع والحوادث المتفرقة تارة (٢٠١)، وإهمال بعض الكهنة لواجباتهم الروحية تارة أخرى، حتى إن الكهنة في مصر كانوا يتهمون بأنهم «بكم»، إذ قد تخلوا عن مهمة نشر كلمة الله (٢٠٢). هذا وإن قسماً كبيراً من كهنة الرعايا كان يفضل الخدمة في المدن بدل القرى (٢٠٣). فهذا هو المطران معقّد مثلاً يستغيث من بعلبك طالباً كهنة، ولا سيما وإن الحاجة ملحة لخدمة قربتين عنده (٢٠٤).

لذلك كانت كنيسة الروم الكاثوليك عاجزة عن تأمين الخدمة الروحية لكثير من القرى النائية. صحيح أن تأسيس جمعية المرسلين البولسيين أوصل كلمة الله ورسالة الخلاص إلى كثير من القرى الفقيرة والمهملة التي لم يهتم أحد من رجال الدين برعايتها. إلا أن قلة عدد المرسلين أدّى إلى استفادة بعض

المناطق فقط من الرعاية الروحية كقرى حوران ووادي النصارى وضواحي دمشق وصور ومصر، في حين ظلت مناطق واسعة بحاجة ماسة إلى الرعاية.

إلا أن الوضع بدأ يتغير منذ مطلع القرن العشرين، أقله على الصعيد الثقافي والتربوي. فقد أثمرت إكليريكية القديسة حنة فئة من الشباب المثقف التي أنارت محيطها بثقافتها وعلمها، فضلاً عن تعزيز المدارس البطريركية والأسقفية والرهبانية في لبنان وسورية ومصر، مما سمح لهذه المؤسسات بتخريج فئات من الشباب والشابات المثقفين الذين خدموا محيطهم على الصعيد الفكري والثقافي التربوي والمهني، حتى غدا أبناء كنيسة الروم الكاثوليك اليوم من بين أبرز الفئات ثقافة واثقاً للغات العربية والأجنبية في العالم العربي والفرنكوفوني.

سادساً: دور الروم الكاثوليك

إن دور أبناء الروم الكاثوليك في المجتمعات التي يعيشون فيها هو مكمل لدور الروم الملكيين قبل عام ١٧٢٤. ومن الطبيعي أن يبرز في حقبة مبكرة رجال الإكليرس لأنهم الوحيدون الذين كانوا مؤهلين للقيام بالدور الثقافي والفكري إنطلاقاً من الامكانيات التي كانت متوفرة لهم ولم تتوفر لأبناء الرعايا.

دبابة في ١٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٢٠.
(٢٠٣) مراسلات معقّد، تاريخ ١٤ تموز (يوليو) ١٨٩٢.
(٢٠٤) المصدر نفسه، تاريخ ١٤ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٢.

(١٩٩) مراسلات المطران معقّد، رسالة إلى البطريرك بتاريخ ٢١ نيسان (أبريل) عام ١٨٨٩.
(٢٠٠) سجل الرسائل ٩، ص ١٩٣.
(٢٠١) المصدر نفسه، ص ١٢٠.
(٢٠٢) محفوظات الجمعية البولسية، مراسلات الأب بولس سبور البولسي، رسالة من الكونت نقولا

أول من أسس مطبعة بالحرف العربي في لبنان والشرق. وقد أنشئت بادئ ذي بدء في حلب، على يد المطران ملاتيوس كرمة، ثم نقلت إلى دير القديس يوحنا الصايغ في الخنشارة، فاهتم بها الشماس عبد الله الزاخر الذي طوّرها وحسّنها. إلا أنها اضطرت إلى التوقف عن العمل سنة ١٨٩٩ بسبب مزاحمة المطابع العصرية لها.

أما في القرنين التاسع عشر ومطلع العشرين فقد أسهم الملكيون بكثافة في النهضة العربية. فبرزت أسماء عديدة أهمها:

- في التاريخ: الراهب الحناوي حانيا المنير (١٨١٥٠)، ميخائيل الصباغ (١٨٦١٠)، الراهب أنطون بولاد المخلصي (١٨٧١٠)، الراهب كيرلس الحدّاد المخلصي (١٨٩٠٠)، المطران غريغوريوس عطا (١٨٩٩٠)، وغيرهم...

- في الأدب والشعر: المعلم بطرس كرامة (١٨٥١٠)، الشيخ حبيب اليازجي (١٨٧٠٠)، الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٧١٠)، فرنسيس المراس (١٨٧٣٠)، الشيخ خليل اليازجي (١٨٨٩٠)، الشيخ إبراهيم اليازجي (١٩٠٦٠)، جميل المدوّر (١٩٠٧٠)، وغيرهم...

- في الصحافة: سليم عنحوري، مؤسس مجلة مرآة الشرق (١٨٧٩)، أمين الشميل، مجلة الحقوق (١٨٨٦)، جرجس ميخائيل نحاس، الجريدة المصرية (١٨٨٨)، نجيب جاويش، مجلة النبراس (١٨٩٥)، نقولا بولاد، مجلة الغزالي (١٨٩٦)، اسكندر شلهوب، مجلة

لذلك نجد معظم الرعييل الأول ممن رافق انطلاقة النهضة الثقافية، في مطلع القرن السابع عشر، هم من الإكليروس أمثال ملاتيوس كرمة، متروبوليت حلب، والايقونومس ميخائيل بجمع، والبطريك مقاريوس الثالث الحلبي، الذين غرّفوا من الليترجية والتاريخ والخطب الدينية.

في أواخر القرن السابع عشر ظهر فريق جديد من الرواد، الذين تعلموا على يد بطرس التولاوي الماروني، خريج رومة. وأبرزهم: مكسيمس حكيم الراهب الحناوي والأسقف والبطريك، والشاعر الراهب الحناوي نيقولاوس صايغ (١٧٥٦٠) والجدلي الشهير عبد الله الزاخر (١٧٤٨٠).

نسجل في هذه المرحلة أيضاً بروز أسماء عديدة، أهمها: القس ثاوفيلس فارس قب (١٧٤٨٠)، الخوري يواكيم مطران قب (١٧٦٧٠)، والمؤرخ الأب يوحنا العجيمي (١٧٨٥٠)، والراهب المخلصي يوسف بابيلا (١٧٨٧٠)، والمؤرخ نقولا الترك (١٧٢٨٠).

وقد برز في اللاهوت اتييموس الصفي، والزاخر، وجرمانس آدم (١٨٠٩٠) الذي حارته رومة وحرّمت كتبه، والبطريك مكسيمس مظلوم. وتجدد الإشارة إلى الانتاج الليترجي الملكي الوحيد غير المنقول عن اليونانية: «الخدمة الليترجية الكاملة لعهد الجسد»، وقد وضعها متروبوليت حلب مكسيمس حكيم والراهب الحناوي نيقولاوس الصايغ. وكانت مستوحاة من عمق التراث الشرقي الروحي واللاهوتي مع شيء من الانفتاح على اللاهوت الغربي.

وقد سجّل التاريخ للروم الكاثوليك أنهم

١٩١٠ لتسهيل نشر مجلة «المسرة». وقد نافست المطبعة، بتقنياتها وتعاملها، كبريات المطابع في لبنان والشرق العربي. فترافقت مع المطبعة المخلصية في الاهتمام بالنشر الديني والثقافي والعلمي. أما الرهبانية الشويرية فكانت تسعى بجهد كبير لتجديد مطبعتها، وتمكنت من تأهيلها وتجديدها سنة ١٩٥١، إلا أن انطلاقتها ظلت محدودة.

وقد أسهمت هذه المطابع الملكية الثلاث بشكل كبير في نشر الكتاب الديني والأدبي والفكري، ووضعت، بيد الباحثين والمنتقنين ورواد المطالعة، نقائص الكتب.

كذلك ترافقت مجلة المسرة للمرسلين البولسيين، ومجلة الرسالة المخلصية والوحدة في الإيمان (المنخصصة بالمجمع القاتيكاني الثاني)، وحياة وعمل وغيرها من النشرات الصادرة بالعربية عن الأبرشيات، لتخلق جواً ثقافياً في كنيسة الروم الملكيين. وإذا كانت المجلات «الطائفية» المختلفة ظلت في إطار ضيق من المواضيع المعالجة، لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها الآن، فإن مجلة المسرة انطلقت في عالم الفكر لتتحف قراءها بنخبة من المقالات في اللاهوت والحركة المسكونية وتاريخ الكنيسة والكتاب المقدس والطقوس وتاريخ لبنان والمنطقة والتراث العربي المسيحي وترجمة الرسائل البابوية... تدبجها أقلام نخبة من الاختصاصيين والمنتقنين والجامعيين، من أساقفة وكهنة وعلمانيين، في حين انطلقت مجلة الرابطة (Le Lien) الناطقة بالفرنسية باسم البطريركية لترتبط المؤمنين الفرنكوفونيين بكنيستهم.

السلطانة (١٨٩٧) والعصر الجديد (١٩٠٠)، سليم بك تقلا وبشارة بك تقلا مؤسساً سلسلة من الصحف والمجلات كالأهرام (١٨٧٦) وصدى الأهرام والبيramid (Pyramides) والعائلة المصرية، والشيخ إبراهيم اليازجي (١٩٠٦) الذي أسس في لبنان مجلة الطبيب، وفي مصر مجلتي البيان والضياء. وكان الملكيون من رواد الصحافة المتخصصة، فأسس الدكتور أديب زيات والصيدلي نجيب غناحي المجلة الصحية سنة ١٩٠١. وجورج إسحاق يارد، مؤسس الصحف التالية: الابتسام (١٩٠١)، والسهم (١٩٠٢)، والطغراء (١٩٠٣)، وخليخ زينية، مجلة المصور (١٩٠٢)، وخليخ مطران، الجوائب المصرية (١٩٠٣).

- في الترجمة: يوسف العجلوني الراهب الخناوي (١٨١٨٢).

- في العقيدة: سابا كاتب المخلصي (١٨٢٧٢).

وفي هذا القرن أسس الرهبان المخلصيون مطبعتهم، سنة ١٨٦٥، في الوكالة المخلصية في بيروت. ثم ما لبثوا أن نقلوها إلى دير الخلص في جون. وقد أسهمت هذه المطبعة في نشر مجموعة ضخمة من الكتب الدينية والطقسية والتاريخية والأدبية التي دبجتها أقلام الرهبان، مؤدبين خدمات جلّى لتطوير الفكر وازدهار الثقافة ونشر الدين.

أما في القرن العشرين فقد أخذ الملكيون يعنون بالأبحاث العلمية، كهنة وعلمانيين. ومما سهّل هذا الاتجاه تأسيس المطبعة البولسية، سنة

والأدب والأخلاق والسياسة، والأب يوحنا فاخوري الذي وضع مؤلفات عديدة في اللغة العربية والأدب العربي والفلسفة العربية، وترجم كتابه الأدب العربي، إلى الروسية والفارسية، وكتابه في تاريخ الفلسفة إلى الفارسية. وكتبه في اللغة والأدب متشرة في كل أقطار العالم العربي، والأب إميل الحاج البولسي الذي وضع حتى الآن ٤٠ كتاباً في القصص الروحي، خصوصاً حياة القديسين، وعالج مواضيع أخلاقية واجتماعية وتأملات روحية. والأب باسيلوس قسيس المخلصي الذي وضع حوالي ٢٣ كتاباً في الليتورجية، والأرشمندريت أنطون هبّي الذي وضع مجموعة من الكتب الموسيقية والطقسية والفنية والتاريخية وفي الأدب المسرحي الديني وعدداً كبيراً من المقالات بالعربية والفرنسية والانكليزية. والإكسرخس يوسف نصر الله (١٩٩٣٤) الذي وضع عدداً من المؤلفات في تاريخ الكنيسة الملكية، وتوجّ إنتاجه بموسوعة ضخمة بعنوان «تاريخ الحركة الأدبية في الكنيسة الملكية» بالفرنسية. والمطران العلامة ناويفطس إدلبي (١٩٩٥٥) الذي خلّف لنا سلسلة التراث العربي المسيحي القيّمة.

أما في الموسيقى البيزنطية فقد نبغ الأباء أنطون هبّي وكيرلس حداد المخلصي وجبرائيل أبو شديد الشويري، ووضع الأب جوزف العسي البولسي طريقة لمطابقة اللحن البيزنطي على الكلام العربي (٢٠٥).

كما أن القرن العشرين سجّل بروز أسماء عديدة من الإكليروس والعلمانيين أبرزها:
 - في التاريخ: الرهبان المخلصيون: قسطنطين الباشا (١٩٤٨٤) وكيرلس حداد، فايز فريجات، والياس كويتي، والأديب الكبير حبيب زيات (١٩٥٤٤).
 - في الأدب والشعر: خليل مطران (١٩٤٩)، الأب نقولا أبو هنا المخلصي.
 - في الجيولوجيا: يوسف أسعد داغر.
 - في الصحافة: خليل البدوي (١٩٣٢٤)، مؤسس جريدة الأحوال، ومجلة الكنيسة الكاثوليكية، ومجلة الفوائد، وإميلي عبد المسيح، مؤسسة مجلة مصر الفتاة (١٩٢١).
 - في الموسيقى: زكي ناصيف...
 - في الإخراج السينمائي: مارون بغداددي (١٩٩٣٤).

كما أنه يجب أن نتوقّف عند المطران جرمانس معقّد (١٩١٢٤)، الذي وضع مؤلفات عديدة في الأدب والرواية، والأدب الروحي، والأدب الخطابي، وكان رائد الإصلاح الليتورجي، في عهد البطريرك سيّور، في كتابه «تحقيق الأمانى لدوي الطقس اليوناني»، والأب جورج فاخوري البولسي (١٩٧٧٤) الذي كان علماً من أعلام الشرق وقد ظهر معظم إنتاجه في مجلة «المسرة»، التي دبّج فيها مقالات لا تحصى، وتولّى إدارتها طوال ٢٢ سنة (١٩٥٠-١٩٧٢)، فكانت له جولات في ميادين الدين والاجتماع والتاريخ

أما في مجال الحوار المسيحي الإسلامي فينبغي أن نشير إلى جهود الأرشمندريت يوسف درّه الحداد (١٩٧٩)، والأب منير نخوام من على صفحات مجلة المسرة، وإلى جهود قدس الأرشمندريت سليم غزال الخلصي رائد الحوار المسيحي الإسلامي في أبرشية صيدا ومنها إلى لبنان والعالم. وفي هذا الإطار عمدت جمعية المرسلين البولسيين إلى إنشاء «مركز أبحاث في الحوار المسيحي - الإسلامي» (C.E.R.D.I.C.)، في أوائل كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٥، وعهدت بإدارته إلى الأب مشير عون البولسي. والمركز يعنى بتنشيط الأبحاث العلمية ويوجه أعماله وفقاً لإرشادات المجمع الفاتيكاني الثاني المتعلقة بموضوع الحوار مع الأديان.

أما على صعيد العمل المسكوني، فإننا ننوه بجهود الأب الياس أندراوس البولسي (١٩٦٧)، الذي قام بسلسلة من المحاضرات في مصر، سنة ١٩٣٧، وفي بيروت ودمشق سنة ١٩٣٠، وفي القاهرة والإسكندرية، سنة ١٩٣١، وقد تكلم فيها عن ضرورة الاتحاد، وإمكانية حصوله، ووسائله، وإلى جهود المطران بطرس كامل مدور، والمطران الياس زغبى والأب أوريسست كرامه الذين أسهموا في توجيه الكنيسة الملكية الكاثوليكية نحو الانفتاح المسكوني الجديد.

وعلى صعيد الحق القانوني، لمت أسماء ثلاثة رهبان حليين، رسموا أساقفة في ما بعد، وهم: متروبوليت حلب ناويفطس إدلبي، الراحل، الياس نجمة رئيس أساقفة طرابلس، وبطرس راعي المعاون البطريركي ورئيس أساقفة

فنزويلا الراحل.

ودخلت الرهبانية الخلصية معترك العمل الاجتماعي فأنشأت مؤسستين بارزتين: - مؤسسة الخلص الاجتماعية في الصالحية، شرقي صيدا، في خريف عام ١٩٦٦، بهمة الآباء جورج كويتز (مطران صيدا الحالي) ولطفي لحام (النائب البطريركي في القدس حالياً) وسليم غزال (الرئيس العام الحالي). وتعرف هذه المؤسسة باسم دار العناية.

- دار الصداقة في زحلة، سنة ١٩٧٧، بهمة الآباء حنا سليمان وأندره حداد (مطران زحلة الحالي) وأثناسيوس نصورة. وانطلق العمل في الدار من معهد للتعليم الديني العالي ليخرج فريقاً للتعليم الديني في المدارس وانعاش الحركة الرسولية عند الأولاد.

وتخصّصت الرهبانية الشويرية بالتربية من خلال كلياتها في زحلة (الكلية الشرقية)، واخنشارة (كلية القديس يوحنا الصابغ)، وكفرشيم (كلية القديس أنطونيوس).

أما جمعية المرسلين البولسيين فقد اعتمدت بشكل خاص بالنشر الديني من خلال مطبعة ومكتبة ومجلة، كما أنشأت معهداً للفلسفة واللاهوت يُعدّ كهنة المستقبل من كل الأبرشيات وبعض الرهبانيات.

أما على الصعيد الوطني فقد برز الملكيون الكاثوليك في مجتمعاتهم بحسب ما سمحت لهم الظروف والأنظمة القائمة. ففي لبنان كانوا منذ عهد الإمارة في صميم العمل الوطني من خلال ممثلهم في المجالس المحلية، إلى جانب

بعض الوظائف الكتابية التي تبوأوها، فاغناطيوس عيطة كان كاتباً للأمير فخر الدين قبل أن يصبح مطراناً على صيدا ثم بطريكاً، وبيطرس كرامة وناصيف اليازجي كانا من بلاط الأمير بشير الثاني الشهابي، وأمراء آل أبي اللمع في المتن اتخذوا لهم كتبة ملكيين كاثوليك من آل كساب، وهم الوحيدون في لبنان الذين نالوا لقب المشيخة (٢٠٦)، كذلك الأمر بالنسبة إلى عهد المتصرفية (١٨٦١-١٨٧١). وكان للروم الكاثوليك الدور البارز في إعلان دولة لبنان الكبير إلى جانب البطريرك الماروني، من خلال الدور الكبير الذي مثله المطران كيرلس مغيب والاتصالات التي قام بها والمذكرات التي رفعها إلى مراكز القرار الدولي.

وكانت مواقف كنيسة الروم الكاثوليك إكليروساً وشعباً ميالة إلى:

- الدعوة إلى نبذ العنف واعتماد الحوار.
- الالتفاف حول الشرعية لتقوية فكرة الدولة.
- التمسك بسيادة لبنان والانفتاح على العالم العربي.
- المحافظة على استقلالية القرار الكاثوليكي.

وتجدر الإشارة إلى ثلاث وقائع مهمة:

- إن «الطائفة» كانت السبّاقة إلى المطالبة بإلغاء اتفاقية القاهرة.
- إن «الطائفة» لفتت أنظار اللجنة السداسية، برئاسة وزير خارجية الكويت، باعتبارها وبروحها التوفيقية.
- إن الرئيس أمين الجميل استبعد طائفة الروم الكاثوليك من اجتماعات المصالحة في جنيف ولوزان لانعدام الدور السياسي الذي كان ناشئاً عن قرار رسمي ليس هو وليد الظروف (٢٠٧).

وكان للروم الكاثوليك دور كبير في الاستقلال وترسيخه في الوحدة الوطنية وسيادة لبنان، من خلال الدور الذي قام به سليم تقلا وهنري فرعون. وفي عهد تركيز الدولة على المؤسسات، كان لهم دور بارز بفضل زعامات وشخصيات سياسية أمثال فيليب تقلا وجوزف نجار وجوزف سكاف ويوسف سالم وجوزف أبو خاطر. وقد تميّز دور هذه الزعامات بالاعتدال والروح التوفيقية وبالقدرة على إيجاد الحلول في الداخل، وبعدم التبعية للخارج.

أما خلال الحرب الأخيرة (١٩٧٥-

لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك. راجع المسرّة، السنة ٧٧ (١٩٩١)، ص ١٠٣٤-١٠٤٧.

(٢٠٧) استقتنا المعلومات عن وضع الروم الكاثوليك في لبنان في التاريخ المعاصر من محاضرة البروفسور فايز الحاج شاهين في المؤتمر العام الثاني

كما كان للروم الكاثوليك دور بارز في مصر منذ الحملة الفرنسية. فكان لهم ممثل في الديوان العام الذي أنشأه نابليون من ٦٠ شخصاً من المشايخ، وهو ميخائيل كحيل. كما هيمن أبناء الروم الكاثوليك على ديوان التجارة والجمارك، وتسلّموا وظيفة معلم الديوان الذي كان يضمن الجمرک والمرافق. وأبرز من تولّاها: يوسف بيطار، أنطوان فرعون، نعمة الله صيدح، ميخائيل كحيل، غبريال بركات، يوسف كساب. وكلهم من أصل شامي فرّوا من سورية إلى مصر بعد عام ١٧٢٤.

وفي عهد محمد علي، تبوّأ الروم الكاثوليك بعض الوظائف المهمة. فكان يوسف بكني مستشاراً لمحمد علي، وجورج جبارة مدير التجارة في الاسكندرية والمسؤول عن استيراد وتصدير مادة النطرون. وتولى آل البحري مراكز مهمة في دواوين الحكم، فكان يوحنا بحري مساعداً لوزير المالية، وجرمانس بحري مديراً لوزارة الحرية، وعبود بحري مديراً لديوان محمد علي وكاتبه الخاص، ولطف الله عيروط ترجماناً في ديوان القاهرة.

كما برزت أسماء مهمة في الحقل الوطني أمثال: الكونت حبيب باشا سكاكيني، قسطنطين قطة باشا، فريد بابازوغلي باشا، بطرس مشاققة باشا، نجيب يوسف سيور باشا، عبد العزيز كحيل باشا، غبريال باشا تقلا، يوسف صيدناوي باشا، باسيل سوسو باشا.

وتولّى زنايري باشا إدارة الحجر الصحي، وكان السير يوسف سابا باشا عضواً في أول مجلس بلدي لمدينة الاسكندرية. وكان أبناء الروم الكاثوليك رواداً في القطاع الصناعي، فكان حبيب ديمتري يولاد رائداً في صناعة القطن، إذ أدخل أول «وابور للحليج القطن إلى مصر». وكان آل كحلا رواداً في صناعة الزيوت والصابون. وكان آل كفوري من أكبر أصحاب شركات المواصلات العامة. وكان نصري بك تاجراً وأولاده من كبار التجار.

وعلى الصعيد الاجتماعي أسّس الأب هنري عيروط اليسوعي جمعية الصعيد. كما ظهرت «جمعيات غذاء الظهر» التي أخذت على عاتقها تقديم وجبة طعام الظهر إلى أولاد المدارس المجانية يومياً، وما زالت قائمة حتى اليوم في الاسكندرية، وأسّس آل صيدناوي مستشفى قدّمه لجمعية الهلال الأحمر.

وعلى صعيد الحوار المسيحي الاسلامي، يجب التنويه بنشاط لويس ماسينيون والآنسة ماري كحيل مع نخبة من الأصدقاء، إذ أسّسوا ثلاث جمعيات فكرية تعنى بالحوار هي: البديلة، إخوان الصفا، جمعية الإخاء الديني (٢٠٠٨).

وعلى هذا المنوال كان أبناء الروم الكاثوليك يتفاعلون مع مجتمعاتهم في لبنان ومصر وسورية وفلسطين والأردن وبلاد الاغتراب، فيعملون في الفكر والأدب والفن

يحضره عن كنيستنا في مصر.

(٢٠٠٨) زوّدنا الأب يوسف أندراوس بالمعلومات عن دور الروم الكاثوليك في مصر من بحثه الذي



الكردينال أكهاكيوس كوسا

في الأباطورية كما في الكنيسة. وكان الأباطرة يسعون لرأب أي انقسام في الكنيسة مخافة أن ينعكس ذلك على وحدة الأباطورية. لذلك عاشت بطريركية أنطاكية الملكية كاثوليكيته منذ أحداثها وتمرس في هذه الجامعة طيلة تاريخها. ويوم انقسمت الكنيسة بين شرق وغرب، سنة ١٠٥٤، لم تجد الكنيسة إلا بطريك أنطاكية بطرس الثالث ليحذر البطريرك القسطنطيني فيرولاريوس (١٠٤٣-١٠٥٩) من مغبة الانشقاق عن الكنيسة الرومانية والضرر الكبير الذي قد يترتب عليه، وليرجوه معاملة إخوتنا اللاتين بمحبة وعاطفة مسيحتين. فالخلاف بين رومة

والاقتصاد، وهم في غالب الأحيان متفوقون بارزون، ويعملون في المجال الوطني حيث تسمح الظروف السياسية والأنظمة.

تقييم عام

إن حركة ١٧٢٤، التي أدت إلى انقسام بطريركية أنطاكية الملكية إلى فرعين: أرثوذكسي وكاثوليكي، لم تبحث حتى اليوم بجديّة، ولم يتطرق إليها بإسهاب أحد من الباحثين، ولم يقيّمها أحد من المؤمنين تقييماً علمياً وموضوعياً. صحيح إن انقسام الكنائس الشرقية إلى كنائس أرثوذكسية وأخرى كاثوليكية يعتبر طعنة في صميم الحركة المسكونية بمفهوم العصر. إلا أن خط الكرسى الرسولي الوحيدى ظل حتى المجمع الفاتيكاني الثاني مبنياً على أساس انضمام كل الكنائس إلى كرسي رومة، وتحت رئاسة قداسة البابا. وإن هذا الخط ظل غالباً على مسيرة الكنيسة العالمية بالرغم من محطات مع بعض البابوات الذين نظروا إلى الكنائس الشرقية نظرة أخوة واحترام، وأصدروا المراسيم التي تحفظ لها حقوقها وكرامتها. وكان الرهبان اللاتين، الذين أمروا الشرق، جنود هذا الخط منذ القرن السادس عشر. فقد أسسوا المدارس، وبدلوا المال الوفير في سبيل تفرغ الكراسى الشرقية من المؤمنين ليحققوا وحدة الكنيسة بحسب المفهوم الغربي لها.

لقد عاشت الكنيسة الملكية كاثوليكيته (جامعيته) منذ مجمع خلقيدونيا (٤٥١). فسياسة الأباطرة القائمة على مفهوم «القيصرية البابوية» (Cesaropapisme) كانت تحتم الوحدة

والقسطنطينية خلاف بديهي يقوم على الصراع السياسي والحضاري بين جزأي الأمبراطورية، أما الكراسي الأخرى فلا مصلحة لها دينية أو سياسية من الانشقاق. والجدير بالذكر أن البطريركية الأنطاكية الملكية لم تقم بأي إجراء رسمي لقطع العلاقات بين الكنيستين الرومانية والملكية، بل إن الظروف السياسية والضغط العربي الإسلامي هي التي حتمت القطيعة ومنعت الاتصال بينهما.

وكانت البطريركية الملكية تغتنم كل فرصة ممكنة لكي تعبر عن كاثوليكيّتها من خلال اتصال بعض بطاركتها بالكرسي الروماني. كما أن مجمع فلورنسا، الملتئم سنة ١٤٣٩، ظل في نظر التقليد الملكي، المجمع المسكوني الثامن، وإن كانت السلطة الكنسية الملكية اضطررت إلى التصدي له تضامناً مع المصنف الأسقفي البيزنطي.

غير أن العلاقات الودية والشركة الروحية القائمة بين البطاركة الملكيين وكنيسة رومة تحولت بعد المجمع التريدينيني إلى علاقة متسمة بالتبعية، وذلك نتيجة للخط المتصلّب الذي أتبعه البابوات في علاقتهم مع الكنائس المتحدة. ووصل إلى ذروته مع المجمع الفاتيكاني الأول الذي جعل أولية البابا وعصمته عقيدة دينية.

لقد أرادت الكنيسة الملكية أن «تقاطع واقع القطيعة» من دون أن يلزمها ذلك بمقاطعة الشرق. فدخلت سنة ١٧٢٤ في المشروع اللاتيني، متكئة على تراثها الجامعي (الكاثوليكي)، فتسبب ذلك بانشقاق جديد في

جسم الكنيسة مصيباً بطريركية أنطاكية الملكية في الصميم، فانقسمت إلى كنيستين أرثوذكسية وكاثوليكية. فالكنيسة الملكية في سعيها إلى الوحدة «انضمت إلي الموقف الروماني في مواقع النزاع التي باتت تلهب الجدل بين الكنيستين من غير أن تسعى إلى استخلاص وجه التكامل بين وجهات النظر» (٢٠٩).

وانطلاقاً مما حدث عام ١٧٢٤، سار فرع من الكنيسة الملكية نحو الوحدة مع رومة في حين تمسك الفرع الآخر بموقفه العدائي منها، بل إن هذا الموقف ازداد عدائية بسبب ممارسات الرهبانيات اللاتينية في الشرق، متخذاً طابع العدائية المزدوجة:

- عدائية تجاه رومة تحملاً لها مسؤولية إفراغ الكنائس الأرثوذكسية من المؤمنين وتمويلهم إلى الكنيسة اللاتينية أو الكنائس المتحدة.

- عدائية تجاه الفرع الأنطاكي الكاثوليكي يرافقها حقد وازدراء وتهم بالحيانة والعمالة.

وقد ترجمت هذه العدائية المزدوجة باتساع شقة الخلاف مع رومة وبممارسة فصول من الاضطهاد والملاحقة لأتباع الفرع الكاثوليكي استعملت فيه كل الأسلحة المتاحة في سبيل تخنق الحركة في مهدها.

لقد شاءت الكنيسة الملكية الكاثوليكية أن تشكل من نفسها جسر عبور للقاء الشرق والغرب. إلا أن تصرفات الكرسي الروماني لم تساعد على إنجاح مشروع الفرع الكاثوليكي،

(٢٠٩) باشا: الروم الملكيون الكاثوليك، ص ٧١.

تجادبا كنيستنا؛ تيار أرثوذكسي وتيار لاتيني .
إلا أنه في النهاية لا بد لكنيسة الروم الكاثوليك
أن تحقق رسالتها التي ورثتها من التراث الملكي
الأنطاكي في أن تبقى شرقية أصلاً وعقلية على
الرغم من اتحادها بالكرسي الروماني، وعلى أن
تبقى أمينة للتراث الأنطاكي الملكي في جذوره
الرسولية.

والحقيقة أن كنيسة الروم الكاثوليك لم
تبتدئ سنة ١٧٢٤، فهي تحمل في شخصيتها
تراث أقدم بطريركية تأسست على يد القديس
بطرس. وإن مشروع الوحدة بين الفرعين
الكاثوليك والأرثوذكسي، الذي تبنّاه
سينودس عام ١٩٩٦، هو أكبر دليل على هذه
الشخصية الجامعة التي تبلورت خلال القرنين
الماضين لتوضح المفهوم الحقيقي لجسر العبور
الذي شكلته كنيستنا في تاريخها الحديث
ليكون محطة لقاء بين تراث الشرق والغرب،
وسيلة وحدة بين الكنيسة الرومانية والكنائس
الأرثوذكسية. فإذا نجحت كنيستنا في مسعاها
تكون قد حققت رسالتها، وإذا فشلت تكون
قد قامت بما يملية عليها إيمانها بالمسيح، ومستظلّ
على هذا الإيمان بأذلة الجهود ومذلة الصعاب
ورافعة الصلاة لتم فينا جميعاً مشيئة الله المقدسة
وتمتحنق صلاة السيد المسيح إلى أبيه السماوي:
«ليكونوا واحداً كما نحن واحد ليؤمن العالم
أنك أنت أرسلتني».

في المسرة، السنة ٧١ (١٩٨٥)، ص ٧٠٦.

ولم تقنع الفرع الأرثوذكسي بجدوى المشروع
الكاثوليك. فوجدت كنيسة الروم الكاثوليك
نفسها في موقع دقيق: فلا الكنيسة الرومانية
اعترفت بها ككنيسة مستقلة تعبر عن تراث
الشرق وتسمى إلى ربط الكنيستين الشرقية
والغربية بشركة المسيح، بل تعاملت معها
ككنيسة تابعة من دون أن تفوض في تحديد
مسؤولية هذه المعاملة. ولا الكنيسة
الأرثوذكسية اعترفت بوجودها بل إنها وصلت
في النهاية إلى اعتبار وجودها عقبة أساسية أمام
الاتحاد.

لقد أدركت كنيسة الروم الكاثوليك أن
شركتها مع الكرسي الرسولي تعني في آخر
المطاف ذوبانها في كنيسة رومة، فكان عليها
أن تقاوم وتصمد، ثم أن تصحح هذا المفهوم
على ضوء المعطيات الكنسية القديمة وفي خط
الحركة المسكونية التي وسعت ولا تزال توسع
إطار «الجماعية» عمقاً وفساحة»^(٢١٠).

إنه لمضيعة للوقت أن نجلس اليوم لنناقش
عن شرعية انتخاب كيرلس السادس طاناس أو
سلفسترس القبرصي بطريركاً على الكرسي
الأنطاكي، سنة ١٧٢٤. فالفاصل الزمني بين
الأمس واليوم يزيد عن قرنين ونصف من الزمن
تطورت خلاله كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك
ونمت نمواً ملحوظاً، وقدمت للكنيسة والمشروع
الوحدة خدمات جلّى. صحيح أن هناك تيارين

(٢١٠) المطران بطرس راعي: «الكنيسة الملكية في

خدمة جامعية الكنيسة، تاريخاً فرسالة فهوية»، مقال

بطاركة الروم الكاثوليك

١٨٣٣-١٨١٦	اغناطيوس الخامس القبطان	١١	١٧٥٩-١٧٢٤	كيرلس السادس طاناس	١
١٨٥٥-١٨٣٣	مكسيمس الثالث مظلوم	١٢	١٧٦٠-١٧٥٩	أثناسيوس الرابع جوهر	٢
١٨٦٤-١٨٥٦	اقليمندس الأول بحوث	١٣	١٧٦١-١٧٦٠	مكسيمس الثاني حكيم	٣
١٨٩٧-١٨٦٤	غريغوريوس يوسف سنور	١٤	١٧٨٨-١٧٦١	ثاودوسيوس الخامس الدهان	٤
١٩٠٢-١٨٩٨	بطرس الرابع الجريجيري	١٥	١٧٩٤-١٧٨٨	أثناسيوس الرابع جوهر	٥
١٩١٧-١٩٠٢	كيرلس الثامن جمحا	١٦	١٧٩٦-١٧٩٤	كيرلس السابع سباج	٦
١٩٢٥-١٩١٩	دمتريوس الأول قاضي	١٧	١٨١٢-١٧٩٦	أغناطيوس الثاني مطر	٧
١٩٤٧-١٩٢٥	كيرلس التاسع مغيب	١٨	١٨١٢	اغناطيوس الرابع صروف	٨
١٩٦٧-١٩٤٧	مكسيمس الرابع الصائغ	١٩	١٨١٣	أثناسيوس الخامس مطر	٩
-١٩٦٨	مكسيمس الخامس حكيم	٢٠	١٨١٥-١٨١٣	مقاريوس الرابع طويل	١٠

الجماعات الرهبانية

الأديرة	الرهبان والراهبات					الرهبانيات		
	١٩٩٦	١٩٤٤	١٩٠٧	١٨٨٤	١٨٤٤	١٩٩٦	١٩٤٤	١٩٠٧
المخلصية	٩	٧	٧	٧	٧	٨٥	١٧٠	١٨٤
الشويرية	٤	٤	٣	٣	٣	٣٥	٧٤	١٠٥
الحلية	٥	٥	٤	٤	٤	٢٨	٥٥	٧٠
المرسلون البولسيون	٥	١	١	-	-	٣٧	٤٠	٤
المخلصيات	٣	١	١	١	١	٧٥	٣٩	٣٠
الشويريات	٣	٢	٢	٢	٢	١٥٠	٥٥	٣٣
الحليات	٣	٣	٤	٣	٣	٢٢	١٨	٢٨
المعونة الدائمة	٢	٢	-	-	-	٨٩	٣٧	-
الخدمة الصالحة	٢	-	-	-	-	٣٦	-	-
كرمل الوحدة	١	-	-	-	-	٢٧	-	-
المجموع	٣٧	٢٥	٢٢	٢٠	٢٠	٥٨٤	٤٨٨	٤٥٤

كنيسة السريان الكاثوليك

بقلم المطران ميخائيل الجميل*

* نائب بطريركي ومطران بيروت

١ . سريان آراميون

١١/٢٨٠٠٠) و(٣١/١٧٠٠٠) وبأنهم كانوا يسكنون، منذ القرن السادس عشر ق.م.، بلاد حران وآرام ما بين النهرين.

ويمكن القول بأن الآرامية تطورت، شأنها شأن القبائل الرحل الأخرى، حتى تركزت في بقاع مجاورة حيث غزارة المياه وخصوبة الأرض. (فامتزجوا) بالقبائل المستوطنة واستفادوا وأفادوا.

وورد ذكر الآراميين تترى في العاديات الآشورية، على ما ورد في ألواح تل العمارنة، ترقى إلى ١٣٧٥ ق.م. ومن الأكيد أنهم اشتدوا بأساً في حوالي ١١٦ ق.م. حتى كونوا دولة أرهبت الأمبراطورية الآشورية.

وجاء في العاديات الآشورية أن تغلات نجلت فلاسر الأول ملك آشور، كان يفتخر بمهاجمته الآراميين ثمانية عشرة مرة. إلا أن الآراميين صمدوا أمام هول الدولة الآشورية، بل واصلوا معاركهم حتى احتلوا أعالي الفرات وأقساماً هامة من وادي دجلة الأعلى. وفي الجيل الحادي عشر ق.م. كانوا قد استحكموا

السريان شعب عريق يرقى عهدهم إلى القرن السادس عشر قبل المسيح. عرفوا بالآراميين حتى حوالي القرن الخامس قبل المسيح، ثم بسريان من بعده.

ويعني بالآراميين مجموعة القبائل التي كانت تتكلم اللغة السامية الشمالية والتي سكنت آرام في شمال بلاد الشام، ثم تومتحت حتى احتلت، في القرنين التاسع والثامن ق.م.، بلاد ما بين النهرين، فانتشرت لغتهم في بلاد فارس والهند وعمت بلاد الشام والجزيرة العربية كما أنها أصبحت اللغة الرسمية في الامبراطورية البابلية والفارسية وبقيت لغة الشعب في الشرق كله في عهدي الأمبراطوريتين اليونانية والرومانية. بها تكلم يسوع المسيح، وبها كتبت بعض من أسفار الكتاب المقدس في عهده القديم والجديد.

يساعدنا الكتاب المقدس - العهد القديم - في نصوص عديدة، على معرفة أصل الآراميين وانتشار لغتهم ومواقع وجودهم (تكوين

ببلاد الشام كلها وتوغلوا في أعماق ما بين النهرين حتى أخذوا بابل، ونصبوا لهم فيها ملكاً آرامياً باسم اداد - افالدين. وفي عهدهم سميت بابل وما يجاورها بلاد كلدو وشعبها كلدانيين. وقد وردت هذه التسمية مرات عديدة في الكتاب المقدس.

وما إن أطل القرن التاسع ق.م. حتى كان الآراميون يسيطرون على البلاد المحيطة شرقاً ببلاد فارس وغرباً بالبحر الأبيض المتوسط وشمالاً ببلاد أرمينية وآسية الصغرى وجنوباً بأقصى الحدود الجنوبية للجزيرة العربية. وبقيت الدولة الآشورية في القسم الأوسط من وادي دجلة كجزيرة وسط محيط من السيطرة الآرامية.

لأن ملوك آشور شتوا حروباً دامت أكثر من مئة سنة احتلوا خلالها البقاع الممتدة من أواسط دجلة حتى بلاد الفينيقيين على الساحل اللبناني. فانتهدت ممالك الآراميين في قسميها الشمالي والعربي في عهد سرجون الثاني ٧٢٠ ق.م.، في حين صمدت في بابل وما يجاورها من البقاع المسماة بلاد كلدو. ولكنها سقطت هي أيضاً عام ٦٨٩ ق.م. في يد الآشوريين، ثم نهضت عام ٦٢٦ ق.م. لما ملك نبوبولاسار الآرامي وأعاد بناء بابل وتحالف مع الماديين والسيثيين لتدمير آشور.

إن لفظة سرياني جاءت متأخرة فهي من عهد الأسباطورية اليونانية. والظاهر أن هذه اللفظة (سرياني) جاءت من سوروس وهو رجل آرامي الجنس استولى على بلاد الشام وما بين النهرين ومنه سميت البلاد سورية، وأهلها سريانا.

وتقول مصادر تاريخية موثوق بها، مثل معجم ابن بهلول، «أن كلمة سورية مشتقة من سوروس الذي قتل أخاه وملك بين النهرين فسميت مملكته كلها سورية»، وأن السريان كانوا قديماً يسمون آراميين، وإنهم، حين ملك سوروس، سمو سريانا والبلاد سورية.

وغني عن القول بأن اسم «السريان» لا يمكن أن يرتقي إلى أكثر من القرن الخامس قبل الميلاد، وإلا لورد ذكرها ولو مرة واحدة في الكتاب المقدس والعاديات الآشورية، علماً بأن الآشوريين والعبرانيين كانوا على اتصال مستمر بالآراميين.

وفي كل الأحوال، إذا كان نجم الآراميين قد بدأ بالأفول إدارياً وسياسياً منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فإن حضارتهم ولغتهم قدمت للأسباطوريات المتعاقبة تراثاً فكرياً وغني حضارياً لا يضاهاه. هذا فضلاً عن أن لغتهم بقيت لغة الشعب في جميع جنبات بلاد الشام وما بين النهرين. فالأسباطوريات الفارسية والبيزنطية والعربية نهلت من تراث الآراميين السريان واستعملت لغتهم، وذلك حتى أجيال متأخرة من التاريخ الميلادي.

٢. تنصير السريان

يعدّ السريان الآراميون أول شعب وثني اعتنق المسيحية، حتى إن كلمة سرياني (سورايا أو سورايايا)، باللهجة السريانية العامية، تعني مسيحي لدى جميع الذين ما زالوا ينطقون بهذه اللغة حتى اليوم في بعض قرى سورية وفي جميع القرى المسيحية في شمال العراق.

وقد اعتنق السريان الدين المسيحي منذ القرن الأول الميلادي عن يد بطرس الرسول في أنطاكية وعن يد توما الرسول وتلميذه أداي وماري في الرها وجميع بقاع بلاد ما بين النهرين، ومنه انطلقت البشرى لتعم بلاد فارس والهند.

٣. بطريركية أنطاكية السريانية

أول كنيسة تكوّنت بعد كنيسة أورشليم هي كنيسة أنطاكية السريانية. وبحكم كون أنطاكية عاصمة الشرق الروماني آنذاك، أصبحت هذه المدينة، بذات الفعل، المركز الرئيسي الكنسي لبلاد سورية وما بين النهرين وآسية الصغرى. كما شملت أيضاً بلاد مصر قبل استقلال بطريركيته المعروفة بالاسكندرية في القرن الثالث الميلادي. وفي أنطاكية سُمّي تباع المسيح مسيحين لأول مرة.

وبدافع من وعيها لمركزها الرفيع ومسؤولياتها تجاه الجماعات المسيحية في الشرق، ألهمت سائر كنائس الشرق، بما أُوتي لها من مكانة وأصالة على جميع الأصعدة: اللاهوتية والفلسفية والليترجية. وانا لا نغالي، إن قلنا بأن أنطاكية كانت مركز الفكر الفلسفي بعد الاسكندرية ونقطة الانطلاق لكل الطقوس الشرقية: السريانية والبيزنطية والقبطية والحيشية والأرمنية. وتعني السريانية هنا السريان الأرثوذكس والسريان الكاثوليك والموارنة والكلدان والآشوريين والمناكير والمبار، وهاتان هما كنيستا الهند السريانيتان.

ولسعة انتشار الكنيسة السريانية على رقعة جغرافية فسيحة تنقاسمها الأمبراطوريتان

(الرومانية الغربية) تنتهي حدودها عند الضفة الغربية من نهر الفرات، والفارسية (الشرقية) تبدأ حدودها عند الضفة الشرقية من نهر الفرات)، كان لا بد لهذه الكنيسة في أجزائها المترامية أن تتأثر إيجابياً أو سلباً بحضارة كل من الأمبراطوريتين وتتمثر شؤونها بالمشاكل والعقبات الناشئة بينهما عبر التاريخ. ولصعوبة الاتصال بين جزئي الكنيسة السريانية الشرقي والغربي، اضطرت كنيسة ما بين النهرين وبلاد فارس إلى الاستقلال الإداري من نفوذ أنطاكية، وذلك في مجمع عقد في سلوقيا عام ٤١٠، انتخب فيه مار اسحق بطريركاً (جثلياً) على كرسي سلوقيا - قطسيفون بحضور مار مارون ممثل فرفوروس، بطريرك انطاكية، «والآباء الغربيين». وبقيت سلوقيا الكرسي البطريركي لكنيسة ما بين النهرين حتى عام ٧٧٩، حين نقل طيموثاوس الأول (٧٢٨-٨٢٣) كرسي البطريركية من سلوقيا إلى بغداد، عاصمة العباسيين الجديدة، على بعد ٢٠ كيلومتراً شمالي سلوقيا.

٤. الانقسامات المبرية

على ان وحدة الكنيسة الانطاكية انفصمت عراها مرات عديدة، أولاً في مجمع أفسس سنة ٤٣١، ثم في المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١. ففي مجمع أفسس أُنشئ دستور بنظرية الطبيعتين والأقنومين في المسيح، فتبعه عدد كبير دعوا نسطرة وألقوا كنيسة سُمّيت نسطورية مستقلة عن انطاكية عام ٤٨٤، ثم انقسم تباع البطريركية الانطاكية الباقون إلى قسمين آخرين بسبب اختلافهم على وحدة



مار افرام

ذلك تأثيرهم الفعّال في مدرسة الحكمة ببغداد .

وهكذا نشط المثقفون من السريان ، من كتبة وأطباء ومؤمنين وكهنة ورهبان ، فتنسّبوا في كل مكان وتغلغلوا إلى مواقع حساسة في دور الملوك . فأُسس من ثقافتهم وفكرهم وإخلاصهم الخلفاء الراشدون خاصة وتوسموا فيهم الخير العميم ، وعرفوا فيهم ثروة وغنى لحضارة أرادوها منطلقاً للنهضة الفكرية والأدبية والعلمية والأخلاقية والفنية التي جاء العباسيون ليرسوا أسسها في عاصمتهم الجديدة بغداد . فبرز السريان وشهدوا لعمقهم الفكري ووسع مداركهم وطاقاتهم الخلاقة وحيويتهم المدهشة ، بما حملوه إلى العرب من أصول الفلسفة والحضارة اليونانية الرومانية التي كانت كنيستهم قد تطعمت منها منذ بداية الفترة الهلينية ، ففاضت بها إلى ما وراء الحدود الشرقية وراحت تنقل هذه الثقافة المطعمة بأخلاقيتها إلى شعوب آسية: إلى الهند والصين

الطبيعة في السيد المسيح وتثبيتها ، عندما اختلفوا في المجمع الخلقيدوني عام ٤٥١ . فالذين قالوا بالطبيعة الواحدة في المسيح سمّوا سريان مونوفيزيين والقائلون بالطبعتين هم السريان الملكيون (وهم السريان والموارنة والروم الملكيون) .

وهكذا أصبحت الكنيسة السريانية الانطاكية الكبيرة أجزاء . وكان لتدخل الملوك وتضارب المصالح السياسية الدنيوية أثر كبير في إذكاء روح الانقسام هذا ، وأصبح للسريان ثلاثة أقسام عُرفت بالنسطورية واليعقوبية والملكية

٥ . عصر السريان الذهبي

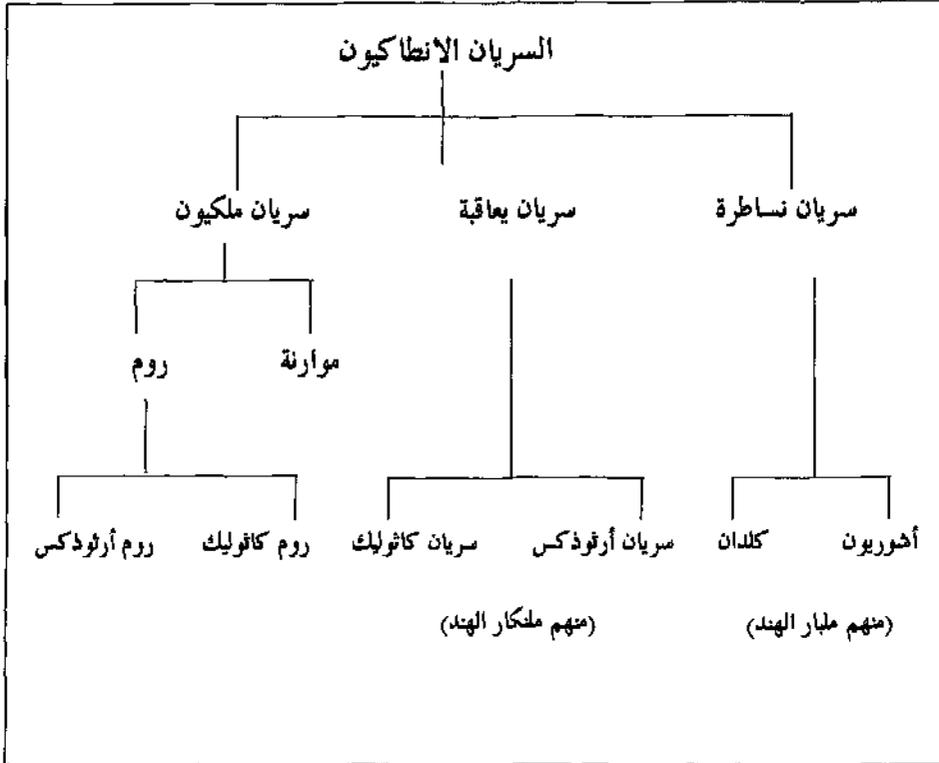
وبالرغم من هذه الانقسامات اللاهوتية ، بقي السريان بجميع فئاتهم ومواقعهم على أهمية بالغة في التأثير الحضاري والعطاء الفكري والفلسفي والعلمي ، لا سيّما وإن هذا الشعب عرف ان يقتبس من الحضارات المتعاقبة اليونانية والرومانية والفارسية والعربية ما جمعه واسع المدارك ووسيع القدرة ليقوم ، في الوسط الجغرافي والبشري ، بدور الأخذ والعطاء ، ليصبح جسراً حضارياً للتلاقي الفكري والتلاقح الحضاري بين شعوب المنطقة ، بلغ ذروته في أيام الخلفاء العباسيين (٦٣٦-١٢٥٠) ، حين بلغ السريان عصرهم الذهبي في العلم والثقافة ، يترجمون ويشرحون ، وينقلون من اليونانية إلى السريانية ومنهما إلى العربية ، ميادئ الفلسفة اليونانية وكتبها . وقد أسسوا مدارس ومراكز علمية عديدة مثل مدرسة نصيبين والرها وحران وقنشرين وجندي سابور وغيرها . أضف إلى

القرن الثالث عشر فقضوا على أروع حضارة وأغزر تراث تركه العرب بعد اندماجهم بالفكر الفلسفي اليوناني عن طريق المترجمين والشرّاح السريان.

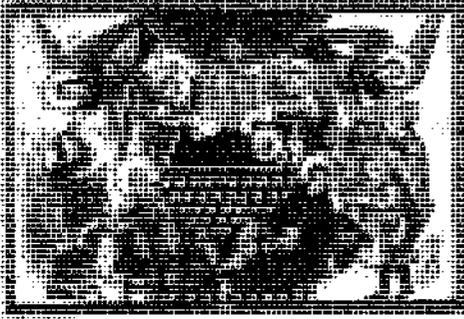
٦. مخطّط في الفروع السريانية

قبل أن نتكلم عن الكنيسة السريانية الكاثوليكية، نود أن ندرج هنا دليلاً بتفرع العائلة السريانية الكبيرة إلى عائلات مستقلة نتيجة تمازج الحضارات وتضارب الآراء واختلاف السياسات عبر تاريخهم.

والتبث. وهكذا نثرت بذور ثقافتها من قبرص إلى منجوري وإلى جزر جافا وسومطرا. وتقول المصادر التاريخية ان المسيحية كانت قد أُلقت بذارها في الصين عن يد السريان منذ حوالي سنة ٦٣٦. إلا أن الاضطهادات القاسية خنقت هذه البذرة ولم تثبت من جديد إلا في القرن لحادي عشر. ولما كان عام ١٢٧٥، رفعت بكين إلى مركز الرئاسة الأسقفية. لكن المسيحية لم يكتب لها تاريخ طويل في القسم الشرقي من آسية. فقد قضى المغول عليها، كما قضوا على معالم الحضارة والتاريخ في كل بلد زحفوا إليه، إلى أن وصلوا بغداد في منتصف



٧. الكنيسة السريانية الكاثوليكية



الميلاد - الفن السرياني - مخطوطة
من القرن الثاني عشر

بندكتس الثاني عشر. وقد جاهر في هذا المجمع أسقف السريان بالوحدة الكاملة بالكنيسة الكاثوليكية. ولكن سريان قبرص ما لبثوا ان اتبع بعضهم الطقس اللاتيني وبعضهم الآخر اندمج بالكنيسة السريانية المارونية (١).

وفي عام ١٤٤١، جرت محاولة أخرى، وهذه المرة على مستوى مجمع مسكوني هو المجمع الفلورنتيني على أيام البابا أوجانيوس الرابع والبطريك بهنم الخدي. فكان من نتيجته أن أصدر البابا صورة القرار الخاص بالسريان في ٤ شباط (فبراير) ١٤٤١ (٢). ولما انتقل المجمع الفلورنتيني إلى اللاتران، أوفد البطريك بهنام المذكور المطران عبد الله مطران الرها، فأقر هذا في ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٤٤٤، باسم البطريك وأسم شعبه، الوحدة مع الكنيسة الكاثوليكية أمام البابا المشار إليه. إلا أن هذا الاتحاد لم يدم بسبب صعوبة الاتصال بين الشرق والغرب،

الكنيسة السريانية الكاثوليكية هي الشطر السرياني الذي اتحد بالكرسي الرسولي بعد قطعة دامت قرابة عشرة قرون.

ففي عام ٤٥١، عندما حدد المجمع الخلقيدوني نوع وحدة الطبيعتين في شخص الكلمة الواحد، عند مذهب نسطور القائل بطبيعتين وشخصين، رفض أساقفة السريان هذا التحديد وانقطعوا تماماً عن الوحدة مع بابا رومة فلقبوا بدوي الطبيعة الواحدة، وقد تبع أيضاً هذا المذهب الأرمن والأقباط. والجدير بالذكر أن مقولة الطبيعة الواحدة هي اختلاف في التعبير، لا في المحتوى. فإخوتنا السريان الأرثوذكس يؤمنون بأن المسيح هو إله حق وإنسان حق. لكن نفوذ السلطات الزمنية واختلاف الذهنيات باختلاف المناطق والأزمنة وصعوبة الاتصال كانت الدافع إلى مثل هذه التيارات الانقسامية.

ومع ذلك، فقد حصلت محاولات للتقارب بين الكنيسة السريانية والكرسي الرسولي منذ سنة ١٢٣٧ عبر مراسلات جرت بين البابا غريغوريوس التاسع والبطريك السرياني اغناطيوس داود أدت إلى إعلان البطريك السرياني اتحاداً (الفردي) بالكرسي الرسولي.

وفي عام ١٣٤٠، عقد مجمع إقليمي للكنائس الشرقية في جزيرة قبرص بأمر من البابا

(٢) ألبير أبونا: تاريخ الأدب السرياني، بيروت

١٩٧١.

(١) ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية، الجزء

الأول، الموصل ١٩٧٣.



التقدمة: فن سرياني من القرن الحادي عشر

وفي هذه الحقبة بالذات، بدأت عائلات سريانية عديدة تنضم إلى الكتلثة في سورية وما بين النهرين وخاصة في حلب حيث نشأت جماعة كبيرة بفضل المرسلين من الكبوشيين واليسوعيين^(٥). وهذا ما حدا بالبطيريك الماروني يوحنا الصفراوي إلى رسامة الشماس السرياني المنضم إلى الكتلثة أندراوس أخيجان كاهناً على حلب في دير السيدة بقنوين، بعد عودته من رومة حيث كان البطيريك يوسف

ولا سيما بسبب المضايقات التي كانت تقوم بها السلطات العثمانية والعقبات التي كانت تشهدها في وجه الباباوات الذين كانوا يصدرون هجماتهم. مع ذلك، بقيت هذه المصالحة التاريخية حدثاً حياً في ذاكرة الذين شاركوا في أعمال الجمع، كما تشهد بذلك خطابات الباباوات والبطاركة السريان في تلك الحقبة^(٣).

وفي عام ١٥٥٣، أرسل البطيريك اغناطيوس عبد الله الراهب موسى إلى رومة، حاملاً كتاباً إلى البابا بولس الثالث. فتلا الراهب موسى بين يدي البابا، «باسمه وباسم بطيريكه»، دستور الإيمان الكاثوليكي والتسليم بالمجامع المسكونية المقدسة. لكن هذه المحاولة أيضاً لم تنجح. وتبعها محاولة أخرى على عهد البطيريك نعمة الله أصفر الذي تبادل الرسائل مع البابا بيوس الرابع ومع خلفه البابا بيوس الخامس من سنة ١٥٦٣ إلى سنة ١٥٧١. وبعد مضايقات عديدة أكرهته على إعلان إسلامه، هرب إلى رومة والتجأ إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر وقضى بقية حياته هناك بالتوبة والصلاة والتكفير^(٤). ويجدر القول بأن هذا البطيريك العلامة كان أحد العلماء الذين شاركوا في تصحيح الحساب اليولياني ووضع الحساب المعروف بالحساب الغريغوري، وما زالت له كتب ومخطوطات عديدة محفوظة في مكتبة فلورنسا.

١٩٦٧.

(٥) ماجد فخري وخليل الجر: تاريخ الفلسفة

العربية، بيروت ١٩٦٦.

(٣) سامي الياغي: الحضارة الإنسالية، القاهرة

١٩٦٢.

(٤) يوحنا قمير: أصول الفلسفة العربية، بيروت



المسيح يبارك الرهبان
الفن السرياني من القرن الثاني عشر

قنوبين وطلبوا من البطريرك الماروني يعقوب عواد قطعة أرض في جوار بشرّي ليينوا عليها ديراً لهم بالقرب من الرهبان الموارنة. فأشار إليهم البطريرك الماروني أن يذهبوا إلى بلدة الشبانية في المتن، لأن والي طرابلس قاس فلا يصيبهم من شره متاعب. وهناك في الشبانية أسسوا ديراً على اسم مار افرام عام ١٧٣٠ عرف بدير «مار افرام الرغم» لقربه من عين ماء تدعى عين الرغم. وقد عرف هذا الدير ازدهاراً منقطع النظير بفضل رهبانه وبفضل الأساقفة الذين أموه وسكنوا فيه، فازدان بالعلم واللغات

العاقوري قد أرسله عام ١٦٤٦ لتلقي دروسه الكهنوتية. ثم رسمه أسقفاً على حلب في الدير نفسه في ٢٩ حزيران (يونيو) سنة ١٦٥٦. لكن ما لبث المطران ان ترك مرغماً حلب بسبب معاكسة البطريرك شمعون، فلجأ إلى لبنان. وبعد وفاة البطريرك شمعون، عاد أنخيحان إلى حلب فانتخب في صيف ١٦٦٢ بطريكاً على جماعة السريان المتحدين بالكرسي الرسولي. وكان في الواقع يسوس الجماعتين. إلا أن خلافات حادة وقعت مرة أخرى بين السريان أجبرت البطريرك أنخيحان على مغادرة حلب مرة أخرى إلى الأستانة. وبعد اتصالات رفيعة المستوى، عاد إلى حلب وساس جماعة السريان الكاثوليك حتى توفاه الله في ٢٤ تموز (يوليو) ١٦٧٧^(٦). وكما في عهد أنخيحان كذلك في عهد خلفه البطريرك شهادين الذي نزعت نفسه إلى الوحدة. وقد خلع هذا البطريرك بسبب الفلقل خمس مرات عن الكرسي البطريركي، حتى اضطر إلى الهرب إلى لبنان طالباً حماية البطريرك الماروني اسطفان الدويهي في وادي قنوبين. ولما عاد إلى حلب مرة أخرى، أثرت في وجهه عقبات ومنازعات جديدة أدت إلى مسجنه ونفيه إلى أدنه، مع المطران أميرخان وعدد من كهنة ورهبان، فسيقوا مشياً حتى الاسكندرون، ولما وصلوا إلى سجن أدنه، فارق المطران أميرخان الحياة وتبعه بعد أربعة أشهر البطريرك شهادين ولم ينجح سوى ثلاثة رهبان، بعد تدخل قنصل فرنسا. فقصده هؤلاء لبنان وأتوا دير

(٦) لويس شيخو: مجاني الأدب، بيروت، ١٩٥٧.



المطران ميخائيل جروه

أجمع السريان بشطريهم الأرثوذكسي والكاثوليكي على انتخاب المطران ميخائيل جروه بطريكاً عليهم، فاعتذر لكونه قد أعلن إيمانه الكاثوليكي. ولكن على إلحاح هؤلاء وبعد استشارة المجمع المقدس، قبل بذلك. فالتأم السينودس السرياني في دير الزعفران ونادى بالمطران ميخائيل جروه بطريكاً على السريان بشطريهم.

إلا أن الخلافات في البيت السرياني أُلجأت البطريرك الجديد إلى الهرب ليلاً من دير الزعفران إلى الموصل متنكراً ومنها إلى بغداد فالشام حتى وصل إلى بلدة بيت شباب في

وبالمكتبة الشهيرة التي حوت ٥٠٠ مخطوطة ثمينة وبالمطبعة التي اشتراها البطريرك بطرس جروه في ما بعد (٧).

وفي غضون ذلك، كان القس ميخائيل ابن نعمة الله جروه منذ رسامته الكهنوتية عام ١٧٥٧ يبدي رغبة شديدة في الاتحاد بالكرسي الرسولي، فقام من جراء ذلك كثيراً من الضغوط منعاً له من تحقيق رغبته، فرسمه البطريرك السرياني كوركيس الثاني أسقفاً على حلب في ٢٣ شباط (فبراير) ١٧٦٦. فأمل المطران جروه من وراء ذلك في ان يستطيع التحرك بحرية أكثر في تحقيق مأربه وجلب العديد من أبناء أبرشيته الحلبية التي كانت تجلّه وتحميه كثيراً. لكن البطريرك كوركيس الموصلبي الذي خلف كوركيس الثاني «أخذ يضطهده بالأكثر. وقد سبب له أتعاباً كثيرة ومشقات وخسائر وافرة» (٨). ولكن المطران جروه، وعلى أثر اتفاق أهالي حلب السريان على إعلان وحدتهم برومة، هرب من دير الزعفران حيث كان يحتجزه البطريرك كوركيس وجاء حلب وتلا صورة إيمانه الكاثوليكي وأرسل فأعلم البابا بيوس السادس. فثارت الفتن والشكاوى وتحمل المطران هو وكهننته العذابات والتهديدات حتى اضطر إلى الهرب إلى اللاذقية في ٢١ آب (أغسطس) ١٧٧٨ متنكراً ومنها إلى قبرص، ثم الاسكندرية ودمياط ويافا فأورشليم. وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٧٨١، بعد وفاة البطريرك كوركيس الموصلبي

(٨) دي لاسي أوليري: انتقال علوم الاغريق إلى

العرب (ترجمة من بيتون)، بغداد ١٩٥٨.

(٧) فيليب فانس ميرز: التاريخ العام، بيروت

١٩٢٨.



دير الشرفة القديم والجديد

الشرق. ثم كتبها بخط يده ووقعها بختمه ورفعها إلى البابا بيوس السادس. ومنذ ذلك الحين أخذت الكنيسة السريانية العائدة إلى الوحدة استقلالها وعرفت باسم «كنيسة السريان الكاثوليك الانطاكية».

وبدأ دير الشرفة يزخر بالرهبان والتلاميذ يتشققون فيه بالعلوم والفضائل الكهنوتية وينطلقون إلى الرسالة في جميع بلدات وقرى سورية وما بين النهرين وتركيا.

وقد حافظ السريان الكاثوليك على كرسيمهم البطريركي في ماردين بالرغم من ان بعضاً منهم جلس في حلب والموصل أو دير الشرفة. ومنذ عهد البطريرك افرام الثاني رحماني (١٨٩٨-١٩٢٩)، حاول نقل الكرسي البطريركي من ماردين نهائياً إلى لبنان، إلا أن البطريرك الكردينال جبرائيل تبنوني

لبنان. وبعد أربعة أشهر، قصد كسروان واشترى، عام ١٧٨٤، من بيت آل الحازن غرفتين وعقاراً على تلة مطلة على درعون تسمى شرفة درعون، وعلى هذه الأرض بنى البطريرك ديراً، عام ١٧٨٦، باسم سيدة النجاة تيمناً بأيقونة سيدة النجاة التي كان يحملها على صدره طيلة فترة هربه، فأنقذته من موت محتم.

وما ان استقر الحال بالبطريرك جروه حتى باشر اتصالاته بالحبر الأعظم وملكوك اسبانية تدعيماً لديره ولمشروعه الوجدوي. وفي مصلى دير الشرفة احتفل البطريرك ميخائيل جروه بالذبيحة الإلهية بحضور رهط من الأساقفة والكهنة والرهبان صباح جمعة المعترفين ٢٥ نيسان (أبريل) ١٧٨٥. فقرر خلال الاحتفال بصورة الايمان الأوروبية كماألوف عادة بطاركة

(١١) أنطوان رباط: الوثائق الخطية.
(١٢) إسحق أرملة: تاريخ دير الشرفة، جونية ١٩٤٦.

(٩) يعقوب منّا: المروج الذهبية، الموصل ١٩٠١.
(١٠) البطريرك حايك: علاقات الكنيسة السريانية بالكرسي الرسولي، بيروت ١٩٨٥.



البطريرك الكردينال جبرائيل تبنوني

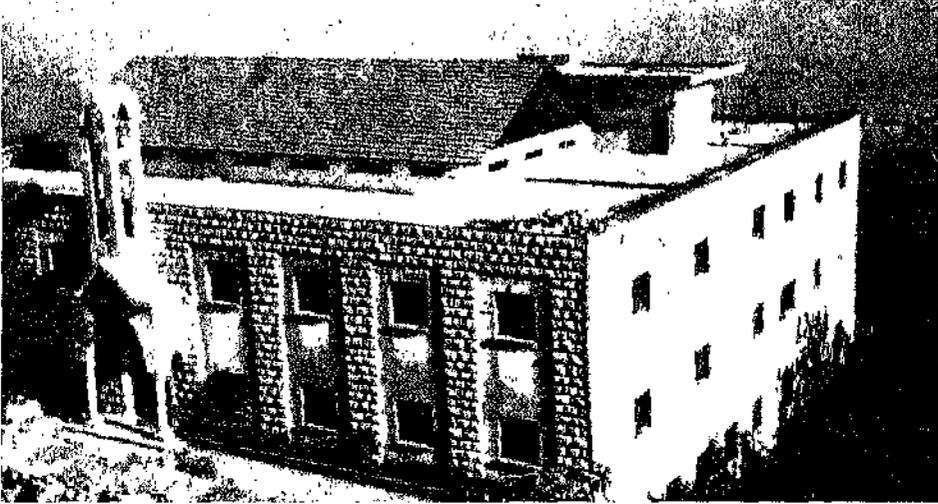
الرياضي والمستوصف المجاني ومركز البحوث والدراسات السريانية ومكتبة مخطوطات ثمينة وأخرى للمطبوعات، وأربع مدارس وخمسة أديرة.

هو الذي ركّز أخيراً الكرسي البطريركي في بيروت منذ عام ١٩٣٠.

لقد انتشرت الكنيسة السريانية الكاثوليكية انتشاراً سريعاً وتقدّمت في العلم والفكر والروح ونظّمت أحوالها وعقدت مجامع عدة أشهرها مجمع الشرفة عام ١٨٨٨ الذي نظّم الشرع الخاص بها، وهو شبيه بالمجمع اللبناني للموارنة الذي عقد عام ١٧٣٦.

للسريان الكاثوليك اليوم أبرشيات ونيابات بطريركية في لبنان وسورية والعراق ومصر وفلسطين وتركيا، ولهم إرساليات ورعايا في باريس والسويد ونيوجرسي ومونتريال وفتزويلا والبرازيل وسيدني وديترويت وجاكسونفيل - فلوريدا ولوس أنجلوس.

ولهم نشاطات ومؤسسات عديدة نذكر منها: إكليريكيي دير الشرفة والراهبات الافراميات وميثم بيت الفتاة وجمعيات خيرية ومجالس استشارية وراعية ونادي النصر



دير الراهبات الإفرايميات في الشرفة

منذ أكثر من خمسين سنة واندمج أو ضاع في طوائف أخرى. أما مراكز الارساليات الحالية التي خصصت الكنيسة السريانية الكاثوليكية اثني عشر كاهناً لخدمتها هي: باريس، السويد، نيوجرسي، ديترويت، لوس أنجلس، جاكسونفيل فلوريدا، مونتريال، تورنتو، ماراكايب، بورتولاكروس، ييلوريزونته، سيدني. وبلغ عدد السريان في الاغتراب ما يقارب ٥٠٪ من عددهم الأصلي في العالم.

٩. موجز عن أبرشيات السريان الكاثوليك

أولاً: أبرشية بيروت البطريركية: ولاية هذه الأبرشية تمتد إلى جميع فواحي لبنان، يرأسها غبطة البطريرك ويقوم بتصريف شؤونها الكنسية والراعوية نائب بطريركي بدرجة مطران. وهي مقسمة إلى خمس رعايا يخدمها خمسة كهنة. وللسريان الكاثوليك في لبنان ثلاثة أديرة: دير الشرفة (درعون - حريصا) حيث إكليريكيتان: كبرى وصغرى لإعداد كهنة المستقبل يدير شؤونها أربعة كهنة. وإلى جانب ذلك يحوي الدير مكتبة للمخطوطات النفيسة يربو عددها على ٢٥٠٠ مخطوطة. ومتحف صغير. إلى جوار الدير المذكور دير ثانٍ للراهبات الافراميات بنات أم الرحمة وهو من حق بطريركي. ثم ميثم بيت الفتاة يخدمه راهبتان من الافراميات. أما الدير الثالث فهو

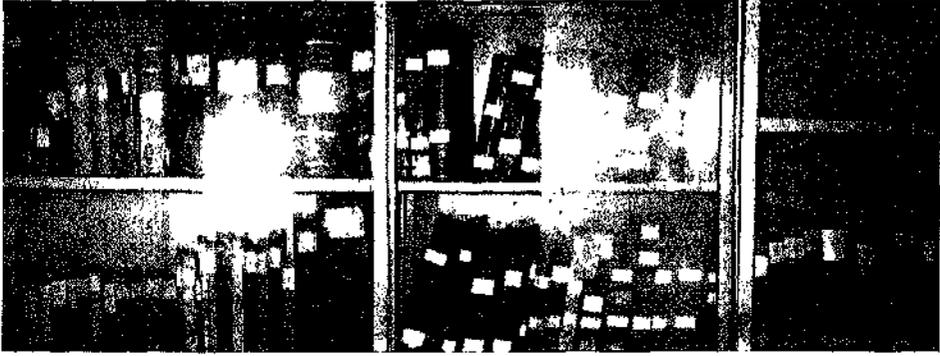
(١٤) الأبائي بطرس فهد: الكنائس الشرقية عبر التاريخ، جونه ١٩٧٢.

وبين شخصيات الطائفة الذين لمحو في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، نذكر، على سبيل المثال، لا الحصر: ميشال جحا، إدمون رباط، أنطوان فتال، جو سرادار، السيدة فيروز، السيدة مريم نحاس زوجة الحوري يوسف طعمة. هذا فضلاً عن أساقفة وبطاركة وكهنة برعوا في العلم وبرزوا في المجتمع، أمثال يوسف داود وبهنام بني وجرجس شلحت وافرهم رحمانني واسحق أرملة وأنطوان رباط والكردينال تبوني وغيرهم...

٨. السريان الكاثوليك حاضراً

يناهز عدد السريان الكاثوليك اليوم نصف مليون نسمة. وهم بالرغم مما أصابهم من اضطهاد وتشتت في العهود العثمانية، فقد انتظموا مرة أخرى ليؤدوا دورهم الحضاري الفكري والروحي في مناطق وجودهم في بلدان الشرق الأوسط وبلدان الاغتراب. ويتوزع القاطنون منهم في هذا الشرق على ثماني أبرشيات وثلاث نيابات بطريركية في لبنان وسورية والعراق وتركيا والأردن وفلسطين ومصر والسودان. أما في بلدان الاغتراب فيسوسهم كهنة في اثنتي عشرة إزمالية بدأ تأسيسها رسمياً منذ عام ١٩٧٦. وهذه الارساليات مرشحة للزيادة كلما تقدمنا باكتشاف مواقعهم. ذلك بأن عدداً منهم هاجر

(١٣) المطران ييلوني: مقال في السريان الكاثوليك في لبنان، مجلة المنارة، عدد ١ و٢، سنة ١٩٨٦.



قسم من مخطوطات دير الشرفة

وفي سياق كلامنا عن أبرشية بيروت البطريركية للسرّيان الكاثوليك، نرى من الضروري الإشارة بسرعة وإيجاز إلى الجدور السريانية في لبنان. هذه الجدور ترقى إلى العهد الآرامي منذ ١٦٠٠ ق.م. وقد حافظ السريان الآراميون على لغتهم وتراثهم وأصالتهم بعد تنصرهم وانتظموا تحت سلطة بطريركية انطاكية السريانية وما زالوا بالرغم من تفرّع كنائسهم واتخاذها أسماء وأوضاع إدارية وقانونية مستقلة.

ومنذ القرن السابع الميلادي، تكونت في لبنان كنيسة سريانية، في بطريركية خاصة، باسم «سريان موارنة» فاحتضنت هذه الكنيسة الجماعات السريانية المنتشرة في البلاد، لا سيما في مناطقها الشمالية.

أما السريان الحاليون (أرثوذكس وكاثوليك)، فبعد ان انتظم من كان منهم في لبنان في سالف الأيام واندمج مع الزمن في الكنيسة المارونية، بدأوا مرة أخرى في تكوين كنيستهم، ابتداءً من القرن السابع عشر حتى أصبح لهم كنيسة سريانية، الواحدة كاثوليكية والثانية أرثوذكسية، والغالبية الساحقة من

في أسفل قرية الشبانية في المتن الأعلى وهو بحكم الخراب، بعد أن قتل رهبانه عام ١٨٦٠ وهجره الباقون إلى ماردين حيث أسسوا لهم ديراً متخذاً نفس الاسم: دير مار افرام. والجدير بالذكر ان دير مار افرام في الشبانية كان له دور كبير في تثقيف أبناء المنطقة بما فيهم الدروز وتلقيهم اللغات الثلاث: السريانية والفرنسية والإيطالية.

عدد مدارس الأبرشية البطريركية هو اليوم ثلاث مدارس من أصل سبع، بعد أن توقف البعض منها أو دمج خلال الحرب اللبنانية (١٩٧٥-١٩٩١).

وإلى جانب هذه الأديرة والمؤسسات، هناك النشاطات الراعوية والرسولية، مؤسسات اجتماعية وفكرية منها: الجمعية الخيرية، المستوصف الصحي، المجلس الاستشاري، المحكمة الكنسية، مركز للبحوث والدراسات السريانية، اتحاد الأقليات المسيحية، ناد رياضي. وفي كل رعية أخويات وحركات رسولية وشبيبة وكشافة ومجلس راعوي وجوقات ترانيل ونشرات موسمية.

هؤلاء السريان هي من السريان القادمين من بلاد سورية وما بين النهرين وتركيا ومصر منذ العهور العثمانية. وذلك على اثر اضطهادات ومضايقات ومذابح كان آخرها مذابح تركيا عام ١٩١٥.

ثانياً: أبرشية دمشق: يسوسها رئيس أساقفة وثمانية كهنة يخدمون رعاياها السبع ويرشدون شبيبة الرعايا وأخوياتها. وفي الأبرشية دار للعجزة وداخلي للفتيات الجامعيات ومحكمة كنسية ومؤسسة يسوع العامل، وليجيوماربه ومركز للتعليم المسيحي وجمعية خيرية ومجالس راعوية وجوقات تراتيل ونشرة كنسية موسمية.

ثالثاً: أبرشية حمص وحماه والنبك: يسوسها رئيس أساقفة يعاونه اثنا عشر كاهناً في خدمة عشر رعايا. وإلى جانب الأخويات وجوقات التراتيل الكنسية مؤسسات ونشاطات رسولية وخيرية مثل: مجالس راعوية، ومجلس أبرشي، جمعية خيرية، مراكز للتعليم المسيحي، رهبنة مار موسى الحبشي، مؤسسة أرض البشر للمعاقين جسدياً، مدرسة ابتدائية. وتجدر الإشارة، في هذه الأبرشية، إلى دير مار موسى الحبشي بجوار النبك يرقى عهده إلى القرون الوسطى أو ما قبلها يحوي جدرانها نفيسة من القرن الثاني عشر. وقد اتخذت رهبنة مار موسى الحبشي الفتية هذا الدير مركزاً لها بعد ان رمت فيه ما يجعله أهلاً لسكنى رهبان زاهدين.

رابعاً: أبرشية حلب: يسوس هذه الأبرشية رئيس أساقفة يعاونه في خدمة رعيته سبعة كهنة يؤلفون مع مطرانهم المجلس الأبرشي. في الأبرشية أخويات وحركات رسولية للشبيبة وجوقات تراتيل ولجان وقف بالإضافة إلى المحكمة الكنسية والجمعية الخيرية وجمعية التضامن للإسكان ورابطة قدامى الأكليريكين ونشرة فصلية وندوتين للشباب.

خامساً: أبرشية نصيبين والحسكة: يسوسها رئيس أساقفة يعاونه في خدمة رعاياها الثلاث أربعة كهنة، في كل رعية مجلس راعوي وأخوية أو أخويتان. وجمعية خيرية ومركز للتعليم المسيحي. والجدير بالذكر ان التعليم المسيحي في الأبرشية عهد فيه إلى الراهبات الافرايميات بنات أم الرحمة اللواتي اتخذن لهن مركزاً في هذه الأبرشية لهذه الغاية.

سادساً: أبرشية الموصل: يسوسها رئيس أساقفة يعاونه واحد وعشرون كاهناً يخدمون رعاياها العشر. في كل رعية عدة أخويات وجوقة تراتيل وندوة دينية، ومركز للتعليم المسيحي. وقد أنشئت في الأبرشية عدة مشاغل لسد حاجات العائلات الفقيرة بسبب الحصار الجائر على العراق. وتمتاز هذه الأبرشية بجمعية كهنوتية هي «جمعية كهنة يسوع الملك» وبدورات لاهوتية وحلقات دراسية ومجلة شهرية باسم «الفكر المسيحي». كما أن هناك ديراً أثرياً شهيراً من القرن الثالث عشر وهو دير مار بهنام الشهيد الذي يستقبل المؤمنين والشبيبة

صدر في مجلة بين النهرين، سنة ١٩٧٧، عدد ١٨ و١٩.

(١٥) المطران ميخائيل الجميل: مقال في «الكنيسة السريانية بين انطاكيا وسلوقيا - قطيسفون»

في خلوات روحية ومؤتمرات. ويحتوي على مكتبة نفيسة للمخطوطات تزيو على الخمسمائة مخطوطة. أما الدير الأثري الثاني في هذه الأبرشية فهو دير مار يوحنا الدلمي المعروف بدير «نوقورتايا» من القرن التاسع الميلادي، وهو اليوم أطلال.

سابقاً: أبرشية بغداد: يسومها رئيس أساقفة يعاونه سبعة كهنة يخدمون أربع رعايا. في الأبرشية أخويات وجوقات ترانيل وجمعية خيرية ومكتبة عامة للمطالعة ومراكز للتعليم المسيحي ومشغل حرفي ومجالس راعوية.

ثامناً: أبرشية القاهرة: يسومها أسقف هو في الوقت نفسه نائب بطريركي على السودان. ويدير شؤون رعاياها الثلاث، مع رعية الخرطوم في السودان، أربعة كهنة. في هذه الأبرشية مجلس أبرشي ومدرسة ومستوصف وجمعية خيرية وجمعية مار منصور وناد للعائلات وأخوية للسيدات.

١٠. النيابة البطريركية

أولاً: النيابة البطريركية في البصرة (العراق): يسوس شؤونها مطران بغداد ويخدم النفوس فيها حالياً كاهن واحد بسبب صعوبة الأوضاع في المنطقة الحدودية مع الخليج. وتشمل هذه النيابة مدن البصرة والعمارة والناصرية مع الكويت والخليج. في هذه النيابة أخوية وناد للعائلات ومركز للتعليم المسيحي.

ثانياً: النيابة البطريركية في القدس: تمتد حدود هذه النيابة إلى جميع الأراضي المقدسة والأردن. يسومها نائب بطريركي بدرجة خوراسقف يساعده كاهن واحد في خدمة أبناء رعية عمان (الأردن). في هذه النيابة مدرسة وأخوية للسيدات ومؤسسة المرعوظين ومجلس راعوي ودار «أبونا إبراهيم» لاستضافة الحجاج.

ثالثاً: النيابة البطريركية في اسطنبول (تركيا): يسومها نائب بطريركي بدرجة خوراسقف. وتشمل حدودها بلاد تركيا بأسرها. لهذه النيابة أخوية للسيدات ومجلس ملكي ودار للضيافة وجوقة ترانيل.

في ختام هذه الدراسة الوجيزة أود التنويه بما قدمته هذه الكنيسة عبر أبنائها من خدمات علمية في التأليف والترجمة والنشر، نشر علماءها عصارة علمهم ونتاج فكرهم فأثروا المكتبات بمجلدات قيمة تناولت الأدب والتاريخ والفلسفة واللاهوت والقانون والعلوم الاجتماعية والدينية والسياسية. وأغلب هؤلاء الكتبة والمترجمين من الأكليس. وقد ناهز عدد المجلدات التي جادت بها أقلامهم الألفي مجلد خلال القرن العشرين.

هذا بالإضافة إلى خدماتهم وإخلاصهم وعطائهم حيث ما وجدوا، في الميادين الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والعمرائية، محققين بذلك رسالة جندوهم السريان منذ العهود الآرامية، رسالة حضارة وأخلاق وانفتاح.

(١٧) مجلة رعيتي، المجلد ٣، فصح ١٩٩٦، صفحة ١٧، مقال الأب أنطوان ناصيف.

(١٦) فيليب دي طرازي: أصلق ما كان، بيروت ١٩٤٨.

١٩. الطقس، الروحانية، الفن

١) الطقس

ورثت كنيسة انطاكية السريانية طقوسها من أورشليم عن طريق المؤمنين الأوائل، ولا سيما عندما استقر فيها بطرس هامة الرسل، وفيها دعي المؤمنون الجدد مسيحين لأول مرة.

كانت هذه الطقوس قريبة جداً من الطقوس اليهودية، يقتصر بعضها على تلاوة المزامير وعلى القراءات من الكتاب المقدس. ثم أُضيف إليها رويداً رويداً عبادات وصلوات وقراءات. ومع الزمن، أخذت كنيسة انطاكية تجمع ما توفر لديها من تقاليد وعبادات وتعاليم وتمعن في تنظيمها وترتيبها بحسب عبقرتها الحضارية المتشعبة المشارب، لا سيما الحضارة اليونانية المتميزة بالمنطق وبرشاقة التنسيق.

ولقد زاد الطقس السرياني عمقاً وغنى خيرة الآباء القديسين والرهبان الزاهدين والمدارس السريانية الشهيرة والملفنة الذين شرحوا الكتاب المقدس وأشبعوا منه النصوص الطقسية، حتى غدا طقس الكنيسة السريانية أشبه بلاهوت كتابي أو بتعليم مسيحي موسع وشامل يغطي جميع أيام السنة. ويشد المؤمن إلى الحقائق الإلهية معروضة بأسلوب بسيط ودافئ، شعراً ولحناً وصلوة جماهيرية مؤثرة.

لقد دأبت الكنيسة السريانية الانطاكية على تلحين صلواتها وتنظيم الكثير منها شعراً وتوزيع الألحان على الأزمنة الطقسية، موافقة بين اللحن والحدث. ويعود الفضل الكبير في تنظيم هذه الألحان إلى مدرستين شهيرتين انطلق منهما هذا التنظيم، هما مدرسة الرها ومدرسة

نصيبين. فيهما أنشأ مشاهير الآباء الكنسيين الموشحات والمنظومات لترتل في الطقوس لمكافحة الاضاليل. نذكر من هؤلاء الآباء: افرام السرياني الملقب بكنارة الروح القدس (٣٧٣٢) ورابولا أسقف الرها (٤٣٥٢) واسحق الانطاكي (٤٦٠٢) ويعقوب السروجي (٥٢١٢) ويعقوب الرهاوي (٧٠٨٢) وبالاي الحلبي وشمعون القوفي وجورجي أسقف الكوفة (٧٢٤٢).

أما أنواع الترانيم السريانية فهي: المدايرش والبواعيث والميامر والتخشفات الخ... هذه التصانيف هي بغالبيتها مستقاة من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد. وهي بتنوعها تدل على اشتراك الشعب في معظم الصلوات، ولا سيما في صلوات الساعتين القانونيتين: صلاة المساء وصلاة الصباح.

وبالإضافة إلى أنواع الترانيم هذه، هناك تنوع كبير أيضاً في الألحان. فلكل وزن معين ثمانية ألحان تتغير مع المناسبة ومع الزمن الطقسي.

قليلون هم من الاكليروس والشمامسة العلمانيين من يلمون بهذه التراتيل والألحان الطقسية في أيامنا، لاقران هذه الألحان باللغة السريانية التي أصبح بعض الكهنة أنفسهم يجهلونها.

يمكن اليوم الاستفادة من مبادرات كثيرة قام بها محبو الطقس السرياني مثل «Don Jeannin» في كتابه «الألحان السريانية المنوطة» والمطران أنطوان بيلوني الذي جدد طبع الكتاب المذكور، مضيفاً إليه تراتيل سريانية حديثة، والأب إميل أسود مع الأستاذ يوسف وهبه

الوثنية وصمدت في وجه كل المجازر البربرية المتتالية، وذخيرتها للطريق دماء شهدائها وصلاتها وطقوسها وتعاليم آباؤها وصمود رهبانها. في كل ذلك تبقى فكرة التوبة من جهة ورحمة الله من جهة أخرى القطبين الرئيسين لحياة هذه الكنيسة ومسيرتها حتى اللقاء السعيد بين أحضان الآب.

٣) الفن

لم يقتصر الفن، لدى السريان، على الشعر واللحن وحسب، بل تعداه إلى الرسم أيضاً، كما تشهد بذلك جدران كنائس وأديرة قديمة مزروعة هنا وهناك في هذا الشرق.

ان الرسم لدى السريان يعود، في أصله، إلى العصور الآرامية الوثنية، وقد انتقلت رموزه وأشكاله إلى مفهوم مسيحي بعد انتقال السريان الآراميين من الوثنية إلى المسيحية، كما هو بائن في منمنمات مخطوطة لرابولا وفسيفساء انطاكية وفلسطين وجبل نابو.

لقد شغف السريان بتصوير أحداث حياة يسوع ومراحلها على جدران كنائسهم. وبالرغم من كل التخريب الذي طالها عبر عصور الجهل والغزو التتري وعهود بني عثمان المظلمة، فان آثاراً هامة لهذه الجدرانيات ما زالت باقية في العديد من كنائس وأديرة قديمة مثل: مغارة جبل موسى شمال غربي انطاكية (تركيا) ودير مار موسى الحبشي ودير مار

الذين ترجما ألحان الرتب السريانية إلى العربية شعراً ولحناً.

هذه المبادرات من شأنها، إن استُغلت، أن تنعش الطقوس مع شيء من التحديث لمواكبة الزمن.

٢) الروحانية

من التأمل في الصلوات الطقسية ومن مطالعة كتابات الآباء القديسين والوقوف عند الزهد الذي عاشه الرهبان والمتوحّدون والنساك في كنيسة انطاكية السريانية، يتبين جلياً ان روحانية هذه الكنيسة قائمة على الايمان بإله أب رحوم يقبل توبة الخاطيء ويغفر له. هذه الرحمة وهذا الحنان اللذان يزخر بهما قلب الرب جعلوا المؤمن في الكنيسة السريانية يغرق في صلاة متواصلة كما جعلت الراهب يمشق الزهد في أقصى درجاته والمضطهد من أجل البر يقبل الهوان والعذاب حتى الموت.

لقد عكست كتابات آباء الكنيسة السريانية ورهبانها روحانية هي صدى لخيراتهم الحياتية مع الله عبر التأمل في الكتاب المقدس والمثابرة على الطقوس. وأكثر ما يبرز في كتاباتهم وممارساتهم هو: الصلاة والتوبة وحنان الرب ومحبة القريب والغذاء من كلام الرب وجسده.

ان بقاء المسيحية حية في هذا الشرق يبقى أعجوبة إذا ما قيس بالويلات التي انهالت على تباع المسيح عبر تاريخهم الطويل. فكنييسة انطاكية قاومت بإيمانها وثباتها كل التيارات

(١٩) مراجع أجنبية أهمها: شامو، تيسران، دي

فال، فيه...

Jules LEROY: *Les manuscrits syriaques*, (١٨)

Paris 1964.

مسيحية ويونانية هلينية مغربية إسلامية متأثرة
بلمسة فارسية وأحياناً مغولية .

وهكذا يمكن القول بأن عبقرية الفن
السرياني تتجلى في مرونته وقدرته على التكيف
والاستيعاب والاقتراس ، دون ان يفقد هويته
وطابعه الخاص ليؤثر هو أيضاً في الفنون المحلية
المواكبة .

وغني عن القول بأن السريان لم يعتمدوا
قواعد ثابتة أو تقنية خاصة ، كما فعل فيما بعد
البيزنطيون والروس ، ولم يفكروا في إعطاء
الصورة أو الايقونة معاني لاهوتية دقيقة من
خلال القياسات والأبعاد الهندسية التي قامت
عليها الايقونة البيزنطية ولا أبرزوا الهالة الإلهية
والعظمة الملوكية من خلال الوقفات والنظرات
الأمباطورية . ان ما أراده السريان بكل بساطة
هو التعبير بعفوية عما في نفوسهم من وصال
بحقائق الأسرار الخلاصية وما في قلوبهم من
صبابة وتوق . فجاءت رسوماتهم وصورهم ،
بخطوطها المرنة وانحناءاتها اللينة وسداجة
تناسقها وألوانها الدافئة ، شبيهة برسوم أطفال
أبرياء لا تغريهم التقنية والقياسات أكثر مما
تشدهم الحقيقة والحدث الروحيان .

لا شك ان عدم ارتباط السريان بدولة
(سريانية) ، كما حصل لكل من الكنيستين
البيزنطية والروسية ، هو أحد أهم العناصر
المؤثرة في إبقاء الفن السرياني بدائي الشكل بين
الخطوط ومتعاطفاً مع أنماط فنون حضارات
متعاقبة .



البشارة
فن سرياني من القرن الثاني عشر

يعقوب في قرى ، جوار النبك (سورية) ومغارة
القديسة مارينا وجدرانيات بحديدات وايليج
وميفوق ومعاد وكنيسة مار فوقا بأميون (لبنان)
وجدرانيات دير السريان في وادي النظرون
(مصر) .

بقي الفن السرياني مفتوحاً غرباً على البحر
الأبيض المتوسط ومتصلاً شرقاً بالعمق الآسيوي
الشاسع ، مما جعله يشكل وحدة رائعة من
مجموعة أساليب فنية أتت بها عبقرية مراكز
حضارية متعاقبة من آرامية وثنية فسريانية

كنيسة الأقباط الكاثوليك

بقلم مجموعة من المؤلفين

مقدمة

دحض الهرطقات في الجامع المسكونية الأولى
بفضل أساقفتها العظام أمثال أثناسيوس الرسولي
وكيرلس الكبير، وقد قال فيها الأب برا
اليسوعي في كتابه «أوريغانيس» ج ١١: «إذا
كانت رومة قلب المسيحية، فالإسكندرية
كانت عقلها المفكر».

وبالأسف أخذ دورها يتضاءل في
الانقسام الذي دبَّ فيها بعد مجمع خلقيدونية
سنة ٤٥١. ومن جهة أخرى، نرى فيها اليوم
بوادر نهضة روحية تبشر بكل خير في سبيل
الوصول إلى الوحدة التي يريدها السيد المسيح
لكنيسته.

نقسم بحثنا إلى سبعة أقسام

١. كنيسة الإسكندرية قبل الانفصال إلى
سنة ٤٥١.
٢. الكنيسة القبطية من بعد الانشقاق،
من سنة ٤٥١ إلى الانشقاق الكبير سنة
١٠٥٤.
٣. الكنيسة القبطية في العصور الوسطى
ومساعي الاتحاد بين رومة والكنيسة القبطية من

الكنيسة القبطية هي امتداد الكنيسة
الإسكندرية الشهيرة إلى كل القطر المصري،
كما أنها انتشرت خارج القطر المصري في ليبيا
غرباً وفي الحبشة جنوباً.

وكلمة «قبطي» مشتقة من الكلمة اليونانية
«Aiguptos» التي كانت تُطلق على الشعب
المصري، وصار هذا اللفظ «Guptos» عند
العرب، بحذف الحروف المتحركة الأولى،
ومنها جاء التعبير: اللغة القبطية والكنيسة
القبطية. وخصَّص هذا اللفظ منذ الفتح العربي
لمسيحي مصر (القبط) ولكنيستهم «الكنيسة
القبطية».

ويرجع تأسيس هذه الكنيسة، بحسب
تقليد كنسي قديم، إلى القديس مرقس
الإنجيلي. وقد اشتهرت بمدرتها اللاهوتية
(الديدسكاليون) وبعدها شهدائها الذين رووا
أرض مصر بدمائهم الزكية، كما يدين لها
العالم المسيحي بقيام الحياة الرهبانية على مختلف
أنواعها. وأخيراً كان لها الدور المتميز في

- ٥ . الكنيسة القبطية في العصر الحديث .
- ٦ . الفن القبطي .
- ٧ . الليتارجية القبطية .

سنة ١٠٥٤ حتى سنة ١٧٤١ .
٤ . مسيرة الكنيسة القبطية الكاثوليكية -
الآباء الفرنسيسكان والنواب الرسوليون من سنة
١٧٤١ حتى سنة ١٨٩٥ .

القسم الأول

نشأة كنيسة الإسكندرية ودورها وازدهارها (٤٨ - ٤٥١)

بقلم القمص إسكندر وديع*

ينقسم هذا القسم إلى خمسة فصول

- ١ . نشأة الكنيسة ونموها في الأجيال الثلاثة الأولى
- ٢ . مدرسة الإسكندرية
- ٣ . ملحمة الشهداء
- ٤ . نشأة الرهينة
- ٥ . دور أساقفة كنيسة الإسكندرية في الجامع المسكونية الأولى .

* أستاذ العقيدة وتاريخ الكنيسة وعلم الآباء

الفصل الأول

نشأة الكنيسة في مصر ونموها في الأجيال الثلاثة الأولى

أولاً: مقدّمة - نظرة عامة الى وضع مدينة الإسكندرية

أسس الإسكندر الكبير مدينة الإسكندرية سنة ٣٣٢ ق. م. كمرفأً تجاري، وزينها بالمباني والقصور الفخمة والشوارع المتسعة والبساتين الجميلة. وكانت الإسكندرية «درة البحر الأبيض المتوسط». فجذبت أنظار العالم واستوطنها عدد كبير من اليونانيين واليهود، فصارت الإسكندرية ملتقى العروق والثقافات والأديان في حضارة هليينية قائمة على اللغة اليونانية.

وسرعان ما انتشرت فيها المتاحف والمدارس الفلسفية - الميوزيوم والسيرايون والمكتبات الشهيرة والمدرسة اليهودية بفضل فيلون الشهير الذي حاول التوفيق بين الفلسفة والتوراة - وهنا تأسست المدرسة المسيحية الشهيرة التي سميت «الديسكاليون» والتي

ضارعت المدارس الأخرى وأتى إليها الفلاسفة من كل حذب وصوب.

في هذه المدينة العريقة تُرجمت أسفار العهد القديم إلى اللغة اليونانية لتكون في متناول الجميع. وهي الترجمة التي تسمى «الترجمة السبعينية».

وفي هذه المدينة العريقة، اشتهر الكثيرون من العلماء، أمثال إقليدس عالم الرياضيات العظيم وأرخميدس صاحب قانون الطفو وغيرهما، فكانت الإسكندرية حقاً عاصمة العلم والفلسفة لكل الأباطورية الرومانية.

وفي هذا الجو الزاهر بالعلم والفلسفة، ظهرت المسيحية التي وجدت أرضاً خصبة. وسرعان ما جذبت إليها كل هذه العقول المتعطشة الى العلم والإيمان.

ثانياً: نشأة الكنيسة ونموها

دخل القديس مرقس هذه المدينة بإلهام إلهي حوالي السنة ٤٨ بحسب تقليد كنسي قديم يخبرنا عنه المؤرخ المسيحي الشهير أوسابيوس القيصري في القرن الرابع، وهو يستند إلى أقوال يوليوس الافريقي في أوائل

تابعون لأسقف الاسكندرية. وعند رجوع مرقس التبشير إلى الاسكندرية، هاج عليه الوثنيون. وفي أثناء الاحتفال بعيد القيامة سنة ٦٨، هجم عليه الأعداء وجرجروه في الشوارع حتى أسلم نفسه الطاهرة إلى باربيها، فنال اكليل الرسولية واكليل الشهادة بعدما أضاء القطر المصري بنور الانجيل وغرس فيه بذرة كنيسة مجيدة.

ثالثاً: نشأة الديدسكاليون

وبعد القديس مرقس، يذكر أوسابيوس المؤرخ قائمة تضم عشرة أساقفة ترأس كل منهم الكنيسة لمدة اثني عشر عاماً دون ذكر شيء عنهم بالتفصيل، إلا أنه يمكننا أن نستنتج أنهم قاموا بنشاط كبير على مستوى القطر كله. وقد أسسوا مدرسة تعليمية لإعداد الموعوظين للعماد كان لها شأن كبير في ما بعد باسم «الديدسكاليون». وازداد عدد المسيحيين ولا سيما في صعيد مصر حيث ترجمت الكتب المقدسة من اللغة اليونانية، التي لم يعد يفهما الشعب، إلى اللغة القبطية لغة الشعب. ولدنا بعض المخطوطات للإنجيل باللغة القبطية ترقى إلى ذلك العهد. وياتشار المسيحيين، ازداد عدد الأساقفة اللازمين لرعايتهم، ووصل عدد هؤلاء الأساقفة إلى خمسين في سنة ٢٥٠ وإلى مائة في سنة ٣٢٠. وأخيراً ظهر ازدياد المسيحيين بعدد الشهداء الذين رروا أرض مصر بدمائهم الزكية في ملحمة الشهداء. وأول أسقف يكلمنا عنه التاريخ بشيء من التفصيل هو ديمتريوس الكرام (١٨٠-٢٣٠). وقد عني عناية خاصة بمدرسة الاسكندرية وعين لها مديراً



القديس مرقس الإنجيلي

القرن الثالث. كما أن لدينا شهادات أيفانوس (الرد على الهرطقات ٢-٥) وهيرونيمس (الرجال العظام ٨).

وجد مرقس في الاسكندرية، وسط الجالية اليهودية، بعض الأشخاص الذين وصلتهم الرسالة المسيحية منذ يوم العنصرة (رسل ١٠/٢)، وقد تمكن بعضهم من معرفة السيد المسيح، وأخذوا يبشرون به. ويذكر سفر أعمال الرسل أحدهم وهو «ابلس»، «اسكندري الأصل، رجل فصيح اللسان» (رسل ٢٤/١٨-٢٦). فنظم القديس مرقس هذه الجماعة الناشئة ورسم لها شمامسة وكهنة وواصل التبشير في كل القطر المصري. ثم دعت الغيرة الرسولية إلى التبشير في ليبيا التي كانت، بحسب بعضهم، موطنه الأصلي. وازدهرت في تلك الديار الغربية جماعات مسيحية ضخمة، حتى أصبح للمدن الخمس، وهي قيرينه وبطلمايس وأرسينية وسوزوزا وبردينه، منذ القرن الثاني، خمسة أساقفة

الثالوث وتتكلم عن أقنوم واحد اتخذ ثلاثة أشكال مختلفة. وكان معتدلاً وصانع سلام بين الأطراف المختلفة. يحارب التشدد في النسك وفي معاملة المرتدين. وأبرز قيمة الزواج المسيحي، رداً على الذين يرون فيه دنساً وشرّاً، كما أنه حث على قبول الخطاة الراجعين إلى الله بتوبة صادقة، بعد أن ارتدوا عن المسيحية بسبب ضعفهم أثناء الاضطهادات، متخذاً موقف أسقف رومة ضد نوخاسيوس المتشدد. لذلك وقف، في مسألة تعميم الهرطقة، في صف إسطفانس أسقف رومة ضد قيريانس أسقف قرطاجة. وقد شكاه أخصامه إلى البابا ديونيسيوس بأنه يقلل من قيمة الابن بالنسبة إلى الأب، فطلب إليه البابا إيضاحاً عن موقفه، وردّ عليه بطريك الإسكندرية وتمّ التفاهم بينهما.

وتعرض في أيامه لاضطهاد داقبوس، فهرب مرة، ثم نفي مرة ثانية إلى الصحراء الليبية حيث بشر وجذب الكثيرين إلى المسيحية. ثم أفرج عنه في عهد اليانس. فرجع إلى الإسكندرية مكرماً. واستمر في خدمة كنيسة بكل أمانة حتى لقي ربه سنة ٢٦٢.

ومن بعده أنتشرت المسيحية في مصر انتشاراً واسعاً حتى صار عدد المسيحيين ثلث عدد السكان في أواخر القرن الثالث. وزاد عدد الأساقفة على المائة في السينودس الذي عقده البطريرك الكسندرس ضد أريوس سنة ٣٢٠.

شهيراً في شخص أوريجنيس بعد هروب اقليمنطس أثناء الاضطهادات. وتدخّل ديمتريوس في موضوع المشكلة الفصحية مسانداً فكتور أسقف رومة في تحديد يوم عيد القيامة (يوم الأحد التالي الرابع عشر من شهر نيسان)، رداً على كنائس آسية التي كانت تعيد في يوم الرابع عشر من نيسان. وبذلك المناسبة نظم الحساب القبطي الذي حدّد عيد الفصح لكل سنة، وهو الأحد الواقع بعد اكتمال القمر من الاعتدال الربيعي، كما أنه أوّل من رسم في مصر أساقفة للمدن الأخرى التابعة له، وأوّل من اتخذ في الكنيسة لقب «بابا الاسكندرية».

وخلفه ياروكلاس، أحد تلامذة أوريجنيس، في المدرسة الاسكندرية. وكان فيلسوفاً متضلّعا من شتى العلوم الفلسفية، كما كان خطيباً موهوباً. وكان له تأثير كبير في النفوس حتى إنه اكتسب عدداً كبيراً من الوثنيين إلى المسيحية. وقام برحلة رعوية طاف خلالها في مدن القطر المصري، وبسبب ازدياد عدد المسيحيين، رسم لهم عشرين أسقفاً.

وهناك وجه مشرف للكنيسة في ذلك الزمان وهو القديس ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٢). كان أسقفاً عظيماً وكاتباً قديراً، ترك لنا مجموعة رسائل تدل على اهتمامه بجميع شؤون الكنيسة في زمانه وعلى سمو مكاتبه اللاهوتية في دحض الهرطقات التي ظهرت في وقته. حارب القائلين بالنظرية الألفية ولا سيما الهرطقة الصابلية التي تنكر

الفصل الثاني

مدرسة الإسكندرية الديرسكالون

أخذت مدرسة الموعوظين في الاسكندرية تبرز شهرة واسعة، عندما بدأ يعلم فيها الأساتذة الكبار. وأول اسم مشهور هو بنطيس وخلفه اقليمضس الاسكندري، وأعظمهم هو أوريجانيس.

وقد تطور نشاط هذه المدرسة من التعليم الديني إلى جامعة تضم مختلف العلوم الرياضية والفلك والفلسفة وتفسير الكتب المقدسة. وكانت المدرسة مفتوحة للجميع، من وثنيين ويهود ومسيحيين، ومن أغنياء وفقراء، ومن رجال ونساء، فكان لها الدور الكبير في تعليم المؤمنين وترسيخهم في الإيمان. واستطاعت أن تجذب الكثير من الوثنيين إلى الإيمان القويم كما أنها حاربت الهرطقات المنتشرة في ذلك الزمان، ولا سيما الهرطقة الغنوصية التي كان لها طابع سرّي لا يقضى به إلا إلى أتباعها، وتدعى أن المعرفة كافية للخلاص، ولا حاجة إلى الإيمان والإنجيل.

امتازت هذه المدرسة بموقفها الإيجابي من الفلسفة اليونانية ورأت فيها شعاعاً من الحقيقة النابعة من نور الكلمة الذي يضيء لكل إنسان آت إلى العالم، وطريقاً إلى الحق الكامل، وهو الرب يسوع. وهكذا تمت المصالحة بين الفلسفة والدين، وصارت الفلسفة خادمة للدين.

وعرضت هذه المدرسة الديانة المسيحية بصفتها الغنوصية التي لا تكفي بالإيمان البسيط الضروري لكل مسيحي، بل تعمل على تكوين

المسيحي الكامل الذي يتعمق في الإيمان ويصل إلى التأمل في الروحيات، وهو علم يستند إلى الإيمان وعلى نعمة الله، وهو مقدم للجميع، لا خاصة متميزة فقط. ومن هنا نرى الفرق بين الغنوصية المسيحية والغنوصية المزيفة.

وقد اشتهرت المدرسة الإسكندرية بتفسير الكتاب المقدس الرمزي، غير مكثفة بالمعنى الحرفي الذي وقفت عنده المدرسة الانطاكية. وأرادت أن تتعداه وتكشف المعنى الروحي العميق وراء السطور في الكتاب المقدس، فتجد حقائق كثيراً ما تتفق مع بعض الحقائق الفلسفية. وكان هذا الأسلوب متبعاً عند الفلاسفة الوثنيين لتفسير أساطيرهم الدينية، كما استعمله فيلون العلامة اليهودي في شرح التوراة.

نجد له تطبيقاً عند القديس بولس، عندما يرى في هاجر وسارة رمزاً للعهد القديم والعهد الجديد (١ قور ٤/١٠).

وأعظم أستاذ لهذه المدرسة هو بلا شك أوريجانيس (١٨٥-٢٥٣)

وُلد أوريجانيس في الإسكندرية سنة ١٨٥ من والدين مسيحيين. تلقى علومه الأولية عن يد والده ليونيداس الذي غرس فيه حب الكتاب المقدس حتى كاد ان يحفظه عن ظهر قلب. وبعد استشهاد والده، تابع دروسه عن يد اقليمضس الإسكندري، مدير مدرسة الإسكندرية. وبعد هروب إقليمضس أثناء اضطهاد سبتيمس ماقيرس سنة ٢٠٣، عينه أسقف ديمتريوس على رأس المدرسة وكان لا يزال في الثامنة عشرة من عمره. فأخذ يدرّج تلامذته من الآداب إلى العلوم وإلى شرح الكتاب المقدس بكل جدارة، وذاع صيته

وازداد عدد تلامذته ومنهم كثيرون من عشاق الفلسفة. فترك مؤقتاً إدارة المدرسة معيناً ياروكلاس نائباً عنه، وذهب ليتلمذ هو أيضاً على أعظم فلاسفة عصره وهو أمونيوس سكاس. فتمعق في الفلسفة عن يده حتى يستطيع أن يحاور الفلاسفة. ورجع إلى إدارة مدرسة الإسكندرية مزوداً بكل معرفة، وذاع صيته في العالم المسيحي كله، وكثيرون من الحكام طلبوا من البطريرك ديمتريوس أن يرسل إليهم أوريجانيس ليحلّ مشاكلهم، ومنهم أم الإمبراطور الكسندر سافيرس، وحاكم بوسترا من بلاد العرب. ودعاه أسقف أورشليم وأسقف قيصرية فلسطين لإلقاء التعاليم المسيحية في كتائبهم، ثم رسماه كاهناً.

لكن ديمتريوس غضب منه لهذا السبب وحرمه ومنعه عن التعليم بالإسكندرية سنة ٢٣١.

فلجأ أوريجانيس إلى قيصرية فلسطين وأنشأ هناك مدرسة لاهوتية تفوقت على مدرسة الإسكندرية، وجذب إليه أكبر الشخصيات الذين كانوا يتشرفون بأنهم تلامذته.

وأخذ يعلم ويكتب مؤلفاته الكثيرة التي بلغ عددها ثلاثة آلاف كتاب، لم يصل إلينا منها بالأسف إلا القليل.

وأهم كتاب له هو «في المبادئ»، وهو أول موسوعة لاهوتية في تاريخ الكنيسة، وقد وصلت إلينا في ترجمة لاتينية تناول فيها كل العقائد المسيحية بطريقة منسقة ووضع كل اجتهاداته اللاهوتية في حكم الكنيسة.

كذلك تبحر في درس الكتاب المقدس، وجمع في خمسين مجلداً كل النسخ

والترجمات المعروفة في عصره للكتاب المقدس. وسمى كتابه هذا السداسيات، لأنه جمعها في ستة جداول، ثم صارت ثمانية. وهو أول كتاب نقدي للكتاب المقدس.

كما أنه دافع عن الكنيسة في كتابه «الرد على قلسس». وكان قلسس هذا فيلسوفاً وثياً أراد أن يهدم المسيحية بإظهاره أنها سلسلة من المتناقضات لضعاف العقول.

- وله شروح كثيرة للكتاب المقدس ومواعظ.

- وألّف الكتب الروحية السامية فكانت عزاء للمسيحيين في كل زمان، وكتب «في الصلاة وفي البتولية» وغيرها الكثير.

وقد قبض على أوريجانيس أثناء اضطهاد داققوس وعذب بأشد العذابات حتى ينكر الإيمان فيتبعه الآخرون، ولكنه ثبت بقرة وشجاعة نادرتهن. وظل في السجن حتى موت داققوس، وبعد سنتين توفي في صور سنة ٢٥٢ شهيداً بغير سفك دم، وصار قبره مزاراً يحج إليه المسيحيون من مختلف البلاد إلى القرن الثالث عشر.

ولا يزال أوريجانيس إلى يومنا هذا يثير إعجاب اللاهوتيين ومفسري الكتاب المقدس. وقد وضع الغربيون العديد من الكتب لإظهار عبقرية الغدة.

الفصل الثالث

ملحمة الشهداء

قاست الكنيسة منذ نشأتها عذاب الاضطهاد وذلك في العالم كله ولا سيما في

المهتدين إلى المسيحية والهادين إليها. وكان لهذا الاضطهاد وقع خاص في كنيسة مصر، ولا سيما في المدرسة الإسكندرية التي كانت تقوم بتعليم الموعوظين وتجذب الكثيرين إلى المسيحية، فأغلقت أبوابها بعض الوقت وهرب مديرها اقليمنضس واستشهد الكثيرون من الموعوظين، وأهم ضحايا هذا الاضطهاد لأونداس والد أوريجانيس والعذراء بوتاميانا التي طرحوها هي وأمها في الزيت المشتعل.

وسكنت العاصفة بموت سبتيمس ساويرس سنة ٢١٢، وعاشت الكنيسة نحو أربعين سنة في سلام. فقد بدأت الإمبراطورية الرومانية تتبع سبيل المصالحة مع المسيحية في عهد فيلبس العربي سنة ٢٤٤. كان الإمبراطور الجديد فلسطيني الأصل وكانت بينه وبين أوريجانيس، معلم المدرسة الإسكندرية الشهير، مراسلات متواصلة.

وزعم القديس هيرونيمس أن فيلبس العربي كان أول إمبراطور مسيحي، ولو أنه لم يعلن ذلك جهراً.

ثانياً: الاضطهادات الكبرى

بعد فترة من السلام دامت أربعين سنة تقريباً، تولى العرش الإمبراطور داقبوس سنة ٢٥٠. كان داقبوس سليل أسرة عريقة تقوم على نهر الدانوب، فراعه ما رآه من انحلال الإمبراطورية وعزم أن يجدد نظمها الوثنية ويوحد سكان إمبراطوريته الشاسعة الأطراف حول العبادة الإلهية لرومة وللإمبراطور، وذلك بقرار إمبراطوري ينطبق على الجميع تحت طائلة أقسى العذابات والنفي أو الإعدام للمتمردين.

مصر، وكان طبيعياً أن تصطدم الكنيسة بالنظام الوثني المتقشفي في الإمبراطورية الرومانية. وردت بعض الأسباب المذكورة في سفر أعمال الرسل، وبعضها الآخر يذكرها لنا التاريخ: نرى أولاً أن تمسكهم بالإله الواحد ورفضهم للأصنام أثار عليهم تجار المنحوتات والمصوغات الوثنية (رسل ١٩/٢٣-٢٤). ثم كانت المسيحية تفرض على أتباعها سلوكاً يختلف عن سلوك الوثنيين. فكان لا بد من إعلان الاختلاف القائم بين المسيحية والمجتمع الذي أخذت تتشرب فيه. وكان هذا الاختلاف يتغلغل في داخل الأسر. فمن كان يهتدي إلى المسيحية فيها كان يتعرض لمقاطعة أهله جميعاً، لأنه لا يشاركهم في عباداتهم الوثنية. فلا تلبث الأسرة أن تتهمه بالكفر فترتفع الشكوى على المسيحيين وتشيع فيهم القصص الكاذبة عن اجتماعاتهم وعن آدابهم.

أولاً: بدء الاضطهادات

بدأ اضطهاد الكنيسة منذ القرن الأول. واشتد على عهد نيرون سنة ٦٤، ودوميتيانس سنة ٩٢ إلى ٩٦، ومرقس أوراليوس سنة ١٦٣.

إلا أن مصر سلمت إلى حد ما في هذه الفترة من الاضطهاد، مما جعل الكنيسة المصرية تمتد إلى الأقاليم جنوباً وغرباً، ولكن تغيرت الأحوال في القرن الثالث.

ففي سنة ٢٠٢، جلس على عرش رومة الإمبراطور سبتيمس ساويرس. تخوف من انتشار المسيحية في إمبراطوريته. فأراد إيقاف انتشارها فحرم التنصّر وأمر بالقبض على

وسمى عند مولاه بدهائه للحصول على أمر يقضي:

١. يمنع الاجتماعات المسيحية.
٢. يهدم الكنائس.
٣. بحرق الكتب المقدسة.
٤. يارغام جميع المسيحيين الموظفين في المصالح العمومية أن يجحدوا.

ثم ألصق بالمسيحيين تهمة حرق الإمبراطور. فجن جنون ديوقليتيانوس وأصدر ثلاثة أوامر أخرى تجبر جميع المسيحيين في الإمبراطورية كلها على ان يقدموا الذبائح للآلهة، وتنفى أو تعدم المتمردين على هذه القوانين. وبدأ اضطهاد لم يكن له مثل واستشهد فيه ألوف وألوف من المسيحيين في أهوال فظيمة يرويها لنا اوسانيوس القيصري في كتابه «التاريخ الكنسي» (الكتاب الثامن، الفصل التاسع).

واستمر هذا الاضطهاد عشر سنين في حكم ديوقليتيانوس ومعاونه. ثم خلفه غلاريوس، إلى أن صدر قرار قسطنطين سنة ٣١٣ الذي يمنح الحرية لجميع الأديان. ان هذا الاضطهاد قد شمل كل الإمبراطورية الرومانية، إلا أنه أظهر بطشه بوجه خاص في الشرق ولا سيما في مصر حيث كانت أشهر ضحية القديس بطرس بابا الإسكندرية الذي يلقب بخاتم الشهداء.

ولا نستطيع أن نحدّد عدد الشهداء الذين سفكوا دماءهم من أجل المسيح. إلا أنهم يعدّون بالألوف، وكانت دماؤهم، كما يقول طرطليانوس، بذاراً للمسيحيين.

فتزل بالمسيحية كلها ولا سيما بمصر ضروب من الإرهاب والإكراه لم يسبق لها مثل. فكان الجنود في الإسكندرية يقطعون رؤوس النساء على مشهد من الجموع إشباعاً للفرائز ويدفعون البنات المسيحيات إلى أقباح صنوف الهوان والعار، ومن لا يلقي من المسيحيين إلى الوحوش كان يحرق حياً في مواقد مستمرة. ومن لم يحكم عليهم بالموت، كانوا يوثقون بالقيود، اثنين اثنين، ويرسلون جموعاً كبيرة كالمواشي إلى المناجم والمحاجر، مع اللصوص والمجرمين، يعيشون تحت الأرض حتى الموت عيشة احتضار مستمر.

وقد استشهد الألوف من المسيحيين بكل بسالة. ولكن، أمام هذه العذابات المريعة، ضعف بعضهم، لا سيما ذوو المراكز العالية، حتى من بين رجال الإكليرس.

ثالثاً: الصراع الأخير

اضطهاد ديوقليتيانوس وغلاريوس (٣٠٣-٣١٣)

لم يبدُ ديوقليتيانوس في العشرين سنة الأولى من ملكه ذا نزعة دموية، فكان عدد المسيحيين يتزايد بين جميع الطبقات حتى في القصر الإمبراطوري نفسه، إذ كانت زوجته برسكا وابنته فاليريا في عداد الموعوظين. ولكنه انقلب فجأة على المسيحيين لأسباب غير واضحة تاريخياً. ويرجع تأثير معاونه غلاريوس الذي كان وثياً ومتعصباً وحانقاً على الجنود المسيحيين لرفضهم تقديم الذبائح للآلهة.

ومن أمثاله الشيخ الذي تتلمذ عن يده أنطونيوس فترة من الزمن. وكذلك الشيخ بلامون الذي قاد خطوات باخوم الأولى.

وبعد عصر الاضطهاد والحصول على السلام القسطنطيني، ازداد عدد هؤلاء المتوحدين، لما رأوا من فتور في الكنيسة.

فالذين حُرِّموا نعمة الاستشهاد التي كانوا يتوقنون إليها، أرادوا استشهاداً من نوع آخر، إظهاراً لحبهم للمسيح. فكان الاستشهاد اليومي مدى الحياة في طهارة تامة وأصوام وتقشفات وصلابة مستمرة ليلبغوا الكمال المسيحي. وهذا ما نراه واضحاً في حياة مؤسس الحياة الرهبانية الحقيقي، وهو الأنبا أنطونيوس الكبير، كوكب البرية (٢٥١-٣٥٦).



القديس أنطونيوس الكبير

ولم ينس أقباط مصر هذا الاضطهاد الشنيع. ولكي يظل دائماً في الذاكرة ويذكرهم ببسالة أجدادهم الشهداء، صنعوا لهم تقويمًا خاصاً يبدأ في ٢٨٤، وهي سنة اعتلاء ديوقليتيانوس العرش الروماني، ويسمونه «تقويم الشهداء».

ومن تلك الأيام بدأ تكريم الشهداء وجمع رفاتهم ووضعها في الأماكن المقدسة والاستشفاع بهم.

الفصل الرابع

نشأة الرهبنة

منذ القرن الثالث، ظهر في مصر نظام حياتي جديد، وهو النظام الرهباني، ولذلك دعيت مصر مهد الحياة الرهبانية. ومرّت هذه الحياة بثلاث مراحل: أولاً مرحلة النساك المتعبدين تماماً. ثانياً المرحلة الأنطونية وهي مرحلة تجمع بين حياة الجماعة وحياة التوحد. ثالثاً نظام الشركة الذي يرقى تأسيسه إلى الأنبا باخوم.

أولاً: مرحلة النساك أو العزلة الانفرادية

نجد رجالاً كثيرين يبحثون عن الكمال في الخلوة والصلاة، فيبتعدون قليلاً عن مساكنهم ويمشون متجردين عن كل شيء. نعرف منهم الأنبا بولا الذي كتب حياته القديس هيرونيمس والتقاء القديس أنطونيوس بإلهام إلهي. وأخبرنا القديس اثناسيوس عن المقابلة الأولى بينهما.

شفاء. وقد جاء أيضاً فلاسفة يناقشونه في أمور الدين. وكان الجميع يتعجبون من حكمته ووداعته. وكثيرون أرادوا أن ينضموا إليه لكي يتلمذوا عن يده. وفهم أن إرادة الله هي في أن يؤسس لهم نظاماً خاصاً يساعدهم في طريق الكمال المسيحي.

ثانياً: وهكذا بدأت المرحلة الثانية من الحياة الرهبانية. وهي العزلة الجماعية وسميت النظام الأنطوني

وسمح لكل من يرغب في هذه الحياة الجديدة ببناء قلالية في جواره. وكثر عدد هؤلاء الرهبان. وكان كل منهم يحيا حياته الخاصة بإرشاد الأنبا أنطونيوس الذي كان الأب الروحي لجميعهم. وكان يجتمعهم من وقت إلى وقت، يلقي عليهم العظات التي تساعدهم على محاربة الشيطان. وكان تعليمه يتلخص في قراءة الكتاب المقدس والصلاة والتسك في الأكل والشرب، والجمع بين كل هذا والعمل اليدوي كضفر السعف والحوص لصنع الحصر أو السلال، حتى لا يجد الملل إلى أنفسهم سيلاً.

وخاف أنطونيوس على نفسه من هذه الحشود التي كانت تقطع عليه صلاته. فأراد أن يتوغل إلى الصحراء شرقاً. فوصل إلى جبل قسقام بالغرب من البحر الأحمر وظل في مغارة لا تزال حتى يومنا هذا.

ولم تكن خلوته هذه تمنعه من الاهتمام بالكنيسة وخدمتها عند اللزوم، لئلا تتصور أن الراهب لا يهتم إلا بنفسه. ويذكر التاريخ أنه ذهب إلى الإسكندرية مرتين، مرة ليشجع

وُلد أنطونيوس بقم العروس في محافظة بني سويف حالياً سنة ٢٥١، وفي عائلة تقية غنية. ومات والده في سن مبكرة. ذهب يوماً إلى الكنيسة فسمع هذه الآية الإنجيلية: «إن كنت تريد أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل شيء واعطه للمساكين وتعال اتبعني» (متى ١٩/٢١). وكان في الثامنة عشرة من عمره. ف شعر بأن هذا النداء موجه إليه شخصياً. فللوقت نهض وتخلّى عن ماله وبيع كل شيء ووزع ثمنه على المساكين. ثم أودع أخته الرحيمة في دار بعض النساء المكربات، وترك المدينة وسكن في صحراء مجاورة، متفرغاً لله بالصلاة والعمل. وهناك صار عرضة لتجارب كثيرة من قبل الشيطان ليحوّله عن عزمه. ولكنه تغلب عليها كلها بقوة كلمة الله. وذاع خبره في المنطقة حتى كان كثيرون يأتون إليه طالبين إرشاده وبركته.

ف عزم على أن يتعد إلى مكان أكثر انزواً. فبعد مسيرة تسعة أيام، وصل إلى مكان وجد فيه قبراً من قبور قدماء المصريين، فسكن فيه وأغلق كل منافذه. وكان أحد أصدقائه يأتيه ببعض الخبز كل ستة أشهر. وظل هناك عشرين سنة، عائشاً حياة النساك الأولين.

غير أن أنطونيوس لم ينعم طويلاً بالخلوة التي تآقت إليها نفسه، لأن النامس أخذوا يبحثون عنه حتى يجذوه. رفض أولاً مقابلتهم، ولكنه، تحت إلحاحهم، اضطر إلى استقبالهم. فتقاطر عليه النامس من مصر أولاً، ثم من البلاد الأخرى. فمنهم من كان يطلب نصيحة ومنهم من يطلب بركة ومنهم من يطلب

أشار عليهما أنطونيوس بتدبير إلهي بأن يرجعا إلى مكان خلوتهما في تريا وبرية شيهيث، حيث تجمعت حولهم مجموعات وفيرة تعيش على منوال تلاميذ أنطونيوس في هذه الحياة الجماعية، مع المحافظة على الحرية الفردية، فيجتمع الرهبان أيام السبت والأحد للقداس الإلهي. وما عدا ذلك، يتعاطون الصلاة الانفرادية والتسك، كل بحسب ما بدا له بإرشاد أيهم الروحي.

ثالثاً: الأنبا باخوم أبو الشركة الرهبانية (٢٩٢-٣٢٦).

ولما كانت هذه الحياة الانفرادية معرضة للأخطار الروحية، منها التطرف والغرور والملل الذي يؤدي إلى الفتور واليأس والنكوص عن الدير، هباً الله الأنبا باخوم ليؤسس حياة الشركة الرهبانية الحقيقية كما هي منتشرة الآن في معظم أديرة العالم المسيحي والتي تدين بنظامها وروحها للكنيسة القبطية.

وُلد باخوم سنة ٢٩٢ من والدين وثنيين يأسنا في صعيد مصر. وتثقف بالعلوم المصرية، ولكنه كان يشعر بنفور من عبادة الأصنام. وفي العشرين من عمره، اضطر إلى الالتحاق بالجيش الروماني بإمرة الإمبراطور مكسيمينس لمحاربة جيش ليستيوس وقسطنطين. وفي أثناء تأدية خدماته بالجيش، تأثر بمعاملة المسيحيين للجنود حتى الغرباء منهم وبتجردهم وسخائهم في سبيل الآخرين.

الشهداء على الثبات في الإيمان واحتمال الآلام حباً للمسيح، معرضاً نفسه ومشتاقاً إلى الاستشهاد، ومرة أخرى ليؤيد اثناسيوس في مقاومة الهرطقة الأريوسيين الذين أشاعوا أن أنطونيوس من أنصارهم. وكان يرجع بسرعة إلى خلوته قائلاً: إن الراهب لا يستطيع أن يعيش خارج صومعته كما أن السمكة لا تستطيع أن تعيش خارج الماء.

وكان القديس اثناسيوس قد زاره قبل ذلك سنة ٣٣٣ وقضى عنده فترة من الزمن التماساً للأمن وهرباً من اضطهاد الأباطرة الأريوسيين. ولذلك، فحين نفي إلى تريف وإلى رومة، كتب كتابه الشهير «حياة أنطونيوس» فعرف العالم الغربي أنطونيوس وتلاميذته والحياة الملائكية التي يعيشونها، مما جذب الكثيرين إلى براري مصر ليشهدوا بأنفسهم هذه الحياة.

ومن تلاميذته المشهورين القديس أمونيوس والأنبا مقاريوس المصري اللذان



القديس باخوم

وقد لقي هذا النظام نجاحاً كبيراً وأسهم في زيادة عدد الرهبان. فأسس في حياته تسعة أديرة للرجال واثنين للنساء، لكل دير رئيس ومدبر (الريثة). وكان يستعين بتلميذه الشهيرين ثاودورس وهريسيون، فخلفاه في الرئاسة.

وعلى منواله قام شنوده الأثريبي بتأسيس دير البيت الأبيض بالقرب من أحميم. وكان راهباً مثقفاً يعرف اللغة اليونانية، وملماً بالفلسفة اليونانية والشعر. وكان يتحلّى بصفات حميدة منها تقديم العون للمعوزين وتقوى حقيقية. إلا أنه عرف بصرامته نحو الرهبان والراهبات، متشدداً في تطبيق القوانين الباخومية، كما عرف بتمسكه باللغة القبطية ومجادلته الشديدة للهرطقة والوثنيين. وقام شخصياً ومع رهبانه بهدم الكثير من معابدهم. ووصل عدد الرهبان



الأبنا بولا والأبنا أنطونيوس

وبعد انهزام مكسيميس وخروجه من الجيش، لم يرد الرجوع إلى أهله، بل أخذ يتعلم الديانة المسيحية حتى قبل العماد في بلدة شنسيت وقصد أن يحيى حياة تليق بالمسيحي. فذهب إلى أحد المتوحدين المشهورين يدعى بلامون. وبعد اختبارات كثيرة، قبله كتلميذ له وعاش مع معلمه حياة الصلاة والسك. وكان من عادة باخوم أن يتعد في الصحراء إلى مكان يدعى «طابيس». فسمع يوماً صوتاً من السماء يقول له: «امكث في هذا المكان وابن ديراً لاستقبال كل من يرسلهم الله إليك لخدمته». وشجعه بلامون على ذلك بعد أن عاش معه سبع سنوات، وكان أول تلميذ انضم إليه هو أخاه يوحنا، وتبعه كثيرون.

وأدرك باخوم مساوئ الحياة الانفرادية من ملل وغرور وخطر التطرف في التقشقات وعدم ممارسة فضيلة المحبة، فجمع تلاميذه في حياة جماعية. وهكذا ظهرت للمرة الأولى حياة الشركة. ولقّب باخوم بأبي الشركة الرهبانية. وأقام لرهبانه ديراً ليجمعهم سوية ووضع لهم قانوناً بإرشاد سماوي كتب باللغتين القبطية واليونانية، ثم ترجم إلى اللاتينية. وكان هذا القانون يحدّد واجبات كل منهم وواجبهم نحو الرئيس، وينظّم لهم حياتهم من جهة الأكل والشرب والملبس والصلاة وقراءة الكتاب المقدس. وكان للشغل اليدوي نصيب وافر، فكان منهم الحدادون والتجارون والحجازون، ومنهم من يقوم بالفلاحة ومنهم بالحياكة. وكانت قوانين باخوم متسمة بالاعتدال، مراعية حالة كل فرد.

عند الفتح العربي إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف راهب.

انتشرت القوانين الباخومية في أثيوبيا حيث نجد ترجمة حبشية لقوانين الأنبا باخوم، ثم انتقلت إلى فلسطين وسورية مع هيلاريون، إلى آسية الصغرى مع القديس باسيلوس، وإلى الغرب، مع هيرونيمس ويوحنا كاسيان. وامتمد مؤسسو الرهبانيات الغربية في أنظمتهم الرهبانية من قوانين الأنبا باخوم أبي الشركة.

استغل منح البطريك بطرس الرسامة الكهنوتية لرجال من غير إيباشيته خلافاً لما تقضي القوانين الكنسية، فكوّن لنفسه حزباً منشقاً عن السلطة الشرعية. وظل يستمر في زرع الشقاق في الكنيسة حتى أثناء منقاه في مناجم فاينو بفلسطين. وأخذ حزبه يقاوم أنثاسيوس، ويلقي في حقه التهم الباطلة في مجمع انعقد سنة ٣٣٥ متواطئاً مع الأروبيين، مما أدى إلى نفي أنثاسيوس إلى تريف بفرنسا. وقد ضعف هذا الحزب حتى انقرض مع الأريوسية سنة ٣٨١.

الفصل الخامس

الكنيسة المصرية بعد السلام القسطنطيني (٣١٣ - ٤٥١)

ثانياً: أريوس ومجمع نيقيا سنة ٣٢٥
وأثاسيوس الرسولي

أما البدعة الأساسية التي ظهرت في هذا القرن فهي البدعة الأريوسية. كان أريوس من أصل ليبي وتخرج من المدرسة الأنطاكية. وصار كاهناً بكنيسة الإسكندرية واشتهر بعلمه وبلاغته.

ولكن كبريائه وطموحه فاداه، في الوصول إلى الكرسي البطريكي، إلى مقاومة البطريك الكسندرس ونشر بدعته، المعروفة بالبدعة الأريوسية. وهي تقوم على إنكار لاهوت السيد المسيح، واضعة فرقا جوهرياً بين الآب الأزلي والابن. فالابن ليس أزلياً وليس إلهاً، بل هو مخلوق من الآب، لأن الآب كائن قبل الابن. وأخذ أريوس ينشر هذه البدعة وهذا التعليم الفاسد المضاد لتعليم الكنيسة في أشعار وأغاني يرددها أتباعه. وقد كسب بعض الأساقفة إلى صفه، لا سيما أوسايوس القيصري وأوسايوس النيقوميدي. وكان هذا

بعدما أمنت الكنيسة من أعدائها الخارجيين، بدأت تواجه أعداء من الداخل وهم أشدّ خطراً. فقد ظهرت في الكنيسة انشقاقات وبدع كادت أن تقضي على الإيمان نفسه. ونكتفي بذكر انشقاق ميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسبوط) وبدع أريوس ونسطور وأوطيخا وتأثيرها في كنيسة الإسكندرية. ووجدت الكنيسة الرجال العظام الذين تصدوا لهذه البدع وحافظوا على سلامة إيمان الكنيسة.

أولاً: ميليتيوس

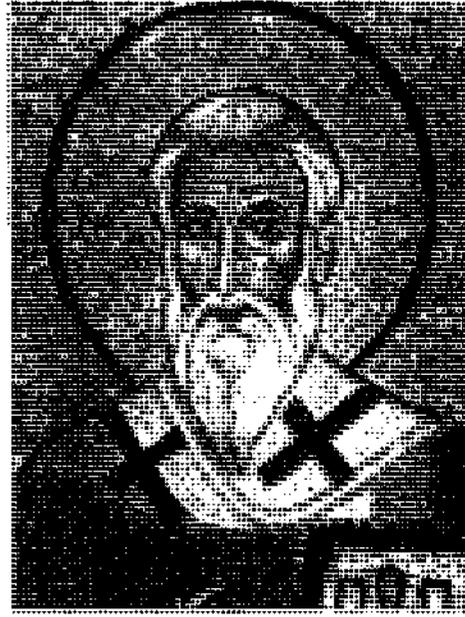
استهلّ القرن الرابع بانشقاق ميليتيوس أسقف ليكوبوليس (أسبوط) الذي أخذ على البطريك تسامحاً في معاملة المرتدين الراجعين إلى الكنيسة بعد ردّتهم أثناء الاضطهادات. ثم

الإسكندرية، رغم كبر سنه، مع شماسه أناسيوس الذي كان له دور كبير في المجمع، إذ إنه أظهر بطلان تعليم آريوس وأقع معظم الآباء بالانضمام إلى صفه. وأصدروا قانون الإيمان الذي لا يزال قاعدة الإيمان في الكنيسة كلها. وأكد هذا القانون، خلافاً لتعليم آريوس: «نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر». «أوموأيوس» «Homooussios» باليوناني ومعناها «هو والآب جوهر واحد». وصار هذا اللفظ Homooussios الفاصل بين المؤمنين الحقيقيين الذين قبلوا مجمع نيقيا والأريوسيين الذين رفضوا المجمع. وحرّم آريوس وأتباعه وحُكّم عليهم بالنفي.

ثالثاً: نسطور ومجمع أفسس سنة ٤٣١
وكيرلس الاسكندري

والهرطقة الثانية التي هزّت الكنيسة بعد الأريوسية هي هرطقة نسطور، بطريرك القسطنطينية، والتي قاومها بشدة كيرلس الكبير بطريرك الاسكندرية (٣٧٠-٤٤٤). وبعد أكبر لاهوتي في الكنيسة الشرقية بعد أوريغانيس. فقد تثقّف تثقيفاً أديباً ولاهوتياً عالياً، فأهله ذلك لخلافة خاله ثاوفيلس على كرسي الإسكندرية. وكانت العناية الإلهية قد أعدته للدفاع عن الإيمان ضد نسطور بطريرك القسطنطينية.

وكان نسطور تلميذ المدرسة الانطاكية. بدأ في عظاته يرفض لقب «أم الله» «ثاوتوكس»



القدّيس أناسيوس الإسكندري

الكرسي ذا أهمية نظراً إلى كونه مقر الإمبراطور. وهكذا قسم آريوس الكنيسة إلى قسمين بين أنصار له ومقاومين، وقد حرّمه البطريرك ألكسندرس في سينودس محلي بالإسكندرية سنة ٣٢٠، حيث قرّر أن الآب كان دائماً أباً لوجود ابن أزلي له. ثم أثبت ميلاد الابن في الأزل والبنوة الخاصة به ومساواته للأب في الجوهر، مستنداً إلى آيات الكتاب المقدس. ولكن آريوس لم يرتدع، بل استمر في نشر ضلاله.

ولذلك أراد الإمبراطور قسطنطين أن يُحلّ السلام في إمبراطوريته وفي الكنيسة عن طريق مجمع مسكوني في نيقيا. وكان هذا أول مجمع مسكوني عرفه التاريخ ولقد انعقد في ٣٢٥، وضم ٣١٨ أسقفاً معظمهم من الشرقيين. وقد حضره الكسندرس بطريرك

نسطور، وقع في بدعة مضادة تقوم على إنكار حقيقة طبيعة المسيح البشرية التي ذابت في اللاهوت. وبالتالي، لم يعد المسيح مساويا للبشر في الجوهر، مغالباً في تفسير تعليم كيرلس عن «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد». وهذه الهرطقة تسمى «المونوفيزية». فحرمه فلايانس بطريرك القسطنطينية. ولجأ أوطيخا إلى ديوسقورس بطريرك الاسكندرية وإلى ثاودوسيوس الثاني الذي أمر بعقد مجمع مسكوني لبيت في الموضوع. وانعقد المجمع في أفسس سنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقورس.

أما ديوسقورس فلم يبال برسالة البابا لأون إلى فلايانس، ولم يتمكن نواب البابا ان يقرأوها، ويرثوا أوطيخا وحرموا فلايانس، وحكموا عليه بالنفي فمات من العذاب وهو في طريقه إلى المنفى. وقد احتج البابا لأون على هذه التصرفات لدى الإمبراطور، ولكنه لم يجد أذناً صاغية، إلى أن توفي الإمبراطور ثاودوسيوس. وحل محله الإمبراطور مرقيانس الذي أظهر ولاءه للبابا لأون واستجاب لطلبه في عقد مجمع آخر ليصلح الأوضاع. فاجتمع أكثر من خمسمائة أسقفاً، أولاً في نيقيا سنة ٤٥١. فانتهز ديوسقورس تغيّب الإمبراطور ليلقي الحرم على البابا لأون، ثم انتقل الآباء إلى خلقيدونية حيث استبعدوا ديوسقورس وحرموه، لا بسبب هرطقة، بل بسبب استعمال العنف في المجمع السابق. وقد أعلن المجمع براءة فلايانس بعد وفاته وأصدر قراراً لا يختلف كثيراً في نصه عن رسالة البابا لأون إلى فلايانس، مؤكداً أن في السيد المسيح أقنوماً واحداً وهو الأقنوم الإلهي القائم في طبيعتين:

السيدة العذراء، قائلاً أنها أم المسيح وليست أم الله، وإضماً هكذا في السيد المسيح أقنومين: أقنوماً إلهياً وأقنوماً بشرياً، اتحداً اتحاداً أزلياً عن طريق الصدقة. وسرعان ما وصلت الأخبار إلى الاسكندرية فتصدى البطريرك كيرلس لهذا التعليم المخالف لتقليد الكنيسة فحرر خطابين إلى نسطور ليرجعه عن غيبه. لكن نسطور تمسك بموقفه. ولجأ إلى أسقف رومة البابا قلسستينس، وطلب إلى الإمبراطور ثاودوسيوس عقد مجمع في أفسس في عنصرة ٤٣١ ليفصل الموضوع بين كيرلس ونسطور. وبالفعل، انعقد المجمع برئاسة كيرلس الإسكندري ونائين عن البابا قلسستينس. وحرّم الآباء المائتان نسطور وأكدوا وحدانية أقنوم السيد المسيح بالعبارة الشهيرة «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد»، وبالتالي الأمومة الإلهية للسيدة العذراء. فرح سكان أفسس بهذا القرار وأخذوا يطوفون الشوارع حاملين المشاعل والمصابيح مرثمين الترانيم الجديرة بالسيدة العذراء. أما وفد الكنيسة الأنطاكية الذي أتى متأخراً وعلى رأسه يوحنا الأنطاكي، فغضب من تصرف كيرلس الذي لم ينتظر وصولهم، وحرّموه. وقام نزاع بين الأسقفين لم يدم طويلاً. وبواسطة محبي السلام، تم التفاهم بين الأسقفين اللذين وقعا قرار الاتحاد سنة ٤٣٣.

رابعاً: أوطيخا ومأساة مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١

دبّ خلاف جديد في الكنيسة أثاره رئيس رهبان القسطنطينية. فلكي يحارب ثنائية

الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية. وتم هذا الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. وهو مساوٍ للآب في الجوهر من حيث اللاهوت ومساوٍ للبشر في الجوهر من حيث الناسوت. وحكم على ديوسقورس بالنفي إلى غنغرا في آسية الصغرى، وعين بروتيريوس مكانه.

ولكن معظم الأساقفة المصريين والرهبان والشعب ظلوا متمسكين ببطريركهم وتعاليمه حتى إنه، بعد وفاته سنة ٤٥٤، عينوا له خليفة في شخص تيموتاوس ايلور، أي النمر.

وهكذا تثبت الانقسام في الكنيسة المصرية بين خلقيدونيين (الملكيين)، أي أتباع الملك الذين يقولون بالطبيعتين في السيد المسيح، وغير الخلقيدونيين وهم القائلون بطبيعة واحدة في المسيح، محافظين على تعبير القديس كيرلس. أراد الأباطرة أن يفرضوا تعليم المجمع على الجميع بالعنف، وحصلت أحداث مؤسفة من الناجيتين، مما أضعف الكنيسة المصرية وسبب المنازعات التي سهلت للعرب غزو مصر سنة ٦٤١.

القسم الثاني

الكنيسة القبطية بعد مجمع خلقيدونية
(٤٥١ - ١٠٥٤)

بقلم نيافة الأنبا مكاروريوس توفيق *

* مطران كرسي الإسماعيلية.

الفصل الأول

انقسام كنيسة الإسكندرية

عن الإيمان الرسولي وحقوق الكرسي الإسكندري، ولأن الموقف أُتسم بالروح القومية وحماسة الدفاع عن الذات الكنسية في مواجهة سلطة الاحتلال الأجنبي والهيمنة الكنسية البيزنطية، فقد ثار غالبية الأقباط ثورة عارمة ورفضوا الخضوع للأسقف بروتيروس الذي انتخبه الخلقيدونيون خلفاً للبطريك ديوسقورس.

تدخل الإمبراطور مرقيانس (٤٥٧٢) بالقوة لتنفيذ قرارات المجمع بمصر، وعقد بروتيروس سينودساً بالإسكندرية لمصالحة المونوفيزيين دون جدوى. فكتب رسالة إلى البابا لأون سنة ٤٥٤ معلناً انتخابه وأمانته للمجمع الخلقيدوني.

وبعد وفاة ديوسقورس في المنفى، أضرَم المونوفيزيون بالإسكندرية نار الثورة، واغتالوا بروتيروس أثناء الصلاة سنة ٤٥٧، واختاروا زعيمهم الراهب تيموثاوس ابُلور أسقفاً لهم، فقبله الإمبراطور الجديد لأون (٤٥٧-٤٧٤) رغبةً منه في أن يسود السلام والهدوء.

ولكي يتخذ الإمبراطور لأون موقفاً

لما كان المجمع الخلقيدوني قد اعتمد صيغة القديس لأون الكبير بأن السيد المسيح أقنوم واحد «في طبيعتين»، فقد ظن الأقباط أن المجمع قد تخلّى عن صيغة القديس كيرلس الإسكندري، وهي «أقنوم واحد أو طبيعة واحدة من طبيعتين»، وأنه بالتالي قد انحرف عن الإيمان القويم ومال إلى النسطورية، وأنه قصد الخطّ من كرامة الكرسي الاسكندري والنيل من دوره القيادي في الدفاع عن الإيمان الرسولي، خاصة بعدما عزل المجمع البطريك ديوسقورس عن كرسيه، وتسبب في نفي الإمبراطور إياه بسبب موقفه الجائر من فلافيانس أسقف القسطنطينية.

ولأن ديوسقورس كان معدوداً «أبا الأقباط» وخليفة أثناسيوس وكيرلس في الدفاع

محددًا من هذا الانقسام والجدل، طلب من كل الأساقفة رأيهم في المجمع الخلقيدوني. فجاءت الأغلبية بقبول المجمع ضد موقف البطريرك المونوفيزي تيموثاوس ايلور، فقام الإمبراطور بإبعاده، وعيّن بدلاً منه تيموثاوس سالوفاكيور (٦٠-٤٨١).

أدت هذه الأحداث إلى انقسام الكنيسة إلى قسمين. القسم الأكبر مونوفيزي يتمسك بصيغة «الطبيعة الواحدة» ويرفض قرارات المجمع الخلقيدوني والخضوع للسلطة الإمبراطورية، والقسم الآخر كاثوليكي خلقيدوني يقبل قرارات المجمع والملك، فدعي رجاله الملكانيين، أو الملكيين.

هذا الانقسام، الذي يبدو ذا صبغة دينية صرف، كان له دوافع أخرى: تنافس الكرسين والعاصمتين في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية: الإسكندرية عاصمة الفكر الفلسفي واللاهوتي والقسطنطينية عاصمة الحكم والسلطان.

وبسبب هذا الصراع الذي بدأ بنفي القديس يوحنا الذهبي القم أسقف القسطنطينية، وانتهى بنفي ديوسقورس بطريرك الإسكندرية، وبسبب الأحداث التي أعقبت الانقسام، اضمحل بهاء بطريركية الإسكندرية وسلطانها في الكنيسة الجامعة، فانكفأت على نفسها تحيا حياتها الخاصة بلغتها القومية وطقوسها الرهبانية وفكرها النسكي.

توالى الأباطرة زينون (٤٧٤-٤٩١)، وأنسطاس (٤٩١-٥١٨)، وباريليسكو فعضفوا على الأقباط المونوفيزيين، فأعاد زينون أساقفتهم والبطريرك تيموثاوس ايلور من

المنفى. وفي محاولة منه لرأب الصدع بين الكنائس وإعادة الوحدة بينها، وإيعاز من أكاكايوس أسقف القسطنطينية، أصدر مرسومًا عرف «بالهينوتيكون»، أي المرسوم الموحدوي، الذي نصّ على قبول قرارات المجمع المسكونية الثلاثة الأولى وإدانة كل من تسطور وأوطيخا، وأكد اتحاد الطبيعتين في المسيح دون التطرّق إلى تحديد طبيعة واحدة أو طبيعتين بعد الاتحاد.

وفي عام ٥٤٣، أدان يسطيانس في ثلاثة فصول عقيدة كل من تيودورس المصيصي، وتيودورس السوري، وإيبا الزهوري، باعتبارها نسطورية، أملاً ترضية المونوفيزيين لكي يقبلوا صيغة مجمع خلقيدونية.

لكن زويطس رفض التوقيع، فعزل سنة ٥٥١ وأبدل بأبوليناريوس (٥٥١-٥٦٩) الذي شارك في المجمع المسكوني الخامس (٥٥٣) بالقسطنطينية.

وبعد أبوليناريوس، انتخب يوحنا الثاني (٥٧٠-٥٨٠) الخلقيدوني بطريركاً على الإسكندرية.

وقام الأقباط المونوفيزيون بانتخاب راهب يدعى تيودورس، لكن معارضة الشعب استبدلته بآخر يدعى بطرس قام حالاً بعد رسامته بتكريس ٦٠ أسقفًا لتقوية مركزه.

وعلى الجانب الآخر، انتخب الخلقيدونيون أولوجيوس (٥٨٠-٦٠٨) فتبادل الرسائل مع البابا غريغوريوس الكبير الذي أجله كثيراً، إذ كان لاهوتياً مرموقاً.

تساهل خلفاء يسطيانس مع الأقباط المونوفيزيين فتوطدوا في كنيسة قومية مستقلة

كانت لغتها الرسمية القبطية، لغة الشعب، بدلاً لليونانية، فصارت لغة الطقوس والكتابة، خاصة بعد أن استعارت الحروف اليونانية إلى جانب سبعة حروف من الأشكال الديموطيقية الخاصة باللغة المصرية القديمة.

الفصل الثاني

الكنيسة القبطية تحت الحكم العربي

أولاً: الفتح العربي

بعد السيطرة على سورية وفلسطين، اتجه العرب بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر. وبدأوا حصار حصن بابليون في كانون الثاني (ديسمبر) ٦٣٩.

قام البطريك الوالي قيرس بالتفاوض مع عمرو بن العاص، لكن الإمبراطور هرقل كان معارضاً فاستدعى قيرس إلى القسطنطينية ونفاه. وفي ١١ شباط (فبراير) ٦٤١، مات هرقل فعاد قيرس من المنفى. ولما تولى هيرقليون، التقى قيرس الذي أقنعه بحتمية الصلح مع العرب.

عاد قيرس مرة أخرى إلى الإسكندرية في أيلول (سبتمبر) ٦٤١ فذهب بصحبة بعض الكهنة إلى حصن بابليون للتفاوض مع عمرو دون أن يخبر قادة الجيش البيزنطي، خشية معارضتهم. انتهت المفاوضات في تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٤١ بتسليم الحصن.

وعاد قيرس مرة أخرى إلى الإسكندرية ليقدم لقادة الجيش شروط المعاهدة، معللاً قبولها لرغبته في ضمان الحرية الدينية لسكان مصر.

كما عقد عمرو بن العاص معاهدة مع الأقباط المونوفيزيين، بعد تسليم الحصن سنة ٦٤١، مفادها أن يدفع الأقباط الجزية في مقابل «الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم (النيل)». كان الأقباط قد عانوا عسفاً شديداً، خاصة بالإسكندرية، تحت ولاية قيرس، فتنقلعوا إلى التحرر من نير الحكم البيزنطي بأي ثمن، بعدما اتحدت المشاعر الوطنية بالعبقيرة الدينية.

ولذلك رحب الأقباط بالعرب ورأوا فيهم منقداً أرسلته العناية الإلهية إليهم.

ثانياً: السياسة العربية بمصر

آ) تعامل عمرو مع الأقباط

كانت سياسة عمرو بن العاص ترمي إلى كسب ود الأقباط المونوفيزيين والاحتفاظ بوحدة مصر وقوتها، فرأى - على خلاف ما كان يفعل باقي قادة العرب - أن المصلحة تقضي بمنع توزيع أراضيها وأسلابها على المحاربين كغنيمة حرب، كما أدرك فائدة معاملة سكانها ورؤسائهم الدينيين معاملة طيبة، واحترام شعورهم الديني والحفاظ على ثروة البلاد الزراعية مع جباية الضرائب عنها.

وقد أدرك عمرو منزلة البطريك بنيامين وترحيبه بالعرب فأرسل يستدعيه من مخبأه، مؤكداً «له العهد والأمان والسلامة من الله. فليحضر آمناً مطمئناً، ويدبر حال بيعته وسياسة طائفته». فعاد البطريك بنيامين إلى الإسكندرية بعد غيبة ثلاث عشرة سنة.

الذين كان لهم أسقفهم الخاص - بعد أن خلا عندهم الكرسي بسبب عدم وجود بطريك ملكي بالإسكندرية - طلبوا أسقفًا من البطريرك القبطي فصاروا على مذهبه!

وجد العرب بمصر نظاماً قامت منذ عهد الفراعنة، فأبقوا عليها كما فعل الرومان من قبل، واكتفوا بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا على الإدارة والأمن، كما أبقوا على أسماء المدن والبلاد كما كانت من قبل.

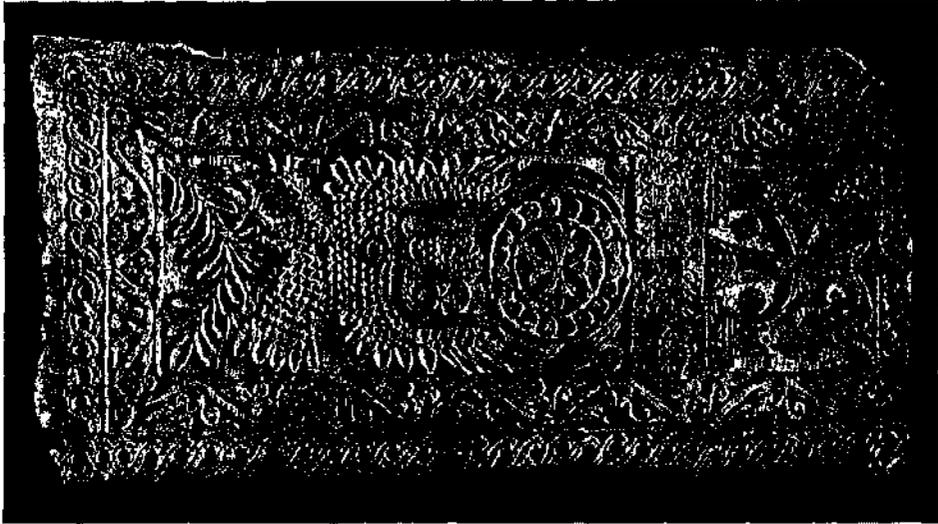
فانتعشت الكنيسة القبطية وتنظمت في حكم عمرو بن العاص. فاعتقد الأقباط لفترة أن انتصار العرب أعاد لهم الحرية والكرامة والشخصية القومية، لا سيما أن عمرو بن العاص اتبع وصية نبي الإسلام وعطفه على الأقباط، إذ جاء في الحديث: «إن الله عز وجل سيفتح مصر بعدي، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لهم منكم صهراً ونسباً». فقد كانت مارية

وطلب عمرو إلى البطريرك أن يبارك حملته على طرابلس لأنه كان يرغب في جعله مسؤولاً عن إخلاص الأقباط للعرب. وقد كافأه على ذلك بترك مؤمنيه يتولون على معظم كنائس الملكيين وأديرتهم، فظلوا بدون بطريك نحو سبعة وسبعين عاماً.

ولكن العرب لم يستطيعوا فتح ممالك النوبة المسيحية التي قاومت ببسالة وصدت حملات عبد الله بن سعد مرتين: الأولى عام ٦٤٠، والثانية عام ٦٥٠، وفي النهاية عقدوا هدنة ذات بنود سياسية وتجارية، أهم شروطها:

ألا يعتدي أحدهما على الآخر، وأن تؤدى النوبة لمصر عدداً من الرقيق كل سنة، وأن تؤدى مصر إلى النوبة قدرًا معيناً من القمح والعدس وغيرهما كل سنة.

وقد ظل أهل مملكة نوباطيا على المذهب المونوفيزي، كما أن أهل مملكة مقورة الملكيين



شاهدة ضريحية لصفرونيوس

القبطية زوجةً للرسول وأنجبت له ولده الوحيد إبراهيم الذي تُوِّفِّي بعد ستة ونصف تقريباً .

وقد ساعد الفتح العربي في بداية الأمر على نهضة اللغة القبطية على حساب اليونانية - لغة الثقافة من قبل - فالقراءات الطقسية صارت تُتلى بالقبطية وحدها، كما تُرجمت إليها أقوال الآباء. وقد بنيت عدة كنائس وُجِّدَت كنائس أخرى. ففي أيام البطريك أغاثون (٦٦٧-٦٦٧) عُمِّرت كنيسة أبي مقار، وبنيت كنيسة القديس مرقس بالإسكندرية في ولاية عمرو بن العاص الثانية، وظلت قائمة إلى أن هدمها السلطان العادل أخو صلاح الدين الأيوبي في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولقد أُنشئ اللبث بن سعد وعبد الله بن لهيعة - وهما أئمة الفقه الإسلامي - ببناء الكنائس وتعميرها لأنهما عدلاً ذلك من مظاهر التعمير في البلاد - على ما يقول الكندي في كتابه «الولاية والقضاة» .

ب) تبدل الحال بعد عمرو

بعد حكم عمرو بن العاص، تبددت آمال الأقباط في حياة حرة رغدة، إذ سرعان ما دعت الحاجة بالأمويين إلى مضاعفة الجزية والحراج، لكثرة نفقات الفتوح الإسلامية، حتى ألغيت الإعفاءات التي منحت لكبار السن والرهبان، واستعمل العنف والإجحاف في تقديرها. فآثر الكثيرون جحد الإيمان وتناقص عدد الرهبان .

وبعدما تولَّى البطريك يونس الثالث (٦٧٧) أخذ يزيد الأول يضيِّق الخناق على

المسيحيين فحملهم من الحراج ما لا يطاق، كما ذبح عدداً لا يستهان به من الرهبان .

ثم وصل الأمر بالخليفة عمرو بن عبد العزيز إلى جمع جزية موتى الأقباط من أحيائهم، بل جزية من أسلم فيهم، وقد أدى ذلك إلى قيام بعض الثورات في الدلتا .

واهتم عبد العزيز بن مروان والي مصر بالاطلاع على العلاقات القائمة بين البطريك القبطي والحبشة والنوبة، على أثر ما كتبه البطريك إلى ملكي الحبشة والنوبة للصلح بينهما، إذ إن بعض الخاقدين وشوا بالبطريك لدى والي حتى ساء ظنه به. ولشدة غضبه، أمر بكسر جميع الصلبان في مصر. وكان ابنه الأصبح مبعوضاً للنصارى سفاحاً. وكان يصطحب شماساً اسمه بنيامين ليترجم له أقوال النصارى وكتبهم .

بدأ العرب يشكِّون في الأقباط لسبب استعمالهم اللغة القبطية، ومن المحتمل أن يكون هو السبب في جعل اللغة العربية لغة مصر الرسمية .

ثالثاً: أحوال الخلفاء والقباط

تتحدث الباحثة سيدة اسماعيل في كتابها «مصر في فجر الإسلام» عن تفضيل العرب للأقباط المونوفيزيين فتقول: «وقد انتصر المسلمون لليعاقة القبط على الكنيسة المملكانية، فاسترد لليعاقة أو أخذوا عدداً من الكنائس والأديرة التي كانت في يد المملكانيين. كما انتهزوا فرصة حسن علاقتهم بالمسلمين لكي يجذبوا إلى مذهبهم كثيراً من المملكانيين. بل

حدث في عهد قرّة بن شريك (والي مصر) أن فرض على الملكانيين جزية مضاعفة.

ولم يتمتع الأقباط الملكانيون ببعض الحرية إلا في فترات معينة، استندوا فيها - في غياب بطريركهم - إلى جهود بعض الموظفين المسيحيين لدى الخليفة في دمشق أو لدى الوالي بالفسطاط كما حدث في عهد الخليفة عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥)، إذ كان بعض الأقباط الملكانيين يعملون لدى عبد العزيز أخي الخليفة ووالي مصر، فسمح لهم ببناء كنيسة باسم مار جرجس. كما حصل بعض الكتاب الأقباط على أذن ببناء كنيستين: واحدة باسم القديس سرجيوس والأخرى باسم القديس مرقوريوس.

إعادة البطريك الملكاني إلى الكرسي الإسكندري

وفي الفترة التي أعقبت الفتح العربي، وبعد رحيل البطريك بطرس الرابع خليفة قيرس سنة ٦٥١، كان بمصر أسقفان ملكانيان، فكانوا يحضرون، لرسم أسقف جديد أسقف صور حتى يكتمل عدد الراسمين القانوني. وقام كاهن راهب بدور النائب البطريكي بالإسكندرية، وكان يمثل الكنيسة الإسكندرية في الجامع المسكونية.

وقد اشتركت الكنيسة القبطية الملكانية (الكاثوليكية) في المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠ بشخص مندوبها الراهب بطرس.

وفي عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣)، عين قرما بطريكاً، فذهب

لزيارة الخليفة في دمشق ليسمح له باستعادة الكنائس والأوقاف المخصصة. وقد أمر الخليفة واليه بمصر بتلبية طلب البطريك، فحصل على كنيسة قيساريون والمجلدون.

ولما انعقد المجمع المسكوني السابع في نيقية عام ٧٨٧، أوفد البطريك الملكاني الإسكندري يوليانس مندوباً عنه في شخص الراهب توما.

وقد ذكر البطريك القسطنطيني فوتيوس أنه كان في وقته أسقف ملكاني في الأقصر، وإن الطقوس هناك تمام باللغة القبطية الصعيدية. أمّا في الإسكندرية فكان الأقباط الملكانيون لا يزالون يستعملون الطقس الإسكندري باللغة اليونانية.

وتذكر الوثائق والمخطوطات أنه، حتى منتصف القرن الثاني عشر، كان هناك أساقفة في الصعيد وروهبان في الأديرة لا يزالون يستعملون التعبير الحلقديوني عن طبيعة السيد المسيح.

واستمرّ الملكيون في اتباع الطقس الإسكندري حتى بدء القرن الثالث عشر، حين كان بطريك الملكيين مرقس الثاني يوناني التبعية، فكتب إلى بلسمون بطريك القسطنطينية يسأله هل تستطيع كنيسة الإسكندرية الملكية أن تستمرّ على طقس القديس مرقس أم يجب تبديله. فردّ بلسمون «بأن كنيسة القسطنطينية لا تقرّ هذا الطقس، وعلى الملكيين في مصر أن يتحدوا في طقوسهم مع رومة الجديدة (القسطنطينية) وأن يقيموا القداًسات البيزنطية». فصار الملكيون في مصر ذوي صبغة بيزنطية صرف، لا في الفكر

والرئاسة فحسب، بل في الطقوس أيضا، مما حدا ببعض الملوك المصريين إلى تفضيل البقاء في الطقس الإسكندري والانتماء إلى الكنيسة القبطية أو إلى المرسلين الرومانيين الذين جاءوا إلى مصر لخدمة القنصليات والتجار الأوروبيين .

القسم الثالث

مساعي الاتحاد بين الكنيسة الكاثوليكية
والكنيسة القبطية الأرثوذكسية

بقلم الأب يشوي فوزي*

* راعي في الإبارشية البطريركية

سيما من هم من جنوا والبندقية والنمسا، وكان أهم مركز لهم في مصر القديمة (حيث كان دير وكنيسة أبي سرجه) ودرب الجنينة بالموسكي



كنيسة جراجوس (الصعيد)
إحدى أقدم الكنائس

بذل الكرسي الرسولي جهداً كبيراً في سبيل الاتحاد مع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وذلك على مرّ العصور بواسطة المرسلين .

ففي بداية القرن الثالث عشر، أصدر الكرسي الرسولي أمره إلى الآباء الفرنسيسكان كي يزوروا أقباط مصر وينشئوا علاقات طيبة معهم ويعملوا على تقريب وجهات النظر .

ويرجع تاريخ وجودهم في مصر إلى عام ١٢١٩، وهي السنة التي حضر فيها القديس فرنسيس الأسيزي إلى مصر لتوخي الحملة الصليبية على أعمالها التي ارتكبت تحت راية الصليب .

وفي دمياط التقى القديس فرنسيس الملك الكامل الأيوبي الذي أعجب بشخصيته الشجاعة وقربه إليه واستضافه بضعة أيام، كما قدم له بعض المنح والهدايا، وصرّح له بزيارة الأماكن المقدسة والوعظ في أنحاء البلاد .

وكان الآباء الفرنسيسكان يأتون إلى مصر بين الحين والحين لتقديم الخدمات الروحية لأبناء القنصليات التجارية المختلفة الموجودة بمصر، ولا

باليابا عن البطريرك يوحنا الحادي عشر وعن الإكليروس والشعب القبطي.

وأعلن البابا أوجينيوس الرابع في مراسيم دينية بيهيجه اتحاد الأقباط برومة في اليوم الرابع من شهر شباط (فبراير) ١٤٤٢ في كنيسة السيدة العذراء مريم بفلورنسا.

إلا أنه، لأسباب كنسية وسياسية عدّة، لم يعمل بهذه الوثيقة في مصر ولم تحقّق الوحدة بين الكنيستين.

ثانياً: مفاوضات بين البابا يوس الرابع والبطريرك جبرائيل السابع (١٥٦١-١٥٦٢): بعد انقضاء قرن من الزمان على المحاولة التي جرت في مجمع فلورنسا سنة ١٤٤٢، وفي خلال المجمع التريدينتيني، ذهب إلى رومة سنة ١٥٦٠ قسيسان قبطيان (أحدهما إبرام السرياني) يحملان رسالة إلى البابا تعبّر عن رغبة رؤسائهما ورغبة الشعب كله في الاتحاد.

فأرسل البابا يوس الرابع وفداً للتفاوض مع البطريرك القبطي لتحقيق الاتحاد ودعا البطريرك إلى الاشتراك في المجمع التريدينتيني سنة ١٥٦١.

وكاد الاتفاق على الاتحاد أن يتحقّق، إلا أن البطريرك توفّي فجأة.

ثالثاً: استأنف البابا غريغوريوس الثالث عشر مفاوضات الوحدة الكنسية التي قام بها سلفه العظيم، مع بطريرك الكنيسة القبطية الأثينا يوانس الرابع عشر، البابا ٩٦ (الملقب بالمنفلوطي)، إذ أرسل وفداً إلى البطريرك. وبدأت مباحثات مع البطريرك ومعاونيه من أساقفة وكهنة ووجهاء الشعب، وأخذت المفاوضات تسير سيراً حسناً أدى إلى أن عقد

وفي الاسكندرية كنيسة سانت كاترين. وقد أنشئ دير الآباء الفرنسيسكان عام ١٣٢٥ بإمدادات من رئاسة مشيخة البندقية. وتمكّن الآباء الفرنسيسكان بأعمالهم الرسولية من إيجاد نواة تكوّنت منها الكنيسة القبطية المتحدة مع رومة. وفي عام ١٢٣٧ أظهر البطريرك كيرلس السادس الميل إلى الاتحاد برومة، ولكن لم تسفر عن ذلك نتائج كبيرة.

وفي عام ١٦٦٦، تأسّس دير الآباء الفرنسيسكان في أخميم، ثم بنيت خمس كنائس. وتوغّل الآباء الفرنسيسكان في المسير جنوباً فوصلوا إلى أثيوبيا التي بدأت فيها مفاوضاتهم مع إمبراطورها سنة ١٦٧١، ولكنهم لم يوفقوا فيها.

أولاً: المجمع المسكوني الفلورنتيني واتحاد الأقباط برومة (٤ شباط (فبراير) ١٤٤٢): أول مساعي رسمية قام بها الأقباط الرومانيون لتحقيق هذه الوحدة المنشودة كانت بمناسبة المجمع الفلورنتيني، وهو المجمع المسكوني السابع عشر (١٤٣٨-١٤٤٥)، الذي انعقد أولاً بمدينة «فرارة»، ثم بمدينة «فلورنسا» في عهد البابا الروماني أوجينيوس الرابع.

وكان من أهداف هذا المجمع الرئيسية السعي في الاتحاد الوثيق بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الشرقية الأرثوذكسية. وقد أوفدت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وفداً إلى رومة برئاسة القمص أندراوس ليعلنوا عن رغبة البطريرك والشعب القبطي في الاتحاد برومة.

وقد سجّل قرار الاتحاد المعروف بالعبارة المصدر بها: «رثّموا للرب»، وهي وثيقة اتحاد الأقباط برومة، وقد وقّعها القمص أندراوس

البطريك، بتاريخ ١ شباط (فبراير) ١٥٨٤، في دار قنصل فرنسا، حينذاك بولس مرياني - مجعاً عاماً ترأسه هو بنفسه وحضره أربعة أساقفة ووكلاؤهم ولغيف من الكهنة ووجهاء الشعب، وأدى البحث مع وفد البابا إلى اتفاق عام على وضع صيغة رسمية لإعلان الإيمان.

ولكن لم يمض أسبوع على هذا الاجتماع التاريخي حتى انقلبت الأحوال بمكيدة شيطانية، فرفض جميعهم، من بطريك وأساقفة وكهنة وشعب، التوقيع على الإقرار المذكور.

ولكن لم يأس الوفد فعاود الكرة مرة أخرى بتوجيهات الكرسي الرسولي.

فأخذوا يحثون غبطة البطريك على إتمام ما بدأ به وعلى تنفيذ وعده. وبعد التروي في الأمر، وعدهم البطريك وعداً صادقاً بأنه سيوقع الإقرار المشار إليه بعد عودته من الإسكندرية. إلا أن البطريك، لسوء الطالع، قد وافته المنية فجأة، في أثناء السير من الإسكندرية إلى القاهرة، وكان ذلك في ٥ أيلول (سبتمبر) ١٥٨٤.

رابعاً: إعلان اتحاد الأقباط برومة في عهد البطريك غبريال الثامن (١٥٨٧-١٦٠٣): في ٢٠ نيسان (أبريل) ١٥٩٠، كتب البابا سكستس الخامس إلى البطريك غبريال الثامن يدعوه إلى الاتحاد الذي كان قد شرع فيه سلفه الكريم، كما وجه أيضاً رسالة أخرى في اليوم نفسه إلى القمص يوحنا، وكيل البطريكية بالإسكندرية والذي كان قد تلقى دروسه العليا في جامعات إيطالية، وكان يسعى في اتحاد الأقباط برومة.

فكتب إليه البابا طالباً أن يعمل بجهد لدى البطريك لتحقيق هذه الرغبة. وما إن ارتقى البابا اقليمنضس الثامن السدة البطرسيه حتى واصل محاولات البابا سكستس الخامس لدى البطريك جبرائيل الثامن، فكتب البطريك إقراراً بالاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية. وكتب هذا الإقرار في كانون الثاني (يناير) ١٥٩٧ بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن الإكليروس والشعب القبطي. ووقعه يامضائه وخاتمه، ووقعه أيضاً، من الأساقفة، أسقف الفيوم والهنسة وأسقف إسنا وعدد كبير من القمامصة والكهنة والشعب.

ولما وصل وفد الأقباط إلى رومة، درست المسألة جيداً، وأعدت وثيقة الاتحاد. وكتب البابا اقليمنضس الثاني إلى البطريك غبريال الثامن وأعلن كذلك قبوله في إنشاء مدرسة قبطية في رومة. وخصص دير القديس اسطفانس داخل أسوار الفاتيكان ليكون مقراً لهذه المدرسة وهبة دائمة للأقباط.

ولكن البطريك كان قد توفي أثناء ذلك في ١٤/٥/١٦٠٣ وانتخب خلفاً له على الكرسي الإسكندري الأنبا مرقس الخامس (البابا ٩٨) (١٦٠٣ - ١٦١٩) الذي ظلّ زمناً متحداً برومة ولكنه بعد ذلك غير تصرفاته تجاه القطيع الصغير من الأقباط الكاثوليك المتحدين برومة.

خامساً: محاولات جديدة متواصلة في سبيل الاتحاد بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية بواسطة مرسلين موفدين من مجمع نشر الإيمان برومة الذي كان قد تأسس في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٦٢٢.

مشجعاً أعمال المرسلين الكاثوليك، ينفذ بقدر استطاعته مشاريعهم النافعة للأقباط مع الوعظ والخدمة في الكنائس وتأسيس المدارس في القرى والاهتمام بطبع الكتب الطقسية.

وأخذ في عهده المرسلون الفرنسيون يستوطنون الصعيد، أي الفيوم وصدفا وطهطا وأخميم وفرشوط ونقادة والهامص والشيخ زين الدين وبنجا وبردس وأبوتيج وغيرها.

وفي عهد البطريرك يوحنا السابع عشر (البابا ١٠٥) (١٧٢٧-١٧٤٥)، أرسل البابا اقليمنضس الثاني عشر (١٧٠٣-١٧٤٠) أحد الآباء اليسوعيين ومعه رسائل وهدايا دينية إلى البطريرك. وبعد أن ناقش البطريرك أراخنة الأقباط، أرسل جوابه بتاريخ أول شباط (فبراير) سنة ١٧٣٥، شاكرًا البابا على هداياه داعياً إياه: «رئيس الشعوب المسيحية والإنجليي الخامس، خليفة المسيح والقديس بطرس».

وكان يسمح للأقباط بقبول الأسرار من الكاثوليك. وهكذا توالى اللقاءات على مرّ العصور والأجيال دون الوصول إلى تحقيق الاتحاد بين الكنيستين الكاثوليكية والقبطية الأرثوذكسية حتى انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥).

سادساً: الحوار المسكوني بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية ابتداءً من سنة ١٩٧٣ حتى أيامنا هذه: أصدر المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥) وثقتين في غاية الأهمية: الأولى «في الحوار المسكوني» والثانية «في الكنائس الشرقية الكاثوليكية» وعلاقتها بشقيقاتها الأرثوذكسية. وقد دعا هذا المجمع بعض ممثلي الكنيسة القبطية

وفي القرن السابع عشر، أوفد البابا أريانس الثامن مرسلين من الآباء الفرنسيين إلى البطريرك القبطي يوحنا الخامس عشر الذي كان قد أظهر في أواخر حياته رغبة في الاتحاد برومة.

ولكن، عند وصول المرسلين إلى مصر، كان البطريرك قد رحل عن هذه الحياة. ومن بعده، تابعت المحاولات من الرهبان الكبوشيين والفرنسيسكان الموفدين من مجمع نشر الإيمان لدى البطريرك متى الثالث (البابا ١٠٠) (١٦٢٣-١٦٤٢)، الذي أظهر دائماً علامات المودة والتفاهم المتبادل في معاملة المرسلين الكاثوليك وصرح لهم بالوعظ في الكنائس القبطية، لكن الاتحاد المنشود لم يتحقق في عهده.

ونعرف من التاريخ أن البطريرك مرقس السادس (البابا ١٠١) (١٦٤٦-١٦٥٦) قد أظهر استعداداً تاماً لعقد علاقات الودّ مع رومة وصرح للمرسلين الكاثوليك بالوعظ وإقامة الذبيحة المقدسة في كنائس الأقباط.

وفي ٢٥ شباط (فبراير) سنة ١٦٨٤، أرسل البطريرك يوحنا السادس عشر (البابا ١٠٣) رسالة إلى البابا الروماني اينوقنطوس الحادي عشر يعلن فيها رغبته الصادرة في الاتحاد بالكرسي الروماني.

ولكن بعض أعضاء طائفته تهدّوه، فنكص على عقبه وقال لسفير البابا: «إني لم أشكّ قط في استقامة الأمانة الكاثوليكية، ولكنني أخاف القيود والسجون».

وبالرغم من كل ذلك، ظلّ البطريرك يوحنا السادس عشر، إلى وفاته سنة ١٧١٨

مجلس الوحدة المسيحية البابوي برومة ومن الكنيسة القبطية الكاثوليكية - ومن جانب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أعضاء من الأساقفة والكهنة والعلمانيين على غرار الجانب الكاثوليكي. وتقوم مهمة هؤلاء الأعضاء من الطرفين على درس الموضوعات المتنوعة المختلف عليها، عقائدية كانت أم راعوية، لمناقشتها في جلسات الحوار المسكوني.

وقد انعقد بين عامي ١٩٧٤ و١٩٧٨ في القاهرة أربعة اجتماعات مسكونية في غاية الأهمية. وتاريخ ٢٣ حزيران (يونيو)، وضعت مبادئ بروتوكول الحوار المسكوني بين الكنيستين الكاثوليكية والقبطية الأرثوذكسية، اعتمدها ووقع عليها كل من البابا يوحنا بولس الثاني والبابا شنودة الثالث.

وتوقفت اجتماعات الحوار المسكوني بسبب صدور قرار الرئيس السادات بالتحفظ على قداسة البابا شنودة الثالث داخل أسوار دير أنبا يشوي بوادي النطرون، وعدم التصريح له بمزاولة مهامه البطريركية. ولكن هذه الاجتماعات استؤنفت بعد عودة البابا شنودة إلى كرسيه البطريركي بالقاهرة في شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥.

وفي إحدى الجلسات، بتاريخ ١٢ شباط (فبراير) ١٩٨٨، توصل الطرفان إلى اتفاق تام حول صيغة مشتركة بشأن سرّ تجسّد السيد المسيح، على النحو الآتي:

«نؤمن بأن ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، الكلمة المتجسّد، هو كامل في لاهوته وكامل في ناسوته - وجعل ناسوته واحداً مع لاهوته بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ولا

الأرثوذكسية لحضور جلساته كمراقبين. وقد قام الأحبار الرومانيون - لا سيّما البابا بولس السادس والبابا يوحنا بولس الثاني - بمساع متواصلة للحوار الدائم والبناء مع الكنيسة القبطية الأرثوذكسية.

وقد لبى قداسة البابا شنودة الثالث بطريرك الإسكندرية على الأقباط الأرثوذكس دعوة الحبر الروماني البابا بولس السادس للذهاب إلى رومة، فقدم إلى حاضرة الفاتيكان على رأس وفد من الأساقفة والكهنة ووجهاء العلمانيين من كنيسته بتاريخ ٥ أيار (مايو) ١٩٧٣ - وهذه هي المرة الأولى، في تاريخ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، التي يحضر فيها بطريرك قبطي لمقابلة الحبر الروماني وللتشاور معاً في شؤون الاتحاد بين الكنيستين -، وفي اليوم العاشر من أيار (مايو) ١٩٧٣، صدر بيان مشترك من الحبر الروماني وبابا الإسكندرية بشأن هذا اللقاء التاريخي وأقرّ به ووقع عليه كل من الحبرين، وجاء فيه:

- الإقرار بالنقاط العقائدية المشتركة.
- ذكر بعض الخلافات.
- الرغبة الصادقة في السعي المتواصل لتحقيق الاتحاد المنشود وتعميق صلات المحبة بين أبناء الكنيستين.
- نبذ كل أنواع «الضمّ البغيض» من كلا الطرفين.
- تبادل الآراء ووجهات النظر والخبرات في ما يؤول إلى صالح الجميع في سائر الأمور الاجتماعية والثقافية.
- واتفق الطرفان على تكوين لجان متخصصة مشتركة تضمّ من جانب الكاثوليك أعضاء من

تشويش، ولاهوته لم يفصل عن ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين - وفي الوقت نفسه، نحرم تعاليم كل من نسطور وأوطيخا». وانعقدت فيما بعد اجتماعات ثلاثة بين أعضاء لجان الحوار المشتركة في دير أنبا يشوي بوادي النظرون. في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٨، ونيسان (أبريل) ١٩٩٠، وأيار (مايو) ١٩٩١، حول «إيثاق الروح القدس» و«المظهر» دون الوصول إلى حلول مرضية. ولكن الجانبين اتفقا على متابعة الحوار المسكوني بثقة متبادلة وثبات بلا ملل ومحبة صادقة، وفقاً لمشيئة السيد المسيح الذي صلّى بأنات لا ترصف (عب ٧/٥) من أجل وحدة الكنيسة المقدسة (راجع يوحنا ١٧).

القسم الرابع

مسيرة الكنيسة القبطية الكاثوليكية
مع النواب والمدبرين الرسولين
(١٧٤١-١٨٩٩)

بقلم البطريرك إسطفانوس الثاني غطّاس

- الأنا أثناسيوس (١٧٤١-١٧٤٤م)

أخذ عدد الأقباط الكاثوليك يتزايد يوماً بعد يوم بفضل همّة المرسلين الفرنسيين الفرنسيسكان وغيرتهم وجهودهم. ولكن لم يكن لهم حينئذٍ أسقف يرعاهم ويدبر أمورهم.

ولمّا انضمّ إلى الكتلركة الأنا أثناسيوس، أسقف أورشليم للأقباط الأرثوذكس، في ١٠ آب (أغسطس) ١٧٣٩، عينه قداسة البابا بندكتس الرابع عشر نائباً رسولياً لطائفة الأقباط الكاثوليك ببراءة بابوية في ٤ آب (أغسطس) ١٧٤١ واتخذ وكيلًا عامًا له الأب صالح مراغي. وبسبب كبر سنّه قدّم استقالته. فخلفه في إدارة الطائفة الأب صالح مراغي.

- الأب صالح مراغي (١٧٤٤-١٧٤٨)

وُلد يسطس (صالح) مراغي بأخميم في محافظة سوهاج - وقد أوفد بعثة دراسية إلى رومة والتحق بكلية انتشار الإيمان في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٧٢٤، حيث حصل على شهادة في الفلسفة واللاهوت ورسم كاهنًا برومة في ٥

أيلول (سبتمبر) ١٧٣٦، وعيّن وكيلًا للأنا أثناسيوس سنة ١٧٤١، وخلفه في الإدارة بصفته وكيلًا عامًا للطائفة حتى وفاته سنة ١٧٤٨.

مدبرون رسوليون من الآباء الفرنسيين
(١٧٤٨-١٧٦١)

بعد وفاة الأب صالح مراغي، قام برعاية طائفة الأقباط الكاثوليك بتعيين من الكرسي الرسولي، على التوالي، بصفة مدبرين رسوليين، رؤساء الآباء الفرنسيين في مصر. وهم:

- الأب يعقوب رزيمارس (١٧٤٨-١٧٥١)

- الأب بولس دانيونا (١٧٥١-١٧٥٧)

- الأب يوسف فرنسيس (١٧٥٧-١٧٦١)

- الأنا أنطونيوس فليفل (١٧٦١-١٧٧٤)

كان الأنا أنطونيوس فليفل أسقفًا على كرسي جرجا للأقباط الأرثوذكس، واعتنق

الكنائس عام ١٧٥٨، وسافر إلى رومة في السنة نفسها، وأقام بندير القديس إسطفانس الخاص بالرهبان الأحباش والأقباط حتى سنة ١٧٦١، وفي ١١ نيسان (أبريل) ١٧٦١، عين نائباً رسولياً لطائفة الأقباط الكاثوليك، فرجع إلى مصر وكانت إقامته في القاهرة، وتوجه إلى الصعيد ومكث في أحميم وفرشوط حتى عام ١٧٧٤. وقدم استقالته في تلك السنة بسبب كبر سنّه واعتلال صحته. وورقد في الرب في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٠٧. وفي عهده ارتسم روفائيل طوخي أسقفاً برومة سنة ١٧٦١.

- الأبا روفائيل طوخي (١٧٦١-١٧٨٧)

ولد روفائيل طوخي (نيافة الأبا روفائيل طوخي) بمدينة جرجا في مصر العليا حوالي عام ١٧٠٣. وفي منتصف شهر أيار (مايو) من عام ١٧٢٤، أوفد بعثة دراسية إلى رومة والتحق بكلية انتشار الإيمان في اليوم الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) عام ١٧٢٤. وقد مكث فيها اثنتي عشرة سنة، وحصل في ٢٧ من أيار (مايو) عام ١٧٣٥ على شهادة الدكتوراه في الفلسفة واللاهوت. وفي يوم ٥ حزيران (يونيو) ١٧٣٥، رسم كاهناً برومة عن يد نيافة الكردينال لويس باللوغا. واهتم في عام ١٧٣٦ بطبع الخولاجي القبطي، وهو أول كتاب طقسي قبطي يتم طبعه. ثم رجع إلى وطنه مصر في ٥ شباط (فبراير) ١٧٣٧ ومكث حتى عام ١٧٣٩. ثم استدعي إلى رومة في عام ١٧٤٠ وأقام بها وأدار دير القديس إسطفانس المخصص للرهبان الأحباش والأقباط، واهتم

بتدريس الطلبة المبعوثين إلى رومة. ثم نُقح وطبع الكتب الدينية وخاصة الطقسية وألف: قواعد اللغة القبطية، وقاموساً قبطياً وعربياً سنة ١٧٤٦. واهتم بطبع كتاب الأجيّة قبطي - عربي سنة ١٧٥٠، وكتاب الرسامات سنة ١٧٦١. وبفضل جهوده المشكورة، نشر للمرة الأولى معظم الكتب الطقسية التي استخدمها أبناء الكنيسة الإسكندنرية - الكاثوليك والأرثوذكس على السواء - مدة قرن ونصف قرن. ولم تكن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قد نشرت إلى ذلك اليوم كتبها الطقسية. ونظراً إلى علمه وتقواه وسيرته الطيبة وغيرته الرسولية ومكافأة للخدمات الجليلة التي أداها لصالح الكنيسة، رُقي إلى درجة الأسقفية يوم ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٧٦١ برومة.

ولإيه يرجع الفضل في نشر الطباعات الأولى من الترجمة القبطية الصعيدية للعهد القديم من الكتاب المقدس، وقد نشر عدة أجزاء من هذه الترجمة في كتاب القواعد القبطية برومة سنة ١٧٧٨. وتوفي يوم ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٧٨٧ برومة.

- الأب روكسي قدسي (١٧٨٠-١٧٨١)

الأب روكسي قدسي من مواليد جرجا، التحق بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٧٤٠ وقد عينه مجمع انتشار الإيمان وكيلاً عاماً للأبا أنطونيوس فليفل في ١ نيسان (أبريل) ١٧٦١. ثم عين نائباً رسولياً بقرار في ٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٧٨٠ وبراءة بابوية بتاريخ ١١ كانون الثاني (يناير) ١٧٨١. ولكنه لم يرتسم أسقفاً لظروف طائفية

آنذاك، واستقال من منصبه بضعة شهور بسبب مرضه، ثم رقد في الرب.

- الأب يوحنا الفراجي (١٧٨١-١٧٨٥)

الأب يوحنا الفراجي من مواليد أحميم، التحق بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٤ شباط فبراير ١٧٥٢. أُقيم نائباً رسولياً بقرار في ١١ حزيران (يونيو) ١٧٨١ وبراءة بابوية بتاريخ ٢٦ حزيران (يونيو) ١٧٨١، ولكنه لم يرسم أسقفًا لعدم وجود من يرسمه من الأساقفة بمصر في ذلك الحين، ثم رقد في الرب. وفي عهده اعتنق الكاثوليك صهيون غنامي الذي ألف كتباً عديدة قيّمة منها التقويم القبطي والتقويم الغريغوري.

- الأب بشاي نصير (١٧٨٥-١٧٨٧)

الأب بشاي نصير من مواليد ساحل طهطا من أعمال محافظة سوهاج. التحق بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٧٦٧، ودرس الفلسفة واللاهوت وعين نائباً رسولياً بتاريخ ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٥ إلى عام ١٧٨٧، ثم استقال وقرّد في الرب.

- الأب ميكلانجلو باتشلي (١٧٨٧-١٧٨٨)

تولّى رعاية الأقباط الكاثوليك منذ ٤ حزيران (يونيو) إلى نيسان (أبريل) ١٧٨٨ بصفة زائر رسولياً، ثم رقد في الرب.

- الأب متى الرقيطي (١٧٨٨-١٨٢٢)

التحق متى الرقيطي بكلية انتشار الإيمان

برومة بتاريخ ٢٩ كانون الأول (يناير) سنة ١٧٦٧، وأقيم نائباً رسولياً بتاريخ ٢١ نيسان (أبريل) ١٧٨٨ بقرار من مجمع انتشار الإيمان ثبته البابا ييوس السادس بتاريخ ٢١ أيار (مايو) من السنة ذاتها.

واختير متى الرقيطي أسقفًا بقرار صدر يوم ٦ آذار (مارس) ١٨١٥ وبراءة من البابا ييوس السابع في ٢٠ منه ولكنه لم يرسم أسقفًا لعدم وجود أساقفة لرسمته. انتقل إلى الامجاد السماوية عام ١٨٢٢. ولما توفّي متى الرقيطي سنة ١٨٢٢، سعى باسيليوس بك أحد وجهاء الطائفة القبطية الكاثوليكية، وهو الابن الأكبر للمعلم غالي، لدى البابا لأون الثاني عشر في أمر إعادة بطريركية قبطية كاثوليكية، وقد تدخل في هذه القضية محمد علي نفسه، وكان المرشح للمنصب البطريركي مكسيمس جويد.

- الأنبا مكسيمس جويد (١٨٢٤-١٨٣١)

التحق مكسيمس جويد بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٢٥ آذار (مارس) ١٧٩٣، ثم أُقيم نائباً رسولياً وأسقفًا بقرار صدر في شباط (فبراير) ١٨٢٤ وبراءة بابوية في ٩ أيار (مايو) من السنة ذاتها.

رُسم أسقفًا عن يد البطريرك الملكي. عينه البابا لأون الثاني عشر بطريركاً للإسكندرية في ١٥ آب (أغسطس) ١٨٢٤، ولكن هذا المشروع الجليل لم يتحقّق لظروف غامضة. وظلّ نائباً رسولياً إلى ١٨٣١، وانتقل للأمجاد السماوية يوم ٣٠ آب (أغسطس) ١٨٣١.

- الأنا تاوضروس أبو كريم (١٨٣٢-١٨٥٤)

من مواليد جرجا. التحق بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٢٢ شباط (فبراير) ١٨٠٦ ثم أُقيم نائباً رسولياً وأسقفًا بقرار ٢٢ حزيران (يونيو) ١٨٣٢. رسمه أسقف سرياني. وأقامه البابا غريغوريوس السادس عشر قاصداً رسولياً وزائراً للحبشة في ٢٤ تموز (يوليو) ١٨٤٠. ويبدو أنه لم يمارس سلطانه كقاصد رسولياً. وانتقل إلى الأمجاد السماوية عام ١٨٥٥.

- الأنا أناسيوس خزام (١٨٥٥-١٨٦٤)

رُسم كاهناً بتاريخ ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٣٦، ثم خلف الأنا تاوضروس أبو كريم بصفة نائب رسولياً وتعين أسقفًا بقرار صدر في ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٨٥٥ وبراءة بابوية بتاريخ ٢ تشرين الأول (أكتوبر) من السنة نفسها. وبقي نائباً رسولياً إلى عام ١٨٦٤. ثم انتقل إلى الأمجاد السماوية بتاريخ ٧ شباط (فبراير) ١٨٦٥.

- الأب أغايوس بشاي (١٨٦٦-١٨٧٩)

وُلد في بلدة الهماص، محافظة سوهاج، في ٩ نيسان (أبريل) ١٨٢٨. والتحق بكلية نشر الإيمان الإكليريكية برومة في ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٦، ورسم كاهناً برومة في ٢٥ آذار (مارس) ١٨٥٨، وعين نائباً رسولياً لطائفة الأقباط الكاثوليك في ٢٧ شباط (فبراير) ١٨٦٦، وأقيم أسقفًا بتاريخ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٦ مع لقب أسقف

كاريوبوليس. حضر المجمع المسكوني الفاتيكاني الأول سنة ١٨٧٠، واستدعي إلى رومة في ١٥ نيسان (أبريل) سنة ١٨٧٨ بسبب خلافات طائفية، وبقي فيها حتى ١٨٦٦. وفي خلال هذه الحقبة، ألف كتاب قواعد اللغة القبطية ومعجماً ضخماً من ثلاث لغات: القبطية واللاتينية والعربية.

عاد إلى مصر في أواخر عام ١٨٨٦، وانتقل إلى الأمجاد السماوية يوم ٢٠ شباط (فبراير) ١٨٨٧.

تُحفظ رفات الأنا أغايوس بشاي في مقبرة البطاركة والأساقفة في الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر في القاهرة.

- الأب أنطون ناداب (١٨٨٠-١٨٨٩)

من مواليد أخميم، محافظة سوهاج، بتاريخ ١٢ كانون الثاني (يناير) ١٨٣٤. التحق بكلية انتشار الإيمان برومة، بتاريخ ٢٣ أيار (مايو) ١٨٤٥ ورسم كاهناً برومة بتاريخ ٢٨ آذار (مارس) ١٨٥٧، وأقيم نائباً رسولياً منتدباً بدلاً من الأنا أغايوس بشاي من عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨٩. وفي ١٢ شباط (فبراير) ١٨٨٠، تعين المنسيور أنطون مرقس (وهو كاهن من البطريركية اللاتينية الأورشليمية) زائراً رسولياً للأقباط الكاثوليك، وترك مهمته هذه في أواخر سنة ١٨٨٧ بسبب مرضه، فتاب محله رئيس الإرساليات الفرنسيسكانية فرنسيس زنوبي بصفة زائر رسولياً منتدب، وتعين لهذه المهمة في جلسة ٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٨٩.

- الأب سمعان برايا (١٨٨٩-١٨٩٢)

من مواليد أنعميم محافظة سوهاج،
بتاريخ ٨ أيار (مايو) ١٨٤٥. التحق بكلية
انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٣٠ تشرين الأول
(أكتوبر) ١٨٤١، ورسم كاهناً برومة بتاريخ
٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٥٨، تعين نائباً رسولياً
منتدباً يوم ٥ تموز (يوليو) ١٨٨٩. وأقام
بالزيتون (القاهرة) وشيّد كنيستها الأولى وانتقل
إلى الأمجاد السماوية يوم ١٠ تشرين الثاني
(نوفمبر) ١٩٠٤.

- الأب أنطون كابس (١٨٩٢-١٨٩٥)

من مواليد طهطا، محافظة سوهاج،
بتاريخ أول كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٢
والتحق بكلية انتشار الإيمان برومة بتاريخ ٢٨
أيار (مايو) ١٨٥٥، ورسم كاهناً برومة بتاريخ
١٠ حزيران (يونيو) ١٨٦٥، كان راعياً
بأنعميم من عام ١٨٧٦ إلى عام ١٨٧٩ وراعياً
بأسبوط ١٨٨٩ وهو أول راعٍ قبلي كاثوليكي
بطهطا سنة ١٨٩١. وعين نائباً رسولياً منتدباً
في ٢٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٢.

- الأنبا جرجس مقار (١٥ آذار (مارس)
١٨٩٥-١٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٩)

من مواليد بلدة الشناينة، محافظة
أسيوط، في ١٧ كانون الأول (يناير)
١٨٦٧. التحق بكلية الإكليريكية الشرقية
التابعة لجامعة القديس يوسف في بيروت (لبنان)
التي يديرها الآباء اليسوعيون. أتمّ مراحل
الدراسة بتفوقٍ عظيمٍ وختمها بدرس الفلسفة
واللاهوت وحصل على الدكتوراه. وأجاد
اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والفرنسية،
علاوةً على اللغة العربية والقبطية. رسم كاهناً
في بيروت في حزيران (يونيو) ١٨٩١.

أقيم أسقفًا ونائبًا رسولياً على الطائفة
بتاريخ ١٥ آذار (مارس) ١٨٩٥. واتخذ اسم
«كيرلس» وصار لقبه «الأنبا كيرلس مقار
أسقف قيصرية فيلبس ونائب رسولٍ على
الكنيسة المرقسية الإسكندرية»، حتى تعيينه
بطريركاً من قداسة البابا لأون الثالث عشر
بتاريخ ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٩.

الكنيسة القبطية الكاثوليكية في العصر الحديث (١٨٩٥ - ١٩٩٥)

بقلم غبطة البطريرك إسطفانوس الثاني غطّاس

يرجع الفضل الأكبر في نمو الكنيسة القبطية الكاثوليكية وازدهارها منذ مائة عام إلى قداسة الحبر الأعظم البابا لأون الثالث عشر الذي أعاد لهذه الكنيسة مجدها الفابر، وذلك بتجديد الكرسي البطريركي للأقباط الكاثوليك وتعيينه بإصدار البراءة الرسولية المصدّرة بالعبارة «المسيح الرب» في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٥ .

واننا نقسم هذا القسم الخامس والأخير إلى أربعة فصول، نبيّن فيها ما تمّ من أعمال في عهد كل من البطاركة الأقباط الكاثوليك الأربعة الذين اعتلوا الكرسي الإسكندري خلال مائة عام:

- ١ . غبطة البطريرك الأنبا كيرلس الثاني مقار (١٨٩٩-١٩٠٨)
- ٢ . غبطة البطريرك الأنبا مرقس الثاني خزام (١٩٤٧-١٩٥٨)
- ٣ . غبطة البطريرك الأنبا إسطفانوس الأول سیداروس (١٩٥٨-١٩٨٦)
- ٤ . غبطة البطريرك الأنبا إسطفانوس الثاني غطّاس (١٩٨٦-٢٠٠٠)

الفصل الأول

في عهد البطريرك الأنبا كيرلس الثاني (١٨٩٩-١٩٠٨)

عين قداسة البابا لأون الثالث عشر الأب جرجس مقار نائباً رسولياً على الكنيسة القبطية الكاثوليكية في ١٥ آذار (مارس) ١٨٩٥، واتخذ لنفسه اسم: «الأنبا كيرلس مقار». وكان له من العمر حينذاك ثمان وعشرون سنة. كان قد أتم دروسه العلمية والفلسفية واللاهوتية في الإكليريكية الشرقية التابعة لجامعة القديس يوسف، بيروت - لبنان) والتي يديرها الآباء اليسوعيون. أجاد اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية علاوة على اللغتين العربية والقبطية، وأتقن اللغة الفرنسية إتقاناً عميقاً حتى نظم الشعر فيها، وألف وهو طالب ثلاث روايات تمثيلية باللغة الفرنسية ونظمها شعراً، عنوانها: «إيمان لبنان» و«ملك رومة» و«شهيد خط الاستواء». ورسم كاهناً في بيروت في

حزيران (يونيو) ١٨٩١. ورجع إلى بلاده وعين مدرساً بالمدرسة الطائفية المجاورة لدار البطريركية في درب الجمنية بالقاهرة.

وبينما كان يقوم بمهامه الرعائية بغيره ونشاط، كان يكتب مؤلفات قيمة باللغتين الفرنسية والعربية منها: «دليل المصريين» و«المسيح عمانوئيل» و«تبرئة أوريجانيس الإسكندري» في ثلاثة أجزاء، نشر منها جزءان وبقي الجزء الثالث مخطوطاً، و«تصحیح تقويم الكنيسة الاسكندرية» من البولياي إلى الفريغوري، وأصدر منشوراً يعلن فيه إصلاح التقويم المذكور.

وفي ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٨٩٥، أصدر البابا لأون الثالث عشر البراءة الرسولية التي بموجبها أعاد إلى الأقباط مقام البطريركية الاسكندرية الكاثوليكية بجميع امتيازاتها القديمة. وعين مديراً رسولياً للبطريركية الأنبا كيرلس مقار. وقرر - مع الإيبارشية البطريركية - تأسيس إيبارشيتين تابعتين للكرسي البطريركي، وهما: إيبارشية

هيرموبوليس (المنيا) وإيبارشية طيبة (الأقصر).
كما عين قداسة البابا بعد ذلك أسقفين، واحداً
لإيبارشية هيرموبوليس ومقرّ كرسيه المنيا، وهو
الأب يوسف صدفاوي الذي اتخذ اسم: الأنبا
مكسيم صدفاوي - والثاني لإيبارشية طيبة
ومقرّ كرسيه طهطا (محافظة سوهاج)، وهو
الأب بولس قلاهد برزي، وأخذ اسم: الأنبا
إغناطيوس برزي. وتمت رسامتهما الأسقفية في
٢٩ آذار (مارس) ١٨٩٦.

كلفت قداسة البابا لأون الثالث عشر الأنبا
كيرلس مقار في ١١ أيار (مايو) ١٨٩٦ بالسفر
إلى أثيوبيا والقيام بمهمة التوسط لدى
الإمبراطور النجاشي المنليك للإفراج عن
الأسرى الإيطاليين. وظلّ في السفر المضني
لقضاء هذه المهمة الخطيرة زهاء ستة أشهر.
وكانت رسالة ناجحة بفضل حكمة الأنبا
كيرلس مقار.

- عُقد المجمع الإسكندري العام في ١٨ كانون
الثاني (يناير) ١٨٩٨ إلى ٣ حزيران (يونيو)
١٨٩٨ - وصدّق الكرسي الرسولي على ما
تضمّنه (بالنص اللاتيني) في ٢٣ نيسان
(أبريل) ١٨٩٩ - ولم يترجم إلى العربية.

- تمّ شراء مطبعة وحروف قبطية وعربية، طُبِعَ
فيها باللغتين القبطية والعربية كتب القدايس
والأنجيل الأربعة وأسبوع الآلام وقطمارس
الرسائل والأنجيل وغيرها من الكتب
الطقسية، الأول منها في ٢٤ تشرين الثاني
(نوفمبر) ١٨٩٩.

- واشترك الأنبا كيرلس مقار في كثير من
الجمعيات العلمية، وكان عضواً في المجمع
العلمي المصري وفي الجمعية الجغرافية
الحدوية، ومراسلاً في مجمع شيكاغو
العلمي بالولايات المتحدة الأميركية.

عين قداسة البابا لأون الثالث عشر الأنبا
كيرلس مقار بطريركاً على الكرسي
الإسكندري في ١٩ حزيران (يونيو) ١٨٩٩
- وتمّ تجليسه بالإسكندرية في الكاتدرائية
الجديدة بتاريخ ٣١ تموز (يوليو) ١٨٩٩.

واعترفت الحكومة المصرية بهذا التعيين
بأمر عال في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٠،
على مثال غبطة البطريرك الأنبا كيرلس الخامس
بطريرك الأقباط الأرثوذكس.

في عهده تمّت الإنجازات الآتية، وهو مدبّر
رسولي للبطريركية:

- بنيت الدار البطريركية وكاتدرائية القيامة
بالإسكندرية بفضل مساعدات الإمبراطور
فرنسوا جوزيف، إمبراطور النمسا - إذ
كانت الكنيسة القبطية الكاثوليكية في
حمايتها.

- تأسست الكلية الإكليريكية أولاً في المنيا في
٧ أيار (مايو) ١٨٩٥ - وعهد إدارتها إلى
الآباء اليسوعيين - وتمّ فيها رسامة أحد
عشر كاهناً.

- وُضِعَ حجر الأساس في حفل مهيب
للإكليريكية الكبرى بطهطا (محافظة

الأرثوذكس، ورفض أن يتوجه إلى بطريركية الأقباط الكاثوليك، بالرغم من التحذير والتوسلات. وأعلن انفصاله عن الكنيسة الرومانية. وبقي في دار بطريركية الروم الأرثوذكس مدة ثلاثة أيام، ولم يأت بأي فعل إيجابي اشتراكاً في القدسيات.

وبعد هذا العمل الشائن، أفاق من غفلته وعاد إلى صوابه. وبكى بكاءً مرّاً. . . وعزم العزم على السفر إلى رومة وسافر إليها، وقدم وثيقة ندامته وخضوعه واحترامه للكرسي الرسولي في ٩ آذار (مارس) ١٩١٢. وقبل الحبر الأعظم البابا ييوس العاشر خضوعه.

ثم يتحمل الأنا كيرلس شتاءً إيطاليا الفارس، فعاد إلى لبنان واستقرّ في بيروت العاصمة. ووافته المنية في ١٨ أيار (مايو) ١٩٢١. ونقل جثمانه إلى مصر ودفن بالقاهرة في كاتدرائية درب الجينية - الموسكي. ثم نقلت رفاته إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر.

وبعد استقالة الأنا كيرلس مقار من المهام البطريركية، قاسى المدير الرسولي الأنا مكسيمس صدفاوي الكثير في أوائل عهده، وبذل جهداً جباراً ليعيد الوحدة والسلام إلى أبناء طائفته. لكن الأحداث جعلت الكنيسة القبطية الكاثوليكية في شبه ركود، لا سيما وأن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٩) عرقلت الأمور.

ولكن، في عهده وعهد الأنا إغناطيوس برزي مطران طيبة، تأسست في مدينة طهطا في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩١٣ أول رهبانية قبطية كاثوليكية رسولية وهي رهبانية راهبات قلب يسوع المصريات.

وكان عدد الأقباط الكاثوليك آنذاك اثني عشر ألف نسمة يخدمهم ثلاثون كاهناً. وأصبحوا في سنة ١٩٠٨ عشرين ألفاً وخمسين كاهناً.

وكانت شؤون الكنيسة القبطية الكاثوليكية في تقدّم ملموس ونجاح مرموق بفضل همّة رؤسائها الكهنسيين ونشاطهم: بطريركها الشاب المتقدّم حماسةً وصاحبّي النياقة مطراني المنيا وطهطا المعروفين بالفضل والعلم والفضيلة.

ولكن الشيطان، عدو الخير، زرع الزؤان في حقل الكنيسة النامية. فقد شنّ على البطريرك كيرلس مقار منذ سنة ١٩٠٤ كثير من الحملات النفاقية والتهم الباطلة. واستدعي إلى رومة في أيار (مايو) ١٩٠٨ وقدم استقالته من مهامه البطريركية إلى قداسة البابا ييوس العاشر في ٣٠ أيار (مايو) ١٩٠٨.

وعين الكرسي الرسولي في ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٠٨، ليحلّ محلّه كمدبّر رسولي للبطريركية، الأنا مكسيمس صدفاوي مطران كرسي هيرموبوليس (المنيا).

وحدثت اضطرابات وألوان كثيرة من الشعب في القاهرة بسبب تقديم استقالة البطريرك الأنا كيرلس مقار، الذي عاد إلى الإسكندرية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ ليعيش هناك. وقد أوعز إليه أن يسافر إلى لبنان. فتوجه إليه سنة ١٩١٠ وسكن في مدينة جونية. إلا أنه، بعد قرابة سنتين، قوّضت الغربية والعزلة حياته ومشاعره، وهزته ثورة داخلية عنيفة. وغادر لبنان، وعاد فجأة إلى الإسكندرية سنة ١٩١٢. وعندما وصل إلى الإسكندرية توجه إلى بطريركية الروم

والتحق بالإكليريكية الصغرى بالقاهرة في ٢٥ نيسان (أبريل) ١٨٩٨، فدرس العلوم الثانوية في مدرسة الآباء اليسوعيين. ولما نبغ في دروسه، أرسله رؤسأؤه في بعثة دراسية إلى الكلية الشرقية التابعة لجامعة القديس يوسف (بيروت - لبنان) للآباء اليسوعيين ليتعمق في اللغات والفلسفة واللاهوت. ورسم كاهناً في بيروت بتاريخ ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩١١.

وبعد عودته من بيروت، عينه المديبر الرسولي الأنبا مكسيم صدفاوي راعياً لبلدة أبي قرقاص (المنيا). وظل فيها خمسة عشر عاماً راعياً غيراً يتمتع بشخصية جذابة، قوي الحجة، بليغ العبارة، مهيب الطلعة، وديعاً، اتمسم بالبساطة في حديثه وعلاقاته بالمسيحيين والمسلمين.

وبعد وفاة كل من الأنبا مكسيم صدفاوي والأنبا أغناطيوس برزي، عين الكرمي الرسولي الأب مرقس خزام أسقفاً علي كرمي طيبة (الأقصر) ومديراً رسولياً للبطريركية، والأب فرنسيس بسطورس أسقفاً على كرسي هيرموبوليس (المنيا) متخذاً اسم الأنبا باسيلوس بسطورس. وقبلها معاً الرسامة الأسقفية في كاتدرائية درب الجينة بالقاهرة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٦.

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها المديبر الرسولي الأنبا مرقس خزام.

- بناء كاتدرائية طهطا وعدة كنائس في الصعيد.
- إصلاحات عديدة لمساكن الكهنة والمدارس.
- تأسيس الجمعية المسيحية للمدارس الصعيد سنة



البطريك الأنبا مرقس الثاني خزام

وقد توفي الأنبا مكسيم صدفاوي يوم ٢٧ شباط (فبراير) ١٩٢٥. ودفن في كاتدرائية درب الجينة. ونقل بعد ذلك إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر. وكان قد سبقه بقليل إلى الأمجاد السماوية الأنبا إغناطيوس برزي في طهطا يوم ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٥، ودفن في كاتدرائيتها.

الفصل الثاني

في عهد البطريرك الأنبا مرقس الثاني (١٩٤٧-١٩٥٨)

وُلد مرقس خزام بأخميم (محافظة سوهاج) بتاريخ ١٦ آذار (مارس) ١٨٨٨.



دار بطريركية الأقباط الكاثوليك في القاهرة

- ١٩٤١ بفضل جهود الأب هنري عيروط اليسوعي .
- إصدار المجلة الطائفية «الصلاح» في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٠ .
- اقتناء فيلتن جميلتين مع حديقة مساحتها فدانان تصلح للدار البطريركية الجديدة في كوبري القبة .
- وقد عُرف نياقة الأبا مرقس خزام مدير للبطريركية الرسولي بغيرته الرعوية الساهرة، يحجب أنحاء البلاد شمالاً وجنوباً في زيارات رعائية منتظمة متفقدًا الكنائس ومنازل أبنائه بيتاً بيتاً في بساطة رسولية عارفاً الجميع بأسمائهم .
- ونظراً إلى غيرته الرمولية، عينه قدامة البابا يوس الثاني عشر بطريركاً على الكرسي الإسكندري الشاغر منذ ١٩٠٨ بتاريخ ٩ آب
- (أغسطس) ١٩٤٧، وعين معاوناً له الأب اللعازري إستيفي سيداروس، الذي كان رئيساً للمعهد الإكليريكي الطائفي، واتخذ اسم «الأبا إسطفانوس سيداروس». وقسمت إيارشية طيبة الأقصر إلى إيارشيتين: إيارشية أسيوط وتشمل محافظة أسيوط فقط وإيارشية طيبة (الأقصر) وتشمل محافظات سوهاج وقنا وأسوان. وعين لإيارشية أسيوط الأب إسكندر حبيب راعي مصر الجديدة باسم الأبا الكسندرس اسكندر - كما سلّمت إليه رعاية إيارشية طيبة (الأقصر) بصفة مدير رسولي .
- وتمّ حفل تجليس غبطة البطريرك الأبا مرقس الثاني على الكرسي الإسكندري يوم ٧ آذار (مارس) ١٩٤٨ بالدار البطريركية في كوبري القبة .

الفصل الثالث

في عهد البطريرك الأنبا إسطفانوس الأول (١٩٥٨-١٩٨٦)

إستيفي سيداروس من مواليد ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٠٤ بالقاهرة من عائلة مصرية عريقة من طائفة الأقباط الكاثوليك، كان والده المغفور له د. سيزوستريس باشا وزير مصر المفوض بالولايات المتحدة، وكانت والدته تنتمي إلى عائلة المعلم غالي الذي كان وزيراً للمالية في عهد محمد علي الكبير. والذي كان له الفضل في تعزيز الكتلكة ونشرها في القرن التاسع عشر.

وبعد أن أنهى إستيفي دروسه الثانوية في مدرسة العائلة المقدسة للآباء اليسوعيين بالقاهرة سنة ١٩٢٣، التحق بكلية الحقوق والعلوم السياسية في باريس، وعاد من بعدها إلى مصر وانخرط في سلك المحاماة.

وكان نداء الله يلاحقه أثناء تميم واجباته الدينية وأثناء نشاطه في أخوية السيدة العذراء وجمعيات القديس منصور. فلبى النداء وتوجه إلى باريس عام ١٩٣٢ وطلب الانضمام إلى رهبانية الآباء اللعازارين وأبرز نذوره الرهبانية في ٢٥ آذار (مارس) ١٩٣٥ وتابع دروسه الفلسفية في باريس، ثم دروسه اللاهوتية في داكس حيث رسم كاهناً في تموز (يوليو) ١٩٣٩، وعين بعد ذلك مدرساً للكتاب المقدس والفلسفة واللاهوت الأدبي في معاهد إكليريكية مختلفة في إيباشيات فرنسا.

وفي سنة ١٩٤٦ استدعاه مجمع الكنائس الشرقية ليكون رئيساً للمعهد الإكليريكي بطهطا

وقد وضع يديه المباركين لرسم ثمانين كاهناً، وستة أساقفة وهم الآتية أسماؤهم:

(١) الأنبا جرجس البركة مطران المنيا في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٨ خلفاً للأنبا باسيلوس بسطاورس الذي كان قد توفي يوم ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٣٤.

(٢) الأنبا ألكسندرس إسكندر مطراناً لسيوط ومدبراً رسولياً لطبية الأقصر في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤١ وهو مؤسس إيباشية أسيوط، وقد عني ببناء كاتدرائيتها ومطرائتها الفاخرتين.

(٣) الأنبا إسطفانوس سيداروس أسقفاً معاوناً لبطبته في ٩ آب (أغسطس) ١٩٤٧، وقبل الرسامة الأسقفية في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨.

(٤) الأنبا إسحق غطاس مطراناً لكرسي طيبة في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩.

(٥) الأنبا بولس نصير مطراناً لإيباشية المنيا في آذار (مارس) ١٩٥٠ خلفاً للأنبا جرجس البركة الذي كان قد توفي بتاريخ ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٦.

(٦) الأنبا يوحنا نوير أسقفاً مساعداً لإيباشية طيبة الأقصر في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٦ في كاتدرائية الاسكندرية.

وأصبح عدد الأقباط الكاثوليك في عهده مائة وعشرين ألفاً ونيف.

وانتقل إلى الأمجاد السماوية يوم ٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨، ودفن جثمانه بالقاهرة في كاتدرائية درب الجنينة. ثم نقل إلى الكاتدرائية الجديدة بمدينة نصر.

- افتتاح إكليريكية صغرى بالاسكندرية لأبناء الوجه البحري، علاوة على الإكليريكية الصغرى بطهطا لأبناء الوجه القبلي .

- العناية بالمدارس التابعة للبطيركية وتعضيدها: مدارس سان جورج في مراحلها الثلاث (مصر الجديدة ومدينة نصر)، ومدرسة سان ميشيل بالاسكندرية، ومدرسة العناية الإلهية بالمنصورة .

- بناء عقارات استثمارية لزيادة دخل الإييارشية البطيركية .

وفي عهده انبثقت رهبانية «راهبات يسوع ومرم القبطيات» من رهبانية «راهبات قلب يسوع المصريات» في ٢١ آب (أغسطس) ١٩٦٩ .

وتخرّج في عهده تسعة وأربعون كاهناً يعملون في كرم الرب، رسم منهم أربعة وعشرين كاهناً، والباقون رسمهم أساقفة إييارشياتهم .

وتأسست في أيامه إييارشيتان جديدتان، هما إييارشية الاسماعيلية في كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣ وإييارشية سوهاج - منفصلة عن إييارشية طيبة الأقصر - في أيار (مايو) ١٩٨٣ - وأصبحت الكنيسة القبطية الكاثوليكية مكونة من ست إييارشيات .

وكان غبطة البطيرك الأنبا إسطفانوس الأول رجل صلاة وحياة روحية عميقة، ذا إرادة صلبة وعزم ثابت، متفشفاً، متواضعاً، عني كل العناية بوضع السلام والوثام في الكنيسة التي وكلت إليه من قبل راعي الرعاة . وكان عهده عهد سلام ووفاق، يعمل غبطته لازدهار الكنيسة في صمت وهدوء . . .

- ثم بطنطا عام ١٩٤٨، وقد أشرف على بناء الإكليريكية الجديدة بالمعادي التي افتتحها رسمياً نيافة الكردينال أوجين تيسران رئيس المجمع الشرقي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٣ . وظلّ رئيساً لها حتى عام ١٩٥٨ .

ولما اعتلى الأنبا مرقس خزام الكرسي البطيركي للأقباط الكاثوليك في آب (أغسطس) ١٩٤٧ اختار الأب إستيفي أسقفًا معاونًا له . واقتبل الرسامة الأسقفية بالاسكندرية في ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٨ .

وبعد وفاة المثلث الرحمات الأنبا مرقس الثاني في ٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨، اختير الأنبا إسطفانوس سيداروس خلفاً له في البطيركية القبطية الكاثوليكية في ٧ حزيران (يونيو) ١٩٥٨ . وتمّ تجليسه على السدة المرقسية بكنيسة المعهد الإكليريكي بالمعادي في ٢٩ حزيران (يونيو) ١٩٥٨ . واتخذ إسم «الأنبا إسطفانوس الأول» .

ومن الأعمال الجليلة التي قام بها

- تشييد كنيسة بالجيزة وأخرى بعزبة القصيرين، وكاتدرائية القيامة بالاسكندرية، وكنيسة العائلة المقدّمة بدرب الجنينة وكنيسة العذراء بعين شمس .

- إجراء إصلاحات وترميمات في الكنائس التي سلّمها المرسلون الذين غادروا البلاد إلى طائفة الأقباط الكاثوليك، أمثال كنيسة السجود بشبرا، وفي المحلة الكبرى، وفي طنطا وزفتى وشبن الكوم وكنيسة الملاك ميخائيل بالاسكندرية .

وأصبح عدد الأقباط الكاثوليك تحت رعايته
مائة وخمسين ألف نسمة .
وكانت علاقاته بالكنائس الأخرى
المسيحية طيبة . وشرع ، ابتداءً من سنة ١٩٧٣
في الحوار المسكوني مع الكنيسة القبطية
الأرثوذكسية . كما أن اتصالاته بالسلطات
المدينة كانت حسنة جداً ، يحترمه ويجلّه
الجميع . وقد اشترك - وأساقفة الكنيسة القبطية
الكاثوليكية - في جلسات المجمع المسكوني
الفاتيكاني الثاني من عام ١٩٦٢ إلى عام
١٩٦٥ - . كذلك حضر اجتماعات سينودس
الأساقفة التي ابتدأت في الفاتيكان بعد المجمع
الفاتيكاني الثاني .

الفصل الرابع

في عهد البطريرك إسطفانوس الثاني (١٩٨٦-٢٠٠٠)

و قد منحه قداسة البابا بولس السادس رتبة
الكردينالية للكنيسة الجامعة في ٢٢ شباط
(فبراير) ١٩٦٥ . وهو أول من حمل هذا
اللقب في الطائفة .
ونظراً إلى كبر سنّه واعتلال صحته ، عيّن
الكرسي الرسولي في ٢٤ شباط (فبراير) ١٩٨٤
نيافة الأنبا أندراوس غطّاس ، مطران طيبة -
الأقصر ، مديراً رسولياً للبطريركية . وفي ١٩
نيسان (أبريل) ١٩٨٦ قدّم غبطة البطريرك الأنبا
إسطفانوس الأول استقالته من المهام
البطريركية . وانتخب السينودس البطريركي يوم
٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٦ بالإجماع الأنبا
أندراوس غطّاس بطريركاً للكرسي
الاسكندري ، وقد اتخذ اسم «الأنبا إسطفانوس
الثاني» وقام وتقديراً لسلفه العظيم وتأكيذاً
للاستمرارية .

و قد أنبأ إسطفانوس الأول في الرب
بالقاهرة في ٢٣ آب (أغسطس) ١٩٨٧ .
غطّاس أندراوس (نيافة الأنبا أندراوس
غطّاس) من أبناء قرية الشيخ زين الدين ، مركز
طهطا ، محافظة سوهاج ، ومن مواليد ٦
كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ ، من عائلة تقيّة
فقيرة عرفت بانتمائها التام إلى الكنيسة القبطية
الكاثوليكية . التحق بالمدرسة الإكليريكية
الصغرى يوم ٢٤ آب (أغسطس) ١٩٢٩ ،
فدرس العلوم الثانوية بمدرسة العائلة المقدّسة
للآباء اليسوعيين بالفجالة . ولما فاق أقرانه
بمراحل عدّة ، اختاره رؤساؤه ليتلقّى الفلسفة
واللاهوت في كلية انتشار الإيمان برومة ورسم
كاهناً يوم ٢٥ آذار (مارس) ١٩٤٤ .

ولما رجع إلى مصر اختارته إدارة المدرسة
الإكليريكية اللاؤنية الكبرى بطهطا مدرّساً
للفلسفة . ولما نقل المعهد الإكليريكي إلى
طنطا ، محافظة الغربية ، واصل التدريس في
الفلسفة واللاهوت العقائدي واللغة القبطية مع
الإرشاد الروحي .
و شعر بدعوة ملحّة إلى الكمال المسيحي ،
فصرّح له رؤساؤه بأن ينتمي إلى رهبانية الآباء
العلازميين . فسافر إلى باريس لفترة الابتداء

ومرسى مطروح، وللخدمات والتدوات في أكنج مريوط وفي الدير الإكليريكي بالإسكندرية.

٥. تشييد دار القديس إسطفانوس لضيافة الكهنة المسنين بالمعادي - وداراً للمسنين من العلمانيين بمنشية البكري في القاهرة.

٦. الاهتمام الخاص بالأقباط الكاثوليك في بلاد المهجر (نيويورك ونيو جيرسي ولوس أنجلوس في الولايات المتحدة الأمريكية، ومونتريال وتورنتو في كندا، وسيدني وميلبورن في أستراليا، وفي باريس وفي رومة - وتعيين رعاة من الطائفة للعناية بهم - وتفقدهم بانتظام كل سنتين.

وفي عهده حتى تاريخه وضع غبطة البطريك يديه المباركتين لرسمه أربعين كاهناً وتيف وخمسة أساقفة

وأصبح عدد الأقباط الكاثوليك في عهده مائتين وعشرة آلاف نسمة بما فيهم عشرة آلاف نسمة في بلاد المهجر - وعدد الكهنة الإيبارشيين مائة وثمانين ما عدا أربعين راهباً من الفرنسيين وعشرين من الرهبانيات الأخرى - وعدد الراهبات المصريات مئة وعشر، والقبطيات خمسين، ما عدا الراهبات القبطيات الكاثوليكيات في الرهبانيات الأخرى الأربعين، والعاملات في حقل الكنيسة المصرية.

اشترك غبطته في جميع اجتماعات سينودس الأساقفة في رومة، لا سيما السينودس الخاص بالقارة الأفريقية حيث كان عضواً في اللجنة المركزية لإعداد السينودس،

وعين بعد ذلك للرسالة في لبنان، قضى فيه ست سنوات مثمرة. ثم رجع إلى مصر مديراً، ثم رئيساً لدير الآباء اللعازارين بالإسكندرية.

وانتخبه السينودس البطريكي في ٨ أيار (مايو) ١٩٦٧ مطراناً على كرسي طيبة - الأقصر. وتمت رسامته الأسقفية في كنيسة الآباء اللعازارين بالإسكندرية في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

وعينه الكرسي الرسولي مديراً رسولياً للبطيركية نظراً إلى اعتلال صحة غبطة الأنبا إسطفانوس الأول وتقدمه في السن. ولما قدم غبطته استقالته من مهام البطيركية، انتخب السينودس البطريكي بالإجماع الأنبا أندراوس غطّاس بطريكاً للكنيسة القبطية الكاثوليكية في ٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٦، وتمّ تجليسه على السدة البطيركية في كاتدرائية الفجالة بتاريخ ١٢ تموز (يوليو) ١٩٨٦.

ومن أهم أعماله الرسولية وإنجازاته الرعائية خلال إقامته في إيبارشية طيبة - الأقصر وفي الإيبارشية البطيركية:

١. تفقد أبناء الإيبارشية بانتظام، وغالباً بيتاً بيتاً، يعرفهم بأسمائهم...
٢. الاهتمام الأبوي بأبنائه الكهنة وبناته الراهبات من كل رهبانية، ساعياً لاستدعائهن للخدمة في الرعايا وفي كل المجالات.
٣. تشييد مطرانية الأقصر والدار البطيركية بالإسكندرية.

٤. بناء وتجديد عشر كنائس وسكن الكهنة وأديرة الراهبات ومستوصفات ومشاعل ودور للتنمية وأماكن للمصيف في بلطيم

من اللاتينية إلى اللغة العربية، حازت تقدير الجميع. وكذلك تأليف الدليل العام للكنيسة الكاثوليكية في مصر، بانتظام، في اللغتين العربية والفرنسية.

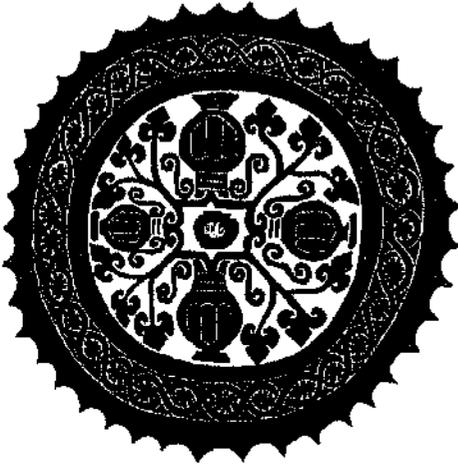
لا في رومة فقط، بل في عدّة بلدان أفريقية أيضاً. والفضل يرجع أيضاً إلى غبطته في تعيين لجنة من الكنيسة الكاثوليكية المصرية لترجمة «مجموعة قوانين الكنائس الشرقية الكاثوليكية»

القسم السادس

الفنّ القبطيّ

بقلم الأب موريس ييار مرتان اليسوعي*

* باحث



رسم مسيحي قبطي

العمارة، على سبيل المثال، نجد بالأديرة، التي تقع على مقربة من سوهاج، أن الدور الأرضية قد صممت ببساطة متناهية، والجدران الخارجية ضخمة خالية من أية زخرفة أو تزيين، مما يذكر بمعابد إدفو وندرة. أما رسوم القديسين التي تغطي الجدران الداخلية في الكنائس، فهي

النهرين وبلاد فارس.

تأثر الفن القبطي بالأساليب الفنية التي تطوّرت منذ القدم في حوض البحر المتوسط^(١)، وبالفن التقليدي المصري نفسه. وقد أخذت عناصر هذا الفن البدائية تتكوّن في نهاية عصر البطالسة وبداية الحكم الإمبراطوري الروماني، وبلغت أوج تطورها في القرنين الخامس والسادس، وبوجه خاص في الأوساط الديرية. إلا أن الاجتياحات العربية، التي دامت من ٦٤٠ إلى ٦٤٢، وأدت إلى تأسيس الإسلام دين الدولة، حالت دون استمرار هذا الفن في الارتقاء. بل أخذ، منذ ذلك، يشهد عصر انحطاط حتى مطلع العصر الحديث.

مميزات الفن القبطي

من مميزات الفن القبطي صفته التجريدية ورسومه التزيينية. ويلاحظ فيه، في بعض الحالات، عناصر من الفن الفرعوني. ففي فن

(١) تأثر الفن القبطي، بوجه خاص، بالفن البيزنطي والسوري، وبدرجة أقل بفن بلاد ما بين

من الخارج مطلقاً. وتعلوها قُبب ثلاث، الوسطى منها تكون عادة أعلى من الأخرين. وتحت كل قبة مذبح مكعب مملوء، تقوم وراءه في الحائط حنية.

يفصل صدر الكنيسة، الذي يقوم فيه المذبح الرئيسي أو الهيكل، عن صحن الكنيسة حجاب حامل الأيقونات، مرتفع، مصنوع من الخشب المشغول المطعم بالعاج، وفيه باب مركزي وناقذتان جانبيتان صغيرتان. وأمام الحجاب نجد «الخورس» وهو مساحة مربعة مخصصة للمرتلين والقارئین. وتعلو الرواقين الجانبيين غالباً «شرفة» أو مقصورة مستطيلة، كانت تخصص في ما مضى للنساء. وفي الكنائس القديمة جداً، نجد، في الطرف الشرقي من مدخل الكنيسة، حوضاً محفوراً في الأرض يسمى «حوض الظهور»، حيث كانت تمارس في الماضي في عيد الظهور (الغطاس) طقوس خاصة لتبريك المياه. وأما جرن المعمودية، فليس له مكان محدد في الكنيسة.

وقد نجد غالباً كنائس أخرى ثانوية، لها الهيكلية نفسها ولكن بقياسات أصغر، ملاصقة للكنيسة الرئيسية. وأخيراً، وفي بعض الكنائس بالصعيد، قد تضاف إلى كل من جانبي صدر الكنيسة كنيسة صغيرة، مما يجعل الكنيسة تبدو وكأن عرضها أكبر من طولها، فتظهر للناظر إليها من بعيد أو من فوق كما لو كانت تجمع قبب صغيرة.

شديدة البروز، تغلب عليها الألوان الصافية، ولا سيما الأزرق والأحمر والأصفر، وهي ألوان استخدمت أيضاً في صناعة النسيج منذ عهد يرتقي إلى القرن العاشر.

أما الإيقونوغرافية القبطية، فقد تحكمت بها طريقة تصميم الكنائس، التي، على خلاف الكنائس البيزنطية، حدثت من أماكن الرسوم الزيتية. وبوجه عام، نجد رسم المسيح المجدد (كما في بوط)، محاطاً غالباً بالملائكة، رمزاً لوحداية الله. كما نجد رسوماً تعبر عن مشاهد من حياة المسيح: الميلاد وعبادة المجوس (كما في فرس بالثوبية)، والعماد (كما في بوط وسقارة)، وطفولة المسيح وعجائبه (كما في دير أبو حنيس بالقرب من شيخ عبادة)، والصعود (بوط). وهناك أيضاً رسوم للسيدة العذراء، التي بدت ممجدة تحيط بها الملائكة، وقد برزت هذه الرسوم بوجه خاص إبان الحكم العربي.

هندسة الكنيسة القبطية

تمتوحي الكنيسة القبطية التقليدية هندسة البازيليكات الرومانية وهيكلتها: صحن مركزي واسع الأطراف، يقوم على جانبيه رواقان ضيقان، وينتهي لجهة الشرق بصدر الكنيسة، ويقال له أيضاً القدس، وهو يرتفع بوضع درجات عن مستوى أرض الكنيسة. كما ينتهي الرواقان الجانبيان لجهة الشرق أيضاً، وعلى جانبي صدر الكنيسة، إما بصدرين صغيرين، وإما بحجرتين مربعتين.

الكنيسة مشيدة على أساس مستطيل. والصدور الشرقية مبنية من الداخل، ولا تظهر

القسم السابع

الليترجية القبطية

بقلم الأب موريس يار مرتان اليسوعي*

* باحث

وهكذا، فعيد الصليب، الموافق لـ ١٧ توت، هو عيد النيل وفيضان المياه المباركة. واثنتين الفصح هو «شم التسييم»، عيد الربيع. وهناك صلوات خاصة بأوقات الزرع والحصاد (الحصاد يتم في شهر برمودة، وهو «الشهر الجديد» الذي يؤمن البقاء للسنة).

لم تحفظ الليترجية الإفخارستية القبطية إلا بثلاثة نوافير: نافور القديس باسيليوس الذي يتلى في كافة أيام السنة، ونافور القديس غريغوريوس المحفوظ لأعياد الميلاد والظهور والفصح، وأخيراً نافور القديس كيرلس الذي يتلى طوال شهر «كيهك». ولقد أدخل السينودس البطريركي بعض التعديلات في القداس الباسيليومي، وذلك في الثمانينيات، رغبة منه في التجديد والتأقلم مع المتطلبات الرعوية والروحانية. ويسرى الآن تجديد مماثل في رتب سائر الأسرار، ولا سيما في سر المعمودية وسر الزواج، وكذلك الأمر في الأصوام الكنسية... بما يتوافق ومقتضيات العصر إلى جانب الأمانة للتقليد العريق.

تسم الليترجية القبطية بخصائص مميزة. ويبدأ حساب السنن في سنة ٢٨٤ الميلادية، وهي السنة الأولى من حقبة الشهداء الأقباط الذين استشهدوا في عهد ديوقليتيانوس. بالإضافة إلى ذلك، يتبع الأقباط التقويم اليولياني، وهو متأخر حالياً عن التقويم الغريغوري بثلاثة عشر يوماً. وإن توزيع الأشهر هو أيضاً خاص بالأقباط. وقد أخذوه عن التقليد الفرعوني. فتبدأ السنة بعيد «النيروز» الموافق للأول من شهر توت (١١ أيلول/سبتمبر). ويأتي بعد شهر «توت» شهر «بابا»، ثم «هاتور»، ف «كيهك» (الذي ينتهي بعيد الميلاد)، ثم تأتي أشهر «طوبه»، «أمشير»، «برمهات»، «برموده»، «بشنس»، «يؤونة»، «أيسب»، و«مسرى». وهذه الأشهر الاثنا عشر التي يتألف كل منها من ثلاثين يوماً، تستكمل بشهر صغير إضافي من خمسة أيام أو ستة يسمى «النسي».

وتتوزع، وسط هذه الأشهر، أعياد وطقوس ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتواتر الزراعي.

ملحوظ بالمعتقدات المصرية القديمة في شأن الموت: «إطلاق النفس» التي تبقى تحوم حول المنزل حتى اليوم الثالث بعد الوفاة. وبحسب التقليد القبطي القديم، لا يتقرر المصير الأبدى للميت إلا في اليوم الأربعين بعد وفاته، وهو اليوم الذي يذهب فيه أهل الميت إلى الكنيسة، للمرة الأولى بعد وفاته، للاحتفال بذكراه أمام صورته.

ويبقى التعلق الشديد بالتقاليد الخاصة قوياً جداً لدى الأقباط، عن أمانة وعن رغبة في الاحتفاظ بشخصية متميزة وسط الطقوس والطوائف الأخرى.

وأما سر المعمودية، فلا يُمنح قبل مرور أربعين يوماً على ولادة الطفل الذكر، وثمانين يوماً على ولادة الأنثى، وهي المدة التي لا يجوز فيها للأمم الاقتراب من الكنيسة، وفي نهايتها تخضع الأم لرتبة تطهير. ومن جهة أخرى، يمنح العماد إما فردياً، وإما في رتبة جماعية في «أحد التناصير» الذي يسبق أحد الشعانين».

وأما الزواج فهو يجري بحسب الطقس القبطي. ويتكون الاحتفال الأساسي بالزواج بتكليل الخطيبين (الزواج = الإكليل).
وأما رتبة الجنائز، فهي متأثرة على وجه

المراجع باللغة العربية

- أسكاروس (توفيق): نوايغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩١٥.
- باخوميوس (الأنبا): الرهبانية القبطية، ١٩٤٨.
- بتلي (ألفريد): الكنائس القبطية القديمة في مصر، جزءان، القاهرة، ١٩٩٣.
- بركات (نعمة الله): كشف الأوهام عن الأوهام لأحد الشرقيين، ١٨٩٤.
- جرجس (ميشيل): الكنيسة المصرية، لندن، ١٩٢٤.
- جرجس (يوسف): الرحلة البطريركية إلى الامبراطورية الأثيوبية، القاهرة، ١٩٠٣.
- سعد الله (القمص بطرس حنا): اليوبيل الماسي للكلية الإكليريكية للأقباط الكاثوليك (١٨٩٩ - ١٩٧٤).
- سكندر (ألكسندروس): تاريخ الكنيسة القبطية، جزءان، ١٩٦١ - ١٩٦٢.
- صبحي (اسكندر): المنارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية.
- عوض (جرجس فيلوثاؤس): عثرة الكنيسة القبطية في القرن العشرين، ١٩٣٠.
- تاريخ الإصلاح القبطي المصري، ١٩٠٥.
- غطّاس (الأنبا اسطفانوس الثاني البطريرك): الأنبا روفائيل طوخي (١٧٠٢ - ١٧٨٧): حياته ومؤلفاته، القاهرة، ١٩٨٧.
- كابس (الأنبا يوحنا): المعلم غالي وعصره، القاهرة، ١٩٧٦.
- تاريخ حياة الأنبا كيرلس مقار، بطريرك الإسكندرية للأقباط الكاثوليك، القاهرة، ١٩٧٩.

- — لغات تاريخية عن التواب الرسولين لطائفة الأقباط الكاثوليك في القرن التاسع عشر، القاهرة، ١٩٧٨.
- — تاريخ الكنيسة الإسكندرية (مخطوط).
- — متى المسكين: حقبة مضيتة في تاريخ مصر: القديس أثناسيوس الرسولي (٢٩٦ - ٣٧٣)، دير القديس أنبا مقار، ١٩٨١.
- — مقار (جرجس): كتاب دليل المصريين في اعتقاد كنيمة الأقباط المرقسين.
- — مقار (الأنبا كيرلس): كتاب الوضع الإلهي في تأسيس الكنيمة، ثلاثة أجزاء، ١٩١٨.
- — منشور رعائي، ١٨٦٥.
- — رومة والإسكندرية، ١٩١٠.
- — رسالة رسولية من الأب الأقدس البابا لاون الثالث عشر عن البطريركية الإسكندرية للأقباط، ١٨٩٥.
- — مختصر تاريخ الأمة القبطية في عصري الوثنية والمسيحية: الجزء الأول: من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الرابع الميلادي، القاهرة، ١٩١٤.
- — كتاب قوانين الرسل وانجام المسكونية والمكانية، ١٨٩٤.
- — تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية (٨٤٩ - ٨٨٠)، القاهرة، ١٩٤٣.
- — منقريوس (يوسف): تاريخ الأمة القبطية (١٨٩٢ - ١٩١٢).
- — ناداب (المنسيور ياسيلوس): ذكرى فقيد الكنيسة القبطية الكاثوليكية.
- — نخله (كامل صالح وفريد كامل): تاريخ الأمة القبطية، القاهرة، ١٩٤٠.
- — يعقوب (جرجس نجيب): موجز تاريخ بطاركة الإسكندرية، ١٩٦٦.
- — نتيجة التحقيق في رد مساهم التوفيق من جمعية الوحدة المرقسية للأقباط الكاثوليك - الدليل العام للكنيسة الكاثوليكية في مصر، ١٩٩٤.

الكنيسة الكلدانية
السريانية الشرقية الكاثوليكية

بقلم الأب ألبير أبونا*

* أستاذ التاريخ الكنسي

مركزاً مسيحياً هاماً ومنطلقاً للرسالة المسيحية إلى الغرب ثم إلى الشرق. فمن هاتين النقطتين، انطلق رسل المسيح إلى العالم، عملاً بوصية الرب: «إذهبوا في العالم كله، وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين»^(١).

ونعلم أن معظم رسل المسيح وتلاميذه انطلقوا نحو الغرب، وإن غيرهم نقلوا البشارة إلى البلدان الشمالية والجنوبية. فهل توجه بعضهم نحو الشرق أيضاً؟ ليس في سفر الأعمال ولا في الرسائل أية إشارة إلى ذلك. بل نحن أمام «تقاليد» جارية في كنيسة المشرق منذ القدم، وتجمع هذه التقاليد على القول أن المسيحية دخلت المشرق «منذ البداية».

وتنسب هذه التقاليد تبشيراً ما بين النهرين إلى العديد من الأشخاص، منهم:

أ) بطرس، إستناداً إلى نص ورد في نهاية رسالته الأولى^(٢) وأسيء فهمه، وإلى وجود

ان كنيسة المشرق أو الكنيسة السريانية الشرقية هي الكنيسة التي نشأت في الرها (أورفا الحالية في تركيا) في القرن الأول الميلادي، وامتدت إلى منطقة ما بين النهرين، وتمركزت حول «المدائن»، ثم بسطت إشعاعها على المناطق الواقعة شرقي دجلة وغربي الفرات، وعلى ضفاف الخليج العربي. وانها بمجازفة كبيرة أن نحصر تاريخ هذه الكنيسة الطويل والخالق بالبطولات وبالمآسي في صفحات معدودات. لذا أجدني مضطراً إلى إلقاء نظرة سريعة على هذا التاريخ، وأحيل القراء الكرام إلى ما كتب في هذه الكنيسة مفصلاً في مختلف الكتب التي تناولت تاريخها.

أولاً: كنيسة المشرق قبل الإسلام

١. نشأة كنيسة المشرق

لا شك أن كنيسة المشرق تستمد جذورها الأولى من أورشليم التي كانت مهد الكنيسة الأولى، ثم من انطاكية التي أضحت سريعاً

(١) مرقس ١٦/١٥ = متى ٢٨/١٩ = أعمال ٨/١.

(٢) ١ بطرس ٥/١٣.



مار ماري مؤسس كنيسة المشرق

تلميذُه «أجي» عمله التبشيري في الرها، ولكنه استشهد فيها أيضاً.

(د) ماري، وهو تلميذ أدأي، مدَّ تبشيره إلى قلب المدائن العاصمة الارشاقية. وقد وردت في أعماله^(٥) وفي «مجدل» ماري بن سليمان^(٦) دلائل تشير إلى مجيئه إلى المدائن في نحو نهاية القرن الأول، واستطاع أن ينال حظوة لدى أمير قطيسفون الذي وهب له فيها قطعة أرض في منطقة كوني (الأكواخ)، في

١٨٩٠، ص ٤٥-٩٤، ادي شير، شهداء المشرق
١، ص ١٤-٤٠؛ ألبير ابونا، شهداء المشرق، ١،
ص ١٥-٣٥.
(٦) ماري بن سليمان، أخبار بطاركة كرسي
المشرق (المجدل)، تحقيق جيموندي، رومة ١٨٩٩،
ص ٣.



القديس توما الرسول

كنيسة قديمة في الموصل على اسمه (كنيسة
شمعون الصفا).

(ب) توما، ويُعتبر عامَّةً رسول المشرق.
ولكن هل اجتاز توما في ما بين النهرين، في
طريقه إلى الهند؟ فان «أعمال» توما^(٣) تميل
بالأحرى إلى ان هذا الرسول اتَّخذَ طريقَ البحر
في ذهابه إلى الهند، ويستبعد عبوره، والحالة
هذه، في منطقة ما بين النهرين.

(ج) أدأي (تداوس) الذي يبدو انه انطلق
إلى الرها وشفى ملكها أبحر الخامس أو كما
(الأسود) وبشر سكان عاصمته^(٤). وواصل

(٣) راجع بيجان، سير الشهداء والقديسين ٣،
باريس ١٨٩٢، ص ٣-١٧٥، خاصة ص ٥.
(٤) ادي شير، شهداء المشرق ١، الموصل
١٩٠٠، ص ٨-١٢؛ ألبير ابونا، شهداء المشرق،
بغداد ١٩٨٥، ص ١١-١٤.
(٥) بيجان، سير الشهداء والقديسين ١، باريس

- ضاحية المدينة، فأسس فيها الكنيسة الأولى. ومن هناك ذهب إلى مناطق أخرى للتبشير، ثم حط رحاله في دورقني حيث توفي ودفن. وهكذا بوسعنا القول ان المسيحية انتشرت في ما بين النهرين في نهاية القرن الأول أو في مطلع القرن الثاني.
- دياطسرون ططيانس (١٥٠-١٧٠) يشير أيضاً إلى انتشار المسيحية في هذه البلاد.
- شهادات مؤرخين لاحقين، أمثال سقراطس وموزومين (القرن الخامس) والمؤرخين السريان في القرون التالية، وكلها تشير إلى انتشار المسيحية في هذه البلاد منذ قرون الميلاد الأولى.

٢. شهادات المؤرخين

- لدينا شهادات مؤرخين كثيرين على دخول المسيحية في عهد مبكر إلى ما بين النهرين، نخص بالذكر منهم:
- وكان اليهود المنتشرون في ما بين النهرين عنصراً هاماً ساعد على انتشار المسيحية في البداية، وتأثير اليهودية واضح في أقدم طبقات الليترجية السريانية الشرقية.

٣. المسيحية والسامانيون

- عاشت المسيحية قرناً الأولين تحت حكم الملوك الفرثيين، من الاشعانيين والارشاقين، في جو من التسامح، دون ان تتعرض لاضطهادات عنيفة ومنظمة. واستفادت من ذلك لتوطيد كيائها وتنظيم شؤونها الدينية وإنشاء عدد من المراكز الكنسية في طول البلاد وعرضها.
- كتابة ابرسيوس أسقف منبج في نهاية القرن الثاني، وفيها يقول انه وجد اخوة له مسيحيين ما وراء الفرات، أي شرقية.
- أوسابيوس القيصري، في تاريخه الكنسي الشهير^(٧)، يقول ان كائس ما بين النهرين وافقت في نهاية القرن الثاني مع كائس الغرب على القضية الفصحية.
- تاريخ الرها يذكر فيضان نهر ديسان سنة ٢٠١م وتدميره كنيسة للمسيحيين في المدينة، وان نونا أسقفها أقام عوضها كنيسة أخرى سنة ٢٠٢.
- برديسان (٢٢٢٢) يذكر في كتاب شرائع البلدان انتشار المسيحية في مختلف أنحاء ما بين النهرين، ويورد عادات المسيحيين المختلفة عن عادات الشعوب الوثنية التي كانوا يعايشونها.

- وفوجئ السامانيون في بدء عهدهم (سنة ٢٢٤م) بانتشار المسيحية الواسع في البلاد التي سيطروا عليها. إلا أن أردشير الأول، مؤسس هذه السلالة، عامل المسيحيين بكثير من الرفق والتسامح. أما خلفه شابور الأول (٢٤١-٢٧٢) فقد انقلب تسامحه الأول إلى شيء من الحذر تجاه هذه الديانة الجديدة التي كانت تهدد بتقويض كيان الديانة المزديية، فأبدى شيئاً من

في القاهرة سنة ١٩٦٠.

(٧) نشر بيجان نصه السرياني في باريس سنة ١٨٩٧، وترجمه إلى العربية القس مرقس داود ونشره

وكانت تعتبر ذاتها مسؤولة عن المشرق المسيحي. ولكنها في الواقع لم تتدخل في شؤون كنيسة المشرق إلا على طلب هذه، لا سيما في شأن الرسامات الأسقفية. وقد ضعفت هذه العلاقات شيئاً فشيئاً، بالنظر إلى العداء بين الأباطوريتين الفارسية والرومانية وتوسّع أرثوذكسية المشرق، ثم بسبب اختلاف العقيدة منذ القرن الخامس. ولم يكن تدخل «الآباء الغربيين» (انطاكية) فعّالاً في حسم النزاع الذي قام في عهد الجليلي فافا الذي أقاله أساقفة كنيسته لسوء إدارته وأقاموا في مكانه مار شمعون بر صباي جليلياً لكنيسة المشرق سنة ٣٢٨.

٥. الاضطهاد الأرميني

لم تتعرض كنيسة المشرق للاضطهاد ما دامت الدولة البيزنطية وثنية، أي حتى مطلع القرن الرابع. فان شاپور الثاني ملك الفرس (٣٠٩-٣٧٩) كان صغير السن، فاستغل البيزنطيون ضعفه ليتزعموا منه بعض ولايات. وجاء مرسوم ميلانو (سنة ٣١٣) ليعلن حرية الأديان في الامبراطورية البيزنطية، ثم أخذت الديانة المسيحية تحظى بالأولية إلى ان أصبحت ديانة الدولة، يدعمها الملك قسطنطين الكبير بجميع الوسائل ويدود عن كيائها ومعتقداتها القويم في وجه جميع الانحرافات التي تهدد كيائها وصفاء إيمانها (مجمع نيقية ٣٢٥).

وحيثما بلغ شاپور الثاني أشده، استأنف العداء التقليدي للأباطورية البيزنطية، وحاول استعادة مقاطعاته المنتزعة. لكن قسطنطين الكبير كان واقفاً له بالمرصاد، وأحبط جميع

الصرامة تجاه المسيحيين، متأثراً في ذلك بضغط رؤساء الدين المزددي. ولكنه أسهم، من حيث لا يدري، في نشر المسيحية في بلاده. فإن المسيحيين الذين جلبهم من منطقة الروم إلى المشرق، وكان من بينهم ديمتريانس، أسقف أنطاكية، والامبراطور فاليريانس نفسه، أسكنهم في منطقة الأهواز. وكان معظمهم من المسيحيين، ولم يتخلوا عن ديانتهم في الغربية، بل عاشوها بحرية ودعموا المسيحيين المتواجدين في البلاد. وكانت جماعات مسيحية أخرى قد نزحت منذ القرن الثاني من المنطقة الغربية إلى المشرق، هرباً من وطأة الاضطهاد، منهم الأسقف تقيطي الذي حلّ في منطقة كرخ سلوخ (كر كوك الحالية).

ونستطيع القول ان المسيحية في القرن الثالث عاشت في ظلّ الملوك الساسانيين في جو من التسامح والتغاضي، وان تعرضت أحياناً لبعض المضايقات الناجمة عن تزمت الكهّان المزددين.

٤. القرن الرابع

بدأت كنيسة المشرق توحد كيائها وتنظم شؤونها. وانتشرت الكنائس والمراكز الأسقفية في البلاد، وكانت ترتبط فيما بينها بروابط المحبة المسيحية وبوحدة العقيدة. وسرعان ما شرعت كنيسة المدائن (كوخخي) في البروز لكونها كنيسة العاصمة الملكية، وتبنى أسقفها لقب «الجليلي» (العام - الشامل). وكانت كنيسة المشرق تنظر دوماً إلى كنيسة انطاكية بكثير من الاحترام وتستلهمها في أمور كثيرة. فان انطاكية مدينة كبيرة، وفيها مدرسة شهيرة،



مار شمعون برصاعي

على المسيحيين . وفي سورة غضبه ، أصدر أمراً في مطلع سنة ٣٤١ يقضي بإلقاء القبض على مار شمعون برصاعي وعلى مائة وثلاثة آخرين من الأساقفة والكهنة ووجهاء المؤمنين في العاصمة الفارسية ، وسيقوا إلى منطقة الاهواز حيث كان الملك يقيم آنذاك . وتعرضت الكنائس للدمار والتهمتها السنة النيران ، واستحوذ الهلع على المسيحيين . وكان هذا بدء الاضطهاد الأرمني الذي دام حتى وفاة شابور الثاني سنة ٣٧٩ . وجرى استنطاق السجناء في الاهواز ، وحاول الملك ان يحمل الجثث على التخلي عن مبادئه السامية والرضوخ للإرادة الملكية . ودارت بينهما مناظرة رائعة (٨) برهنت

١٠٥-١٣٧ .

مسامحه وأفضل خططه العسكرية . ولدى موت قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ ، ظن شابور الثاني ان الجوق قد خلا له ، فزحف إلى الغرب وحاصر مدينة نصيبين . ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها . وعزي ذلك إلى صلوات أسقفها القديس مار يعقوب أو إلى صلوات ملفانها القديس مار افرام . مهما يكن من أمر ، فقد عاد عنها شابور يجرّ أذيال خيبة مريرة ومراجل الغضب والحقد تغلي في صدره على المسيحيين الذين ظنّهم موالين للدولة البيزنطية من حيث شركة المعتقد المسيحي .

ولاحت في الأفق بوادر عاصفة هوجاء تهدد المسيحيين بالدمار . واختلق شابور حججاً وذرائع مردّها إلى أسباب دينية وسياسية واقتصادية ، واتهم المسيحيين بالتجسس لحساب الغرب ، رغم كونهم ينعمون بخيرات البلاد الفارسية . ففرض عليهم جزية مضاعفة ، وذلك لتمويل خزائنه الحالية وتجنيد المزيد من الجيوش استعداداً لمحاربات قادمة . واقتضى ان يقوم الجثثيق مار شمعون برصاعي نفسه بجباية هذه الضرائب . إلا ان الجثثيق الشجاع رفض ذلك ، أولاً لأن المسيحيين ليسوا على ثراء يمكنهم من دفع هذه المبالغ الباهظة ، وثانياً لأنه أقيم رئيساً لشؤونهم الدينية ، لا جانياً للضرائب . وما إن تلقى الملك الفارسي هذا الرفض حتى ثار ثائره واحتدم غيظاً وقرر الانتقام من المسيحيين باستصصال شأقتهم من البلاد الفارسية باضطهاد لا يقي ولا يدر . وقد ساهم اليهود في إذكاء نيران الحقد والغضب في قلب الملك الفارسي

(٨) طالع عنها ادي شير ، شهداء المشرق ١ ،

ص ١٩٣-٢٣٤ ؛ ألبير أبونا ، شهداء المشرق ١ ، ص

عن قوة إيمان عظيمة لدى الجليلي. وفي نحو منتصف نيسان (أبريل) سنة ٣٤١، في يوم خميس الفصح، أصدر الملك أمراً بإعدام الجليلي ورفاقه. فأمضوا تلك الليلة الأخيرة في السجن عاكفين على الصلاة والسهر، وكان الجليلي يشجع رفاقه بأحاديثه وإرشاداته الأبوية. وأقاموا قداسهم الأخير في السجن ونهأوا للشهادة.

وفي صبيحة جمعة الآلام سنة ٣٤١، سبقوا إلى موضع الاستشهاد. وهناك وقف الجليلي كالجبار يشجع اخوته الذين قدّموا عشرة عشرة وحزّت رؤوسهم. وفي الأخير، نال الجليلي أيضاً إكليل الشهادة. وكان ذلك إيذاناً ببدء مجزرة رهية تقشعر لها الأبدان دامت عشرة أيام، من الجمعة العظيمة حتى الأحد الجديد بعد القيامة. وحصدت سيوف الفرس أعداداً غفيرة من المسيحيين الذين قدّموا أعناقهم طوعاً، في اندفاع شديد إلى الاستشهاد. وجرى بقوافل أخرى من المسيحيين من مناطق أخرى إلى منطقة الأهواز التي ارتوت حقاً بدماء الشهداء وضمت أجسادهم المقدسة. وكانت الاعدامات تجري دون استنطاق ودون التعرف إلى هوية الاشخاص أو مواطنهم، إذ كان الاعتراف باسم المسيح وحده كافياً لضرب أعناقهم دون تمييز.

إلا أن أحداثاً جرت أثناء المجزرة حملت الملك الفارسي على إعادة النظر في قراره

العاتي. فقد ذهب اثنان من أمنائه أيضاً ضحية هذه الاعمال البربرية. فان كوشتا زاد الذي جحد لإيمانه المسيحي ظاهرياً ثم عاد إلى رشد، بذل دمه في سبيل المسيح. وتذكر أزداد في ثياب راهب واختلط بجمهور الشهداء ونال الاكليل. فكان لاستشهاد هذين الأمينين وقع عميق في نفس الملك الذي أصدر أمراً إلى جلاوزته بالتريث في تنفيذ أحكام الموت بالمسيحيين، فلا يقتل من بعد أحد منهم قبل استنطاقه والتعرف إلى هويته والتثبت من إصراره على البقاء في دينه ورفضه السجود لمعبودات الفرس . . .

وهكذا فقد حقت وطأة الاضطهاد قليلاً، مع استمراره على درجات متفاوتة في العنف في مختلف مناطق الامبراطورية الفارسية، ولا سيما في منطقتي بيت كرماني وحدياب حيث كان أخو الملك يحكم ويمارس شتى أنواع العنف والبطش على المسيحيين . . . ودام الاضطهاد نحو أربعين سنة، إلى وفاة شابور الثاني سنة ٣٧٩. ولسنا مطلعين بدقة على عدد الشهداء الذين قتلوا في هذه الفترة. فهناك من يقدر عددهم بنحو ١٦ ألف شهيد، وهناك من يقول انه بلغ نحو ٢٠٠ ألف شهيد! . . . أما السبايا الروم الساكنون في تلك المنطقة فلم يتعرضوا للاضطهاد، بل ساهموا في تشجيع الشهداء واهتموا بدفن أجسادهم^(٩).

أراد شابور الثاني القضاء على المسيحية في بلاده، إلا أن دماء الشهداء التي ارتوت بها

١٤٩.

(٩) طالع ما كتبه عنهم مارون الميافريني في المروج الذهبية ١، المرصل ١٩٠١، ص ١٢١-

أرض فارس أصبحت بداراً خصباً للمسيحين الذين ازدادوا عدداً وعزيمةً في وسط تلك المآسي وبعدها. فقد عجز الاضطهاد عن القضاء على الوجود المسيحي في البلاد، بل خرجت كنيسة المشرق من هذه الخنة الدامية ناصعةً جميلة، راسخةً في إيمانها، وثابتةً في مبادئها وشجاعةً في المجاهرة بالقيم السامية.

٧. الانشقاقات

بمروثا الميافرقيني في تنظيم شؤونها. وفي سنة ٤١٠، عقدت مجمعها الأول في ساليق، وفي سنت القوانين الكفيلة بإقرار النظام في إدارتها. وتحسنت علاقاتها بالسلطات الحاكمة، ونما فيها الوعي لرسالتها ولدورها الفعّال في البلاد. . .

٦. بعد الاضطهاد

في القرن الثالث، ازدهرت في العالم المسيحي مدرستان كبيران، هما مدرستا الاسكندرية وانطاكية، بنزعتيهما المتباينتين: فقد اتّصف أساتذة مدرسة الاسكندرية بنزعتهم الافلاطونية، فركّزوا على مقتضيات الباطنية والمفارقة في اللاهوت، وآثروا في علم التفسير التأويل الصوفي والرمزي، وشدّدوا على ألوهية المسيح ووحدة كيانه الجوهرية. وقد اشتهر فيها كيرلس الذي أصبح بطريركاً على الاسكندرية في مطلع القرن الخامس.

أمّا مدرسة انطاكية، فقد اشتهر فيها ديودورس الطرسوسي وتيودورس المصيبي وتيودوريطس القورشي وغيرهم، وكانوا يتصفون بالنزعة الأرسطاطالية، فيركّزون على النواحي الإنسانية وعلى الأخلاق أكثر منهم على التصوّف، وفضّلوا في علم التفسير المعنى الحرفي والتاريخي، وفي الكلام عن سر التجسد كانوا يشدّدون على الناحية الإنسانية في المسيح وعلى تمييز الإنسانيات والإلهيات أكثر منهم على الوحدة الجوهرية. . . وكان هذا الاختلاف في الأملوب المدرسي يزداد

ما ان خمد الاضطهاد حتي راحت الكنيسة تستعيد كيانها وتنظّم شؤونها وتشر الديانة التي تعزّز على السيوف والحرايب القضاء عليها. فقد انصهرت هذه الكنيسة في بوتقة الاضطهاد وخرجت منه أكثر استعداداً للقيام بمهمتها في البلاد.

وفي مطلع القرن الخامس، قام مار أحا الجثليق ومار ماروثا، أسقف ميافرقين، بجمع القصص والروايات والأناشيد التي دارت حول الشهداء. وجمع ماروثا أيضاً الكثير من ذخائر هؤلاء الشهداء ونقلها إلى ميافرقين مدينته، ومنها وصلت إلى مختلف أنحاء العالم المسيحي. وقد أضافت الأجيال المسيحية التالية الكثير من القصص والتفاصيل إلى سير هؤلاء الشهداء(١٠).

وبعد تذبذب دام نصف قرن، استطاعت كنيسة المشرق ان تستأنف مسيرتها وتستعيد رئاستها. ففي مطلع القرن الخامس، استلم الجثليق مار اسحق رئاسة الكنيسة، واستعان

١٨٩٠-١٨٩٦.

(١٠) نشرها الأب بولس بيجان في ٦ مجلّدات بعنوان سير الشهداء والقديسين، في باريس

حدة بسبب النعرة العنصرية والتنافس على مراكز الرئاسة في الكنيسة والهيمنة على الزعامة الفكرية فيها. وقد زاد تدخل مدينة القسطنطينية هذا الصراع تعقيداً، إذ اتخذ طابعاً سياسياً، باعتبارها عاصمة الإمبراطورية الجديدة.

وحيثما أقيم نسطور - وهو من المدرسة الانطاكية - بطريركاً على القسطنطينية، شرع يجاهر بالفكرة اللاهوتية الشرقية، وينفي تبادل الصفات في المسيح. ودارت نقاشات حول ألفاظ الطبيعة والأقنوم في المسيح، وكل من الفريقين أضفى عليها معنى خاصاً يختلف عما لدى الفريق الآخر. وتشبّث كل فريق بوجهة نظره دون أن يحاول تفهّم وجهة نظر الفريق الآخر. واستطاع كيرلس أن يستميل رومة إلى جانبه وأن يحرم نسطور وأنصاره في مجمع أفسس (سنة ٤٣١) وأن يصمّمهم بالانحراف عن الإيمان القويم. وتأزّمت الأمور في الكنيسة، وتفاعلت الأفكار، وأدّى تمسك الإسكندرانيين المفرط بالتقليد وبحرفية تعابير كيرلس الإسكندري إلى الانحراف بالمسيحيين في مصر وإلى القول بالطبيعة الواحدة في المسيح بعد التجسّد، ممّا استدعى عقد مجمع آخر في خلقيدونية (سنة ٤٥١) لتوضيح العقيدة وتحديد الطبيعتين في شخص المسيح الواحد. والخلافات التي كانت في البدء على لفظتي الطبيعة والأقنوم أو الشخص أدّت إلى خلافات مذهبية عميقة وقسمت الكنيسة إلى ثلاثة أقسام: منهم من قالوا بطبيعتين وأقنومين في

المسيح مع شخص واحد هو الابن (النساطرة)، ومنهم من قالوا بطبيعة واحدة وأقنوم واحد بعد التجسّد (المونوفيزيون)، في حين ان الفتنة الثالثة تمسكت بما حدّده مجمعاً أفسس وخلقيدونية وقالت بطبيعتين في المسيح: إلهية وإنسانية وأقنوم واحد هو شخص ابن الله... وعمّت الفوضى في الكنيسة وانتشرت الأفكار المتضاربة. وتغلغل المذهب النسطوري الشرقي في الامبراطورية الفارسية حتى ساد فيها، في حين ان المذهب المونوفيزي انتشر في بلاد الروم وعاش جنباً إلى جنب مع العقيدة الخلقيدونية...

وقد تأثرت مدرسة القرس في الرها (١١) بهذه التيارات الفكرية المتعارضة، ممّا أدّى إلى انحطاطها ونزوح عدد من كبار أساتذتها إلى المنطقة الشرقية، لا سيّما برصوما والملفان نرساي. وتوصّل برصوما إلى ان يقيم مطرناً لنصيبين وأفلح مع نرساي في إعادة إنشاء مدرستها التي أصبحت من المراكز العلمية الكبرى في الشرق السرياني. إلا أن برصوما الطموح قاوم جثالة المشرق وتسبّب في موت واحد منهم هو بابويه، كما انه اضطهد دعاة المذهب المونوفيزي، لا سيّما في منطقة نينوى، وقتل عدداً منهم بمؤازرة السلطة الفارسية الحاكمة. وانفردت كنيسة المشرق في معتقدها النسطوري، وسارت نحو الاستقلال عن الكنيسة الغربية. وقد كرّس مجمع باباي سنة ٤٩٧ انفصال كنيسة المشرق هذا بصورة رسمية

عليها.

(١١) وكان القديس افرام الملفان قد أسسها سنة ٣٦٣، إثر نزوحه من نصيبين عند استيلاء القرس



مار آبا الكبير

والصعوبات، ومرقد جثمان العديد منهم بعد موتهم.

أما الجثليق مار آبا الكبير فقد تعرّض لشدائد كثيرة، ونفي إلى منطقة بعيدة حيث ظلّ مدة طويلة. ولكنه ظلّ في تلك الظروف العسرة الراعي الهمام الذي يستغلّ كل الفرص لقيادة شعبه المؤمن ورفع شأن كنيسته ونشر القيم المسيحية السامية بين تلك الشعوب المستكّعة في ظلام الوثنية والسائرة على عوائدها وتقاليدها الدميمة. وإذا تسرّب شيء من الوهن في الكنيسة في عهد خلفه الجثليق يوسف، فإن الرؤساء الذين خلفوه كانوا على مستوى المسؤولية وعرفوا ان يولوا كنيستهم طابعاً من الاستقرار والازدهار.

ونهاية. وراحت أدراج الرياح جميع المحاولات التي بذلها الإمبراطور زينون في سبيل التوفيق بين مختلف المذاهب. ولم يحظ «موسم الاتحاد - هينوتيكون» الذي أصدره بالقبول في كنيسة المشرق، كما ان الفوضى الفكرية في مدرسة الرها أدت إلى إغلاقها سنة ٤٨٩.

٨. القرن السادس

مرّت كنيسة المشرق، في النصف الأول من القرن السادس، بفترة من الركود، من جراء الرئاسة المزدوجة وما نجم عنها من الفوضى والفساد استغلّها المونوفيزيون لترسيخ أقدامهم في الإمبراطورية الفارسية. إلا ان قيام مار آبا الكبير (٥٤٠-٥٥٢) بالرئاسة أولى كنيسة المشرق يقظةً وحيوية. وقد انضمت القبائل العربية (المناذرة) المتمركزة حول الحيرة إلى مذهب كنيسة المشرق، في حين انضمّ الغساسنة الساكنون في منطقة بصرى الشام إلى المذهب المونوفيزي. وراح كلٌّ من الفئتين العربيتين تناضل في سبيل الذود عن مذهبها وأراضيها وتقوم بدور الدرع الواقعي لكل من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية. وقد سعى ملك الغساسنة حارث ابن جبلة في نشر المذهب المونوفيزي ودعمه، خاصة بوساطة المطرانين اللذين رسما في العاصمة البيزنطية بمؤازرة الإمبراطورة تيودورة. وقام هذان المطرانان بدور فعّال في نشر المونوفيزية بين القبائل العربية المتواجدة في كلتا المملكتين وهما يعقوب البرادعي وتيودورس العربي. ومن جهة أخرى أصبحت عاصمة المناذرة، الحيرة، ملجأً وملاداً أميناً لرؤساء كنيسة المشرق ابان المحن

٩. الكنيسة في عهد كسرى الثاني

بمؤامرة تحاك ضد كسرى اشترك فيها أبناء يزيدين وواحد من أبناء كسرى. واستطاع الثوار ان يقضوا على كسرى مع عدد كبير من أبنائه، وأقيم ابنه شيرويه ملكاً على الفرس. وتحسنت علاقات الملك الجديد بالغرب المسيحي وبالمسيحيين في بلاده. واستطاع المسيحيون ان ينتخبوا لهم بطريكاً هو ايشوعياح الثاني الجدالي سنة ٦٢٨. وطوال فترة شغور كرسي المشرق، كان باباي الكبير، رئيس دير ايزلا، يقوم بزيارة الكنائس وتفقد أحوال الرهبان والسهر على استمرار النظام في الأبرشيات وفي الأديرة، ذائداً عن الايمان القويم في وجه «المصلين» والبدع الأخرى التي حاولت الاندساس في صفوف الرهبان والمؤمنين. وفي نحو سنة ٦٣٠، أرسل ملك الفرس وفداً إلى البلاد البيزنطية للتفاوض مع الملك هرقل، برئاسة الجليلي الشرقي نفسه وبعضوية ليف من مطارنته وأساقفته. واستطاع الوفد الشرقي ان يلتقي هرقل والأساقفة الغربيين، وان يشترك معهم في الطقوس الدينية. . .

مرت البلاد الفارسية بفترة حرجة في نهاية القرن السادس، وكثر المتنافسون على العرش الفارسي. وأخيراً استطاع كسرى الثاني، بمساعدة الإمبراطور موريقي البيزنطي، ان يتنصر على خصومه وان يقبض على زمام السلطة في البلاد. وكان في بدء عهده يعطف على المسيحيين، مراعاةً لزوجتيه المسيحيتين: شيرين الآرامية ومريم البيزنطية. ولكن سرعان ما تأزمت العلاقات بين الملك ورعاياه المسيحيين الشرقيين، لا سيما على اثر إقامتهم غريغور بطريكاً عليهم سنة ٦٠٥، دون رضی الملك. فأقسم الملك الفارسي ألا يقوم في عهده بطريك آخر على كنيسة المشرق. وظلت الكنيسة دون رئيس بعد وفاة البطريرك غريغور سنة ٦٠٩ حتى مصرع كسرى الثاني سنة ٦٢٨. وكان طبيب البلاط جبرائيل السنجاري، الذي مال مع الملكة شيرين إلى المونوفيزيين، من وراء قرار الملك هذا. فلم يدخر هذا الطبيب جهداً في مناوأة التماسرة ومساعدة بني مذهبه.

وفي الربع الأول من القرن السابع، اجتاح كسرى منطقة الروم وتوغّل فيها حتى بلغ إلى اورشليم واستولى عليها، وعات في الأرض فساداً سنين طويلة، إلى أن طفح الكيل، فهب هرقل ملك الروم وصدّ الجيوش الفارسية، ثم دحرها ولاحقها حتى بلغ في زحفه إلى العاصمة الساسانية التي فرّ منها ملكها ولاذ بمناطق نائية. وكان لهذه الهزيمة صدها العميق في نفوس الفرس، بالإضافة إلى ما أبداه كسرى من الجشع والاستبداد والبطش الذي لم يسلم منه حتى خازنه المسيحي يزيدين. وإذا

١٠. رواد الفكر في كنيسة المشرق

منذ القرن الثاني الميلادي، ظهر في كنيسة المشرق كتّابٌ وأدباء وشعراء رقدوا اللغة السريانية بمفرداتها الأصيلة، وغذوا الفكرة الدينية، وطوّروا التعبير اللاهوتي. ففي نهاية القرن الثاني، برز برديسان (٢٢٢٤) الذي يعتبر أبا الشعر السرياني، بالرغم من الطابع الغنوصي الذي يبدو في كتاباته. أما في القرن الرابع، فقد تبلورت الفكرة لدى الجليلي الشهيد

دير ايزلا، أكبر لاهوتي في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع. وكتابه الشهير «في الاتحاد» خير دليل على رجاحة عقله وسعة آفاقه وعمق مفاهيمه اللاهوتية.

١١. الحياة الرهبانية

غالباً ما قيل ان حيوية الكنيسة منوطه بحيوية الرهبانية فيها. أجل، لقد كان الرهبان دوماً قلب الكنيسة النابض ومقياس حرارتها ومعيار ثقافتها. وكانت الأديرة دوماً مراكز للحياة الروحية الأصيلة وللعمل الذؤوب والإشعاع الفكر والثقافة في مختلف ميادينها. وما ان انتشرت الحياة الرهبانية في الديار المصرية، حتى اقتبستها بلاد ما بين النهرين. فكان الرجال والنساء يعيشون في البدء حياة رهبانية في وسط العالم وبين ذويهم، عاكفين على الزهد والصلاة وملتزمين بالمشورات الانجيلية. وفي القرن الرابع، انتظمت هذه الحياة وتطوّرت إلى حياة جماعية في نطاق أديرة. وسرعان ما انتشرت هذه الأديرة في طول البلاد وعرضها، في سهلها وجبالها. وقام دير ايزلا الكبير الذي أسسه مار إبراهيم الكشكري الكبير بالقرب من نصيبين في منتصف القرن السادس بدور كبير في تنظيم الحياة الرهبانية في كنيسة المشرق وتحديد صيغتها القانونية وأهدافها الحقيقية. وأصبح هذا الدير منطلقاً لإنشاء أديرة أخرى عديدة في البلاد منذ مطلع القرن السابع، نخص بالذكر منها دير يث عالي في منطقة العقرة الذي أسسه يعقوب اللاشومي، وقد أصبح مركزاً هاماً للثقافة زود كنيسة المشرق بعدد من رؤسائها وأماقتها

مار شمعون برصباغي (٣٤١٠) من خلال أحاديثه وتراثيله الدينية. وقد اشتهر فيه يعقوب افراهاط الملقّب بالحكيم الفارسي (٣٤٦٠) بعروضه اللاهوتية المسماة «البيّنات» التي جاءت مشبعة باستشهادات من الكتاب المقدس، وفيها تناول معظم المواضيع الدينية. وكفى هذا القرن فخراً انه أنجب الملقان العظيم القديس افرام السرياني (٣٧٣٠) الذي يعدّ من أكبر عمالقة اللاهوت والآداب السريانية. فكتب نثراً ونظماً، وكتابه أكثر من أن تحصى، وإن لم يبق منها سوى القليل. وما يزال اللاهوتيون يدهشون أمام سمو أفكاره وعمق أبحاثه التي تناولت مختلف ميادين العلوم، التفسيرية منها واللاهوتية والفلسفية والأدبية. واستطاع ان يغذّي إيمان جيله والاجيال اللاحقة بما علّمه وأنتجه يراعه. وقد أشرف على إدارة مدرسة نصيبين منذ نشأتها (في نحو ٣٢٥). وحينما استولى الفرس على هذه المدينة، تركها القديس افرام مع أساتذة مدرسته ومعظم طلابها، وتوجّهوا إلى الرها حيث استأنف الملقان نشاطه في «مدرسة الفرس» التي أنشأها في الرها وأدارها حتى وفاته سنة ٣٧٣. وفرض الملقان نرساي شخصيته في القرن الخامس. فبعد ان علّم مدة طويلة في مدرسة الرها، انتقل إلى نصيبين وأنشأ هناك، مع زميله برصوما النصيبيني، مدرسة أصبحت جامعة مرموقة في كنيسة المشرق. وأنتج يراع نرساي العديد من البحوث والمقالات، وما بقي منها يشير إلى علمه الغزير وتفكيره العميق وتعبيره العذب. وهو الذي استتبطن البحر الاثني عشري في الشعر السرياني. ويعتبر باباي الكبير، رئيس

ورسلها وبخيرة علمائها وأدبائها، ودير الربان هرمزد بالقرب من القوش الذي استمرت فيه الحياة الرهبانية إلى هذا العصر. ويذكر المؤرخون أسماء أكثر من عشرين ديراً في منطقة الحيرة وحدها، في عهد ملوكها اللخمين والناذرة. وكانت بغداد ذاتها - قبل تأسيسها عاصمة للعباسيين وبعده - زاخرة بهذه الأديرة التي اندثرت آثارها الآن. أما الجبال، فكانت الموضع المفضل للحياة الرهبانية، فكثر فيها الأديرة والصوامع والمناسك^(١٢). وكان كل دير يحتوي على مكتبة عامرة بالمخطوطات. ويعكف الرهبان على استنساخ مخطوطات كثيرة. إلا أن الاضطرابات والحروب التي دارت رحاها في البلاد على تعاقب الأزمان دمرت الأديرة ومعظم مكتباتها. وقد وصل قسم من هذه المخطوطات إلى مكتبات أوروبا الشهيرة: لندن وباريس وبرلين والفايتكان، وغيرها...

الروثية. فأرادت الكنيسة ان تحمل إليهم نور الانجيل وتزف إليهم بشرى الخلاص. فبعد ان انتشرت المسيحية في ما بين النهرين وامتدت شرقيّ دجلة وانحدرت إلى بلدان الخليج مثل قطر والبحرين، وسّعت نطاق تبشيرها نحو الجنوب الغربي ووصلت إلى قلب الجزيرة العربية، وانتشرت في اليمن ونجران ومكة وغيرها من المراكز الهامة في الحجاز، وتجاوزتها إلى عدن وجزيرة سقطرى وعمان. وقد استفاد المرسلون الشرقيون من القوافل التجارية المنجّهة إلى تلك المناطق لينقلوا إليها أفكارهم الدينية. وقد استخدموا هذه الطريقة ذاتها في الذهاب إلى بلدان إيران الشرقية وإلى الهند حيث وجدوا بقايا من المسيحيين الذين استمرّوا على ديانتهم منذ عهد توما الرسول. وبوسعنا ان نقول ان حدود كنيسة المشرق كانت تمتدّ في النصف الأول من القرن السابع من سواحل البحر الأحمر حتى بلدان الصين واليابان.

١٢. الكنيسة والرسالة

ثانياً: كنيسة المشرق والاسلام

بينما كانت الحروب دائرة في الربع الأول من القرن السابع بين الامبراطوريتين العظيمتين، الفارسية والبيزنطية، وقد أنهكت قواهما

حينما استقرّت الأوضاع في كنيسة المشرق وانتظمت شؤونها، أدركت ان رسالتها لا تنحصر في الداخل. فهناك مناطق عديدة يسكنها أقوام ما يزالون عائشين في ظلام

بغداد ١٩٦٦، يوسف رزق الله غنيمه، الحيرة، بغداد ١٩٣٦، ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة ١٩٢٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان ٢، بيروت ١٩٥٦، وغيرها من المراجع القديمة والحديثة.

(١٢) راجع: توما المرجي، كتاب الرؤساء، ترجمة الأب ألبير أبونا، الموصل ١٩٦٦، ايشرعدناح البصري، الدورة في ملكي الفرس والعرب (المعروف بكتاب العقبة خطأ)، ترجمة القس (البطريك) بولس شيخو، الموصل ١٩٣٩، الشابتي، كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢،

وخلفت فيهما الكثير من التدمر والاستياء، كانت أفكار جديدة تختمر في الجزيرة العربية. وإذا لقيت هذه الأفكار معارضةً شديدة عند بعض الفئات من العرب، فإن هذه المعارضة عجزت عن احتواء تلك الموجة العارمة التي تدفقت من مكة وانتشرت في الحجاز، في قلب الجزيرة العربية: انه الاسلام الذي أعلنه رسول العرب وحمل رايته وأراد نشره بين القبائل العربية الوثنية أولاً، ثم ن يمدّه وراء حدود الجزيرة العربية.

١. بدء الإسلام

عاش رسول العرب في بيئة انتشر فيها اليهود والنصارى، والتقى في طريق أسفاره التجارية العديدة أديرة ورهبانا، وسمع القصص التي يسردونها من العهدين القديم والجديد، واحتزن في ذاكرته الكثير من هذه القصص، بالإضافة إلى ما تلقاه من ورقة بن نوفل. وصاغ من اليهودية - المسيحية مذهباً وسيطاً يلائم الذهنية العربية، فتنبأه العرب وسعوا في نشره بجميع الوسائل. وبعد ان استقرت الأمور للإسلام في الجزيرة العربية، سعى خلفاء محمد في نشر ديانتهم الجديدة وفرض سيطرتهم على البلدان المجاورة أولاً، ثم على البلدان البعيدة. وكانت معركة اليرموك الشهيرة (سنة ٦٣٦) التي فتحت أمام المسلمين أبواب الإمبراطورية

البيزنطية، ثم جاءت معركة القادسية (سنة ٦٣٧) التي انتصر فيها العرب المسلمون على الفرس، وانفتحت أمامهم أبواب الشرق. وقد رحب المسيحيون في البلاد الفارسية بالفاتحين الجدد، وذلك لأسباب عديدة، منها لأنهم كانوا يعانون في كل العهود الفارسية تقريباً من الظلم والتعسف، ثم لأن لغتهم الآرامية قريبة من اللغة العربية، فكلاهما من دوحه آرامية واحدة. والسبب الثالث هو ان الاسلام ينادي بدين شبيه بالدين المسيحي إليّ حدّ ما. وكان للانسانية التي اتسم بها الاسلام الأول تأثير عميق في نفوس الذين دخلوا تحت سلطة المسلمين من رعايا الروم والفرس. وكانت القبائل العربية المسيحية من المناذرة والساسنة أشدّ الناس تحمّساً للفاتحين وتضامناً معهم في فتوحاتهم الأولى. وكان المسلمون عندما يفتحون بلداً، يخيرون سكانه بين اعتناق الاسلام والاحتفاظ بدينهم الخاص. فإذا أسلموا، كانوا هم وسائر المسلمين سواء، وإلا وجب عليهم دفع الجزية، فيصبحون «في ذمة» المسلمين يحموتهم ويدافعون عنهم. وان لم يقبلوا كلا الأمرين، فيحاربون ويقاثلون (١٣).

أما كنيسة المشرق، فقد واصلت مسيرتها بأمان في بدء الاسلام، دون أن تتعرض لصعوبات كبيرة. وكانت في هذه الفترة تعاني من مشكلة داخلية سببها سهدونا بتعاليمه المخالفة للتعاليم التهودية السائدة في كنيسة المشرق.

المصادر السريانية ١، الموصل ١٩٠٧، النص السرياني ص ١٤٦، والترجمة الفرنسية ص ١٧٥، وغيرهما...

(١٣) طالع ما قيل في هذا الشأن: تاريخ ميخائيل السرياني، طبعة شايو (٤ ج)، النص السرياني والترجمة الفرنسية، باريس ١٨٩٩-١٩١٠، ط ٢، ص ٤١٢-٤١٣؛ يوحنا بر فنكايي، في متنكنا،



البطريرك إيشوعيا ب الثالث الحديابي

حسنة عامة، ولو ان الحكام الذين كان الأمويون يعينونهم لإدارة البلاد كانوا يتصرفون أحياناً بشيء من التعسف، لا سيما فيما يتعلق بفرض الضرائب.

٣. الكنيسة في العهد العباسي

دخلت كنيسة المشرق عهداً جديداً بمجيء العباسيين إلى الحكم وانتقال عاصمتهم إلى بغداد. فقد استعان الخلفاء والأمراء المسلمون بأبناء هذه الكنيسة للقيام بالإدارة والشؤون الاقتصادية، إذ كان المسيحيون وحدهم في ذلك العصر يمتازون بثقافة عالية في مختلف العلوم والفنون. فانتدب العديد منهم إلى دار الخلافة، وعهدت إليهم مهام مرموقة، ثم

وحلت المشكلة بإقضاء شهدونا عن كرسية الأسقف في ماحوزا داريون وبنيد تعاليمه. وحينما تولى إيشوعيا ب الثالث الحديابي (٦٤٩-٦٥٩) الرئاسة على كنيسة المشرق، لاحظ بكثير من الأسى ما كان الاسلام يحدثه من التأثير في رعاياه المسيحيين، خاصة في البلدان الواقعة على السواحل الغربية من الخليج العربي، مثل البحرين وقطر وعمان. وحاول البطريرك العظيم ان يحفظ المسيحيين ثابتين في إيمانهم، ولكن دون جدوى. وإذا لم يفلح البطريرك مع المسيحيين الخليجيين الذين اجتازت أعداد كبيرة منهم إلى الاسلام، طمعا في الحفاظ على ثروتهم، فقد أفلح في المناطق الأخرى، لا سيما في الجزء الشمالي من ما بين النهرين. وقد اضطر البطريرك في نهاية حياته إلى اللجوء إلى دير بيت عابي هربا من اضطهاد حاكم المدائن. إلا ان الخدمة الجليلة التي قدمها هذا البطريرك لكنيسة المشرق، بالإضافة إلى إدارته الحكيمة وطول باعه في الآداب السريانية، كانت اهتمامه الكبير بالشؤون الطقسية وتنظيمها وإيلائها صيغة شبه نهائية ما زالت جارية في كنيسة المشرق في خطوطها العريضة، كما سنذكر ذلك في موضع لاحق.

٢. الكنيسة في العهد الأموي

واصلت الكنيسة مسيرتها في العهد الأموي دون صعوبات كبيرة، وتعاقب الجثا لقة في الرئاسة والإدارة الكنسية. وقد تأزمت الحالة داخل الكنيسة في عهد الجثا ليق حنانيشوع الأول الأعرج (٦٨٥-٧٠٠) من جرأ التنافس على السلطة. أما علاقاتها بالسلطة الحاكمة فكانت



البطريق طيموتاوس الأول الكبير

كَلَّفُوا بنقل الكتب اليونانية إلى العربية، وبذلك أتاحوا للمسلمين ان يتعرفوا إلى الفلسفة الإغريقية والعلوم الغربية. فكانت كنيسة المشرق ممثلة خيرة تمثل لدى السلطات العباسية بواسطة الأئمء والأطباء والكتبة والمترجمين. وقامت بدورها الهام في ميدان الثقافة والادارة، وحظيت باحترام الحاكمين، لا سيما حينما كانت شخصية بطريقها أو أحد أساقفتها بارزة في القداسة أو العلم، لأن المسلمين يولون هذين الأمرين أهمية عظمى. فصارَت الديانة المسيحية تشغل حيزاً كبيراً في الدولة، بين مختلف شرائح الشعب، كديانة ثانية، وان غير رسمية.

٤. طيموتاوس الأول الكبير (٧٨٠-٨٢٣)

يُعتبر طيموتاوس الأول أبرز شخصية قامت في كنيسة المشرق في العهد العباسي الأول. فهو الاداري المحنك والعالم التحرير والسياسي المرن، عرف ان يبلغ بكنيسته إلى أوج مجدها وازدهارها، وان يذود عنها في الفترات الصعبة التي حاول فيها بعضهم ان يثيروا عليها عواصف المحن والاضطهادات(١٤).

أبصر طيموتاوس النور في حزة (اريل) في نحو سنة ٧٢٨، وتلقى العلم على الاستاذ إبراهيم بردشنداد في مدرسة باشوش في منطقة العقرة. ثم أقيم أسقفاً لبيت بغاش، خلفاً لعمه

كيوركيس. وفي مطلع سنة ٧٨٠ انتخب بطريقاً لكنيسة المشرق. وبعد صعوبات البداية، تمكن من السير بكنيسته في مدارج العلم والفضيلة والادارة الحسنة والامتداد نحو الخارج. وقد دامت رئاسته أكثر من أربعين سنة، تحت حكم خمسة خلفاء متعاقبين، وارتبط بعلاقات المودة والدالة خاصة مع المهدي وهارون الرشيد. وبالإضافة إلى تضلعه من مختلف العلوم والترجمات التي قام بها والقوانين التي وضعها، أدرك البطريق ان أهم

١٦٥-١٧٢؛ توما المرجي، كتاب الرؤساء ص ١٦٣-١٦٥؛ السمعاني، المكتبة الشرقية ٣، ط ١، ص ١٥٨-١٦٣.

(١٤) طالع عنه: مجدل ماري، رومة ١٨٩٩، ص ٧١-٧٥؛ مجدل صليبا، رومة ١٨٩٦، ص ٦٤-٦٦؛ ابن العربي، التاريخ الكنسي (٣ ج) نشره ايلوس ولاسي في لوفان ١٨٧٢-١٨٧٧، ٢،

بختيشوع الذين تعاقبوا في خدمة الخلفاء، بالتعاون مع غيرهم من الأطباء... وهذا كله أولى كنيسة المشرق وجهاً مشرقاً وجعلها رائدة العلوم والثقافة في البلاد مدة قرون طويلة. ولم تكف كنيسة المشرق بإيلاء الأمور الظاهرية والعلاقات الخارجية اهتمامها، بل ظهر فيها أشخاص حاولوا استجلاء طابعها العميق وتسلط الأضواء على روحانياتها الأصيلة. ومن المتصوفين اللاهوتيين الذين برزوا في القرن الثامن، كان يوسف حزايا الذي كتب في مختلف نواحي الحياة الروحية، ولا سيما في التأمل أو المشاهدة (توريا)، ويوحنا الدلياتي الذي يعتبر إمام المتصوفين في كنيسة المشرق في القرن الثامن^(١٥). إلا أن رؤساء الكنيسة لم يقيموا وزناً في حينها لما في تلك الكتابات من الغنى الروحي لحياة المؤمنين.

٥. العهد العباسية الأخيرة

بعد عهد الخليفة المأمون الزاهر الذي بلغت فيه العلوم ذروة تقدمها، أصيبت الثقافة بنكسة خطيرة من جراء تزلزلت الخلفاء اللاحقين أو ضعف شخصياتهم. وعانت الكنيسة من ردود الفعل الرجعية التي ظهرت في البلاد. وتعرض علماءها للاهمال والمضايقات. فشرع نفوذ الأطباء والعلماء المسيحيين يتضاءل بتضاؤل الاهتمام بالعلوم. ومن جهة أخرى، لم يظهر في الكنيسة جثالة قاموا بدور بارز. فان كلاً منهم قضى فترة وجيزة في الرئاسة، ولم

عنصر للاستقرار في كنيسة المشرق ولازدهارها يكمن في حسن اختيار رؤسائها وثقافة كهنتها وقداساتهم. وكانت رغبة التفاهم مع الحكم العباسي في نظرة طيموتاوس ضرورة حيوية للكنيسة. ولكي يكون المسيحيون حقاً في صميم معترك الحياة السياسية والثقافية، قرّر، منذ مطلع عهده، ان ينقل مقرّ البطريركية من المدائن إلى بغداد العاصمة الجديدة. فقد أدرك ان للكنيسة دوراً هاماً تجاه المجتمع، وان خير وسيلة لتجنّب الظنون والشكوك تجاهها هي ان تكون في صميم حياة المجتمع، وان تتعاون في بناء البلاد، بوساطة أطبائها وكتّابها وعلمائها و مترجميها. ولم يشأ طيموتاوس أن تعيش كنيسته في الخفاء وعلى هامش الحياة العامة وترفض كل تعاون مع الحكم القائم. ومهما قبل عنه، فانه كان رجل المبادئ، متديناً أصيلاً، ودبلوماسياً ليقاً. كان رجل علم وفي الوقت نفسه رئيساً يعيش في صميم الواقع.

وعرف ان يقرب الصرامة بالتواضع والسلطة بالخدمة، مع الكثير من الفطنة والمرونة والانفتاح. لذا فقد كان عهده عهد يمن وبركة لكنيسة المشرق التي تذكره بإجلال وتطلق عليه لقب «الكبير». وفي عهده حظيت الكنيسة باحترام جميع الفئات في البلاد، وأسهم علماءها في إعلاء شأن الثقافة في البلاد. أما أطباؤها، فقد نالوا حظوة كبيرة في البلاط العباسي، وتمكّنوا من القيام بدور بناء في الكنيسة. وقد استاز بين هؤلاء الأطباء آل

التراث الروحي، دار المشرق، بيروت ١٩٨٦.

(١٥) وقد قام الأب سليم دكاش اليسوعي بترجمة مجموعة رسائله الروحية ونشرها في سلسلة

مختلف أرجاء الدولة المترامية الأطراف، مما أدى إلى نشأة دول عديدة وإمارات مستقلة في قلب الخلافة وعلى أطراف حدودها. وقد أضع الخليفة، منذ مطلع القرن العاشر، سلطته الفعلية حتى على بغداد نفسها.

١. سقوط الدولة العباسية

في تلك الغزوات، كانت قبائل من المغول تتكفل بقيادة جنكيزخان (١١٥٥-١٢٢٧)، وشرعت تتقدم نحو بلدان آسيا الوسطى وتجنحها. وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولانكو - حفيد جنكيزخان - بلاد المغول على رأس جيش جرار، وهو يقصد القضاء على الحشاشين والخلافة معاً. فوصل في زحفه إلى همدان سنة ١٢٥٧، وأرسل إلى الخليفة العباسي المستعصم يطالبه بالاستسلام. وأمام رفض الخليفة، زحف الجيش المغولي واستولى على بغداد في مطلع عام ١٢٥٨، وأعمل فيها الدمار والهلاك، وقتل العديد من سكانها، وقضى على الخلافة وأعوانه. وبعد الحزرة الرهيبة التي قضت على أعداد غفيرة من سكان العاصمة، اهتم هولانكو بإعادة تنظيم الإدارة في بغداد، ووضع على رأسها بعض المسؤولين في العهد السابق، لا سيما الذين تعاونوا معه سراً، ريثما تتكون له مجموعة من الإداريين المغول.

أما المسيحيون، فقد جمعهم الخليلي مكيخا الثاني (١٢٥٧-١٢٦٥) في كنيسة سوق الثلاثاء، في الجانب الشرقي من المدينة، وأبقاهم هناك طوال فترة الفوضى، بحيث لم يصب أحدهم بأذى. وقد وضع كثير من المسلمين أموالهم لدى الخليلي، آملين استعادتها

يتميزوا بشخصية قوية بالنظر إلى أعمارهم المتقدمة وإلى ضحالة ثقافتهم. فبدأت الكنيسة تجتاز مرحلة صعبة من حياتها بعد المجد والعظمة اللذين عرفتهما في أيام طيموتاس الكبير الذي ترك كنيسة منظمة من الداخل، وتنعم بإدارة اكليروس حاصل على ثقافة جيدة، وتحظى في الخارج باحترام العالم الإسلامي، بالنظر إلى علمائها وأطبائها وإلى مساهمة بنيتها على مختلف الأصعدة من الحياة الاجتماعية في الدولة العباسية.

ولم تكن الحال في الدولة بأفضل منها في الكنيسة. فقد تعاقب على الخلافة أشخاص ضعفاء أو مهملين، وكثرت المنازعات على الخلافة، وازدادت الدسائس وتفاقت الفوضى في البلاد، وتعرضت الأقليات لمساوئ كثيرة من الحكام المستبدين الذين تصرفوا بحسب هواهم، غير مكترئين بالنظم الشرعية وغير عابئين بالسلطة المركزية الهشة. وبينما كانت الأوضاع تتردى في الدولة العباسية، كان رؤساؤها يعمشون في طمأنينة زائفة، عاكفين على اللهو والبذخ، والغرباء يتحكّمون بمصائرهم، وعيون الأجانب ترمقهم بكثير من الطمع وهم يتهيأون للانقضاض عليهم والاستيلاء على ثروات بلادهم... وظلت الدولة العباسية في هذه الحال البائسة وهي لا تبالي بما يتهددها من الاخطار في الداخل والخارج...

ثالثاً: الكنيسة في عهد المغول والأتراك

شهدت العهود الأخيرة من الخلافة العباسية ضعفاً في الإدارة وفي السيطرة على

في البلاد، بالرغم من الحماية التي كانوا يحظون بها من شخصيات مسيحية تمكنت من الوصول إلى مناصب مرموقة في البلاد. ونرى ان الملكة قوتاي خاتون نفسها تتدخل لحمل المسيحيين على الاحتفال ببعض أعيادهم علناً^(١٧)، اباقاخان يذهب إلى همدان سنة ١٢٨٢ ويشترك مع المسيحيين في عيد القيامة في كنيستهم.

وفي تلك الغضون، كان راهبان مسيحيان من أنحاء بكين، أحدهما يدعى صوما والآخر مرقس، قد وطّدا العزم على زيارة الأماكن المقدسة. ولم تحل الصعوبات والاضطرابات دون تحقيق عزمهما، فشدا الرحال نحو المناطق الغربية. ولكنهما لم يستطيعا الوصول إلى الأماكن المقدسة بسبب الاضطرابات والحروب الدائرة في المنطقة، فعادا إلى الجطليق الذي كانا قد التقياه سابقاً في مراغة. فرسم مرقس مطرافوليطا لأبرشية خطاي الصينية وسمّاه يهبالاها، وأقام صوما زائراً عاماً للمناطق الصينية. لكن طرق العودة إلى بلادهما أيضاً قد انقطعت، فاضطرَّ يهبالاها وصوما إلى المكوث في دير مار ميخائيل ترعيل، بالقرب من اربيل، طوال سنتين^(١٨). وفي سنة ١٢٨١، توفي البطريرك دنحنا، فاجتمع المطارنة وقرَّ رأبهم على انتخاب يهبالاها المغولي خلفاً له، وذلك إرضاءً لأسياد البلاد، ولكون المنتخب على معرفة بلغة المغول

في حال نجحتهم من القتل. لكن المسيحيين، بالرغم من حماية زوجة هولاكو المسيحية رقوقز خاتون لهم، لم يكونوا في وضع مستقر، بل غالباً ما شاطروا مصير إخوانهم المسلمين وتعرضوا للقتل والسلب والنهب. وسرعان ما تبخّرت الآمال التي راودتهم حيناً في العيش باطمئنان في ظلّ الفاتحين الجدد. فان المغول عاملوهم في البداية معاملة حسنة، حتى وهب هولاكو للجطليق مكبخا دار الخليفة المعروفة بدار الدوينار الواقعة على دجلة، فسكن فيها وأقام فيها كنيسة وهناك توفي ودُفن^(١٦). ولكن سرعان ما برهنت الأحداث اللاحقة ان المغول مارسوا تعسفهم وهمجيتهم تجاه الجميع دونما تمييز.

٢. الجطليق يهبالاها الثالث المغولي

لقد استعاد السلاطين المغول العادة التي كانت جارية لدى السامانيين، ثم لدى المسلمين، في تأييد ودعم انتخاب الرؤساء في كنيسة المشرق. وهكذا، بعد موت الجطليق مكبخا الثاني سنة ١٢٦٥، خلفه الجطليق دنحنا (١٢٦٦-١٢٨١)، وأيد اباقاخان هذا الانتخاب وشرّف الجطليق الجديد بالخلعة السنية والفرمان وغيرها من آيات السلطة والكرامة. لكن المسيحيين تعرضوا في أماكن شتى لمضايقات كثيرة، من جرّاء الفوضى السائدة

(١٨) طالع قصة مار يهبالاها والريان صوما، وقد نشر الأب بيجان نصها السرياني في باريس ١٨٩٥.

(١٦) صليا في المجلد، ص ١٢٠-١٢١.
(١٧) راجع ابن العربي، تاريخ الزمان في الترجمة العربية لإسحق أرملة، دار المشرق، بيروت ١٩٩١، ص ٣٣٨.

مسكونية. وقد برهن عن ذلك من خلال علاقاته بالمونوفيزيين الساكنين في بلاد المشرق، لا سيما بابن العبري، والمرسلين الغربيين الذين شرعوا يتوافدون على المنطقة. فأفسح أمامهم المجال لممارسة رسالتهم بين مؤمني كنيسة المشرق. أما علاقاته برومة، فكانت علاقات تتسم بالاحترام والاعتراف الضمني برئاسة البابا. وقد أعرب عن ذلك في الرسائل التي وجهها إلى رومة في السنوات اللاحقة.

٤. الخاض الأليم

توفي الملك أرغون سنة ١٢٩١، وخيم الحزن على المسيحيين بموته. وإذا استمر خلفاء كيخاتو ويبدو على خطته المسالمة، فان غازان الذي جاء إلى الحكم سنة ١٢٩٥ تبنى خطة مغايرة. فقد تبنى المغول الاسلام، وشرعت المصائب تنهال على البطريرك والمسيحيين. فتمرض يهبالاها للإهانات، ولم ينج من الموت إلا بأعجوبة، وساعده الملك هشم الأرمني على الفرار من مراغة متكرراً. وما ان عاد الاستقرار وتمكن البطريرك من العودة إلى كرسيه في مراغة، حتى ثارت فتن أخرى نغصت حياته. . . وكانت محنة كبيرة تنتظره في أربيل سنة ١٣١٠، حيث قامت فتنة من القوغائيين بإثارة مشاعر السكان المسلمين على المغول وعلى المسيحيين، وحدثت مجزرة رهيبة راح ضحيتها المئات من المسيحيين، وكاد البطريرك نفسه يلقي فيها حتفه. وانتهت المأساة باحتلال المسلمين لقلعة أربيل وقتل المسيحيين فيها ونهب كل شيء والقضاء على الوجود المسيحي هناك. وحاول البطريرك المسكين إطلاع رؤساء

وعوائدهم، بالرغم من قلة اطلاعه على التعاليم الكنسية وجهله اللغة السريانية وعدم كفاءته في الشؤون الإدارية. فقبل يهبالاها هذه المهمة على مضض. وكانت سنواته الأولى صعبة، لا سيما ان السلطة انتقلت إلى تكودار الذي اعتنق الاسلام وأساع إلى المسيحيين. ولما اغتيل سنة ١٢٨٤، خلفه أرغون الذي لم يسر على سياسته، بل كان متسامحاً مع الديانات الأخرى ومنفتحاً على الغرب.

٣. الريان صوما سفير الملك إلى الغرب

كان أرغون خان يمّني النفس بالاستيلاء على سورية وفلسطين، وكان يفتقر إلى مساعدة الدول الغربية. فأرسل الريان صوما إلى رومة وإلى الملوك الغربيين، وزوّده بالرسائل وبالهدايا المناسبة، كما ان الجليلي يهبالاها أعطاه رسائل وهدايا إلى البابا. فذهب الريان صوما إلى فرنسا وانكلترا حيث التقى ملكيهما. ودارت في رومة نقاشات حول القضايا الإيمانية، وكانت أجوبة السفير مرضية، واشترك معهم في الاسرار، وسر به الجميع. ولدى عودته، زوّده البابا بذخائر متنوعة وأرسل معه تاجه الخاص إلى مار يهبالاها مع حلل فاخرة ومرسوماً يخول البطريرك السلطة على المشرق كله، كما أرسل بركاته إلى الملك أرغون. وعاد الريان صوما إلى الشرق، وقابل الملك أرغون وأطلعه على نتائج رحلته. ففرح الملك وأراد ان يقيه عنده في خدمة كنيسته المنقّلة، ولكنه رفض، وفضل ان يقوم الجليلي نفسه بهذه المهمة.

وكان مار يهبالاها الثالث متّسماً بروح

النهر. فقد استولى الجلائريون على هذه المناطق (١٣٣٧-١٤١١). وتخلل عهدهم اجتياح تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥) لهذه المناطق لفترة وجيزة خلّفت وراءها الكثير من الدمار والقتل، وعانى منها المسيحيون بوجه خاص. ثم تعاقب في الحكم القره قويونلو والآق قويونلو (١٤٠٠-١٥٠٨) وزادوا الطين بلّة بما أحدثوه من الفوضى والارتباك في البلاد كلها.

وفي خضمّ هذه الاضطرابات، تعدّرت اتصالات كنيسة المشرق بجميع أتباعها وجمع شملهم وتوحيد صفوفهم. ففي سنة ١٣٤٠، انضمّ نساطرة جزيرة قبرص إلى الوحدة مع رومة. وفي الشرق الأوسط، أخذ المرسلون الفرنسيسكان والدومنيكان يعيدون الكثير من أبناء كنيسة المشرق إلى الوحدة مع رومة. وقد واصلوا مهمتهم هذه ومدّوها إلى الشرق الأقصى أيضاً. وفي الهند، انضمّ قسم من مسيحي مار توما إلى المونوفيزية وغيرهم إلى اللاتينية، فيما واصل آخرون السير بحسب تقاليد كنيستهم الخاصة، وهم ينتظرون أن يأتيهم المدد الروحي من كنيستهم المشرقية. أما أحوال المسيحيين في ما بين النهرين وما حولها من البلدان، فقد اكتنفها الكثير من الغموض. وقد شمل الالتباس والغموض حتى البطارقة الشرقيين فيما يتعلّق بتسلسلهم وسني رئاستهم ونشاطاتهم في إدارة كنيسة المشرق. وأرغمت الأحداث والاضطرابات المسيحيين على العيش في نوع من الخفاء والعزلة. وكثيراً ما تعرّضوا لشتى أنواع الظلم من قبل الحكّام المحليين، في حين كانت السلطات منشغلة بحروب متواصلة مع السلطات المجاورة.

المغول على تلك الكارثة، ولكنه لم يلقَ منهم آذاناً صاغية. فعاد إلى مقرّه في مراغة وهو يقول: «لقد سمعت من خدمة المغول!». ومكث هناك إلى ان وافاه الأجل سنة ١٣١٧.

٥. نهاية العهد المغولي

تعاقب البطارقة على كرسي كنيسة المشرق، بالرغم من اضطراب الأحوال في نهاية العهد المغولي. فجعل طيموتائوس الثاني (١٣١٨-١٣٣٢) مقرّه بالقرب من أربيل، وحاول ان يجمع شمل مؤمنيه وان ينفجهم بروح الايمان والثقة. ثم خلفه البطريرك دنحا الثاني (١٣٣٢-١٣٦٥) الذي نقل كرسيه إلى قرية كرمليس في منطقة الموصل حيث احتوى بسلطة بعض الأمراء المسيحيين. أما حكم المغول فقد أصابه الانحلال والانحطاط، إلى ان انهار تحت ضغط الفئات الطامعة في البلاد... وحاولت كنيسة المشرق الابقاء على مستواها الثقافي، رغم تلك الظروف الحرجة. وكان آخر من حمل مشعل العلم والآداب السريانية الأصيلة هو عبديشوع الصوباوي (١٣١٨٤) الذي يعتبر خاتمة عهد الآداب السريانية الزاهر، كما ان ابن العبري (١٢٨٦٤) كان خاتمة العلوم والآداب في الكنيسة السريانية الغربية الشقيقة.

٦. العهود التركية

ان اختلاط القبائل، لا سيّما بعد غزو الترك لآسية الوسطى، أدّى إلى حدوث انقلابات عرقية مختلفة كان أهمها رجحان كفة العناصر التركية على غيرها في مناطق ما وراء

وفي مطلع القرن السادس عشر، جاء أسقف كلداني من الهند اسمه توما، وقدم التماساً إلى البطريرك إيليا الخامس (١٥٠٢-١٥٠٤) يطلب منه ان يرسم أساقفة للهند. فرسم لهم ثلاثة أساقفة وأرسلهم إلى هناك.

٧. البطريرك سولاقا والحركة الوحدوية

منذ القرن الثالث عشر، قامت في الكنيسة السريانية الغربية حركات تهدف إلى الوحدة مع كنيسة رومة. وظهرت حركات مماثلة في كنيسة المشرق أيضاً، وقد ذكرنا محاولات البطريرك المغولي يهبالاها الثالث، ثم قضية الناصرة في قبرص وكيفية انضمامهم إلى وحدة الكنيسة للمرة الأولى، ثم للمرة الثانية والنهائية سنة ١٤٤٥، واعترف بهم البابا أوجينس الرابع وأطلق عليهم اسم «الكلدان»، تيمناً باسم «كلدو» وهي منطقة يث آرامي الواقعة جنوبي بغداد، حيث كان مار ماري قد أسس كرسيه الأول.

وفي نهاية سنة ١٥٣٤، احتل الأتراك العثمانيون بغداد وانتزعوها من أيدي الفرس الصفويين، ودخلها السلطان سليمان الأول القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) وسط مظاهر العظمة والأبهة، دون ان يسمح لجيشه بدخول المدينة، حقناً لدماء سكانها وذوداً عن أموالهم. وكان العهد العثماني بدم مرحلة جديدة لكنيسة المشرق اعتورها شيء من الازدهار وكثير من الصعوبات.

وجاءتها أزمة شديدة من الداخل. فمنذ بداية القرن الرابع عشر، كانت عائلة «أبونا» تسيطر على الشؤون الدينية في كنيسة المشرق. فمن أعضاء هذه الأسرة كان يتم انتخاب الجثاثة. وكان طيموثاوس الثاني (١٣١٨-١٣٣٢) هو الأول في هذه السلسلة. وتتابع الجثاثة «الأبونيون» على كرسي المشرق، عن طريقة الانتخاب الشرعي، إلى البطريرك شمعون الباصيدي (١٤٣٧-١٤٧٦) الذي سنّ قانوناً يقضي بإقامة بطاركة من عائلة «أبونا» دون غيرها، فتنقل الرئاسة من شخص إلى أخيه أو ابن أخيه. وهكذا أصبحت البطريركية وراثية في كنيسة المشرق. وكانت نتائج هذا الاجراء وخيمة على الكنيسة، إذ ارتقى السدة البطريركية أناس غير جديرين على جميع الأصعدة، دون ان يبالوا باحتجاجات الأساقفة والمطارنة الذين أدركوا ما ينطوي عليه هذا القانون من الغبن لحقوقهم المشروعة ومن الشر للكنيسة.

وإذ ذاك ظهرت في كنيسة المشرق حركة تهدف إلى تصحيح الأوضاع والقضاء على التدابير التعسفية وإلغاء قانون الوراثة الذميمة في رئاسة الكنيسة. وتزعم هذه الحركة ثلاثة أساقفة، وعقدوا اجتماعهم الأول في جزيرة ابن عمر ضمّ قسماً من الكليروس والشعب. ثم استأنفوا اجتماعهم في الموصل في مطلع سنة ١٥٥٢. وقرّ رأي المجتمعين على انتخاب رئيس جديد لكنيستهم. وتوجّهت أنظارهم إلى الراهب البطريرك سولاقا رئيس دير الريان هرمزد بالقرب من القوش، لما كان يمتاز به من التقوى والعلم والانفتاح. فاستدعوه إلى الموصل، وناشدوه بقبول هذه المهمة. قبلها على مضض. فأرسلوه مع وفد إلى رومة لكي

والحجة. وقد أسفرت جهوده عن ازدياد عدد
المنتسبين إلى الطائفة الجديدة.

إلا ان البطريك النسطوري شمعون
السادس برامما كان ينظر إلى الحركة الجديدة
التي نشأت في كنيسة بكثير من الهلع
والغضب. وحاول خلق صعوبات في طريقها
والإساءة إلى الداعين أو المنضمين إليها من
الرؤساء والمؤمنين. ولكنه لم يفلح. إذ ذاك
شرع يخطط للقضاء على رئيسها. فاتفق مع
باشا العمادية حسين بك الكردي، لقاء رشوة
دسمة، بأن يستقدم سولاقا إلى العمادية
ويبيده. وما ان وصل سولاقا إلى هناك، حتى
سجنه الباشا. وبعد عذابات دامت أكثر من
خمسة أشهر، أمر الباشا رجاله بحمل الأسير
إلى الجبال المجاورة والقضاء عليه سراً. وهكذا
ألقي هذا البطريك في بحيرة صغيرة مجاورة
وأغرق، وذلك في ١٢ كانون الثاني (يناير) سنة
١٥٥٥.

إلا ان الطائفة الجديدة واصلت مسيرتها،
وانتخبت عبد يشوع الرابع مارون بطريكاً لها.
ثم تعاقب البطاركة الكلدان، تارة في
ديار بكر، وطوراً في أحد الأديرة المجاورة
لجزيرة ابن عمر، في حين اتخذ البطاركة
الناسطرة القوش ثم دير الربان هرمزد مقراً
لإقامتهم، وفي حين ان فتنة أخرى منهم
استقرت في قوجانس الواقعة في الجبال الشمالية
الشرقية النائية.

لكن البطاركة الكلدان لم يكونوا دوماً
واضحين في معتقدتهم، لا سيما منذ مطلع
القرن السابع عشر. وقد تذبذب بعضهم
متأرجحين بين الكتلركة والنسطورية، فيما أعلن



البطريك شمعون يوحنا سولاقا

ينال التأييد والتثبيت من الكرسي الرسولي.
وصل سولاقا إلى رومة في تشرين الثاني
(نوفمبر) ١٥٥٢، وفي ٢٠ شباط (فبراير)
١٥٥٣، أعلن بطريكاً على الموصل، وجرت
رسمته الأسقفية في ٩ نيسان (أبريل) التالي،
وفي ٢٨ نيسان قلده البابا درع الرئاسة المعروف
بالبايوم. ولدى عودته إلى بلاده، اصطحب
معه أشخاصاً يساعدونه في نشر التعاليم
الصحيحة في بلاده. وصل البطريك الجديد
إلى آمد (ديار بكر) في تشرين الثاني (نوفمبر)
١٥٥٣، وشرع ينظم شؤون كنيسة ويرسم
عدداً من الأساقفة، فصار للطائفة الجديدة -
الكلدان - ثمانية أساقفة. وأبدى البطريك
الجديد نشاطاً كبيراً، وأخذ يتفقد أحوال طائفته
ويحرّضهم على التمسك بالمبادئ القويمة وبالخير

غيرهم موقَّعهم المنحاز إلى البسْطورية. وظلَّت كنيسة المشرق تعاني كثيراً من هذا التذبذب والتمزُّق الذي كان تأثيره عميقاً في صفوف المؤمنين.

٨. بطاركة الكلدان في دياربكر

وبينما كان الارتباك والفوضى ضارَّين أطنابهما في الكنيسة السريانية الشرقية، بسبب تذبذب رؤسائها وانقسامهم، ظهر أمل جديد في دياربكر التي كانت خاضعة، من حيث الإدارة الكنسية، لجليق الريان هرمد.

كانت جذور الكتلكة قد تأصلت في هذه المدينة، بهمة المرسلين الكيوشيين وغيرهم الذين استطاعوا أن يقنعوا الكثيرين من النساطرة بالانضمام إلى الوحدة مع رومة. وكان يوسف مطران دياربكر نفسه من الذين انضمَّوا إلى الوحدة. إلا أن الظروف الكنسية المرتبطة بالسياسة العثمانية كانت تشكِّل عوائق خطيرة في وجه هذه الوحدة. وكان البطريرك إيليا التاسع مروجين (١٦٦٠-١٧٠٠) واقفاً لهذه الحركة بالمرصاد. فما إن أُطِّع على موقف المطران يوسف، حتى استدعاه إلى مقره في تلسقف. لكن المطران أحجم عن الذهاب إلى هناك خوفاً من الدسائس. فاضطر البطريرك إلى الحجىء بنفسه إلى ماردين ودياربكر، ودبر الأمر مع «المتسلم» العثماني الذي زجَّ يوسف في السجن، وأخضعه لاستنطاقات عديدة. لكن «المتسلم» اقتنع أخيراً بصدقه ونزاهته، فأطلق

سراحه، واعترف بسلطته على ماردين ودياربكر، وأعلن استقلاله عن البطريرك البسْطوري. لكن «متسلماً» جديداً ألقى يوسف في السجن، وهناك أصابه من التعذيبات ما يعجز اللسان عن وصفه، حتى لُقِّب بالبطريرك الشهيد^(١٩). ولدى خروجه من السجن، تلقَّى تهاني البابا اقليميس العاشر سنة ١٦٧٣. ثم ذهب إلى رومة وإلى بلدان أوروبا الأخرى أملاً بالحصول على مساعدات كانت طاغته بأمر الحاجة إليها. ولكنه لم يتلق سوى مبالغ زهيدة. وحاول الحصول على تأييد رومة. إلا أن هذا التأييد لم يأت إلا في مطلع سنة ١٦٨١. وهكذا ظهرت، في الربع الأخير من القرن السابع عشر، سلسلة أخرى من البطاركة الكلدان الذين أقاموا في دياربكر، وتسمَّوا جميعهم باسم «يوسف».

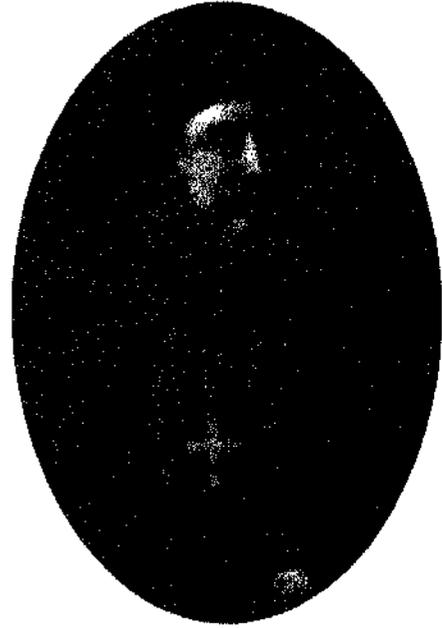
إلا أن الآلام والمصائب كانت قد هدَّت قوى البطريرك يوسف الأول، وقد أوشك أن يفقد بصره. وكان بقره تلميذ نبيه اسمه صليبا أبصر النور في بلدة تليكيف التابعة للموصل في سنة ١٦٦٧. ومنذ صباه قصد دياربكر والتحق ببطريركها. فرسمه هذا شماساً ثم كاهناً. وفي سنة ١٦٩١، رُقِّه إلى الدرجة الأسقفية وأقامه معاوناً له، ثم عينه خلفاً له واستقال هو وذهب إلى رومة. ونال يوسف الثاني (صليبا) آل معروف تأييد رومة سنة ١٦٩٦. وقد امتاز يوسف الثاني بغيرة عارمة على الديانة المسيحية، وأبدي نشاطاً عظيماً في كلا الحقلين الإداري والأدبي. واجرَى إصلاحات كبيرة في الكتب

الكلدان، لوزرن ١٩٦٦.

(١٩) طالع ما كتبه عنه ألبير لامبار بالمانية: شهيد الامجاد مع رومة، يوسف الأول بطريرك

الطاعون المتفشّي في البلاد في ٢ حزيران
(يونيو) ١٧١٢، وهو في السادسة والأربعين
من سنه .

وكان يوسف الثاني قبل موته قد أعرب
عن رغبته في ان يقام تلميذه طيموتاوس
مروجين، مطران ماردين منذ سنة ١٧٩٦،
خلفاً له. وأجري الانتخاب القانوني، وانتخب
طيموتاوس باسم يوسف الثالث، ونال تأييد
رومة سنة ١٧١٤. وتعرض البطريرك الجديد
أيضاً لمضايقات النساطرة. لكن حركة الوحدة
انتشرت بين المؤمنين في مختلف المناطق،
وتمكّن البطريرك من القيام بزيارة رسمية إلى
الموصل سنة ١٧٢٨، وأعاد الكثيرين إلى
الوحدة مع رومة. وما ان رجع إلى دياربكر،
حتى انهالت عليه نعمة النساطرة الذين استولوا
على كنيسته وتمكّنوا من إلقائه في السجن بقوة
السلطات الحاكمة. أخيراً توصل وكيهه في
العاصمة العثمانية من الحصول على فرمان يقضي
بنوع من الاتفاق بين الفريقين: ان تكون الموصل
وحلب للنساطرة، وماردين ودياربكر
للكلدان. واضطر البطريرك يوسف الثالث إلى
السفر إلى رومة والبلدان الأوروبية لطلب
المعونة. ومكث في رومة من سنة ١٧٣٥ حتى
سنة ١٧٤١ (٢١). وأراد البطريرك، لدى
عودته، ان يقيم كاهناً شاباً خلفاً له. إلا ان
المؤمنين رفضوه. وفي ٨ شباط (فبراير) سنة
١٧٥٧، رسم لعازر هندي خلفاً له باسم



البطريرك يوسف الثاني آل معروف

الطقسية الكلدانية، وأزال عنها التعابير التي لا
توافق المعتقد الكاثوليكي، واستحدث فروضاً
لأعياد لم تكن موجودة لدى الشرقيين، ونقح
صلوات الأعياد الأخرى. ووضع كتباً كثيرة
لقيت إقبالاً شديداً في عصره، وكانت خير
وسيلة لدعم الايمان وتثقيف الشعب المسيحي.
إلا ان حياته لم تخل من صعوبات ومحن
واضطهادات من قبل الفقة المناوئة، حتى أراد
لبطريرك العظيم ان يعزل في لبنان، وقد
رفضت رومة طلبه في الاعتزال في رومة (٢٠).
فلم يذهب يوسف الثاني إلى رومة، ومات بداء

والترجمة الإيطالية ص ٢١٣ .

(٢١) المرجع السابق، ص ٣١٤-٣٣٩ ثم ص

٣٣٩-٣٧٠ .

(٢٠) شمائل جميل، العلاقات بين الكرسي

الرسولي والسريان الشرقيين أي كنيسة الكلدان، رومة

١٩٠٢، النص العربي (كرثوني) ص ٢١٤،

يوسف الرابع . ولكنه لم يبلُ تأييده من رومة إلا سنة ١٧٥٩ .

واستطاع البطريرك الجديد ان يسافر إلى رومة سنة ١٧٦١ ، وطبع هناك كتاب طقس القدامس والأناجيل . ولدى عودته من رومة ، استقال سنة ١٧٨١ ، وسلّم إدارة البطريركية إلى ابن أخيه وهو أوغسطين هندي وهو ما يزال كاهناً . أما هو فاعتزل في رومة حيث توفي سنة ١٧٩١ .

وفي تلك الغضون ، كان بطريركان يتقاسمان السلطة على الكنيسة النسطورية ، أحدهما في قوجانس ، والآخر في دير الريان هرمزد . وكانت رومة قد تلقّت من كليهما صور إيمان مرضية سنة ١٧٧٠/١٧٧١ .
وحيثما خلف ايشوعياي عمه البطريرك ايليا (الثاني عشر) ، عاد عن قضية الوحدة التي كان قد وافق عليها مع عمه الراحل . إلا ان ابن عم ايشوعياي ، وهو يوحنا هرمزد ، كان متمسكاً بالمذهب الكاثوليكي ، وكان له مؤيّدون كثيرون في كنيسة المشرق . وأمام هذه الحالة المرتبكة ، أبدى الكرسي الرسولي تحفظاً شديداً .

أما في دياربكر ، فقد قام أوغسطين هندي بإدارة الأبرشية وهو كاهن ، ثم كمطران منذ سنة ١٨٠٤ . وكان يمنح نفسه لقب البطريرك ويدعو اسمه يوسف الخامس . لكن رومة لم تمنحه هذا اللقب قط . . . وهكذا استمرّ الانقسام مدة طويلة بين الكلدان في شأن الرئاسة التي كان يطالب بها كل من مطران ديار

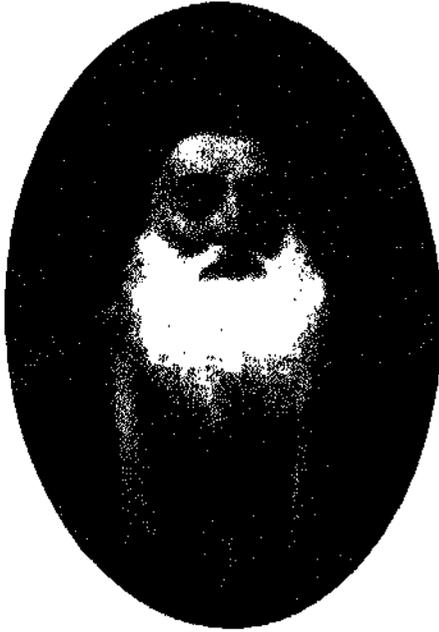
(٢٢) المرجع السابق ، ص ٣٩١-٣٩٤ .

بكر أوغسطين هندي ، ومطران الموصل يوحنا هرمزد ، دون ان يكون للعقيدة شأن في هذه المنافسة . وحينما توفي أوغسطين هندي سنة ١٨٢٨ ، لم يبد خلفه على كرسي دياربكر أية مطالبة بلقب البطريركية . وفي ٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٠ ، منحت حقوق جديدة للبطريرك الكلداني يوحنا هرمزد الذي اتخذ الموصل مقراً له .

رابعاً: كنيسة الكلدان في العصور الحديثة

١ . بطريركية بابل الكلدانية

كانت حركة الاتحاد التي شرعت في الموصل منذ مطلع القرن الثامن عشر قد قطعت شوطاً كبيراً ، وقد وجدت دعماً قوياً في المساندة التي لقيتها من المرسلين الدومنيكيين الذين اتخذوا الموصل منطلقاً لرسالتهم في منتصف هذا القرن . وإذا تراجع البطريرك ايليا (ايشوعياي) (الثالث عشر) عن قراره السابق في الوحدة ، فقد وجدت الحركة خير نصير لها في شخص يوحنا هرمزد الذي كان البطريرك ايليا (الثاني عشر) قد رسمه مطراناً وهو في السادسة عشرة من سنه . وما ان توفي عمه ، وتسلّم ابن عمه ايليا (الثالث عشر) الكرسي البطريركي سنة ١٧٧٨ ، حتى أعلن يوحنا هرمزد انضمامه إلى الوحدة مع رومة . ولقي يوحنا معارضة شديدة من ابن عمه البطريرك ومن أوغسطين هندي الذي كان يريد فرض سيطرته على جميع الكلدان . وأدى الأمر إلى تدخّل رومة التي منعت يوحنا هرمزد من ممارسة سلطته على أبرشية الموصل سنة ١٨١٨ (٢٢) . إلا ان رومة



البطريك يوسف السادس أودو

رسامة أساقفة لا ترضى بهم رومة، مما زاد العلاقات توتراً. وكاد البطريك يرشق بالحرم من جرأء تصرفاته وخاصة لموقفه من مقررات المجمع المسكوني الفاتيكاني الأول. وقد قام بعض المشاغبين بدور سيئ في دفع البطريك إلى التصلب في موقفه. وعمت الفوضى والانشقاق في صفوف المؤمنين، من مؤيدين لرومة ومناوئين لها. إلا ان البطريك أبدى أخيراً خضوعه الكامل لمقررات رومة في ١ آذار (مارس) سنة ١٨٧٧. وتراجع المناوئون الآخرون أيضاً عن مواقفهم السلبية شيئاً فشيئاً، وبطلت تلك الحركة التي كانت تهدد كنيسة المشرق الكلدانية بانشقاق أليم.

عادت عن قرارها وبرأت ساحة يوحنا هرمزد. وفي ٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٣٠، أثبتته البابا بيوس الثامن بطريكاً على الكلدان (٢٣). وكان أوغسطين هندي قد رسم أحد رهبان دير الرهان هرمزد المناوئين ليوحنا هرمزد، وهو يوسف أودو، مطراناً على الموصل سنة ١٨٢٤. وحينما أيدت رومة يوحنا هرمزد في البطريكية، منح البطريك الجديد أبرشية العمادية ليوسف أودو. وتلافياً لمبدأ البطريكية الوراثية، حينما توفي يوحنا هرمزد في سنة ١٨٣٨، عينت رومة خلفاً له نيقولاوس زيعا مطران سلماس، وهو أحد خريجي كلية انتشار الايمان، وأيدته في ٢٧ نيسان (أبريل) سنة ١٨٤٠. إلا ان البطريك الجديد لقي من الصعوبات والمقاومات ما دفعه إلى الاستقالة والاعتزال في أبرشيته القديمة سلماس حيث توفي سنة ١٨٥٥.

وفي فترة شغور الكرسي البطريكي من جرأء استقالة نيقولاوس زيعا سنة ١٨٤٧، عينت رومة يوسف أودو مديراً بطريكياً. ثم اختاره السينودس الكلداني بطريكاً في نهاية سنة ١٨٤٧، وكان عهده طويلاً وحافلاً بالاعمال الجليلة وبالصعوبات والمشاكل أيضاً. وظهرت الصعوبات الأولى في قضية كلدان ملبار الذين طالبوا بإلحاقهم بالبطريكية البابلية وبتعيين رؤساء لهم من طقسهم. ودارت مفاوضات عسيرة أدت إلى خلافات طويلة نحجم عن ذكرها لضيق المجال. وجاءت مبادرات جريئة من قبل البطريك في شأن

(٢٣) المرجع السابق، ص ٣٩٤-٣٩٩.

(لبنان). وكان عهده الطويل زاخراً بالنشاطات والأعمال الجليلة. وفي عهده، دارت الحربان العالميتان الأولى والثانية. وقد شاهد البطريرك العظيم مآسي شعبه خلال الحرب الكونية الأولى حيث قتل أعداد غفيرة من المؤمنين وشرّد غيرهم، وتلاشت أبرشيات عديدة في تركيا. وقد لقي المهاجرون القادمون إلى العراق كل عون ومساعدة من أيهم البطريرك الذي لم يتردد حتى في بيع أثاث الكنائس والأواني المقدسة في سبيل إطفاء الجائعين والذود عنهم بجميع الوسائل. وكانت له مواقف وطنية مشهود لها. ولما جاءت الحرب العالمية الثانية، كان البطريرك قد بلغ من العمر عتياً ووهنت قواه. ومع ذلك فقد بذل كل ما بوسعه لمساعدة الناس وللحفاظ على كيان الطائفة التي كان لها خير ممثّل لدى سلطات البلاد والسلطات الأجنبية، إلى أن فاضت روحه في صيف سنة ١٩٤٧ في شيخوخة متقدّمة.

وفي السنة نفسها، خلفه البطريرك يوسف السابع غنيمّة (١٩٤٧-١٩٥٨) الذي كان من تلامذة معهد مار يوحنا الحبيب في الموصل، وذا علم غزير وثقافة راقية، وله مواقف خطابية شهيرة. وكان مثل سلفه عضواً في مجلس الاعيان العراقي. وهو الذي نقل كرسي البطريركية من الموصل إلى بغداد ليكون على صلة أوثق بسلطات البلاد في سبيل التضامن معها في بناء الوطن. وقد توفي قبيل قيام الثورة العراقية التي أطاحت في ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨ بالنظام الملكي وأعلنت النظام الجمهوري في العراق.

وتوفي البطريرك العظيم يوسف أودو في ١٤ آذار (مارس) سنة ١٨٧٨، بعد ان قام بأعمال جليلة ومشاريع كبيرة لخير الطائفة، منها إنشاء معهد كهنوتي بطريركي في الموصل سنة ١٨٦٦...

واجتمع المطارنة والأساقفة الكلدان وانتخبوا بطريركاً جديداً هو إيليا بطرس عبو اليونان، الذي كان مطراناً على الجزيرة. وأيدته رومة سنة ١٨٧٩. وفي عهده، أنشأ الدومنيكيون في الموصل سنة ١٨٨٢ معهد مار يوحنا الحبيب الكهنوتي. وفي السنة ذاتها، استأنف المعهد الكهنوتي البطريركي نشاطه، بعد ان أغلق سنة ١٨٧٣ لأسباب طارئة. وتوفي البطريرك عبو اليونان في ٢٧ حزيران (يونيو) سنة ١٨٩٤ بحسب التيفويد وله من العمر ٥٤ سنة.

وفي ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٤، انتخب عبد يشوع الخامس خياط بطريركاً، ونال التأييد في ٢٨ آذار (مارس) ١٨٩٥، وهو مثل سلفه من تلامذة كلية انتشار الايمان، وكان ضليعاً باللغات والآداب السريانية، وقام بنشاط كبير في تنقيح وطبع الكثير من الكتب الطقسية في مطبعة الآباء الدومنيكيين في الموصل. إلا ان عهده كان قصير الأمد، إذ توفي في بغداد سنة ١٨٩٩.

وبعد موت البطريرك عبد يشوع خياط، اجتمع الميودس الكلداني وانتخب يوسف عمانوئيل الثاني توما بطريركاً في ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٠، وأيدته البابا لأون الثالث عشر في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٠. وكان البطريرك الجديد من تلامذة اليسوعيين في غزير

التي أنشأها في بغداد. وقد اشتهر البطريرك
بقداسة سيرته وبتجرده وعطفه على الفقراء
والمعوزين، وافته المنية سنة ١٩٨٩.

وخلفه البطريرك، مار روفائيل الأول
بيداويد سنة ١٩٨٩. وعكف البطريرك الجديد
على تنظيم شؤون الكنيسة الكلدانية وإعطاء
الكنيسة وجهاً جديداً. وطبق فيها القوانين
الكنسية. وعند كتابة هذه السطور، تجري
استعدادات واسعة النطاق لعقد المؤتمر الكلداني
العام الذي فيه تحاول الكنيسة إعادة النظر في
بنيتها وتنظيماتها، في سبيل إصلاح شامل تدعو
الحاجة إليه، على ضوء مقررات المجمع
الفاتيكانى الثاني.



البطريرك بولس الثاني شيخو

٢. المدارس في كنيسة المشرق

اشتهرت كنيسة المشرق بمدارسها العديدة
المنتشرة في طول بلاد ما بين النهرين وعرضه.
وإليك ما يقوله أحد المؤرخين المسلمين
المعاصرين في هذا الصدد(٢٤): «كان للنصارى
فيما بين النهرين نحو خمسين مدرسة درسوا
فيها العلوم الآرامية واليونانية. وقد ألحقوا بهذه
المدارس مكتبات. وكان في أديارهم شيء
كثير من الاسفار ومن الكتب المترجمة إلى
الأدب النصرانية من مؤلفات أرسطو وجالينس
وسقراط. لأنهم كانوا محور الدائرة العلمية في
ذلك العصر، ونقلوا الثقافة اليونانية إلى
الامبراطورية الفارسية، ثم إلى الخلافة
العباسية». ويذكر توما المرجي(٢٥) ان باباي

وبالرغم من ظروف البلاد العسيرة، فقد
اجتمع السينودس الكلداني في خريف عام
١٩٥٨ وانتخب البطريرك بولس الثاني شيخو
الذي تمّ تنصيبه في كانون الأول (ديسمبر) من
السنه ذاتها. وكان البطريرك الجديد راعياً
هامماً، عرف احتياجات شعبه الروحية وبنى
العديد من الكنائس خاصة في العاصمة بغداد
التي توافد إليها أعداد كبيرة من المؤمنين الذين
نزحوا من المناطق الشمالية من جراء ثورة
الأكراد والاضطرابات الناجمة عنها.
فاستقبلهم البطريرك ولبى احتياجاتهم واهتمّ
بتنظيم شؤونهم الدينية في مختلف الجورنات

(٢٥) توما المرجي، كتاب الرؤساء، ص
١٢٦-١٢٨.

(٢٤) أحمد أمين، ضحى الاسلام، ٢، مصر
١٩٣٨، ص ٥٩-٦٠.

أصابها الذبول لدى انتقال الكرسي
البطريركي إلى بغداد في نحو سنة ٧٨٠.

— مدرسة جنديسابور: وضع نواتها شابور الثاني
(٣٠٩-٣٧٩)، إذ دعا الطبيب اليوناني
تيودوسيوس إلى جنديسابور وعهد إليه في
تدريس الطب وترجمة الكتب اليونانية.
وأصبحت المدرسة مركزاً هاماً للعلوم بعد أن
التجأ إليها عدد من الأطباء والفلاسفة اليونان
الذين اضطهدهم الروم واستقبلهم كسرى
الأول أنوشروان (٥٣١-٥٧٩)، وشاد لهم
مستشفى ومدرسة للطب تهافت إليها
الطلاب من البلاد كلها. واشتهرت هذه
المدرسة في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل
وتعاقب على إدارتها آل بختيشوع الذين
زودوا الدولة العباسية بخيرة أطبائها.

— مدرسة دير قتي: تنسب إلى مار ماري الذي
بشر المنطقة في نهاية القرن الأول. وكانت
زماناً تعتبر أكبر مدرسة أو كلية لاهوتية في
منطقة بغداد. وتخرج فيها أعظم مشاهير
علماء المسيحيين، وكان أشرف بغداد
يرسلون إليها أولادهم. ومن الذين اشتهروا
بين تلامذتها ومدرسيها أبو بشر متى بن
يونس (٩٤٠٦)، العالم المنطقي الذائع
الصيت، الذي عليه قرأ الفيلسوف الكبير
الفارابي. وهناك من ينسب إنشاء هذه
المدرسة إلى مار عبدا في نهاية القرن الرابع
الميلادي.

... ومن المدارس الشهيرة أيضاً مدرسة
الدير الأعلى في الموصل التي أطلق عليها لقب أم
الفضائل، ومدرسة ايثالاها بالقرب من
دهوك...

الجبليتي الملقان أسس نحو ستين مدرسة في
منطقتي اربيل ومرج الموصل في القرن السابع،
وزوّدها بجميع المستلزمات وبالأساتذة.
ويضيق المجال لذكر جميع هذه المدارس،
ونكتفي بالإشارة إلى المدارس الشهيرة التي
لعبت دوراً فعالاً في تثقيف الناس وتخريج
العديد من العلماء الذين قاموا بدور قيادي في
كنيسة المشرق.

— مدرسة نصيبين: أسسها يعقوب أسقف
نصيبين بعيد سنة ٣٢٥، وأدارها القديس
افرام الملقان (٢٧٣٤) إلى سنة ٣٦٣.
فأغلقت على اثر امتلاء الفرس على هذه
المدينة. ثم استأنفت المدرسة نشاطها في
منتصف القرن الخامس، وواصلت مسيرتها
خلال قرون طويلة. وكانت تحتل المرتبة
الأولى في الشهرة والكفاءة بين مدارس
كنيسة المشرق، وتدرس فيها جميع العلوم
المعروفة آنذاك. وازدهرت خاصة في
منتصف القرن السادس حتى قيل ان عدد
طلابها أربى على الألف.

— مدرسة الرها: أسسها القديس افرام الملقان
سنة ٣٦٣ للمسيحيين النازحين من نصيبين
خاصة، لذا سميت مدرسة الفرس.
واستمر نشاطها طوال قرن وربع القرن،
وتخرج فيها علماء كبار، إلى ان أغلقت
سنة ٤٨٩، اثر الخلافات التي تسربت إليها
بسبب الجدل العائدية الدائرة آنذاك.
وقد اشتهر بين أساتذتها الملقان نرساي.

— مدرسة المدائن: أسسها مار آبا الكبير
(٥٤٠-٥٥٢) في النصف الأول من القرن
السادس، واستمرت زماناً طويلاً إلى ان

وبالإضافة إلى هذه المدارس، كان كل دير يضم مدرسة يتردد إليها الطلاب من المنطقة نفسها أو من المناطق البعيدة، بحسب شهرة المدرسة^(٢٦).

وكان لكنيسة المشرق مدارس خاصة واصلت مسيرتها في مختلف العهود الأخيرة التي حكمت بلاد ما بين النهرين. وكانت هذه المدارس تتبع مناهج الدولة، وتهتم بتعليم اللغة السريانية والدين المسيحي. إلا أنها أمتت في السبعينيات من هذا القرن... أما معهد شمعون الصفا الكهنوتي فقد استمر على تثقيف الكهنة في الموصل أولاً، ثم نقل إلى بغداد إلى منطقة الدورة (ميكانيك). وفي هذه السنوات الأخيرة، جرت محاولة تهدف إلى جعله كلية لاهوتية للعلوم الكنسية (كلية بابل). وما تزال الجهود تبذل في سبيل الحصول على موافقة السلطات الرسمية. ويتلقى الآن العلم في كلية بابل الكنسية تلامذة المعهد الكهنوتي مع فرقة صغيرة من أبناء الطائفة الأثرية الشقيقة وعدد صغير من العلمانيين الذين يهيأون للدرجات المقدسة أو للرمالة في الخورنات. كما ان كنيسة المشرق ترسل بين فترة وأخرى بعضاً من أبنائها التلاميذ أو الكهنة للتخصص في جامعات الغرب، وخاصة في رومة.

... أما ما تبقى من الأديار العديدة المنتشرة في ما بين النهرين، فينحصر الآن في مؤسسة رهبانية رجالية واحدة هي تلك التي أنشأها الربان هرمزد في الدير المعروف باسمه الواقع بالقرب من القوش شمالي العراق. وهذه

الرهبانية تواصل مسيرتها منذ القرن السابع، بالرغم مما أصابها من النوائب خلال مسيرتها الطويلة عبر الأجيال. ولقد اضطرت رهبانها مرات كثيرة إلى ترك ديرهم تحت ضغوط الاضطرابات والاضطهادات، ثم العودة إليه بعد مرور العاصفة. إلا ان الحياة الرهبانية كانت بأمرس الحاجة إلى إصلاح يعيدها إلى أصلاتها الروحية الحقيقية. وقد تم هذا الإصلاح عن يد الانبا جبرائيل دنبر المارديني الذي أقبل إلى البلاد وتولى إدارة الدير سنة ١٨٠٨، واستطاع، رغم الظروف العسرة، إن يعش الرهبانية الكلدانية ويعيد تنظيمها وان ينال تثبيت قوانينها في رومة. ولكنه استشهد سنة ١٨٣٢ مع ثلاثة من رهبانه خلال موجة عنف هبت من الجبال الشمالية، واستمرت الرهبانية وازداد عدد المنضمين إليها، حتى اضطروا إلى إنشاء دير آخر في سهل القوش أطلق عليه اسم «دير السيدة حافظة الزروع». وقد أصبح هذا الدير وما يزال مركز رئاسة الرهبانية الكلدانية. وفي سنة ١٨٦٢، اعتبر دير مار كوركيس القريب من الموصل ديراً قانونياً للرهبانية الكلدانية الأنطونية الهرمزية. وفي سنة ١٩٦٩، شيد دير آخر للكلدان في منطقة الدورة في بغداد، ويضمّ المتدئين والمسؤولين عن تنشئتهم وتثقيفهم. وللرهبانية أيضاً دار في رومة لاستقبال الرهبان الذين يقصدون رومة لغرض الدرس والتخصص... وهناك ثلاثة أديرة أخرى في منطقة الموصل قد أعيد ترميمها على دفعات متتالية، وهي: دير مار ميخائيل رفيق

قبل الاسلام، بغداد ١٩٥٥.

(٢٦) راجع رفايل بابو اسحق، مدارس العراق

وروتها وروعتها في هذه الترجمات التي ما زالت غير وافية.

دأبت كنيسة المشرق، منذ نشأتها، على تنظيم شؤونها الدينية والطقوس التي كانت تعبر بها عن شواعرها وعن وحدة إيمانها. وكانت السريانية الفصحى اللغة المستعملة للصلاة والتداول اليومي. وجاءت كتابات الآباء السريان الأوائل ووقرت مادة روحية عميقة وغزيرة للمؤمنين. وقامت كنيسة «كوخخي» الأم بدور فعال في إيلاء هذه الصلوات صيغة شاملة. ثم جاءت تنظيمات أخرى خلال القرون الستة الأولى، وقدمت للكليرس والمؤمنين رتباً دينية تغذي حياتهم الروحية. وكان لمدرسة الدير الأعلى في الموصل اليد الطولى في هذه التنظيمات الطقسية. إلا أن العمل الكبير في هذا الشأن قام به البطريرك ايشوعياح الحدياني (٦٥٩٤) في القرن السابع، بمساعدة عنانيشوع وغيره من علماء عصره. وأسفرت جهودهم المشتركة عن نتائج كبيرة وطقوس رائعة تشمل السنة كلها. وأصبح هذا التنظيم أساساً لكتاب الفرض الذي يستعمله الكلدان والساطرة حتى الآن، وهو المسمى «الحوذرة»، أي مدار السنة الليترجية. وقد رتب ايشوعياح هذه الصلوات على نظام السابوعات التي تدير بحسب حياة الخلق وأعماله (مديرانوثا). أما هذه السابوعات فهي: (١) سوبارا (البشارة) ويمتد على أربعة أسابيع قبل الميلاد ويضاف إليها أسبوع بعد الميلاد، (٢) دنحا (الذبح) وهو سبعة أسابيع أو أكثر تلي عيد العماد وتمتد حتى الصوم الكبير، (٣) صوما (الصوم) وهو سبعة أسابيع بضمنها أسبوع

الملائكة ودير مار إيليا الحيري أو دير سعيد القريان من الموصل، ودير مار إبراهيم القريب من بلدة باطناي، إلا أن هذه الأديرة الثلاثة خالية من الرهبان.

وللكلدان أيضاً رهبانيتان للنساء، هما: جمعية بنات مريم المحبول بها بلا دنس (راهبات الكلدان)، وقد أسست سنة ١٩٣٣ ومركزها في بغداد، وتعمل راهباتها في حقلي التعليم والخدمة، وجمعية القلب الأقدس التي أسست سنة ١٩١٥ في أربان التابعة لأبرشية العمادية، وانتقلت إلى الموصل اثر الظروف الأخيرة التي حلت بالمنطقة الشمالية. ولكلنا هاتين الجمعيتين فروع في أماكن عديدة من البلاد، ولبنات مريم الكلدانيات فروع أيضاً خارج البلاد، في رومة وفي الولايات المتحدة الأميركية.

٣. طقوس كنيسة المشرق

إن اللغة المستعملة في الصلوات والطقوس في كنيسة المشرق هي اللغة السريانية الشرقية (الكلدانية). وكانت هذه اللغة هي المستعملة طقسياً حتى عند القبائل العربية المنضمة إلى هذه الكنيسة، مثل المناذرة وغيرهم، في حين أن اللغة المتداولة عندهم كانت العربية. وفي هذه السنوات الأخيرة، وعلى ضوء مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني الداعي إلى استخدام اللغات التي يفهمها الشعب المسيحي، في سبيل تسهيل مشاركته في هذه الطقوس، جرت محاولات عديدة لترجمة القدامس ورتب وصلوات أخرى إلى اللغة العربية أو إلى اللغة السريانية الدارجة (السورث). إلا أن الطقوس فقدت الكثير من

الآلام، ٤) قيامتا (القيامة) وهو سبعة أسابيع مع الأحد الذي يلي الصعود، ٥) شليحي (الرسل) وهو سبعة أسابيع ابتداءً من العنصرة، ٦) قيطا (القيظ) وهو سبعة أسابيع وتدور الصلوات فيه حول كرازة الرسل وتوبة البشر، ٧) إيليا والصليب وهما سابوع متداخل ويتكوّن من سبعة أسابيع، ٨) موشي (موسى) وهو أسبوع أو أكثر، ويشير إلى مجيء المسيح المفاجيء، ٩) قوداش عينا (تقديس البيعة) وهو أربعة أسابيع بها تنتهي الدورة الطقسية وتشير إلى ان المسيح في نهاية العالم يدخل الكنيسة عروسه إلى ملكوته ويكّل الصالحين في السماء... وقد أجريت إصلاحات على هذا النظام عبر الاجيال، أهمها في عهد البطريرك يوسف الثاني آل معروف (١٧١٢٤) الذي استحدث أعياداً وتذكارات ونقّح بعض الصلوات. وأخيراً طبعت هذه الصلوات الطقسية في ثلاثة مجلّدات بهمة الأب بولس بيجان في نهاية القرن التاسع عشر، ثم أعيد تصويرها وطبعها في رومة سنة ١٩٣٨. ويجري الآن إعادة طبعها في رومة أيضاً.

٤. الكنيسة الكلدانية اليوم

يطلعننا التاريخ على مدى انتشار كنيسة المشرق في عصورها الذهبية. فكانت عشرات الأبرشيات قد أنشئت في البلاد، وأخرى انتشرت في البلدان الشرقية المجاورة والناحية. فكانت كل من الأبرشيات الكلدانية على الوجه التالي: ١) الأبرشية البطريركية، وعلى رأسها غبطة البطريرك وسيادة معاونه؛ ٢) البصرة؛ ٣) أربيل؛ ٤) كركوك؛ ٥) الموصل؛ ٦) زاخو؛ ٧) العمادية؛ ٨) القوش؛ ٩) العقرة؛ ١٠) طهران؛ ١١) أورميا؛ ١٢) الأهواز؛ ١٣) اسطنبول (ديار بكر سابقاً)؛ ١٤) حلب والجزيرة؛ ١٥) مصر؛ ١٦) لبنان؛ ١٧) الولايات المتحدة الأميركية. أما النيابات البطريركية فهي: السليمانية، القدس، أستراليا، السويد، فرنسا، رومة، كندا.

ومجموع المطارنة والأساقفة الكلدان هم اليوم: ١٥، بالإضافة إلى غبطة البطريرك. ويبلغ عدد الكلدان الكلي في العالم نحو ثلاثة ملايين، منهم نحو مليونين ونصف المليون

ولكنيسة المشرق ثلاث لیترجیات للقداس: ١) لیترجیة القديسين أدّي وماري رسولي المشرق وتسمّى القدّاس الأول أو قدّاس الرسل، وتستعمل للأيام البسيطة كلها وللأحد والأعياد الواقعة بين أحد الشعانين وأحد البشارة، وهي أقدم اللیترجیات الشرقية، ٢) لیترجیة تيودورس المصيبي المترجمة من اليونانية، وتسمّى «القدّاس الثاني» وتستعمل للأحد والأعياد الواقعة بين أحد البشارة وأحد الشعانين، ٣) لیترجیة نسطور المترجمة من

ومجلات وصحف أخرى في مختلف البلدان، ونشرات محلية على نطاق الإبرشيات أو الحورنات. وقد توقّف بعض كهنتها ومؤمنها إلى نشر نتاجاتهم الفكرية، التراثية منها والأدبية. ومعظم كهنة الطائفة الآن من ذوي ثقافة جيدة، ومنهم من ذوي الاختصاص في مختلف الحقول العلمية، الفلسفية واللاهوتية والقانونية والتاريخية وغيرها. وما تزال الممارسة الدينية لدى المؤمنين على مستوى جيد، والوعي الروحي في ازدياد مستمر لدى الشباب خاصة. . .

٥. الكنيسة الشرقية القديمة (المسطورية)

منذ منتصف القرن السادس عشر، حيث انضمت فئة من كنيسة المشرق إلى الوحدة مع رومة بزعامة البطريرك يوحنا سولاقا، ظلّت الفئة الأخرى تتأرجح بين الأقدام على الوحدة والاحجام عنها، بحسب الضغوط التي كانت تتلقاها من الظروف ومن الفئات المشدّدة في الكنيسة ذاتها. وقد وجدت هذه الفئة نفسها منعزلة في الجبال الشمالية تعاني من تعسّف الأكراد والأتراك خلال قرون طويلة، في حين ان الوحدة انتشرت انتشاراً واسعاً خاصة في سهل الموصل وفي وادي دجلة وعلى ضفاف بحيرة أورميا في إيران. ومن المفارقات الغريبة أن خلفاء سولاقا عادوا إلى مذهبهم القديم وانزروا في منطقة «تياري»، في حين انضمّ خلفاء منافسه التسطوري إلى الوحدة، تحت تأثير المرسلين في ديار بكر والموصل. وكان من الصعب على الفئة المعتصمة بالجبال أن تتخلّى عن وحدتها القومية وان تسمح للتمزّق في

في الهند (ملبار) وهم يخضعون لسلطة رومة المباشرة. أما الكلدان الذين يخضعون لبطيركية بابل الكلدانية التي مركزها بغداد فهم الآن نحو ٦٠٠ ألف نسمة، منهم أكثر من ٤٠٠ ألف في العراق، وأغلبهم يسكنون بغداد، وقد نزح العديد منهم إليها من المناطق الشمالية اثر الاضطرابات التي حدثت فيها. أما الباقون فيتوزعون على المدن والقرى العراقية الأخرى. وللكلدان جاليات عديدة خارج القطر العراقي، في البلدان العربية المجاورة وفي البلدان الأوروبية وأميركا وكندا وأستراليا وغيرها. لقد بدأت هجرتهم إلى تلك البلدان منذ سنين طويلة، واشتدّت حركة الهجرة في هذه السنوات الأخيرة، حيث نزحت أعداد كبيرة منهم من بلاد ما بين النهرين وتوجّهت إلى بلدان أوروبا وأميركا. وغادر معظم كلدان تركيا بلادهم ولجأوا خاصة إلى فرنسا وبلجيكا والسويد والمانيا وغيرها من البلدان. وأكبر جاليات الكلدان توجد الآن في الولايات المتحدة الأميركية، إذ بلغ عددها أكثر من ٧٠ ألف نسمة.

ويقوم نحو ١٢٠ كاهناً بخدمة جميع هؤلاء المؤمنين في العراق وفي الخارج.

أما النشاطات في الكنيسة الكلدانية فمتعدّدة ومختلفة، منها تهدف إلى تثقيف الاكليروس في المعهد الكهنوتي، وغيرها إلى تثقيف المؤمنين بشتى الوسائل كالدورات اللاهوتية والندوات والاحويات لمختلف الاعمار والدروس الدينية في المدارس الرسمية أو في الحورنات. ولهم مجلة تصدر في بغداد باسم «بين النهرين» تنشر مقالات تراثية رصينة،

١٩٠٣، في حين كان ابنا أخيه إبراهيم ونمرود يعقدان مفاوضات بشأن الوحدة في الموصل. وانتهز الحزب المناوئ للوحدة هذه الفرصة، وعين، عوض إبراهيم الوريث الشرعي، واحداً من أبناء عمه، وهو بنيامين الذي أصبح شمعون التاسع عشر وهو في التاسعة عشرة من سنه. وكان للأموال البريطانية والضغط الروسي دور كبير في إيقاف عجلة الوحدة. لكن همة المرسلين لم تفت، بل فتحوا لهم مراكز كثيرة، انطلاقاً من مركزهم الرئيسي في قرية مار ياقو القريبة من دهوك، في «أشيشا» قلب المنطقة النسطورية. وحينما اندلعت الحرب العالمية الأولى، تحزب البطريرك شمعون التاسع عشر لروسيا، وقضى على نمرود وعلى عدد من أفراد أسرته، وقرّر إجلاء رعاياه إلى البلاد الفارسية، وبذلك عرض العديد من قراه للسلب والنهب من قبل العشائر الكردية. وبعد مجازر سنة ١٩١٥، اجتاز الباقون من المسيحيين إلى أذربيجان تحت حماية الروس. وفي سنة ١٩١٧ انسحب الروس تاركين المسيحيين تحت رحمة أعدائهم. وتمكّن قسم منهم من اللجوء إلى روسيا، في حين ذهب القسم الأكبر إلى منطقة ما بين النهرين المحتلة من الإنكليز. فوصل نحو ٦٠ ألفاً منهم إلى بعقوبة ووضعوا في مخيم أقيم لهم هناك. وقد اغتيل البطريرك شمعون التاسع عشر في البلاد الفارسية، فأقاموا خلفاً له أخاه بولس وعمره ٢٤ سنة، واتخذ لنفسه اسم شمعون العشرين. وجاء هذا إلى الموصل في الوقت الذي كانت فيه معاهدة سيكس - بيكو في طريقها إلى التنفيذ، وأظهر ميله إلى الانضمام إلى الوحدة. وحينما نُفذت المعاهدة

صفوفها، بالنظر إلى كونها محاطة بأقوام يترقبون الفرص للقضاء عليها. وقد تجلّى ذلك من خلال المجازر التي ارتكبتها جيوش بدرخان في السنوات ١٨٤٣/١٨٤٧. وكان بطاركة فوجانس مع شعوبهم يعانون من العزلة ويعتبرون الوحدة مع رومة ضرورة تتيح لهم الحفاظ على حياتهم وكيانهم. وإذا بالبطريرك شمعون السابع عشر يقول للمحيطين به في نزاعه الأخير سنة ١٨٦١: «إذا اضطرتهم للحفاظ على أمتنا إلى تغيير مذهبكم، فاتحدوا مع الكاثوليك ولا مع البروتستانت». وقد تذكّر خلفه البطريرك شمعون الثامن عشر هذه النصيحة سنة ١٨٩١، فالتمس من الدومنيكيين في الموصل ان يتوسطوا له لدى الحبر الأعظم للحصول على مدارس ومساعدات مادية وحماية من قنصل فرنسا، أسوة ببقية الجماعات المسيحية. إلا أن البطريرك تخلف عن اللقاء في العمادية بالبطريرك الكلداني إيليا عبو اليونان سنة ١٨٩٢، خوفاً من المعارضة التي ثارت ضد هذه المبادرة في طائفته نفسها.

لكن التحرك في اتجاه الوحدة استمر عند ابني أخي البطريرك: إبراهيم أسقف حكاري وأخيه نمرود. وكانت هذه الحركة من القوة بحيث نرى أن البابا لأون الثالث عشر يعين بطريرك الكلدان عمانوئيل الثاني توما وكيلاً عنه في بت شؤون العائدين إلى الوحدة الذين كان عددهم يربو على ٤٠ ألف نسمة. ولم يكن من السهل إيجاد أشخاص من المرسلين أو غيرهم ممن لهم الكفاءة لرعاية هذه الأعداد الغفيرة من المؤمنين وتثقيفها. . . وفي تلك الغضون، توفي البطريرك شمعون الثامن عشر سنة

المذكورة وشملت منطقة الموصل، أقصى البطريك عن المدينة، ومات بعيد ذلك في مخيمٍ بعقوبة بدء السل سنة ١٩٢٠.

وخلفه إيشاي باسم شمعون الحادي والعشرين، وهو صبي في الثالثة عشرة من سنه. وأُرسل إلى انكلترا للدراسة، وبقيت إدارة الشؤون الكنسية في أيدي والده وخاصة عمته سورما خاتم أخت البطريكين بنيامين ويولس. ولدى عودة البطريك الشاب إلى الموصل سنة ١٩٢٧، اعترفت به الحكومة العراقية رئيساً للناشطة الباقيين في العراق والموجودين في روسيا والهند.

ومنذ القرن التاسع عشر، دخلت المناطق التي يسكنها النساطرة إرساليات بروتستانتية قادمة من انكلترا وأميركا. وكان لها تأثير كبير في المؤمنين الذين كانوا غالباً ما يعانون من الفقر والجهل، بالإضافة إلى كونهم معرضين لمضايقات جيرانهم الأكراد والأتراك. وقد انضم عدد من أفراد هذه الكنيسة إلى مذاهب هؤلاء المرسلين، مما خلق المزيد من الفوضى والارتباك في هذه الكنيسة. وعجزت سياسة البطريك الضعيفة عن توحيد كلمة رعاياه، بل خلق ميله إلى الانكليكان معارضة قوية في صفوف اكليسسه، فانضم عدد منهم إلى طيموتاوس أسقف ملبار، والتف آخرون حول القس يوسف الذي أنشأ في الموصل مدرسة معارضة للمدرسة التي أقامها فيها البطريك وسلمها إلى إدارة المرسلين البروتستانت.

وفي سنة ١٩٣٣، ظهرت في صفوف الأشوريين انتفاضة تهدف إلى إقامة نوع من الحكم الذاتي. وحاولت قواتهم المسلحة

الانضمام إلى اخوتهم في سورية التي كانت إذ ذاك تحت الانتداب الفرنسي. وكان لمصالح الدول الكبرى دورها في إحباط هذه الانتفاضة التي جند لها العراق كل طاقاته للقضاء عليها. وبعد معارك ضارية دارت بين الثوار والحكومة العراقية، استطاع الجيش العراقي القضاء على الثورة، فقتل أعداداً كبيرة من مسلحيها، ثم لاحق فلولهم في الجبال والقرى، حيث لقي الكثير من النساء والأطفال حتفهم، ودمرت قراهم وأحرقت محاصيلهم... وائر هذه الثورة، أبعاد البطريك شمعون الحادي والعشرون إيشاي إلى قبرص أولاً، ثم إلى لندن حيث مكث مدة طويلة. وفي سنة ١٩٤٢، بينما كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها، غادر لندن إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واستقر في ولاية سان فرانسيسكو إلى ان اغتيل سنة ١٩٧٥، لأسباب دينية وقلبية.

ولم تمر السنوات الأخيرة من حياة البطريك شمعون إيشاي بغير صعوبات. فقد ظهرت أزمة جديدة في الطائفة سنة ١٩٦٤، اثر القرار الذي اتخذه البطريك في التخلي عن التقويم اليولياني القديم وتبني التقويم الغريغوري، تشبهاً مع معظم الكنائس في العالم، وفي تقليص الصلوات الطقسية وتخفيف الاصوام التقليدية الكثيرة والصارمة. فقاومه فئة من كنيسته، واستقدمت المطران توما درمو من الهند إلى بغداد. وبعد ان رسم ثلاثة أساقفة، اجتمع معهم في بغداد سنة ١٩٦٨، واختاروه بطريكاً للمعارضين، وقرروا عزل البطريك شمعون إيشاي. إلا ان

هذا استمرّ على رأس كنيسته، وقد زار العراق سنة ١٩٧١، واستعاد جنسيته العراقية. وحينما صمّم على الزواج سنة ١٩٧٤، أثار بذلك امتياع عميقاً بين صفوف شعبه أدّى إلى اغتياله سنة ١٩٧٥. وقد وضع موته حداً للبطريركية الوراثة في الكنيسة الشرقية الآشورية، بعد ان استمرّ فيها هذا القانون الجائر طوال قرون عديدة.

وفي سنة ١٩٧٦، تمّ انتخاب أسقف طهران بطريركاً باسم مار دنخا الرابع، خلفاً للبطريرك الراحل، على رأس «الكنيسة الشرقية الآشورية». وكانت الفئة المعارضة التي أطلقت على نفسها اسم «الكنيسة الشرقية القديمة» قد اختارت أيضاً، بعد موت توما درمو، مار ادّي الثاني بطريركاً لها سنة ١٩٧١. وما يزال البطريركان يتقاسمان السلطة على الكنيسة الشرقية النسطورية.

ويتخذ مار دنخا الرابع شيكاغو في الولايات المتحدة الأميركية مقراً مؤقتاً له. أما مقرّه الرسمي ففي بغداد. ولكنيسته الآن عشر أبرشيات، منها في العراق وأخرى في سورية وإيران ولبنان وأوروبا وكندا وأستراليا والهند، وأبرشيتان في الولايات المتحدة الأميركية. وعدد أساقفتها ثمانية، بالإضافة إلى البطريرك. ويبلغ عدد كهنتها نحو ٦٧ كاهناً في مختلف الاقطار. أما عدد المؤمنين المنتمين إلى هذه الكنيسة فلا يتجاوز ٤٠٠ ألف نسمة (٢٧). ولهذه الكنيسة نشاطات كثيرة. فقد افتتحت

مدرسة لتتقيف الكهنة في بغداد، ولها مطبعة كاملة ومتطورة لطبع الكتب الدينية والطقسية وغيرها، ومكتبة عامرة تضمّ مطبوعات كثيرة ونحو ١٥٠ مخطوطة. كما ان لها جمعيات خيرية ولجاناً للشباب، وتقوم بمختلف النشاطات التتقيفية للمؤمنين، بالإضافة إلى مجلة «صوت من الشرق» التي تصدر في شيكاغو الأميركية. واستطاع مار دنخا الرابع مع عدد من أساقفته القيام بزيارة لمؤمنيه في روسيا وتفقد أحوالهم وتنظيم شؤونهم. وبهذه المناسبة طلب من أبنائه في روسيا ان يرسلوا بعضاً من شبابهم لكي يتلقوا العلوم الدينية الكنسية في الدير الكهنوتي في بغداد. ولهذه الكنيسة علاقات أخوية مع الكنيسة الكلدانية، لالتزامهما بالطقوس والأعياد والعادات المشتركة.

أما «الكنيسة الشرقية القديمة» التي يرأسها البطريرك مار ادّي الثاني كيوركيس منذ سنة ١٩٧١، الذي مقرّه الرسمي في بغداد، فلها ست أبرشيات: الأبرشية البطريركية وأبرشيات التأميم والموصل والحسكة السورية والولايات المتحدة الأميركية وأبرشية ملبار التي لها مطران وأسقف. وتجدد الاشارة إلى ان أغلبية النساطرة في ملبار هم من أتبع هذه الكنيسة، وهناك عدد منهم في أستراليا ونيوزيلندا وغيرهما من البلدان الشرقية والغربية. ومع ذلك فان عدد المؤمنين المنتمين إلى هذه الكنيسة لا يتجاوز ٢٠٠ ألف نسمة، وعدد كهنتها

أشكر لطفه. ومن الظاهر ان في هذه المعلومات شيئاً من المبالغة.

(٢٧) لقد استقيت هذه المعلومات من فرعي هذه الكنيسة، وخاصة من القس ايثو القس عوديشو الذي

يبلغ ٤٢ كاهناً^(٢٨)، ولها نشاطات خاصة في الهند حيث يقوم المطران والأسقف الهنديان بتثقيف الكهنة لهذه الطائفة ويديران مطبعة ويصدران مجلة هناك أيضاً.

خاتمة

لقد ألقينا نظرة سريعة على تاريخ كنيسة المشرق الطويل، واستعرضنا نشأتها وانتشارها، وسلطانها الاضواء على ميزاتنا، وواكبنا تطورها عبر الاجيال، وتألّمنا لما اعتور مسيرتها الطويلة من المآسي والمحن، واتجهنا ليقظتها ونشاطها

في العصور الحديثة. فلا يسعنا، في نهاية هذا المقال، إلا ان نهيب بأبناء هذه الكنيسة، مهما اختلفت وتباينت نزعاتهم الدينية أو القومية، ان يتذكروا أمجاد آبائهم القدامى ويحاولوا توحيد صفوفهم وتوجيه جهودهم ليجعلوا كنيستهم على مستوى مسؤوليتها الجسيمة للقيام برسالتها في عالم اليوم، فتكون شهادة أصيلة للقيم السامية والثقافة العالية والاخلاق الرصينة، لكي يرى جميع الناس أعمالهم الصالحة ومحبتهم الأخوية وتعاونهم البناء، فيمجّدوا أباهم السماوي.

(٢٨) بحسب المعلومات التي وردتني من مقرر بطريركية هذه الكنيسة، وفيها أيضاً شيء من المبالغة، إذ قد لا يتعدى عدد المئتمن إليها ٥٠ ألف نسمة.

ملحق

بقلم الأب جان موريس فييه الدومينيكاني *

* مؤرخ وباحث في التراث السرياني .

كنيسة السريان الملبار

إنديكوبلوسيتيس أنه كان آنذاك في الملبار «أسقف رسم في بلاد فارس»؛ وكان كرسية تابعاً لمطراية تلك البلاد وظلّ لاحقاً بها حتى القرن الثامن، حيث أصبح بدوره كرسياً لمطراية مستقلة. وظلت العلاقات بين ذلك الكرسي ومركز الجليلق مستمرة على شيء من الانتظام حتى القرن السادس عشر. ولم يتم الانفصال إلا على يد البرتغاليين بعد أن حلوا في الملبار سنة ١٤٩٨ واتصلوا بالسريان الشرقيين، فظل بعضهم نسطورياً وصار بعضهم الآخر كلدانياً كاثوليكياً. وفي عام ١٥٩٥، شكّ البابا اقليمنضس الثامن بصحة عقيدة المطران إبراهيم، فرأى انه لا يمكن تفويض رعاية مسيحيي القديس توما إلا لمطران يعينه البابا، وأعطى في هذا الصدد كامل الصلاحيات لرئيس أساقفة غوا اللاتيني. وبعد سنوات معدودة، عام ١٥٩٩، التأم دياپير برئاسة المطران المذكور وثبتت اللبنة على سائر الأصعدة إن في السلوك والقوانين أو في الطقوس.

هذه الكنيسة موجودة في جنوب الهند وترقى إلى الرسول القديس توما. إلا أن التقليد المحلي يقول بأنه حوالي سنة ٣٤٥ افتقر «مسيحيو مار توما» إلى رجال دين، فاتصلوا بجليق المشرق فأرسل إليهم توما فنايه التاجر يرافقه ٧٢ أسرة، وأربعة كهنة، وشمامسة، ومطران هو يوسف الرهاوي. إلا أن في التاريخ المذكور نظراً، إذ كان آنذاك اضطهاد شابور الثاني قائماً على قدم وساق.

وهناك تقليد آخر يقول بأنه تمّ، حوالي التاريخ عينه، انتقال شخص يعرف بثاوفيل الهندي، من الجزيرة العربية إلى الهند. إلا أنه تجدر الملاحظة هنا أن كلمة «الهند» قد تعني، في تلك الحقبة، مناطق قريبة من بلاد العرب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى «الهند» التي يشرها، بين ٣١٠ و٣٤١، المطران داود القرائميشاني (= داود البصري). وبالنسبة إلى العلاقات بين كنيسة مار ماري والهند، فإنه لم يؤت على ذكرها قبل القرن السادس، إذ روى الرحالة

وقد سبق ورأينا كيف أن البطريك يوسف أودو (١٨٤٨-١٨٧٨) حاول إعادة الصلة بين الهند والبطريركية. وقامت في إثر ذلك أزمة نتج عنها فئة جديدة ارتبطت بالأسقف ملّوس - الذي عينه أودو - ثم أعلنت هذه الفئة خضوعها للبطريك النسطوري سنة ١٩٠٧، وما لبثت أن انقسمت هي أيضاً على نفسها.

وفي سنة ١٨٩٥ جرت محاولة لربط كنيسة الملابار بالبطريركية الكلدانية، بيد أن رومة أوقفتها وقررت إلحاق مسيحيي القديس توما بها مباشرة.

المراجع

- ابن العبري (غريغوريوس الملطي): التاريخ الكسبي (ج ٣) نشره أيلوس ولامي مع ترجمته اللاتينية في لوفان ١٨٧٢-١٨٧٧؛ التاريخ السرياني أو تاريخ الزمان، نشره الأب بيجان في باريس ١٨٩٠، وترجمه إلى العربية إسحق أرملة، بيروت ١٩٩١؛ تاريخ مختصر الدول، نشره الأب أنطون صالحاني اليسوعي في بيروت، ط ١، ١٨٩٠.
- أبونا (الأب ألبير): أدب اللغة الآرامية، ط ١، بيروت ١٩٧٠؛ تاريخ الكيسة الشرقية، ط ١، الموصل ١٩٧٣.
- ايشوعدناح البصري: الديورة في ملكي القرس والعرب، ترجمة القس بولس شيوخو، الموصل ١٩٣٩.
- بابو إسحق (رفائيل): تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٤٨؛ مدارس العراق قبل الاسلام، بغداد ١٩٥٥؛ أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، بغداد ١٩٦٠.
- بيجان (الأب بولس): سير الشهداء والقديسين (٦ ج) (بالكلدانية)، باريس ١٨٩٠-١٨٩٦.
- التاريخ السعدي: نشره مع ترجمته ادي شير في سلسلة البترولوجية الشرقية في باريس ١٩٠٧-١٩١٨.
- تيسران (الكردينال أوجين): الكيسة الكلدانية، ترجمة القس سليمان صائغ، الموصل ١٩٣٩.
- جميل (الانبا شموئيل): علاقات الكرسي الرسولي مع الكيسة الكلدانية، رومة ١٩٠٢.
- السمعاني (يوسف سمعان): المكتبة الشرقية (٣ ج)، رومة ١٧١٩-١٧٢٨.
- الشابشتي (أبو الحسن): كتاب الديارات، تحقيق كوركيس عواد، ط ٢، بغداد ١٩٦٦.
- شير (المطران ادي): تاريخ كلدو وأثور (٢ ج)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١٢-١٩١٣؛
شهداء المشرق (٢ ج)، الموصل ١٩٠٠ و ١٩٠٦.
- صائغ (القس لسليمان): تاريخ الموصل (٣ ج) ط ١، مصر ١٩٢٣، ط ٢، بيروت ١٩٢٨، ط ٣، جونه ١٩٥٦.
- صليبا (بن يوحنا الموسلي): أخبار فطاركة المشرق، تحقيق جيسموندي، رومة ١٨٩٦.
- الصوباوي (عبد يشوع): فهرس المؤلفين، ترجمة الأب يوسف جبي، بغداد ١٩٨٦.

- الطريحي (محمد سعيد): الديارات والامكة النصرانية في الكوفة وضواحيها، بيروت ١٩٨١.
- العمري (ابن فضل الله): مسالك الابصار في ممالك الامصار، تحقيق أحمد زكي بشا، القاهرة ١٩٢٤.
- غنيمة (يوسف رزق الله): الحيرة، المدينة والمملكة العربية، بغداد ١٩٣٦.
- فنواتي (الأب جورج شحاته): المسيحية والحضارة العربية، ٢٧، بغداد ١٩٨٤.
- ماري (بن سليمان): أخبار فطاركة كرسي المشرق (المجلد)، تحقيق جيسموند، رومة ١٨٩٩.
- المجامع الشرقية (سينوديكون): نشر شايبو نصه وترجمته الفرنسية، باريس ١٩٠٢.
- المرجي (توما): كتاب الرؤساء، ترجمة الأب ألبير أبونا، الموصل ١٩٦٦.
- ميخائيل السرياني: التاريخ (٤ ج) نشره شايبو مع ترجمته الفرنسية، باريس ١٨٩٩-١٩١٠.
- نصري (الأب بطرس): كتاب ذخيرة الاذهان (٢ ج)، الموصل ١٩٠٥ و ١٩١٣ (غير كامل)
- ياقوت الحموي: معجم البلدان (٥ ج)، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧.
- بالإضافة إلى مراجع أخرى كثيرة، منها بالعربية والسريانية وغيرها باللغات الاجنبية. . .

الكنيسة اللاتينية* البطريركية اللاتينية الأورشليمية

بقلم أحد كهنة البطريركية

(*) هذا العرض الموجز لتاريخ البطريركية اللاتينية الأورشليمية، ولا سيما الفصول المتعلقة بحراسة الأراضي المقدسة والبطريركية اللاتينية، اقتبس من كتاب المسيحية المعاصرة في الأردن وفلسطين للأب د. حنا كلداني، من كهنة البطريركية اللاتينية، الباب الثاني، من الصفحة ١٣٥ إلى ٢٨٢. ومنه جميع الاقتباسات الواردة في النص بين مزدوجين. نشر الأب كلداني كتابه هذا في عمان - الأردن، عام ١٩٩٣.

مقدمة

كنيسة القدس

تاريخها، وجب أن تعي هذا البعد الشمولي والعام الذي تحمله في صميم كيائها. وإذا كان التاريخ الماضي مثقلاً بالتزايدات وبنظرية «الحقوق المكتسبة» وعقليتها، وجب أن يكون التاريخ الحاضر محرراً من هذا العبء القديم، ليتسنى لجميع الكنائس أن تُعدّ مستقبلاً واحداً لكنيسة يسوع المسيح، ولجميع أبنائها في الأرض التي قدّسها بتعاليمه وآلامه وقيامته. فمن قال اليوم انه ينتمي إلى كنيسة القدس، يجب ان ينمي في نفسه إحساساً بجميع إخوته المسيحيين الذين جاؤوه في المكان والزمان، بالخصومات تارة وبالأخوة تارة أخرى، ولكنهم رفعوا دائماً مثله التسيح للرب يسوع المسيح نفسه القائم من بين الأموات، بعد أن تألم ومات، ليخلص كنيسة القدس وجميع كنائس العالم، بل العالم كله.

ولهذا، فإذا أردنا أن نقدّم في هذا الكتيب تاريخ كنائسنا الأورشليمية اللاتينية على حدة، فإننا نعتبر في الوقت نفسه ان تاريخ كل كنيسة في القدس هو تاريخنا أيضاً. وكل حضارة مرت عبر القرون بأرضنا المقدّسة هي حضارة كل ابن للأرض المقدّسة.

هي الكنيسة الوارد ذكرها في سفر أعمال الرسل. هي كنيسة الجماعات المسيحية الأولى المتصلة مباشرة بالرسول ويسوع المسيح نفسه. فقي القدس بدأ كل شيء. وفيها ولد كل مسيحي وكل كنيسة. وكنيسة يسوع واحدة، ولو أنها كانت اليوم مع الأسف منقسمة. ولهذا فإن هذه البداية هي بداية جميع الكنائس أيضاً. وصلاة يسوع ما زالت تدعو الجميع إلى الوحدة: «يا أبت القدّوس، إحفظهم باسمك الذي وهبته لي، ليكونوا واحداً كما نحن واحداً» (يوحنا ١٧/١١).

نجد اليوم في القدس عدّة كنائس ترقى كلها إلى العصور القديمة. ومن طبيعة كنيسة القدس أن تكون في الوقت نفسه كنيسة محلية وكنيسة جامعة أو في خدمة الكنيسة الجامعة، لأن جميع الكنائس، على غرار جميع المسيحيين، ولدت روحياً في القدس. ومن ثم، فإذا ما دوت اليوم أية كنيسة في القدس

القسم الأول

منذ النشأة وحتى القرن التاسع عشر

الفصل الأول

النشأة والعصور الأولى

هذه الجماعة المسيحية الأولى بهذا الكلام: «وكانوا يواظبون على تعليم الرسل وكسر الخبز والصلوات... وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة، يجعلون كل شيء مشتركاً بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم، ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم، يلازمون الهيكل كل يوم بقلب واحد ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بابتهاج وسلامة قلب، يسبحون الله ويتناولون حظوة عند الشعب كله. وكان الرب كل يوم يضم إلى الجماعة أولئك الذين يتناولون الخلاص» (رسل ٤٢/٢-٤٧).

وكان هؤلاء المؤمنون الأولون من اليهود الذين آمنوا بيسوع المسيح. وكانوا يجمعون بين تمسكهم بشريعة موسى وإيمانهم بيسوع المسيح. فيؤدون الصلاة في الهيكل مثل سائر الشعب، ويلتزمون بالحنان وبسائر فرائض الشريعة الموسوية. ولهذا نرى أن السلطات الرومانية في هذه الفترة، إذا ما بلغت ما خصصت بين المنتصرين من اليهود وسائر مواطنيهم، اعتبرت هذا خلافاً يهودية داخلية، لا شأن لها فيها. هذا

تكوّنت كنيسة القدس الأولى، وهي الكنيسة الأم لجميع الكنائس، من الرسل أنفسهم وممن كان معهم من المؤمنين. فيعد صعود يسوع المسيح، ورد في سفر أعمال الرسل: «رجعوا إلى أورشليم من الجبل الذي يقال له جبل الزيتون، وهو قريب من أورشليم على مسيرة سبت منها. ولما وصلوا إليها، صعدوا إلى العلية التي كانوا يقيمون فيها. وهم بطرس ويوحنا، ويعقوب واندراوس، وفيلبس وتوما، وبرتلماوس ومتى، ويعقوب ابن حلفى وسمعان الفيوري، فيهوذا بن يعقوب. وكانوا يواظبون جميعاً على الصلاة بقلب واحد، مع بعض النسوة، ومريم أم يسوع، ومع إخوته» (رسل ١٢/١-١٤).

وبعد العنصرة أخذ يتكاثر عدد المؤمنين بشارية الخلاص. ويصف سفر أعمال الرسل

الكنيسة القادمة من الأمم

كان الرسل يتوجهون في مشارتهم إلى اليهود أولاً، فإذا ما رفض اليهود البشارة توجهوا إلى الوثنيين. ونجد بطرس الرسول يتوجه منذ البداية إلى الوثنيين. وأول من بشره هو القائد الروماني قرنيليوس مع جميع أهل بيته (راجع رسل، الفصل ١٠). وبعد دمار القدس عام ١٣٥، كان أسقف القدس يحمل اسماً لاتينياً وهو مرقس، أول أسقف للكنيسة القادمة من الوثنيين. وخلفه على الكرسي الأورشليمي ١٢ أسقفاً يحملون اسماً لاتينياً مثله.

ومن بين المنتصرين من الرومان، نجد في القرن الثاني الفيلسوف والقديس الشهيد بسطونس. وهو روماني من مدينة نابلس (Flavia Neapolis). وهو الذي وجه كتابه في الدفاع عن الديانة المسيحية إلى الإمبراطور أنطونينس (١٣٨-١٦١)، ثم إلى خلفه مرقس أوريليوس (١٦١-١٨٠).

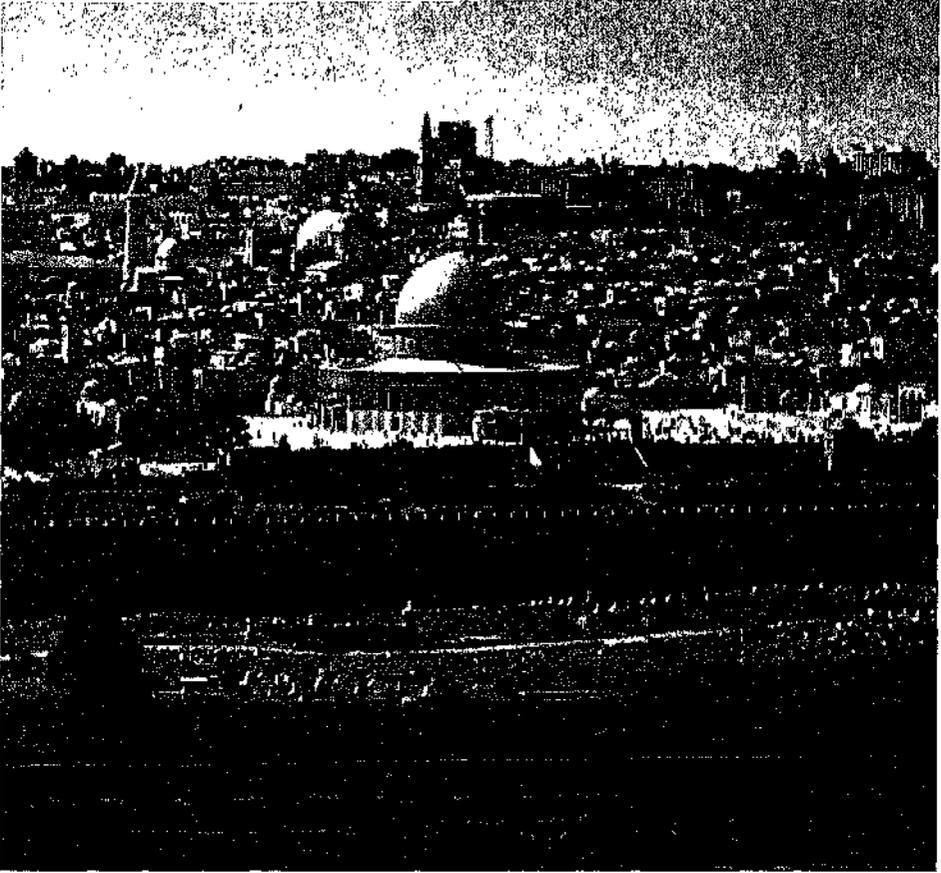
وقد مرّت هذه الكنيسة الناشئة بفترة اضطهاد عنيفة من قبل السلطات الرومانية. ودامت الاضطهادات حتى عهد الإمبراطور قسطنطين الذي تنصر في عام ٣١٣، والذي جعل من الديانة المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية.

ونعمت كنيسة القدس بالسلام منذ القرن الرابع. وشيدت في هذه الفترة والدة الإمبراطور قسطنطين، وهي القديسة هيلانة، عدداً من الكنائس، أشهرها كنيسة القيامة وكنيسة المهد. وشهدت كنيسة القدس في الفترة نفسها حركة ازدهار في الحج وفي

كان، على سبيل المثال، موقف الوالي الروماني غاليريون في آخائية، حين اشتكى اليهود على بولس. فقد قال لهم الوالي الروماني: «لو كانت المسألة مسألة جرم أو جنائية قبيحة، لاستمعت إليكم كما يقضي الحق. ولكن، لما كان الجدل في الألفاظ والأسماء وفي شريعتكم، فانظروا أنتم في ذلك، لأنني لا أريد أن أكون قاضياً في هذه الأمور» (رسل ١٨/١٤-١٧).

تعرض المؤمنون في هذه الكنيسة الأولى إلى المقاومة من قبل مواطنيهم اليهود، كما تعرضوا أيضاً للضربات الخارجية. ففي سنة ٧٠، لما دمر الرومان أسوار القدس، لجأوا إلى مدينة (Pella)، أي طبقة فحل في شرق الأردن. وفي عام ١٣٥، عاد الإمبراطور الروماني هدرينانس ودمر القدس، وقضى على كل وجود يهودي فيها، حتى انه بدل اسمها باسم روماني جديد. وأصبحت تُعرف باسم إيلياء (Aelia Capitolina)، ومنع إقامة اليهود فيها. ومع ذلك، فإننا نجد في الفترة نفسها جماعة من اليهود المنتصرين يقيمون في جبل صهيون خارج أسوار المدينة.

وأطلق على تلك الجماعة اسم النصارى نسبة إلى يسوع الناصري. وكان أول أسقف لهم الرسول يعقوب الصغير المعروف بأخي الرب والذي استشهد عام ٦٢ في القدس. ثم خلفه سمعان ابن عمه واستشهد هو أيضاً في عهد نيرون عام ١٠٧. واستمرت هذه الجماعات اليهودية المسيحية حتى القرن الرابع. ثم تبددت، إمّا في الفرق والبدع، وإمّا في زخم الكنيسة القادمة من الأمم، والتي انطلقت بعد دمار القدس عام ١٣٥.



مدينة القدس

لكنييسة قيصرية. ومنذ عام ٤٥١، رقيت إلى «كنيسة بطريركية» بفضل جهود البطريرك يوفنالس (٤٢٢-٤٥٨) في مجمع أفسس. وبلغ عدد الكراسي الأسقفية في هذه الفترة في فلسطين ٤٥ وفي شرق الأردن ٣٠.

ولم تطل فترة الازدهار. فجاءت ثورة السمرة عام ٥٢٩ فدمرت وذهبت. وفي عام ٦١٤، اكتسح الفرس بلاد فلسطين ودمروا الكنائس في القدس ومنها كنيسة القيامة، واقتادوا البطريرك زخريا إلى الأسر. ثم كانت

النسك والحياة الرهبانية. فامتألت صحراء غزة والصحراء الشرقية حول بيت لحم والقدس وغيرها من المناطق بالنسك والرهبان. وما زال بعض الأديرة قائماً حتى اليوم، مثل دير مار سابا ومار ثيودوسيوس شرق بيت لحم، ومار جاورجيوس في وادي القلث في شرق القدس. ومن بين تلك الأديرة أديرة لاتينية أيضاً على جبل الطور مع الراهب روفينس والقديسة ميلانيا، وفي بيت لحم مع القديس هيرونيمس. وكانت كنيسة القدس تابعة منذ نشأتها

نقطة التحول في تاريخ البلاد بمجيء الفتح الإسلامي عام ٦٣٨. وكان فتحاً مستقراً خلق أوضاعاً جديدة ما زالت باقية حتى اليوم.

الخلاصة

ان هوية كنيسة القدس الأولى هي هوية الجماعة المذكورة في سفر أعمال الرسل، وهي جماعة اليهود النصارى. وقد حاولت هذه الجماعة ان تبقى في بداية الأمر متحدة بالديانة اليهودية، ولكنها انفصلت عنها فيما بعد، وأصبح لها معابدها وأماكن صلاتها. واضطرت إلى إقامة صلواتها في الخفاء خوفاً من الاضطهاد، ولهذا لجأت إلى استخدام الرموز في شعائرها الدينية. وزال أثر هذه الكنيسة الأولى في القرن الرابع تقريباً.

وخلفت هذه الكنيسة كنيسة ثانية تكونت من العناصر المختلفة من أهل البلاد ومن الفاتحين من الرومان. ومن المعروف ان الحكم الروماني تأثر إلى حد بعيد بالثقافة اليونانية. وكانت الإمبراطورية واحدة. ولذلك فلما جاء العرب، عرفوا المسيحيين في الشرق جميعاً باسم واحد ونسبوه إلى رومة، فأطلقوا عليهم اسم الروم. وتم الانفصال بين شطري الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع، وكانت العاصمة غرباً رومة وشرقاً بيزنطية أو القسطنطينية، وبرزت مع هذا الانقسام العصبيتان الرومانية واليونانية على الصعيدين السياسي والديني معاً.

وأما لغة الشعب الغالبة فكانت الآرامية، أي السريانية، وهي اللغة التي نطق بها السيد المسيح. ثم جانبها اللغة اليونانية وهي لغة الثقافة

والحضارة. وأما الإدارة الرومانية فقد استعملت لغتها اللاتينية في الشؤون الإدارية. ولما جاء العرب في القرن السابع، أخذت اللغة العربية تتقدم شيئاً فشيئاً حتى عمّت. وانحسرت القوميات المختلفة بلغاتها في إطار الانتماءات الكنسية والعلوم اللاهوتية والطقوس الليتورجية.

الفصل الثاني

الأحداث التاريخية حتى نهاية عهد الصليبيين

تابعت الكنيسة نموها في عهد الخلافة الأموية ثم العباسية. وكانت الكنيسة المحلية قد ابتليت بالانقسامات إثر المجامع المسكونية الأولى التي عقدت في القرنين الرابع والخامس. فتكونت الكنائس المتواجدة حتى اليوم في القدس وفلسطين وسائر المشرق. وظلت الشركة الكنسية قائمة بين كنيسة القسطنطينية ورومة حتى القرن الحادي عشر حيث وقع الانشقاق الكبير بين هاتين الكنيستين. وفي القرن نفسه أيضاً شهدت فلسطين والمنطقة انقلاباً سياسياً بتولي الفاطميين الحكم في مصر. وقد امتدت ولايتهم على فلسطين أيضاً. وفي هذا القرن وقعت الحروب الصليبية، رداً على هدم كنيسة القيامة عن يد الخليفة الفاطمي الحاكم وإغلاق سبل الحج في وجه الحجاج المسيحيين.

فتح الصليبيون القدس عام ١٠٩٩. وكان البطريرك سمعان قد غادرها إلى قبرص،

ورافقته إلى الجزيرة علياً أفراد الإكليرس. ولما وجد الصليبيون الكرسي الأورشليمي شاغراً، عينوا عليه بطريكاً منهم. وأعادوا التنظيم الكنسي، فأقاموا رؤساء الأساقفة والأساقفة ومجلساً بطريكياً مكوناً من الكهنة الملقين بـ «قانوني» القبر المقدس: «Chanoines du Saint-Sépulcre».

ولما احتل صلاح الدين الأيوبي القدس عام ١١٨٧، انتقل البطاركة اللاتين إلى عكا واستقرّوا فيها حتى عام ١٢٩١، وهي السنة التي فتح فيها المماليك هذه المدينة. ثم أقام البطاركة اللاتين بعد ذلك في الغرب حتى عام ١٨٤٨ حيث عادوا إلى المدينة المقدّسة بقرار من البابا بيوس التاسع.

وقبل عودة البطاركة اللاتين إلى القدس، كان الرهبان الفرنسيسكان قد أمّنوا حضوراً متواصلاً للكنيسة الكاثوليكية في الأراضي المقدّسة، منذ حجّة مؤسسهم القديس فرنسيس الأسيزي ومن صحبه من الرهبان.

زار القديس فرنسيس الأسيزي الشرق، وقابل الملك الكامل في مصر. وجاء في الرواية الفرنسيسكانية أنّ فرنسيس زار الأماكن المقدّسة واستملك بعضها، كمفارة بيت لحم والجلجلة وجبل صهيون وكنيسة الناصرة، واستبقى بعض رهبانه فيها. ويعدّ الراهب إيليا دا كورتونا (Elia da Cortona) أول رئيس للمقاطعة الرهبانية الفرنسيسكانية في الشرق عام ١٢١٩.

وفي عام ١٢٢٩، عقد الامبراطور فريديريك والملك الكامل اتفاقية وهدنة لمدة عشر سنوات، أعاد الملك الكامل بموجبها إلى الصليبيين القدس وبيت لحم والناصره. أمّا

الأسباب التي حملت الطرفين على توقيع الهدنة، فهي حاجة الملك الكامل إلى عون خارجي لمواجهة أطماع أخيه المعظم وحلفائه الخوارزميين. أمّا فريديريك، فقد تعرّض لضغط شديد من البابوية للقيام بحملة صليبية جديدة تُصلح الوضع الذي نجم عن إخفاق الحملة الخامسة. ولما ماطل فريديريك، هدّده البابا بالحرم الكنسي في أواخر أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧، فاضطرّ مكرهاً إلى التوجّه إلى الشرق ومعه خمسمائة فارس، لا ليحارب، بل ليفاوض الكامل. فالظروف التاريخية والصدقة القائمة بينهما دفعت هذين الملكين إلى التفاهم وتفادي الحرب التي كان الطرفان في غنى عنها. وحتى عام ١٢٢٨، لم يتقدم الملك فريديريك إلى القدس وأقام في عكا، الأمر الذي دفع البابا غريغوريوس التاسع إلى حرمانه. ونقل صكّ الحرمان الرهبان الفرنسيسكان إلى البطريرك اللاتيني في عكا، ممّا أثار حفيظة الملك على الرهبان وعاقبهم.

وفي فترة الهدنة بين ١٢٢٩-١٢٤٠، عاد البطريرك اللاتيني المقيم في عكا إلى القدس مع كهنته ورهبانه، ويعتقد أنّ الرهبان الفرنسيسكان رافقوه في هذه العودة من غير أن تكون لهم صلاحيات معيّنة في إدارة شؤون البلاد الدينية أو في الأماكن المقدّسة، بل كان وجودهم عبارة عن حضور رهباني بإشراف بطريك القدس، أسوةً بغيرهم من رجال الدين. وبانتهاء الهدنة عام ١٢٤٠، دخل المسلمون المدينة وأخلاها الصليبيون إلى عكا. وأمّا الرهبان الفرنسيسكان فقد مكثوا في المدينة حباً للأماكن المقدّسة.

الرهبان الكرمليون في جبل الكرمل

على الأماكن المقدسة. فقد حرص البابا يوحنا الثاني والعشرون على استمرارية صلة الرهبان بالأراضي المقدسة. وأوصى في التاسع من نيسان (أبريل) عام ١٣٢٨ بأن يبعث رئيس الفرنسيسكان الإقليمي المقيم في قبرص اثنين من رهبانه سنوياً إلى فلسطين. وسمي هذا الإقليم في تنظيمات الرهبانية حراسة الأراضي المقدسة، وكان يشمل سورية ولبنان وفلسطين وقبرص.

وقد تبرع ملك نابولي روجيه دي انجو (Roger d'Anjou) وزوجه الملكة دي ماجورك (Sanche de Majorque) بالمال اللازم لاقتناء الأماكن المقدسة. وفاوض الملك الناصر، نيابة عن الملك روجيه دي انجو، الراهب روجيروس غاريني (Rogerus Garini). وصدرت في هذه المناسبة سنة ١٣٤٢ براءتان بابويتان: الأولى «Gratias Agimus» والثانية «Nuper»

«Carissimae»، في تثبيت حقوق الكنيسة الكاثوليكية في الأماكن المقدسة. ويعدّ الفرنسيسكان هاتين البراءتين وثيقة تأسيسية لحراسة الأراضي المقدسة.

وقد تمّ شراء بعض الأماكن المقدسة من بيت مال المسلمين. ويحتفظ الرهبان بوثائق شراء هذه الأماكن في أرشيف حراسة الأراضي المقدسة في دير الخلص بالقدس. وقد حقق جولوبوفيش هذه الوثائق ونشرها في كتابه: «Serie Cronologica Superiori di Terra Santa» على شكل ملحق بعنوان «Firman e documenti arabi inediti». وعدد هذه الوثائق اثنتا عشرة وثيقة حرّرت سنة ١٣٠٩م-١٣٥٧م.

ومن الرهبانيات اللاتينية القديمة في فلسطين، لا بدّ من ذكر رهبانية الكرمل. وهم نسّاك أقاموا في جبل الكرمل في حيفا منذ القرون البعيدة، ثم انتظموا في القرن الثاني عشر بموجب قانون رهباني وضعه لهم البطريرك ألبرتس، أحد بطاركة القدس المقيمين في عكا. وما زال هؤلاء الرهبان مقيمين في ديرهم في حيفا حتى اليوم. وبالإضافة إلى استقبال حجّاج الأرض المقدسة، فإنهم رعوا شؤون الرعية اللاتينية في حيفا منذ العصور القديمة وما زالوا يراعونها حتى اليوم. ومن حيفا انتشروا في أنحاء العالم العربي وفي العالم كله. ومنهم اليوم عدد من المطارنة في مجلس الأساقفة اللاتين في البلدان العربية، فمنهم المطارنة اللاتين في لبنان والعراق والكويت.

الفصل الثالث

حراسة الأراضي المقدسة

أقام الرهبان الفرنسيسكان في القدس على فترات متقطعة بين عام ١٢٤٠ وسقوط عكا عام ١٢٩١، والدليل على ذلك أنّ سجلات الرهبان تذكر بعض شهدائهم في تلك الحقبة من الزمن.

ولما أصبح، منذ ١٢٩١، منصب بطريرك القدس فخرياً بمنح لأحد الأساقفة المقيمين في الغرب، عهد الكرسي الرسولي إلى الرهبان الفرنسيسكان في العناية بالأقلية الباقية من اللاتين في فلسطين، بالإضافة إلى إشرافهم

(١٤٣١-١٤٤٣)، وفي تقديم الخدمات الروحية للتجار الأوروبيين وإقامة الصلاة لهم، وأخيراً حراسة الأماكن المقدسة وصيانتها وإقامة الصلاة فيها باسم العالم الكاثوليكي كافة. وهذه هي رسالة الرهبان الروحية الكبرى والرئيسة.

ولّى جانب صلاحيات حارس الأراضي المقدسة كمنسوب بابوي ورئيس الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، فقد أنيطت به بعض المهام والصلاحيات «شبه الأسقفية». وتوسعت في فترة لاحقة رقعة حراسة الأراضي المقدسة لتشمل سورية ومصر والحبشة وآسية الصغرى وأرمينيا واليونان. وأما اليوم (عام ١٩٩٥) فإنها تشمل فلسطين وإسرائيل والأردن وسورية ولبنان ومصر وقبرص وجزيرة رودس. ولها أديرة تابعة مباشرة لها في أنحاء العالم في أوروبا والأميركتين.

تكوين حراسة الأراضي المقدسة

تكوّنت حراسة الأماكن المقدسة بعد الحروب الصليبية، في جو سادده العداء بين الشرق المسلم والغرب المسيحي. إلا أن الرهبان لم يدخلوا في منطلق الحروب، بل في منطلق كلمة الخير والسلام، وهو شعار مؤسستهم القديس فرنسيس وشعارهم حتى اليوم في الأرض المقدسة: Pax et Bonum. - وقد مدّت إليهم الممالك المسيحية يد العون إذ ذاك فزودتهم بالمال اللازم للاقتناء والبناء وتأمين الخدمات الروحية والإنسانية. كما ساعدتهم أيضاً بالتوسط لدى حكام فلسطين للحفاظ على حقوقهم ومكتسباتهم.

ويشهد مؤرخون معاصرون لتلك الأحداث المذكورة أنفاً باستملاك الرهبان بعض الأماكن المقدسة، ومنهم الرحالة لودلفو دي سودهايم (Ludolfo di Sudheim) الذي زار فلسطين عام ١٣٣٦، وجاء في مذكراته: «في هذا الدير (دير صهيون) يعيش الإخوة الحفاة (الإخوة الأصاغر). وفي زمن زيارتي للبلاد (١٣٣٦) قدّمت الملكة سانشا زوجة الملك روجيه كل ما يلزم للدير. وفي كل الأوقات، يقيم الرهبان القداس علناً ويتقوى فائقة، ويدفنون موتاهم دون دفع إتاوة للحكام. وهؤلاء الرهبان رجال أقوياء وقادرون، يحمدتهم التجار والمسلمون على حد سواء لما يصنعون من خير».

وهكذا بانّت تدريجاً ملامح نظام حراسة الأراضي المقدسة. فحارس «Guardiano» دير جبل صهيون هو الرئيس الأعلى للفرنسيسكان في فلسطين، وتابع للرئيس الإقليمي المقيم في قبرص. وفيما بعد، استقلّ حارس جبل صهيون عن الرئيس الإقليمي المقيم في قبرص، وارتبط برئيس الرهبانية العام. وثبت ذلك مجمع الرهبانية العام المنعقد في لوزان عام ١٤١٤. وفي عام ١٥٢٦ منح حارس جبل صهيون صلاحيات الرئيس الإقليمي. وتدرجاً لم يعد يسمّى «Guardiano»، بل «Custode».

أما مجالات عمل الرهبان في القرن الخامس عشر والسادس عشر فهي إرشاد الحجاج واستقبالهم، والعمل على التقارب المسيحي بين الشرق والغرب. وقد بدت ثمرة هذا التقارب في مجمع فلورنسا

أربع جنسيات مختلفة، الإيطالية والإسبانية والفرنسية والألمانية. وقد تغير هذا النظام اليوم، فأصبح يشمل مختلف القوميات بما في ذلك العرب من أبناء الرهبانية والحراسة. ويقوم حارس الأراضي المقدسة في دير الخُلص في القدس منذ عام ١٥٥٩، بعد أن أُجبروا على التخلي عن جبل صهيون عام ١٥٥١، وقد اشترى دير الخُلص من الرهبان الجاورجين.

أما تنظيم الحراسة الخارجي فهو انعكاس لمهمة الرهبان في الأماكن المقدسة، ولذا انقسموا إلى فئتين: الفئة الأولى تتولّى السهر على الأماكن المقدسة وصيانتها وإقامة الشعائر الدينية فيها، والفئة الثانية تتألف من الرهبان المهتمين بالشؤون الراعية، وبالخدمات الاجتماعية والدينية المختلفة.

كان عدد الرهبان الفرنسيين عام ١٨٧٩ نحو ٣٠٠ راهب، منهم مائة راهب يعملون في الشؤون الراعية. وكانت أغلبية الرهبان تقيم في فلسطين، وقلة منهم في مصر وسورية وأرمينيا. وتفيد إحصائية أخرى أن عدد الرهبان كان ٤١٤ راهباً عام ١٨٨٩، و٤٨٣ راهباً عام ١٨٩٨.

كان تجمع الرهبان حول الأماكن المقدسة الرئيسة: القدس وبيت لحم والناصرة، وحول هذه الأماكن نشأت الأديرة والمدارس والميادين والمستوصفات والمراكز الحرفية. ولكل دير رئيس. ويعمل معه عدد من الرهبان يشكلون معاً وحدة ديرية متكاملة منظمة، تتبع الرئيس العام حامل لقب «حارس الأراضي المقدسة»، وإقامته في دير الخُلص بالقدس. ومنذ قرون مضت وحتى منتصف القرن التاسع عشر،

ان العصر الذي تشكلت فيه حراسة الأراضي المقدسة وغيرها من الكنائس لم يكن عصر الوحدة المسكونية المسيحية، ولم تسمح العقليات السائدة بإجراء أي تنسيق بين الطوائف والكنائس المسيحية في سبيل عمل مشترك، بل كانت العقليات تحمل إلى التنافر، مما جعل الدول تحكم في الخلافات بين الطوائف ولا سيما في ما يتعلق بالأماكن المقدسة. وقد وقف العثمانيون، بعد ان احتلوا فلسطين في أوائل القرن السادس عشر، حكماً بين اليهود والمسيحيين وبين الأرثوذكس والكاثوليك وبين الروم واللاتين. وكان المستفيد مالياً من هذه النزاعات حول الأماكن المقدسة السلاطين في الصفقات الكبيرة، ثم صغار الحكام والولاة في الصفقات الصغيرة المتكررة. فكانت حراسة الأراضي المقدسة مضطرة إلى اللجوء إلى الدول المسيحية الكبرى، خاصة فرنسا، لتمويل هذه الصفقات وللتوسط لدى الباب العالي، لتأكيد حقوق الرهبان. ومن أهم الأسباب التي أدت إلى اندلاع حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) قضية الأماكن المقدسة واختلاف وجهات النظر حولها بين روسيا وفرنسا.

وقد امتدتّ صلاحيات الحارس الروحية إلى سائر الكاثوليك المقيمين في فلسطين، ما عدا الروم الكاثوليك في الجليل، التابعين لأسقفية صور. وكان للحارس امتياز خاص يرفع راية الحراسة فوق مبانيها ومراكزها. ومن ناحية التنظيم الداخلي فقد كان الحارس إيطالياً ونائبه فرنسياً ووكيل المالية ونائبه إسبانيون. وتكون مجلس الحراسة من أربعة أعضاء من

المقدّس، ألا وهو عليّة صهيون والدير».

(ب) دير الخلّص: اشترى الرهبان الفرنسيون دير الخلّص من الرهبان الجاورجين عام ١٥٥٩. وهو أكبر أديرة الفرنسيين وأهمها، وفيه يقيم الرئيس العام. وقد بنيت الكنيسة الراحوية في حرمه بين عامي ١٨٨٢ و١٨٨٥. وفي الدير كذلك مدرسة وميتيم ومطبعة وأرشيف تاريخي هام ومعامل حرفية ومكتبة.

(ج) دير القبر المقدّس (دير كنييسة القيامة): ويقع هذا الدير في حرم كنييسة القيامة وسكنه الرهبان منذ عام ١٢٤٠.

(د) دير القديسة كاترينا: يقع هذا الدير في بيت لحم بجوار كنييسة المهد، واستقرّ فيه الرهبان في القرن الثالث عشر.

(هـ) دير البشارة: لا يُعرف بالتأكيد متى استقرّ الرهبان في الناصرة، ويُؤكّد الرّحالة وجود الرهبان في دير الناصرة في نهاية القرن الرابع عشر. وكان على الرهبان هجر ديرهم عدة مرات. فقد أُجبر الرهبان على هجر ديرهم مجدداً عام ١٥٤٨ وعهدوا لأحد المسيحيين الأتقياء، واسمه عيسى، بحراسة الدير وكنيسة البشارة وعهد إليه بالفتح، على أن يحافظ على قنديلين مضاءين في معبد البشارة على نفقة حارس جبل صهيون. وفي عام ١٦٢٠، حصل رئيس الرهبان العام تومازو دا نافونا (Tomaso da Navona) من الأمير فخر الدين على إذن بإعادة ترميم الدير والكنيسة. وأعيد بناء الكنيسة عام ١٧٣٠.

عندما أُعيد تأسيس البطريركية اللاتينية والأسقفية الأنغليكانية، كانت أديرة الرهبان وخدماتها الاجتماعية هي المراكز الأكثر فاعلية في الأرض المقدّسة، وأحياناً الوحيدة في بعض الحقب التاريخية.

أديرة الرهبان الفرنسيين

الأديرة هي بيوت الرهبان وقلاياتهم التي قامت حول الأماكن المقدّسة. ومنها مارس الرهبان حراسة الأماكن المقدّسة وخدمته، وفيها استضيف الحجاج وفتحت المدارس والمستوصفات. وأهم الأديرة في فلسطين:

(آ) دير جبل صهيون: سكن الرهبان، بحسب رواياتهم التقليدية، دير جبل صهيون في عصر مار فرنسيس عام ١٢١٩. ولكن من المؤكّد تاريخياً أن الدير غدا ملكاً للرهبان بين عامي ١٣٣٣ و١٣٣٦. وأُتلى الرهبان ديرهم على مرحلتين في عامي ١٥٢٣ و١٥٥١. وتشترك اليوم اليهودية والمسيحية والإسلام في ملكية جبل صهيون. فللمسيحيين دير للرهبان البندكتيين وآخر للفرنسيسكان، وللإهود كنيس ومدرسة دينية. أما عليّة جبل صهيون فقد حوّلت إلى جامع تُمنع الصلاة فيه على أتباع الديانات الثلاث، ويسمح بزيارته فقط. ويشعر الرهبان بالمرارة والأسى لفقدانهم عليّة صهيون وديرهم الأول: «إنّ الاحتجاج الوحيد على الظلم الذي ألمّ بنا في القرون الماضية هو الدموع والصلوات وتوسلات أبناء مار فرنسيس الفقراء، الذين لم يقطعوا عن طرق باب العدالة البشرية والإلهية، كي يعاد إليهم يوماً ما كنزهم

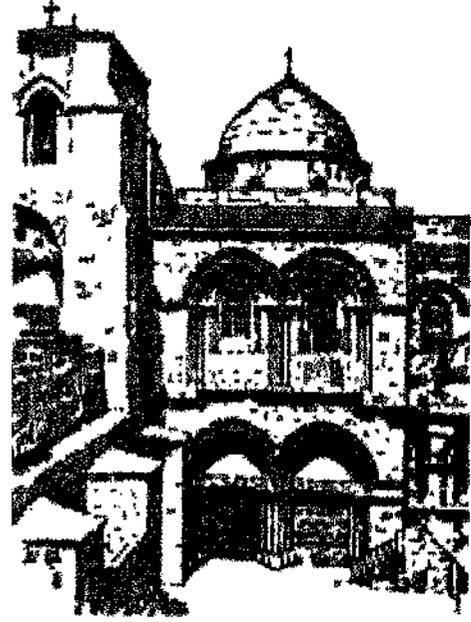
الصلاة في مناسبات دينية خاصة ولا يسكنون فيها.

الرعايا التي خدمها الرهبان الفرنسيسكان

ينقسم تاريخ حراسة الأراضي المقدسة إلى أربعة عصور: العصر الأول، وهو العصر الصليبي، بين سنة ١٢١٩ حتى انتقال عكا إلى يد المماليك سنة ١٢٩١. والعصر الثاني، وهو العصر العربي، ويمتد من سقوط عكا في يد المماليك إلى سقوط القدس في يد الأتراك ١٢٩١-١٥١٦. والعصر الثالث، وهو العصر التركي، ويمتد من سقوط القدس في يد الأتراك إلى سقوطها في يد الإنكليز في الحرب العالمية الأولى ١٥١٦-١٩١٧. والعصر الرابع وهو العصر الحديث، ويبدأ بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٧ وحتى يومنا هذا.

انحصر عمل الرهبان الفرنسيسكان في العصر الأول في رعاية الحجاج وخدمة الصليبيين الدينية. وفي العصر الثاني، مثل الفرنسيسكان الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين. وفي العصر الثالث تعاطت أهمية الحراسة، إذ منح الكرسي الرسولي حارس الأراضي المقدسة مسؤولية رئيس الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية، ومارس سلطات شبه أسقفية. وفي العصر الحديث تعاونت الحراسة مع البطريركية اللاتينية للاستمرار في حراسة الأماكن المقدسة وفي أداء الخدمات الراعوية.

تكوّنت الرعايا في نهاية الحقبة الثانية وفي الحقبة الثالثة، بفضل جهود الرهبان الراعوية. يقول أحد مؤرخي الرهبانية: «إن جميع اللاتين المحليين المقيمين حالياً في بيت لحم والقدس وعين



كنيسة القبر المقدس

وغير هذه الأديار الخمسة الشهيرة هناك اثنا عشر ديراً بمائل تاريخها تاريخ الأديرة الخمسة الكبرى، وقد استملك الرهبان بعضها في فترة متأخرة وهي: دير جلد المسيح في القدس، ودير القديس يوحنا في عين كارم، ودير زيارة القديسة مريم العذراء في عين كارم، ودير القديسة كلوبا في عماوس، ودير القديس نيقوديمس في الرملة، ودير القديس بطرس في يافا، ودير تجلّي يسوع المسيح على جبل طابور قرب الناصرة، ودير قانا الجليل، ودير القديس بطرس في طبريا، ودير كفرناحوم، ودير الوردية في حيفا، ودير القديس فرنسيس في عكا. وهناك العديد من المعابد والمزارات والأديرة يقيم فيها الرهبان

الشرقي لرعايتها. فأخذ الفرنسيسكان على عاتقهم هذا الأمر. وتذكر سجلات الرهبانية عدة حالات انضمام إلى الكتلكة، جماعية وفردية، بين عامي ١٥٥٥ و١٦٢٢.

ويشير أحد السجلات إلى الجماعة النسطورية المقيمة في القدس واتحادها مع رومة بين عام ١٥٥٥ وعام ١٥٦٢. وتشير إحصاءات عام ١٨٦٨ إلى أن عدد الرعايا وصل إلى ٥٠٣٨ مؤمناً. وآخر الإحصاءات في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين تشير إلى نمو سريع في رعايا الرهبان الفرنسيسكان كما هو مدرج في الجدول التالي:

وقد أوصى مجمع الرهبانية العام سنة ١٦٣٣ بتعليم اللغة العربية وتاريخ الكنائس الشرقية في أربع من كلياتها في الغرب، وذلك

كارم وبافا والرملة، وفي ثلاثين موقعاً آخر، موزعة في سورية وقبرص وفلسطين ومصر، قد انضموا إلى الكتلكة هم أو أجدادهم عن يد الرهبان الفرنسيسكان.

ويشرح مؤرخ فرنسيسكاني كيف تكوّنت الرعايا الفرنسيسكانية. فيقول انه، في الفترة الواقعة بين مجعني ليون ١٢٧٤ وفلورنسا ١٤٣٩، حصلت حركات عودة جماعية إلى الكتلكة في بعض الكنائس الشرقية. في هذه الفترة لم يمارس الرهبان أعمالاً راعوية لأن مثل هذه الأعمال كانت من مسؤولية الكهنة والأساقفة الشرقيين المتحدّين برومة. وبعد مجع فلورنسا وإخفاق مساعي الوحدة، ظلت جماعات من المؤمنين على اتحادها برومة، ولم يكن لهذه الجماعات أساقفة وكهنة من طقسها

البلد	إحصائية عام ١٨٨٩	إحصائية عام ١٩٠٩
القدس	٢٠٢٠	٣٤٩١
بيت لحم	٣٥٦٤	٥١٧٢
عين كارم	١٧٧	—
الرملة	٧٥	١١٥
بافا	٦٢١	١٠٠٠
الناصرية	١٢٠٦	١٢٧٩
قانا الجليل	١٢٦	٦٩
طبريا	١٨	١٣٠
عكا	١٣٢	١٠
مجيدل	—	٤٨
المجموع	٧٩٣٩	١١٣٣٥

لكي يتمكن الرهبان من القيام برسالتهم في أراضي الحراسة. وفي القرن السابع عشر، افتتحت الحراسة مثل هذه الكليات في بيت لحم وحلب ودمشق والرملة وحريصا.

الخدمات الاجتماعية

منع نظام الملة الكنيسة صلاحيات مدنية واسعة على رعاياها. إلا أن هذا النظام فرض عليها في الوقت نفسه تأمين الخدمات التي لا تقدمها الدولة. ولذلك نرى حراسة الأراضي المقدسة تهتم بتأمين السكن لرعاياها، وفي بعض الأحيان دفعت الضرائب عنهم. وبحسب سجلات الرهبانية، بلغت هذه النفقات في هذين المجالين، عام ١٨٥٧، مبلغ ٥٧ ألف فرنك. وفي عام ١٨٩٠، بلغ عدد البيوت المؤجرة ٣٨٨ بيتاً تسكنها أربعمئة عائلة وعائلتان، عدد أعضائها ١٩٣٠ فرداً.

المدارس

وقد أنشأت الحراسة أيضاً المدارس. وتعود هذه المدارس إلى القرن السادس عشر. ويرد ذكر أول مدرسة أنشأها الآباء الفرنسيسكان في بيت لحم في مذكرات الرحالة يوهانس كوتفيك (Iohannes Cotwyck) الذي حجج إلى القدس عام ١٥٨٩. ويقول في مذكراته انه وجد «مدرسة للأطفال في بيت لحم في دير الرهبان الأصاغر، وهي مدرسة موجودة من قبل. ويتبع مسيحيو بيت لحم الطقس اليوناني وأقلية منهم يتبعون الطقس اللاتيني. ولكنهم جميعاً يتقنون اللغة الإيطالية التي يسمونها لغة الإفرنج

ويتعلمونها وهم صغار. ويقوم كبارهم بدور الترجمة للرهبان الأصاغر والحجاج الغربيين، ولهذا يهتمون بتعليم أبنائهم اللغة الإيطالية عن يد الرهبان ليشرفوا على أشغال الدير. وهم بحسب شهادة الرهبان يقومون بهذين العملين حتى الآن، أعني درس اللغة وأشغال الدير بنشاط وأمانة».

وفي القرن السابع عشر، أنفقت حراسة الأراضي المقدسة على عشرين مدرسة، كما جاء في تقرير حارس الأراضي المقدسة فرانشيسكو دي سان فلورو (Francesco da San Floro) عام ١٦٩٩. وقامت هذه المدارس حول الأديرة ومجموع طلابها ١٨٨ طالباً، وكان نصيب فلسطين ست مدارس، والبقية في سورية وقبرص ومصر وإسطنبول. «فقد جرت العادة على فتح مدرسة في كل دير على أمل أن تكون هذه المدارس - عاجلاً أم آجلاً - مصدر خير وعلم».

نعمت حراسة الأراضي المقدسة منذ منتصف القرن التاسع عشر بفترة ازدهار وصلاح، فشرعت بترميم أديرتها ومدارسها وتحسين مستوى التعليم، وتحويل المدارس من مدارس خاصة إلى عامة، وفتحها لكافة فئات المواطنين. وحتى عام ١٨٤١ اقتصرت المدارس على الذكور. فافتتحت أول مدرسة للإناث في القدس ثم في الناصرة وبيت لحم. وعيّن رئيس الرهبنة الفرنسيسكانية العام مفتشاً عاماً لتنظيم المدارس وتنميتها.

وفي عام ١٨٤٦ أوصى البابا بيوس التاسع: «بالحفاظة على وجود المدارس المتوقرة في حراسة الأراضي المقدسة بكل الوسائل

عمل ودخل للعائلات المحتاجة وتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي للأديرة أنفسها. وقامت هذه المعامل الحرفية بدور المدارس المهنية. ففي عام ١٨٧٩ تدرّب فيها خمسون عاملاً في حرف النجارة والحدادة والطباعة والتجليد. ويذكر أحد مؤرّخي الرهبانية في نهاية القرن الماضي أن عدد المتدربين بلغ ١٥٠ عاملاً في الحرف المذكورة وغيرها.

وفي القرن السادس عشر أدخل الفرنسيسكان صناعة الخشب والحرف إلى بيت لحم، ووصلت هذه الصناعة إلى أوجها في القرن السابع عشر في عصر رئيس الدير في بيت لحم برناردينو أميشي (Bernardino Amici). وتعد الصناعات اليدوية الخشبية والحرفية من المرافق الاقتصادية المهمة في بيت لحم، إذ يقبل الحجاج على شرائها عند زيارتهم بيت لحم والأماكن المقدّسة الأخرى.

وأما فنّ الطباعة، فلم تأذن الأستانة للإخوة الأصاغر بإنشاء مطبعة في القدس حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولم يكن هذا الحظر سارياً على الرهبان وحدهم، بل على الجميع. وشهدت فترة الحكم المصري في فلسطين نوعاً من الحرية والانفتاح، فأنشأ على أثرها الأرمن مطبعة عام ١٨٣٣، واليهود عام ١٨٤١، وتبعهم الرهبان الفرنسيسكان عام ١٨٤٦. وتبرّع بتكاليف المطبعة إمبراطور النمسا فرنسوا جوزيف الأول. وقد زوّدت المطبعة بأحرف عربية ولاينية. وكان أول إنتاجها عام ١٨٤٧ طباعة ألف نسخة من العهد الجديد وزعت على طلاب المدارس. وفي السنة نفسها طبع أول كتاب للتعليم المسيحي

المتاحة، وبزويد كل رعية كبيرة بمدرسة للبنين وأخرى للبنات». وجرى في القرن التاسع عشر تعاون مثمر بين الحراسة والبطريركية اللاتينية في مجال التربية والتعليم، فعهد عام ١٨٤٨ إلى راهبات مار يوسف بالإشراف على مدارس البنات في القدس ويافا وبيت لحم. ورحّب الآباء الفرنسيسكان بإخوة المدارس المسيحية (رهبان دي لا سال)، وعدّوا مدرستهم مدرسة راعوية لأبناء طائفة القدس، وساهموا في نفقات المدرسة. وتوافدت الرهبانيات اللاتينية إلى الأرض المقدّسة في القرن التاسع عشر وبلغ عدد المدارس في عام ١٨٩٥-١٨٩٦ أربعاً وخمسين مدرسة في كافة أنحاء الحراسة، منها ٣٦ للذكور و١٨ للإناث، ومجموع طلابها ٤٢٢٤ طالباً، وعدد العالّمين ٦٠ معلّماً.

الميامم والمهن الحرفية

جرت العادة في حراسة الأراضي المقدّسة أن يتقصى الرهبان عن الأيتام في رعاياهم، ويعهدوا بتربيتهم إلى عائلات ميسورة يترعرعون في كنفها على نفقة الحراسة، التي كانت تقدّم للعائلة كل ما يلزم لمعيشة اليتيم. وتراوح عدد الأيتام الذين ترعاهم الحراسة بين ٢٥٠ و٣٠٠ يتيم سنوياً. وقد أتاح مجيء الجمعيات الرهبانية النسائية إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتح الميامم الخاصة بإدارة راهبات. وفتح أول مبتم للأولاد وآخر للبنات عام ١٨٨٩.

وفي عام ١٧٠٠ أدخل الرهبان إلى دير المخلص معامل لعدّة حرف يدوية بهدف تأمين

بالعربية ألفه الكردينال روبرتو بيلرمينو (Roberto Bellarmino)، وعنوانه «التعليم المسيحي» وطبع منه ١٥٠٠ نسخة، وعدد صفحاته ٨٧ صفحة.

تنوعت مطبوعات المطبعة فشملت دراسات الكتاب المقدس واللاهوت والفلسفة والليترجية والتاريخ والجغرافيا واللغات الشرقية والغربية والفن والرياضيات. وبلغ عدد الكتب المطبوعة بين ١٨٤٧ و ١٨٨٨ ما يقارب ٤٠٨ كتب. وعدد النسخ المطبوعة بين عام ١٨٧٦ و ١٨٨٨ بلغ ٣٠٥٧٦٥ نسخة. وقد كانت المطبوعات العربية الجزء الأكبر من إنجازات المطبعة. وهذه المؤسسة قائمة حتى اليوم، وجلّ منشوراتها اليوم، بالإضافة إلى المجلات المختصة بالأرض المقدسة وبلغات متعددة، هي المنشورات العلمية المتعلقة بالدراسات في الكتاب المقدس ويعلم الآثار وبحضارات الأرض المقدسة والبلدان المجاورة لها.

خاتمة

في غضون خمسة قرون متوالية، منذ منتصف القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر، مثل الرهبان الفرنسيون مع بعض الكرمليين في حيفا الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية في الأراضي المقدسة، وحافظوا على هذا الوجه من أوجه الحضور المسيحي في الأماكن المقدسة في ظروف صعبة. ثم جاءت إعادة تأسيس البطريركية اللاتينية في منتصف القرن الماضي بمثابة صيغة جديدة للعمل الكاثوليكي، فحاولت أن تركز على العمل

الراعوي وعلى بعد الكنيسة المحلية بصورة خاصة. كما أنها توجهت إلى الأرياف أو إلى التجمعات السكانية التي برزت مع تطورات التاريخ الحديث. وخرجت من حدود فلسطين إلى شرق الأردن لترعى المسيحيين هناك، وقد تفردت بهذه الرعاية في منتصف القرن الماضي.

وتطورت مؤسسات الحراسة أيضاً في القرنين التاسع عشر والعشرين بصورة واضحة. وعبرت هي أيضاً إلى شرق الأردن عام ١٩٥٦ حيث أسست كلية ترسانطة الشهيرة في عمان، وكشفت الحفريات الأثرية في موقع الصياغة قرب مادبا وفي مواقع أخرى متعددة، بإدارة رهبان علماء في الكتاب المقدس وفي الآثار أمثال الراهب جيرولمو، وهو أول من رافق الأمير عبد الله في أول سني الإمارة، وكان له صديقاً حميماً، والأب كوربو ثم بيتشيلولو وغيرهم.

ومن أهم تطورات الحراسة إنشاء المؤسسة العلمية في القدس في دير حبس المسيح لدراسة الكتاب المقدس والآثار، والتي تخرج فيها أجيال من الدارسين من شتى أنحاء العالم، ودرس فيها رهبان علماء ذوو صيت عالمي أمثال الآباء باجاتي وسالر وأساتذة المعهد المعاصرون. وقام هؤلاء العلماء من الرهبان بحملات مكثفة للبحث عن الآثار في الأردن وفلسطين في ثلاثة وثلاثين موقعاً وحفرية أثرية بين عامي ١٨٩٤ و ١٩٧٨. وازداد نشاطهم بعد ذلك التاريخ إلى يومنا هذا. وغدت الأماكن المقدسة والمزارات بإشراف حراسة الأراضي المقدسة، لا أماكن سياحية أثرية فقط، بل كنائس تعبق بالليترجية والصلاة بمختلف اللغات الحية.

القسم الثاني

البطريكية اللاتينية الأورشليمية في التاريخ الحديث

الفصل الأول

عودة البطريرك اللاتيني إلى القدس

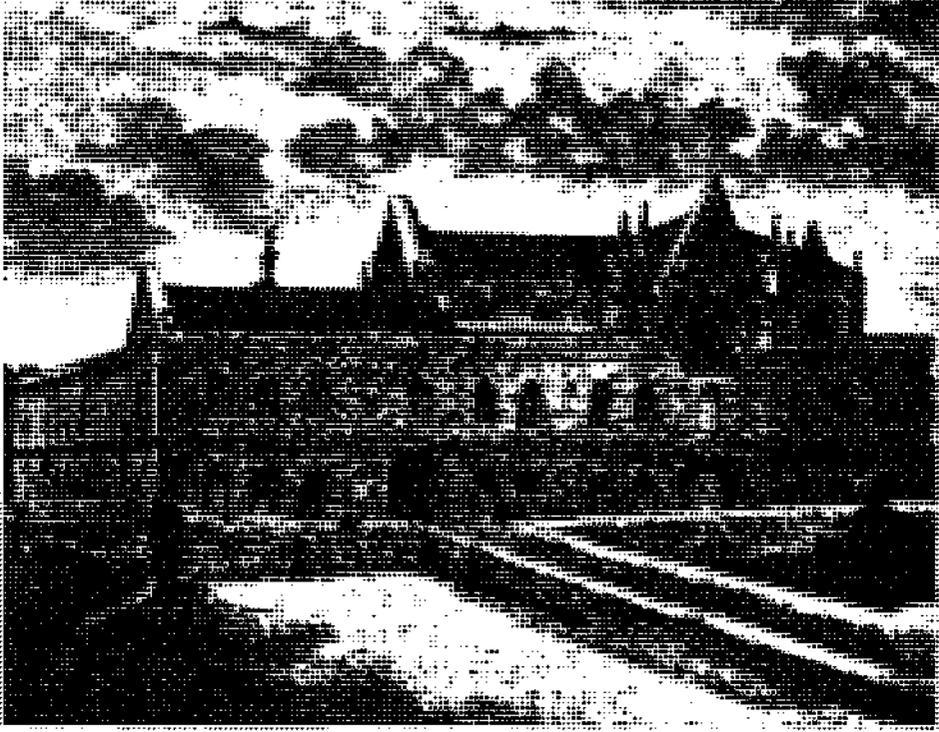
الأراضي المقدسة، وأنه لا بد من إيجاد سلطة أسقفية فيها. فأخذ الكرسي الرسولي ينظر بجدية في إعادة البطريركية الأورشليمية اللاتينية إلى المدينة المقدسة.

وفي رومة اعتلى السدة البطرسيّة البابا بيوس التاسع (١٨٤٦-١٨٧٨)، في أطول حبرية في تاريخ الكنيسة. فقد أنشأ هذا البابا ٢٩ أسقفية بإمرة رئيس أساقفة و١٣٢ أسقفية يديرها أسقف في شتى أنحاء العالم. وكانت إعادة تأسيس البطريركية، إحدى إنجازاته الكبرى، قد طرحت على بساط البحث في عصر سلفه البابا غريغوريوس السادس عشر (١٨٣١-١٨٤٦).

وسئل رئيس الرهبانية الفرنسيسكانية العام لويجي دا لوريتو (Luigi da Loreto) عام ١٨٤٢ عن رأيه، فقال: «إنها لفكرة حميدة جداً إقامة بطريرك في القدس، ليحيى مرة أخرى ماضي الكنيسة والأراضي المقدسة المجيدة». ثم عاد وعدل عن رأيه، وبدأت صعوبات كثيرة من قبل الرهبانية. فعملت رومة على إيجاد الطرق التي يمكنها أن تضمن التعاون

احتلّ محمد علي في أواسط القرن التاسع عشر بلاد الشام، ولولا أن أوقفته الجيوش البريطانية لوصل إلى القسطنطينية. وأخذت السلطنة العثمانية بعد هذه الأحداث بالتداعي، وغدت تحسب الحساب لنفوذ الدول الغربية ووساطاتها في سبيل المؤسسات الكنسية القديمة والجديدة. وقد اهتمت الكنيسة مرة أخرى بالأماكن المقدسة. فأُسست الكنيستان الأنغليكانية واللوثرية أسقفية في القدس تمثلهما معاً، ودعمتهما في هذه المبادرة الحكومتان الانكليزية والبروسية الألمانية. وكان أول أسقف انغليكاني الأسقف ميشيل سلمون الكسندر عام ١٨٤١، وهو انغليكاني، ثم خلفه عام ١٨٤٦ الأسقف اللوثري صموئيل غويات.

ورأت الكنيسة الكاثوليكية أيضاً أن الوجود الرهباني وحده لم يعد يكفي لخدمة



دار البطريركية اللاتينية في نهاية القرن التاسع عشر

بطريركية القدس يحذر. فالحكومة الفرنسية عدت حامية الكاثوليك في الشرق، فكان أي تحرك أو تطوّر على الساحة الشرقية يلفت انتباهها. فكتب سفير فرنسا في رومة، لاتور مامبورغ (Latour Mambourg)، في رسالة بعث بها إلى وزير خارجيته «جيزو» (Guizot) بتاريخ ١٨٤٢/١/٨ يقول فيها ما يلي: «علمت بطريقة غير مباشرة أنه حتى تقابل الآثار الناجمة عن تعيين أسقف بروتستانت مقيم في القدس، يقال هنا إنه سوف يعين أسقف كاثوليكي، ولا شك أن هذا الاقتراح قدّم إلى مجمع نشر الإيمان. ويشير هذا المشروع هنا بعض الاعتراضات، فرييس الرهبان الفرنسيسكان

بين النظام البطريركي الجديد رئيس الرهبان العام المحلي الذي هو في الوقت نفسه حارس الأماكن المقدسة.

وفي ١٨٤٢/٢/٢٨ أيد مجمع الكرادلة مشروع تعيين بطريرك لاتيني في القدس. ووجدت الفكرة تأييداً أيضاً من الأبرشيات الكاثوليكية الأخرى في أوروبا. إلا أن القرار لم ينفذ بسبب الصعوبات التي ذكرناها. وقال الكاردينال «أكتون»، الذي عهد إليه بمتابعة القضية، ملخصاً الموقف بهذه الكلمات: «أرجى الأمر كله، مع أنه تمت الموافقة على تنفيذ المشروع».

وكان هناك طرف ثالث يراقب مشروع

العام الذي عهدت إليه حراسة الأراضي المقدسة يظهر معارضة بصفة خاصة ويخشى أن تمنح الدرجة الأسقفية إلى أحد رهبانه، مما يؤدي إلى نزاع بينه وبين السلطات الرهبانية العليا. . . .

و بعد ان قابل جبريل دي لانتيني (Gabriel de Lantigni)، قنصل فرنسا في فلسطين، البابا غريغوريوس السادس عشر في رومة بتاريخ ١٦/٥/١٨٤٣، كتب إلى وزير خارجيته يقول ان مشروع بطريركية القدس مشروع خيالي. . . . «إلا أنه يحقّ لرومة مدّ نفوذها إلى هذه البلاد (فلسطين) بكل الوسائل المتاحة لها، على شرط ألاّ تمسّ بالحماية الفرنسية التقليدية للكثلكة في الشرق».

وقد تطور الموقف الفرنسي فيما بعد إلى المعارضة الصريحة لمشروع إقامة أبرشية كاثوليكية في القدس، فكتب «جيزو»، وزير خارجية فرنسا، إلى سفيره في رومة «مامبورج» في ١٥/٦/١٩٤٧: «أعتقد أنّ إقامة أبرشية كاثوليكية في القدس لن يكون مشروعاً جيداً في حدّ ذاته بالنسبة إلينا، بل إنه غير مفيد وقد يكون مضراً».

وأما الكرسي الرسولي فقد استمرّ في درس المشروع من جميع جوانبه. وقرّر البابا بيوس التاسع، بعد الاطلاع الدقيق على تقرير مجمع نشر الإيمان، إعادة البطريرك اللاتيني إلى القدس مع كامل صلاحياته. وقد اختار لهذه المهمة الأب يوسف فالرجا، بناء على تنصيب المجمع نفسه. وصدرت تعليماته لاستقالة المنسيور فوسكولو بطريرك القدس الفخري، فاستقال من منصبه في ١٠/١٠/١٨٤٧. وفي ٢٣/٧/١٨٤٧

صدرت الرسالة البابوية (Nulla Celebrior)، ومن أهم ما جاء في رسالة التأسيس هذه:

«لم تشتهر مثل القدس مدينة في العالم بالشعائر الدينية، وبين جميع المناطق التي يؤمها المسيحيون ليست منطقة تفوق أرض فلسطين كرامة. ففي كل مكان في هذه المدينة ترتفع الأبنية الشهيرة التي تشهد بأعمال سيدنا يسوع المسيح، فتعيد إلى الذاكرة أمثلة الفضيلة والقداسة التي شرف بها الفادي الإلهي الجنس البشري. . . . ولهذا أحاطها المسيحيون بالتكريم والاحترام منذ نشأة الكنيسة. . . . ومن أقدم المصادر التي بلغت إلينا القرار الذي ورد في المادة السابعة من أعمال المجمع المسكوني الأول المتخذ في نيقيا عام ٣٢٥، وقد جاء فيه انها لعادة قديمة وتقليد قديم ان يُكرّم أسقف ايلياء (القدس)، وان يكون له ما يترتب على هذا المنصب من التكريم المناسب. . . . وقد ثبت مرتبة كرسي القدس البطريركية المجمع المسكوني اللاتراني الرابع المتخذ في حبرية البابا اينوقنطوس الثالث عام ١٢١٥. . . . إلا ان البطاركة اللاتين لم يتمكنوا من البقاء في القدس للقيام برعاية الرعية الموكولة إليهم. واضطر أسلافنا الأحبار الرومانيون إلى اللجوء إلى طريقة أخرى لرعاية هؤلاء المؤمنين. ومع ذلك فانهم لم ينقطعوا عن انتخاب بطاركة للقدس، ولو انهم أعفوهم من واجب الإقامة هناك. . . .

أما اليوم فقد زالت الموانع التي تحول دون إقامة البطريرك اللاتيني في القدس واهتمامه هناك بخلص خرافه. . . . فنظراً إلى ما للكرسي الأورشليمي من قدم وكرامة ولما تقتضيه الظروف الراهنة، قرّرنا أن نرسل مجدداً إلى



البطريك يوسف فالرغا

للقاصد الرسولي في سورية، وبين عامي ١٨٤٢ و١٨٤٧، التحق بالمنسيور تريوش القاصد الرسولي لبلاد ما بين النهرين وفارس. فخدم الكنيسة الكلدانية وتعاون مع الآباء الدومنيكان في الموصل. وفي عام ١٨٤٧، تمَّ اختياره بطريكاً لإعادة الكرسي البطريركي في القدس.

أبحر إلى يافا في شهر كانون الثاني ١٨٤٨، وقد صحبه أمين سره باتستا كافنسي وخادمه سانتي فنتورين. وفي يافا استقبله الرهبان باسم الحراسة والسلطات العثمانية ومثّلوا الطوائف المسيحية. واتّجه إلى القدس ماراً بالرملة وأبو غوش وعين كارم. وتوقّف في عين كارم حيث قلّده وكيل الحراسة العام وسام

مدينة القدس بطريكاً على حسب الطقس اللاتيني. . . . فسلطة الإله القدير والرسولين بطرس وبولس وبسلطتنا نعيد صلاحيات البطريرك اللاتيني الأورشليمي إلى الوجود، ونعلن إلزامه بالإقامة كما كان الأمر من قبل. أما في ما يختصّ بحدود البطريركية، فإننا نأمر ونقرّر ما يلي: إلى ان تصدر تعليمات أخرى عن هذا الكرسي الرسولي، تخضع لسلطة هذا البطريرك المناطق والأمكنة الخاضعة حالياً لسلطة ابننا الحبيب حارس الأماكن المقدّسة والقبر المقدّس. . . . وفي ما يختصّ بإنشاء وتعيين أساقفة تابعين للبطريك، نقرّر اننا سنعلن عن رأينا في ما بعد، ونحتفظ بهذا الأمر لنا ولإخوتنا الكرادلة أعضاء مجمع نشر الإيمان. . . .»

الفصل الثاني

البطريك يوسف فالرغا (١٨٤٧-١٨٧٢)

البطريك يوسف فالرغا

وُلد يوسف فالرغا في لواتو بالقرب من جنوا، عام ١٨١٣. وأكمل دروسه العليا في جامعة الحكمة في رومة في الحق القانوني وفي اللاهوت، ودرس اللغات الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية والعربية، وأتقن أيضاً اللغات الكلدانية والتركية والكردية. رسم كاهناً عام ١٨٣٦ وعمل في مجمع نشر الإيمان في قسم الوثائق الصادرة في اللغات اليونانية واللاتينية والعربية. وفي حزيران ١٨٤١ عين سكرتيراً

في زيارة البطارقة في المدينة والمسؤولين المدنيين. وقبل ذلك جمع حاكم المدينة المقدسة البطارقة الثلاثة، اللاتيني والأرثوذكسي والأرمني، في ديوانه، بعدما وصل إليه كتاب رسمي من الباب العالي مفاده ان لا فرق بين البطريك الجديد العائد إلى مقر بطريكته والبطريكين الآخرين اليوناني والأرمني. ثم دعا الباشا البطارقة إلى الاجتماع في كنيسة القيامة أمام جمع غفير، وألقى الباشا كلمة ناشد فيها الرؤساء الثلاثة المحافظة على الوحدة والتعاون فيما بينهم. وبعد ذلك تم تبادل الزيارات بين البطارقة الثلاثة.

أبرشية البطريك فالرغا

بدأ البطريك زيارة الرعايا. وأولى الكنائس والمدارس جل اهتمامه. وكان في كل رعية مدرسة. وبدأ يشدد على ضرورة تعلم لغة الشعب. فاقترح أن يبعث المرسلون الجدد إلى حريصا في لبنان لدرس اللغة العربية، وأرسل آخرين إلى نيقوسيا لدرس اليونانية. وعمل فالرغا على تقوية مدارس الفتيات وتنميتها. فاستدعى لذلك راهبات مار يوسف.

وأما الشعب فلم يكن من السهل التعامل معه بالرغم من صفاته الحسنة. فقد تميز بعدم رسوخ قناعاته الدينية وباللامبالاة وقلة الثبات في الإيمان. وكثيراً ما كان يهدد هؤلاء المؤمنون كهنة الرعايا بالعدول عن الإيمان والكنيسة. ويعزو فالرغا تردّي الأوضاع الروحية والدينية لدى الشعب المسيحي إلى الأسباب التالية: اعتماد الشعب في حياته المادية على الأديرة، وضعف الثقافة الدينية والتربية المسيحية بسبب

جمعية القبر المقدس، وكان آخر وسام يقلده، لأن هذا الحق انتقل إلى البطريك نفسه. وجاء من القدس إلى عين كارم رئيس الرهبان العام ومثّل الطوائف والقناصل ووجهاء المدينة. وفي الغد تم دخول البطريك الجديد إلى القدس بآبهة واحتفال، وقد شاركت الحكومة في الاستقبال. إذ أرسل ظريف مصطفى باشا حاكم القدس فرقة من الجند لمرافقة البطريك وقدم له حصاناً يمتطيه. ولما اجتاز أسوار القدس أطلقت المدفعية طلقاتها تحية له.

وبعد الاحتفالات بدأت مهمة البطريك العسيرة، إذ لم يكن يملك من وسائل العمل والتنفيذ إلا القليل. فليس لديه بيت خاص به ولا كنيسة ولا إكليرس أو جهاز يساعده في تنفيذ المهام. وطلب العون من الآباء الفرنسيين، فقدم له الرهبان مسكناً في ديرهم. واتخذ البطريك حارس الأراضي المقدسة نائباً له ومجمع الحراسة مجعاً استشارياً له. أما كهنة الرعايا فكانوا كلهم من الرهبان الفرنسيين، ما عدا حيفا حيث كان الرهبان الكرمليون. وعين البطريك أحد الرهبان الفرنسيين نائباً له في قبرص.

بطارقة القدس الثلاثة

لم تكن الحركة أو الروح المسكونية في أوجها في منتصف القرن التاسع عشر، بل على العكس. فقد أدى الصراع على الأماكن المقدسة بين مختلف الطوائف المسيحية إلى جو من الحيلة والحذر في العلاقات بين رؤساء الطوائف، وخاصة بين الحراسة وبطريكية الروم الأرثوذكس. وقد أعرب فالرغا عن نيته

غياب الإكليرس الوطني الذي يتكلم لغة الشعب ويفهم عقلية. وكان عدد المؤمنين اللاتين في البطريركية آنذاك ٤١٤١ .

التعاون بين البطريرك والرهبان

لجأ البطريرك إلى الرهبان لإصلاح الأوضاع السائدة. كانت إمكانياته محدودة وأما طموحاته فكبيرة. كان يطمح إلى أن تكون القدس نواة الحركة الدينية في الشرق. ولم يكن من السهل تحقيق الهدف المنشود. فقد غابت السلطة البطريركية عن القدس ما يقارب ستة قرون على أثر سقوط عكا. وفي هذه الحقبة، أدار الآباء الفرنسيون شؤون الكنيسة الفلسطينية. والآن أصبح البطريرك مقيماً في القدس بكامل صلاحياته، ولكن دون جهاز يمكنه من العمل بموجب صلاحياته. ولم يكن الصراع بين البطريرك والرهبان خافياً على أحد. ويظهر ذلك في التقرير الذي كتبه بعد سنتين، وقد علم أن الشكاوى بدأت توجه في حقه. وحاولت رومة أن توفق بين الطرفين. فقالت ان السلطة الأسقفية المحلية التي يتمتع بها البطريرك هي السلطة الشرعية الوحيدة في الأبرشية. لكن للرهبان امتياز الإشراف على الأماكن المقدسة. ولما تازمت الأمور وبلغت الصعوبات مداها، قدم البطريرك استقالته إلى الكرسي الرسولي وسافر إلى أوروبا ليعرض قضيته في رومة. وكان ذلك عام ١٨٤٩. وكان البابا إذ ذاك في بلدة جايت (Gaete) في مملكة نابولي. وقال الحبر للبطريرك الذي قدم استقالته: «الصليب لا يلقى جانباً حين ترافقه نعمة العيش في القدس». وتابع البطريرك جولته بعد ذلك في أوروبا

فالتقى في فرنسا، بعد مقابلة رئيس الجمهورية القنصل المعين جديداً للقدس، وهو السيد بوطا، وسوف يكون لهذا الرجل الأثر الحاسم في رسالة البطريرك وثباته ونجاحه في إتمامها.

وأصدر مجمع نشر الإيمان تعليمات تحدّد العلاقات بين البطريرك ورئيس الرهبان: فالكنيسة الراهوية في القدس هي كنيسة البطريرك الرسمية، إلى أن تبنى كنيسة أخرى. وفي ما يختص بمصادر التمويل فإن البطريرك يصبح المسؤول المباشر عن جمعية فرسان القبر المقدس. وأما سائر الحسنات التي ترسل إلى الحراسة فإن البطريرك يشرف على إدارتها والتدقيق فيها. تم تنفيذ البندين الأولين، إلا أن البند الثالث لاقى معارضة ولم ينفذ.

الإكليرس البطريركي

حالما تسلّم البطريرك العائد مهامه، كانت له رؤية صائبة وهي الاعتماد على الإكليرس المحلي. ومن ثم كان لا بدّ من تأسيس إكليركية تستقبل أبناء الأبرشية وتهيئهم لرسالة الكهنوت السامية. وقبل أن يتمكن من تنفيذ مبتغاه هذا، لجأ في السنوات الأولى إلى ما توفّر له من كهنة من جميع أنحاء العالم. وكان الكاهن عبد الله كومنداري من بيت لحم قد أرسله الرهبان إلى رومة للدروس الكهنوتية، وقد أنهاها في رومة ورسم فيها كاهناً. فلما التقى البطريرك عدل عن الحياة الرهبانية وكان أول كاهن في الإكليرس الأبرشي العربي.

ومنذ أول سنة من قدوم البطريرك عام ١٨٤٨، أرسل عشرة طلاب كهنوت إلى غزير في لبنان حيث كان للآباء اليسوعيين



الإكليريكية الكبرى

للقصادة الرسولية في بيروت في ١٨٦٦،
وأمن سر البطريركية في ١٨٦٩. وفي ١٨٨٠
أسّس رهبانية الوردية، وتوفي عام ١٨٩٢.

الإكليريكية وتنظيم الإكليرس البطريركي

افتتح البطريرك المعهد الإكليريكي عام
١٨٥٢. وقد تولّى الرئاسة فيه بنفسه في المرحلة
الأولى. وكان أخوه، وهو راهب كرملي في
حيفا، نائباً له. والتحق بالإكليريكية طلاب من
الأبرشية ومن خارجها، من القدس وقبرص
والبندقية، بالإضافة إلى العشرة الأوائل الذين
بعثوا إلى غزير.

وقد وجه البطريرك نداءً يطلب مساعدة
الإكليرس في مختلف أبرشيات العالم.

مدرسة إكليريكية لإعداد الكهنة. وقد رسم في
ما بعد ثلاثة منهم وهم الأب سمعان إسحاق من
القدس: ولد عام ١٨٣٩ ورُسم كاهناً عام
١٨٦٣، ثم علّم في الإكليريكية في بيت
جالا، وخدم في الرعايا، وتوفي عام ١٨٨٩.
والأب أنطون مرقس من الناصرة، ولد في
١٨٣٨ ورُسم كاهناً في ١٨٦٣، وعين مديراً
للمراسم الدينية وممثلاً للملّة اللاتينية لدى
السلطات العثمانية. وفي ١٨٨٠، عين زائراً
رسولياً لدى الأقباط الكاثوليك في مصر. وقام
بهذه المهمة مدة اثني عشرة سنة حتى تقاعد عام
١٨٩٢ وتوفي عام ١٩٠٧. والأب يوسف
طنوس، ولد في الناصرة عام ١٨٣٨، وعين
معلماً في الإكليريكية في بيت جالا ثم سكرتيراً

طبعها في رومة قبل مجيئه ووزعها حال وصوله إلى القدس، كان يوجه بصورة منتظمة رسائل راعوية يرشد بها الشعب والإكليروس. وشكّل مجلس القانونيين حاملي لقب قانونيي القبر المقدّس، وهم المجلس البطريركي الاستشاري. وفي عام ١٨٦٦ رسم أحد كهنته وهو منصور براكو أسقفًا مساعدًا له. وفي عام ١٨٦٤، انتهى من بناء المقر البطريركي الجديد. وهو بناء كبير يتسع للبطريك ومن معه من الكهنة الإداريين، ولكل كاهن من كهنة البطريركية إذا مرض أو شاخ وقعد عن العمل. والمبنى قائم حتى اليوم، وما زال نمط المعيشة فيه مشابهًا لما أرادته البطريرك المؤسس والباقي.

وأما الكنيسة الكاتدرائية المرافقة والخاصة بالبطريركية فقد أُنجز بناؤها عام ١٨٧٢. وقد شيدت إلى جانب المقر البطريركي. وهي كاتدرائية مرافقة، لأن الكاتدرائية الرئيسة هي كنيسة القيامة، وكنيسة القيامة هي في الواقع الكنيسة الكاتدرائية للبطاركة الثلاثة في المدينة المقدّسة: اللاتيني والأرثوذكسي والأرمني.

تأسيس الرعايا

وانطلق البطريرك مع فريق الكهنة الذي لبّي نداءه يؤسس الرعايا ويفتح المدارس ويقدم الرعاية الدينية للمؤمنين. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. فقد حفل تاريخ الرعايا في هذه المرحلة التأسيسية بين ١٨٥٣ و١٨٧٢ بظروب الاختفاق، وتوالى عليها الفشل والنجاح. وقد أسس فالرغا إحدى عشرة رعية جديدة. ونكتفي هنا بسرد الظروف التي أُلتمت بتأسيس رعيتين، الأولى في فلسطين وهي رعية بيت

والشروط التي عرضها على من يريد ان يعمل معه هي أن نعمل سوية في خدمة كنيسة القدس بلا أجر أو راتب. ولخص صعوبات العمل في أربع: تعلّم اللغة العربية، وتعلّم التعامل مع الشعب، والتسليم بأن ثمار العمل الرسولي لن تقطف بسرعة، ومواجهة أوقات الفراغ الطويلة. فعلى المرسل استغلال وقته في المطالعة والقيام بوظيفتين إضافيتين: وظيفة الطبيب، فعليه ان يلمّ بالمبادئ الأولية للطب والتعامل مع بعض الأدوية. والوظيفة الثانية أن يقضي بالعدل بين الناس، فلا يخاف أن يقول أو أن يقال له: «من أقامك عليّ قاضيًا»؟

وأما روحانية الإكليروس فيجب أن تتغذى بمجاورة الأماكن المقدّسة، وأن تبنى على روح الحياة العائلية، فالإكليروس البطريركي يشكل عائلة واحدة. ولهذا تقدّم البطريركية إلى جميع أفراد الإكليروس ما يلزمهم من رعاية روحية ومادية. وإذا ما عجز الكاهن، عاد إلى دار البطريركية، وأقام حيث يقيم البطريرك نفسه مع الكهنة المشرفين على الأعمال الإدارية. وقد وضع على هذا الأساس عام ١٨٦٤ قانونًا لكهنة البطريركية يجمع بين ميزات الكهنة الأبرشيين والحياة الجماعية في الرهبانيات.

وتحقّق حلم البطريرك. فكان له بعد قليل إكليروس أبرشي من أبناء الأبرشية ومن الأبرشيات الأخرى في العالم. وقد رسم في عهده ستة عشر كاهنًا، اثنا عشر منهم من أبناء الأبرشية (ومن بينهم خمسة من قبرص)، وأربعة من خارج الأبرشية من فرنسا. وبالإضافة إلى الرسالة الراعوية الأولى التي



بيت كاهن الرعية في الكرك

الأرثوذكس فيها نحو الألف وعدد الكاثوليك لا يتجاوز المئتين .

وكان الرهبان الفرنسيون يؤمنون لهم الخدمة الروحية من بيت لحم . ولكنهم لم يتمكنوا من الاستقرار فيها لما كان بين الناس في ذلك الزمن من نمرات طائفية قوية . وقد أراد البطريرك أن يقتحم هذا الوضع الطائفي . فواجه مقاومة عنيفة من قبل الرعية الأرثوذكسية . وتدخلت في هذا الصراع البطريركيات في القدس والسلطات العثمانية المحلية حتى وصلت القضية إلى الاستانة نفسها .

وبدأ البطريرك فكلف الأب كومنداري البيتلحمي بشراء أرض في بيت جالا . فاشترى بيتاً لسكنه ، ثم شرع في بناء الكنيسة . فصدى له أهل القرية وأوقفوه عن البناء . ووقعت

جالا ، والثانية في شرق الأردن وهي رعية السلط . وثبتت رواية هذا التأسيس الظروف العامة التي عاشها البطريرك والإكليروس الذي رافقه .

رعية بيت جالا

بيت جالا اليوم مدينة صغيرة تقع غرب بيت لحم على مسافة كيلومتر واحد . يربو عدد سكانها على العشرة آلاف . وكلهم من المسيحيين ، معظمهم من الأرثوذكس ، وقسم منهم من اللاتين . وقد وفد على المدينة الصغيرة في أواسط القرن العشرين ، مع التحركات السكانية وأزمة اللاجئين ، بعض المسلمين الذين سكنوا المدينة واستقروا فيها . وفي أيام البطريرك فالرغا ، كانت بيت جالا قرية صغيرة ، عدد

العمل. وفي أحد الأيام حاصر البيت ١٥٠ رجلاً مسلحاً. فوقع صدام وتهديد وضرب. وعاد مالك البيت الذي باعه أول مرة للبطيركية اللاتينية، فباعه مرة ثانية لبطيركية الروم الأرثوذكس، فطالبت هذه البطيركية به. وقامت مناقشات جديدة، وشهر أحدهم السيف في وجه البطيريك. وكان عيد الميلاد قد قرب، فألقى البطيريك إقامة صلاة العيد في بيت لحم خوفاً من ان يستغل الطرف المخاصم غيابه، وأقام صلاة العيد في بيت جالا.

وتواطأ حاكم القدس والجند الذين أرسلهم مع خصومه. فترك البطيريك القرية، بل وخرج من القدس أيضاً احتجاجاً على ظلم الحاكم، وتوجه في منفى طوعي إلى مدينة يافا، وقد رافقه في هذا المنفى قنصل فرنسا

مبارك واشتباك بالأيدي وبالسيوف والرصاص أيضاً. عام ١٨٥٣ أرسل البطيريك إلى بيت جالا كاهناً فرنسياً كان قد انضمّ جديداً إلى الإكليرس البطيريكسي واسمه جان موريتان. وقد أسس هذا الكاهن عدداً من الرعايا وبنى فيها الكنائس. كتب موريتان في مذكراته يقول: «غادرت القدس يرافقتني الأب عبد الله وقواس البطيريك وخادم. وحملنا معنا ما يلزم للإقامة في رعية جديدة. واستقبلنا بعض المؤيدين وكثرة من المعارضين». وكان أول لقاء مع القرية صراعاً عنيفاً جرح فيه الكاهن. فأعلم البطيريك بما حدث.

ولما لم تلق الشكاوى آذاناً صاغية عند باشا القدس، جاء البطيريك نفسه إلى بيت جالا وأمر بمتابعة البناء بالرغم من أمر الباشا بوقف



الغار الكنيمة في مادبا

السيد بوطا. وعمل كلاهما على رفع القضية إلى الباب العالي في الأستانة. وتدخلت الحكومة الفرنسية. وأخيراً تمّ النصر للبطريك، إذ أنصفه الباب العالي، فأصدر فرماناً عام ١٨٥٤، يأمر حاكم القدس بإعطاء البطريك أرضاً في بيت جالا وبالسماح له ببناء الكنيسة والدير.

رعية السلط في شرق الأردن

وفي عام ١٨٦٦، فتح البطريك أول رعية في شرق الأردن في مدينة السلط. وحصل ذلك من قبيل الصدفة. كانت السلط تابعة إدارياً لتصرف نابلس. فجاء يوماً خيالة من السلط إلى نابلس يبحثون عن الكاهن اللاتيني فيها، وأبلغوه أن رجلاً لاتينياً في السلط مريض، وهو يطلب حضور كاهن في ساعته الأخيرة. فرافق الكاهن الخيالة وأسعف المريض. واستقبله مسيحيو السلط وأكرموه وطلبوا إليه أن يقيم معهم ويبنى لهم كنيسة. وشجع متصرف نابلس الكاهن اللاتيني علي فتح رعية السلط لخدمة المسيحيين فيها، وقد عين بهذه المناسبة عضوين من اللاتين في مجلس السنجق، أحدهما من نابلس وهو سرافيم والثاني من السلط وهو صالح ناصر أبو جابر.

الرهبايات الجديدة

وقد استقدم البطريك الرهبايات لمساعدة الإكليرس الأبرشي في خدمة المسيحيين والاجتماع معاً. فكانت أول الرهبايات التي لبّت نداءه في القدس راهبات القديس يوسف عام ١٨٤٨. وقد تولّين التعليم والإدارة في مدارس

واهتم أحد كهنة الإكليرس البطريكي بالأيتام وهو الأب أنطون بلوني. فاستقبل أولاً بعض الأولاد في بيته في بيت جالا، ثم اشترى لهم داراً. ولما تزايد عددهم، فتح مؤسسة في بيت لحم، في بيت جمال والناصر. وعرف بأبي اليتامى، وقد أصبحت تعرف مؤسسته بهذا الاسم فيقال «دير أبو اليتامى». وحاول تأسيس رهبانية لمتابعة عمله، ثم عدل عن فكرته. وعرض على رهبانية السالزيان الناشئة التعاون معه، فلبّوا دعوته. وتسلّمت منه رهبانية السالزيان عام ١٨٩١ ما بدأ به من مؤسسات. وتابعت عمله وطورته. ومدارس السالزيان اليوم أصبحت مدارس مهنية تستقبل الطلاب على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية.

جمعية فرسان القبر المقدّس

تأسست هذه الجمعية لمساعدة الأراضي المقدّسة. يعيد البعض أصولها إلى عهد الصليبيين. ولكن من الأرجح أنها نشأت بعد ذلك العهد لمرافقة الحجاج ومساعدتهم، ولتقديم المساعدات للأرض المقدّسة بصورة عامة. وكان يرأسها حارس الأراضي المقدّسة، بموجب براءة بابوية (Pastoris Officii) عام

التدخل في حل أزمة نشأت بين بطريرك الكلدان والكرسي الرسولي. وسببها ان البطريرك عين أسقفاً من كنيسته لمنطقة الملبار في الهند، وقد كانت قديماً تابعة لبطريركية الكلدان قبل استيلاء البرتغاليين عليها عام ١٥٢٩. وكان فالرغا صديقاً حميماً لبطريرك بابل. فتوصل الطرفان إلى اتفاق نهائي في مسألة الملبار عام ١٨٦٣.

فالرغا في المجمع الفاتيكاني الأول ١٨٦٩-
١٨٧٠

استدعاه الكرسي الرسولي عام ١٨٦٦ قبل انعقاد المجمع بصفته خبيراً في شؤون الشرق. وكان ذا كلمة مسموعة في هذا المجال. فاشترك في ثلاث لجان: اللجنة التحضيرية للكنائس الشرقية واللجنة الموكلّة بتقديم أوراق العمل الجمعية واللجنة الجمعية للكنائس الشرقية. وقدم دراسة أعدها في بيروت عرض فيها اقتراحين بخصوص الحق القانوني في الكنائس الشرقية. وينص الاقتراح الأول ان تحتفظ كل كنيسة بقانونها الخاص. والثاني ان تتبنى كل الكنائس الشرقية القانون العام المتبع في الكنيسة الكاثوليكية، على ان تترك الحرية لكل كنيسة فيما يختص بتراتها وليتبرجتها.

وقد وجهت الدعوة للمشاركة في المجمع إلى البطارقة الأرثوذكس مثل أسلافهم في مجمع ليون وفلورنسا. ولكن بطريرك القسطنطينية اعتذر وكذلك بطريركا القدس للروم الأرثوذكس والأرمن، وأسقف الكنيسة اليقونية.

افتتح المجمع أعماله في ١٨٦٩/١٢/٨

١٤٩٦. لما قدم البطريرك فالرغا تولّى هو أمر هذه الجمعية وأعاد تنظيمها، وفوضه الكرسي الرسولي بها عام ١٨٦٨ في البراءة (Cum multa sapienter). وفي تجواله في أوروبا وزيارته للعواصم والملوك حصل من الملوك والأمراء على الاعتراف بها بصورة رسمية. وقد بلغ عدد أعضائها قبل وفاته ١١٤٧ عضواً ينتمون إلى عشرين دولة.

فالرغا وشؤون الشرق

كان فالرغا رجل ثقة البابا يوس التاسع في شؤون الشرق. فقد شغل منصب القاصد الرسولي في سورية ونائب رسولي في حلب من ١٨٥٨ إلى ١٨٧٢. وكان يقيم في الصيف في بيروت وفي الشتاء في القدس. وعاصر أحداث لبنان عام ١٨٦٠، والأزمة التي مرت بها كنيسة الروم الكاثوليك حين تحولت إلى التقويم الغريغوري بين ١٨٥٨ و ١٨٦٤ والتي أدت إلى استقالة البطريرك بحوث عام ١٨٦٤. وقام بدور هام في دعم المؤسسات الكاثوليكية في بيروت، حيث حمل الآباء اليسوعيين على إنشاء جامعة تعمل على تربية الشبية وتنقيفها. وتحققت هذه الرغبة بعد وفاته. كان اليسوعيون قد أنشأوا المدرسة الإكليريكية في غزير عام ١٨٤٦، ثم نقلوها إلى بيروت عام ١٨٧٥، ومنح الكرسي الرسولي كلية الفلسفة واللاهوت فيها رتبة جامعة.

وامتد نفوذ فالرغا إلى الكنيسة الكلدانية، وكان قد خدمها قبل ان يكون بطريركاً، إذ التحق في الأعوام ١٨٤٢-١٨٤٧ بالقصادة الرسولية في العراق. وناشده مجمع نشر الإيمان

وألقى فالرغا فيه خطاباً عن العصمة البابوية. وكان قد أعد خطاباً ثانياً في شؤون الكنائس الشرقية. إلا أنه لم يتمكن من طرحه للمناقشة بسبب توقف أعمال المجمع في ١٨/٧/١٨٧٠ بعد اندلاع الحرب بين فرنسا وبروسيا. وقد رفعت الجلسات رسمياً في ٢٠/١٠/١٨٧٠.

عاد فالرغا إلى القدس في تشرين الأول ١٨٧٠ بعد غياب سنتين. وقام بجولته الأخيرة التفقدية في ربيع البطريركية والقصادة الرسولية. وعين الأب بسكال أبوديا نائباً عاماً له في بيروت، وأتم بناء الكنيسة الكاتدرائية المرافقة ودهشها في ١١/٢/١٨٧٢ وترأس في ٢/٥/١٨٧٢ أول دورة في عيد الجسد تقام في القدس. وفي أيار ١٨٧٢ قام برحلة تفقدية أخرى دامت ستة أشهر، زار خلالها الرعايا في شمال فلسطين. ثم قضى في بيروت أربعة أشهر، وفي دمشق ترأس المحكمة التي نظرت في قضية استشهاد عدد من الرهبان الفرنسيسكان في أحداث ١٨٦٠. ومن دمشق عبر حوران إلى شرق الأردن. وهناك لاقاه شيخان من قرى الرميمين وصافوط في منطقة السلط، وطلبا منه فتح رعية في قريتهما. والشيخان من عشيرتي الصايغ وحتر. وقبل دعوتهم، نزل ضيف عليهما. وأما الرعيان فلم تفتح إلا بعد وفاته. واستقبله أهالي السلط بحفاوة شعباً وحكومة. وأخيراً وصل إلى القدس في ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧٢، وتوفي بعد ذلك بقليل في ٢ كانون الأول ١٨٧٢، وهو في ٥٩ من عمره.

كان هذا البطريرك العائد إلى القدس، بعد غياب قرون، من أعلام الكنيسة الكاثوليكية

المحلية والعالمية، بل هو من كبار الشخصيات المسيحية التي أرست أسس التاريخ المسيحي المعاصر في فلسطين وشرق الأردن، كما قام بمهام عديدة، هو أو أحد كهنته، في البلدان العربية المجاورة في لبنان وسورية ومصر والعراق.

الفصل الثالث

البطريرك منصور براكو (١٨٧٢-١٨٨٩)

ترك فالرغا يوفاته فراغاً كبيراً. وأثار انتخاب خلفه مجدداً قضايا دبلوماسية وكنسية كثيرة. منها قضية الوجود اللاتيني في الشرق. وكان الكاردينال لافيغري الفرنسي ومؤسس الآباء البيض أحد المرشحين والمعارضين في الوقت نفسه للبطريركية. وعين الكرسي الرسولي أخيراً بطريركاً على القدس الأسقف منصور براكو مساعد البطريرك المتوفى. وعين قاصداً رسولياً لسورية لودوفيكو بيافي رئيس الرهبان الفرنسيسكان العام.

وُلد براكو في إيطاليا عام ١٨٣٥ من أسرة فقيرة. ولم يتم دروسه إلا بعناء. انضم إلى الاكليرس البطريركي، وبعد رسامته كاهناً، عين معلّم للاهوت في الاكليريكية، ثم رئيساً لها وأخيراً أسقفاً مساعداً عام ١٨٦٦. وعين بطريركاً عام ١٨٧٣. وأسس في عهده إحدى عشرة رعية في فلسطين وشرق الأردن، واستقدم اثنتي عشرة رهبانية.

الرهبايات الجديدة في عهد البطريرك براكو

إخوة المدارس المسيحية (الفرير)

أنشأ الفرير مدارسهم الأولى في مصر عام ١٨٤٧، ومن مصر قادتهم الظروف إلى فلسطين: «كانت الظروف التي أدت إلى انتشار مرض الكوليرا في مصر والصعوبات المادية الكبيرة التي واجهتهم بالإضافة إلى انتشار حملة كره للأجانب، من العوامل الهامة التي دفعت الأخ أدريان (Adrien)، مدير مدارس الإسكندرية، إلى أن يكتب إلى رؤسائه يستأذنيهم بإرسال مجموعة من الإخوة للحج إلى الأرض المقدسة. فقامت مجموعة منهم بصحبة الأخ ايفاغر (Evagre) بالبحار من مدينة الإسكندرية إلى فلسطين». وتمت هذه الرحلة عام ١٨٧٤، وفيها التقى ايفاغر القنصل الفرنسي في القدس وحارس الأراضي المقدسة والبطريرك براكو. ولاقى من هذا تشجيعاً وترحيباً، ونسّق مع مجمع نشر الإيمان وحراسة الأراضي المقدسة أن يتولّى إخوة المدارس المسيحية مدارس الأولاد في بيت لحم وحيفا والناصرة ولارنكا في قبرص.

«مع بداية السنة المدرسية في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٨٧٨، سلّم الفرنسيون طلاب مدرستهم الراحوية لإخوة المدارس المسيحية. وقدّمت البطريركية للإخوة أرضاً بجوار دار البطريركية لإنشاء مدرستهم الخاصة عليها. وفي عام ١٨٨٢، وُضع حجر الأساس لمدرسة في يافا، ثم حيفا عام ١٨٨٣، وفتحت دار الابتداء في بيت لحم عام ١٨٨٥ لتنتسقة الشبان العرب الراغبين في الانضمام إلى حياة

الإخوة الرهبانية. وفي عام ١٨٩٢، فُتحت مدرسة لإعداد المعلمين في بيت لحم تهدف إلى إعداد الشباب الفلسطيني من أجل الحصول على التأهيل الضروري للتدريس في مدارس الإخوة فيما بعد».

طوّر إخوة المدارس المسيحية نظام المدارس وأسلوب التعليم المتبع منذ قرون. ودرّسوا في مدارسهم أربع لغات: العربية والفرنسية والإيطالية والإنكليزية. وحظرت اللغة العربية برعاية الإخوة. وتوفّي مؤسس مدارس الفرير في فلسطين، الأخ ايفاغر، في ١٩١٤/١/٢٦.

الرهبان الدومنيكان

زار الأب ماتيو لوكونت (Mathieu le Comte) الدومنيكاني فلسطين عام ١٨٨٢، وقد عزم «على إحياء رهبانية الدومنيكان في فلسطين، إذ كانت مزدهرة في الأرض المقدسة في العصور الوسطى». وفي هذه الأثناء تمّ اكتشاف أثري في حي المصراة (شمالي باب العامود خارج أسوار القدس). والآثار المكتشفة عبارة عن كنيسة بنتها الامبراطورة أفدوكيا عام ٤٦٠م في الموضع الذي يقول التقليد انه مكان استشهاد الشماس اسطفانس. فاشترى الرهبان الدومنيكان الموقع على مراحل بين عام ١٨٨٣ و١٨٨٨. وشرع الأب لوكونت في اصلاح وترميم مبنى قديم مهجور كان في الأرض التي اشترها، وحوّله إلى مسكن للرهبان الدومنيكان، واستقرّ فيه الرهبان في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٤. وبدأت أعمال الحفريات والتنقيب والترميم، فعثر على مخطط



الأب يوسف طنوس

العرييات، أسّسها الأب يوسف طنوس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو من كهنة البطريركية اللاتينية الأوائل. وقد شغل عدّة مناصب: أمين سر البطريركية اللاتينية وممثلاً لدى السلطات العثمانية، ونائب البطريرك فاليركا في قصادة بيروت، في أثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الأول. وبحكم موقعه في الإكليرس البطريركي، اطّلع الأب طنوس على ما يعانيه الكهنة في إرسالياتهم وخصوصاً تجاه عالم المرأة، فهي جاهلة غير مثقفة وبعيدة عن الكنيسة. ففكّر في إنشاء رهبانية محلية، «لرفع مستوى المرأة العربية دينياً وأخلاقياً وإنسانياً، وجعلها قادرة على تربية أولاد صالحين». من جهة أخرى «كان على كل شابة

الكنيسة البيزنطية القديمة. وبنى الدومينكان كنيسة كبيرة على اسم القديس اسطفانس، جرى تدشينها في ١٣ أيار (مايو) ١٨٩٠، وتمّ العمل في الدير عام ١٨٩١. وقد خطفت يد المتون العديد من الآباء الدومينكان الأوائل الذين ساهموا في بناء الدير والكنيسة، فقبل في ذلك: «لقد قام دير القديس اسطفانس على القبور».

في عام ١٨٨٨، طرح الدومينكان في القدس فكرة إنشاء كلية لاهوت في ديرهم لتدريس علوم الكتاب المقدس واللغات الشرقية، وأيد البابا لأون الثالث عشر هذه الفكرة. وصادق البطريرك براكو أيضاً على المشروع. فافتتح المعهد لدراسات الكتاب المقدس (L'Ecole Biblique) في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٩٠. ومن معلّمي هذا المعهد العلامة المشهور في دراسات الكتاب المقدس الأب لاكرانج (Lagrange). وتسلّم الأب المذكور رئاسة الدير والمعهد معاً. وأصدر المعهد في عام ١٨٩٢ مجلة متخصصة في دراسات الكتاب المقدس «المجلة الكتابية» (La Revue Biblique). والمعهد والمجلة قائمان حتى يومنا هذا. والمعهد الكتابي متخصص في الدراسات العليا في الكتاب المقدس والأبحاث الأثرية الفلسطينية والشرق أوسطية واللغات الشرقية القديمة، ويؤمّه طلاب العلم من مختلف أنحاء العالم للاشتراك في مساقاته.

رهبانية الوردية

جمعية راهبات الوردية مؤسسة رهبانية عربية محلية تقبل في عضويتها الفتيات

تريد الترهّب أن تغادر الوطن إلى فرنسا لتابعة الدراسة، وكان ركوب البحر مجازفة كبيرة والذهاب إلى الغرب تحدياً لتقاليد العائلات المسيحية».

فلما سألت سلطانة دانييل غطاس المولودة في القدس عام ١٨٤٣ أباهما أن تترهّب، رفض طلبها للسبب المذكور أعلاه. وكانت أول فتاة فلسطينية تلتحق بهذه الرهبانية وأُطلق عليها في الرهبانية اسم ماري ألفونسين. ولقد قاسمت ماري ألفونسين الأب طنوس أمله في إنشاء رهبانية وطنية. وسار كل منهما إلى هدفه في درب مختلف، إلتقيا فيما بعد في مشروع رهباني وطني واحد، وهو رهبانية الوردية.

طرح الأب طنوس فكرة إنشاء رهبانية وطنية على البطريرك براكو فلاقت قبولاً واستحساناً. وكان الأب يوسف مرشداً لأخوية بنات مريم، وتضمّ الأخوية عدداً من الفتيات المقدسيات التقيات. فعرض الأب يوسف مشروعه عليهنّ، فإذا بعضهنّ يتمنى وجود مثل هذه الرهبانية لتحقيق دعوتهنّ. «كانت خمساً الفتيات اللواتي قررن في البداية تكريس ذواتهنّ لله في الرهبانية الجديدة. وكنّ من عائلات القدس العريقة، وهذه أسماءهن: ريجينا كارمي وعفيفة أبو صوان وجليلا عيسى وحنة غطاس وأمينة حبش. وقد واجهن من الأهل والأقارب مقاومة عنيفة. صحيح أن الناس يحترمون الراهبات ويقدرّون أعمالهنّ في المدارس. ولكنّهم يرفضون أن تصبح بناتهنّ راهبات». واجتازت الفتيات مرحلة المعارضة التقليدية وفزن بمبتغاهن. وفي ٢٤ تموز (يوليو) ١٨٨٠، أخذن بيتاً قرب دار البطريركية،

والتحقت بهنّ أربع فتيات أُخر، فصرن تسعاً. وفي ١٥ كانون الأول (ديسمبر)، منحهن البطريرك براكو الثوب الرهباني في احتفال خاص.

أما الراهبة ماري ألفونسين فظلت تراودها فكرة تأسيس رهبانية وطنية. وتأكّد عزمها بظهور العذراء لها مرات متتالية منذ عام ١٨٧٤، ودارت الظهورات حول دعوة الراهبة والرهبانية المزمع إنشاؤها. فتوجّهت الراهبة إلى البطريرك والأب يوسف طنوس الذي رأى في الراهبة الرائية إشارة سماوية لتابعة مشروع الراهبات. وانتقلت الأم ماري ألفونسين من جمعية راهبات مار يوسف إلى رهبانية الوردية الجديدة في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨٣. وأمرها مرشدها الأب يوسف بكتابة مذكراتها حول ظهورات العذراء لها. وظلّ سرّها مكتوماً حتى مماتها. وعاشت حياة خفية بسيطة، ولم يطلع أحد على سرّها حتى ولا أختها حنة وريجينا اللتان انضمتا إلى رهبانية الوردية قبلها. فأختها حنة التي غدت رئيسة عامة للرهبانية جهلت حقيقتها إلى أن اطّلت على مذكراتها بعد وفاتها، «كان الخامس والعشرون من آذار (مارس) سنة ١٩٢٧، هو اليوم الذي انتقلت فيه الأم ماري ألفونسين إلى رحمة الله. ولم يدر في خلد أي من راهبات الوردية أن المؤسسة الحقيقية للرهبانية قد غابت عن الوجود». ولهذا تعدّ راهبات الوردية الأم ألفونسين مؤسستهنّ مع الأب يوسف طنوس.

عين الأب يوسف طنوس للراهبات المبتدئات معلّمة هي الأخت روزالي ناصر من راهبات الناصرة. وفي ٧ آذار (مارس)



الأخت ألفونس دانيال

وكان الجميع ينعته بالرجل القديس .

خلفه في الثامن من أيلول (سبتمبر) ١٨٨٩
 البطريرك لودوفيكو بيافي (Ludovico Piavi).
 وقيل فيه انه دبلوماسي جامد الملامح، يخفي
 وراءها قلباً يطفح بالحيرية. وهو راهب
 فرنسيسكاني أهلته السنوات الثلاث والثلاثون
 التي قضاها في الشرق لمنصب بطريرك القدس .
 وُلد بيافي في بلدة رفينا (Ravena) بإيطاليا
 في ١٧ آذار (مارس) ١٨٣٣ . وعندما بلغ
 السبعة عشر عاماً، التحق بالرهبانية
 الفرنسيسكانية، ورُسِمَ كاهناً عام ١٨٥٥ ،
 ودخل في خدمة حراسة الأراضي المقدسة التي
 أرسلته إلى حريصا لتعلم العربية، فأتقنها. ثم
 عين في حلب . وبعد فترة وجيزة تسلّم إدارة
 الكلية الفرنسيسكانية فيها. على أثر وفاة

١٨٨٥، أبرزت المبتدئات النذور الرهبانية
 الكبرى، «وأخذن ينتظرن التعيين في إرساليتهن
 الجديدة». فوجدت فيهنّ البطريركية خير معين
 لكنهنّ البطريركية للعمل في القطاع النسائي،
 وعملهنّ الرئيس تعليم الدين المسيحي في
 مدارس البنات وتلقين مبادئ اللغة والحط.
 وتوفي الأب يوسف طنوس في الناصرة في ٣٠
 أيلول (سبتمبر) ١٨٩٢، ودفن في دير راهبات
 الوردية في مامبلا بالقدس .

وما هي إلا بضعة سنوات حتى كانت
 راهبات الوردية العربيات يعملن في معظم رعايا
 البطريركية، وقد شاركن كهنة البطريركية
 مشقات الحياة الصعبة في مراحل التأسيس
 الأولى. وما زالت الرهبانية قائمة إلى اليوم
 وهي مزدهرة وقد انتشرت في معظم البلدان
 العربية .

الفصل الرابع

بطاركة القرن العشرين

البطريرك لودوفيكو بيافي (١٨٨٩-١٩٠٧)

توفي البطريرك منصور براكو في فجر
 التاسع عشر من حزيران (يونيو) عام ١٨٨٩
 وهو في السنة الرابعة والخمسين من عمره،
 قضى منها ستة عشر عاماً بطريركاً للقدس .
 وازدهرت البطريركية بالرعايا التي أسسها
 والمؤسسات الرهبانية التي دخلت في عصره
 للعمل في الأبرشية الأورشليمية. وفي يوم
 وفاته، تهافت الشعب كله على اختلاف دياناته
 من المسيحيين والمسلمين واليهود لزيارة رفاقه،

البطريرك فاليرغا سنة ١٨٧٢، عيّن قاصداً رسولياً لبلاد سورية، ورُسم أسقفاً في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٦.

ولما عيّن بطريركاً، استعان بأسقفين مساعدين لإدارة أبرشيته، وهما باسكال أبوديا سنة ١٨٩١، ولويس ييكاردو سنة ١٩٠٢. وفي عهده عقد المؤتمر القرباني بالقدس سنة ١٨٩٣، وزار إمبراطور ألمانيا فلهمم الثاني القدس عام ١٨٩٨.

لم ينشئ ييافي رعايا جديدة إلا رعية المجيدل، وعهد بها إلى الآباء الفرنسيسكان. فقد اهتم سلفاه فاليرغا وبراکو بإنشاء الرعايا، أما هو فقد عمل على تقوية هذه الرعايا وتثبيتها. كتب أحد مؤرخيه: «وجه البطريرك ييافي جهوده إلى تطوير الرعايا القائمة وتزويدها بالخدمات الضرورية... فمعظم الرعايا مزودة بكنائس وأديار مؤتقة لا تتناسب وعدد المؤمنين، وهي غير صحيحة لسكنى المرسلين. ومن حسن حظ البطريرك أنه وجد بين كهنته مهندساً موهوباً ومخلصاً هو الأب باربيرس (Barberis) الذي أشرف على بناء المعهد الإكليريكي في القدس سنة ١٨٩٠-١٨٩١»، كما أشرف على أبنية عديدة في مختلف الرعايا.

أما التوقّف عن إنشاء رعايا جديدة فقد يكون مرده أيضاً إلى سياسة البابا لأون الثالث عشر خليفة ييوس التاسع، والذي شجّع على دعم الطوائف الشرقية الكاثوليكية المتحدة برومة. وظهر في المؤتمر القرباني الذي عقد في القدس سنة ١٨٩٣ أول اعتراض علني على سياسة مجمع نشر الإيمان الرامية إلى توطيد

حضور الكنيسة في فلسطين والبلاد المجاورة من خلال الطقس اللاتيني والمرسلين اللاتين. وقاد معارضة تيار «الليتنة» البطارقة الشرقيون والشخصيات الفرنسية في المؤتمر، ممثلة بالآباء البيض وآباء الأسومبسيونست، في حين أيد وجهة النظر المعاكسة الرهبان الفرنسيسكان والبطريركية اللاتينية طبعاً وأنصار مجمع نشر الإيمان. وسوف تستمر هذه المعارضة فتظهر عند كل تعيين بطريرك جديد، في محاولة لإلغاء البطريركية اللاتينية. وقد نوقشت القضية بجدية في المجمع اللاتيكاني الثاني. إلا أن الكنيسة رأت ان في هذه المؤسسة فائدة للكنيسة المحلية كما وللكنيسة عامة. واليوم وقد أصبحت البطريركية من حيث الاكليرس والمؤمنون من أبناء الأرض، أعني من فلسطين والأردن، فقد أصبح مصير البطريركية خياراً يقرّر فيه أبناء الأرض والبلد أنفسهم.

وقد تخرّج في عصر البطريرك ييافي ثمانية عشر كاهناً من اكليريكية بيت جالا، واثنا عشر منهم من أبناء الأبرشية، ومن بينهم أول كاهن من شرق الأردن وهو الأب سليم الزعمرط. وكان مرسلو البطريركية يطلقون العون من الإكليرس الماروني والآباء الفرنسيسكان ومختلف الرهبانيات التي استقدمها البطارقة في هذا القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وصرف البطريرك جهوده إلى تأسيس المدارس في الريف، لأن المدارس الرهبانية تركزت في المدن، في القدس ويافا والناصرة وبيت لحم وحيفا. وأما القرى فظلت مهملة. فانصرفت البطريركية إلى خدمتها، ودعمت

جمعية كولن الألمانية جهود البطريركية في تأسيس المدارس في هذه القرى، وقد تأسست هذه الجمعية عام ١٨٥٥ وعرفت باسم جمعية الأرض المقدسة (Verein Das Heilige Land)، لدعم الكنيسة الكاثوليكية في فلسطين.

البطيريك فيليب كمامسي (١٩٠٧-١٩١٩)

في اليوم الرابع والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٥، توفي البطريرك يياقي عن عمر يناهز السبعين عاماً، ودفن بجوار أسلافه في الكنيسة الكاتدرائية المرافقة. وخلفه البطريرك فيليب كمامسي (Camassei) عام ١٩٠٧.

عاصر كمامسي أحداث الحرب العالمية الأولى، وفي هذه الفترة أغلقت المدارس الفرنسية والإيطالية، وسجن عدد من كهنته ورهبانه. وأخيراً نفاه العثمانيون إلى الناصرة في ١٠/١١/١٩١٧، فحلّ ضيفاً على الآباء الفرنسيين، وتابع من الناصرة الإشراف على رعايا البطريركية في شمالي فلسطين، في حين عين نائباً له في القدس في ٢٤/١١/١٩١٧ المطران فرنسيس فيلينجر (François Fellinger) لرعاية الطوائف والأديرة في بقية فلسطين وشرق الأردن. وفي ٣/١١/١٩١٨، عاد البطريرك إلى القدس، وكان الكرسي الرسولي قد بعث من رومة مساعداً له هو المنسيور لويس بارلسينا (Barlassina) في ٢٨/١٠/١٩١٨. وبعد فترة وجيزة، سافر البطريرك إلى رومة ليأخذ قسطاً من الراحة لما عاناه من أحداث الحرب وليقوم بزيارة رسمية للفاثيكان. فأنعم عليه البابا بندكتس الخامس عشر بالرتبة

الكردينالية في ١٣/١٢/١٩١٨. وتوفي في رومة في ١٨/١/١٩٢١، ودفن فيها.

البطيريك لويس بارلسينا (١٩٢٠-١٩٤٧)

اعتلى العرش البطريركي الأورشليمي بعد كمامسي نائبه العام لويس بارلسينا (١٩٢٠-١٩٤٧). كان على البطريرك بارلسينا ان يواجه الدمار الذي خلّفته الحرب العالمية الأولى، فأولى جلّ اهتمامه لترسيم إرساليات البطريركية وبناء المدارس والكنائس. وعاد إلى فتح الرعايا الجديدة في شرق الأردن وفلسطين، ولا سيّما في القرى البعيدة والمهملة دينياً واجتماعياً، حيث كانت الخدمات العامة كلها ناقصة من طرق أو ماء أو كهرباء.

وقد ظهرت في عصر البطريرك بارلسينا (١٩٢٧) بوادر الاحتجاج والمطالبة بتعريب أجهزة البطريركية وإدارتها. وبدأت هذه الظاهرة في رعية مادبا وهي كبرى رعايا البطريركية في شرق الأردن. وقاد حركة الاحتجاج مجموعة من رجال الرعية أطلقت على نفسها اسم «لجنة الاصلاح». وبعثت بالعرائض إلى البطريرك والشخصيات المسيحية في الضفتين وأهم مطالبها: تعيين نائب بطريركي عربي في عمان ورئيس عربي للمعهد الإكليريكي وتوظيف معلمين محليين في مدارس البطريركية. واحتوت البطريركية هذه الظاهرة التي ظهرت بتأثير القضية العربية الأرثوذكسية التي دارت أحداثها في الحقبة عينها. واستطاع البطريرك أن يتعامل معها بكياسة. فلبّى مطالبها بصورة تدريجية حين توفرت العناصر المحلية المطلوبة. عين نائباً عاماً له



البطريك ألبيرتو غوري

رسولي تسلّم زمام الأمور فيها مدة ثلاث سنوات من ١٩٤٧-١٩٥٠، وهو القاصد الرسولي «تسا».

البطريك ألبيرتو غوري (١٩٥٠-١٩٧٠)

منذ نهاية الحرب العالمية الأولى شهدت فلسطين وشرق الأردن، كما وسائر البلاد العربية، انقلاباً حاسماً في تاريخها. فقد وضعت الحرب حداً للحكم العثماني الذي دام خمسة قرون. ونشأت الدول العربية الحديثة. وكذلك نشأت إمارة شرق الأردن في جنوب سورية بقيادة الأمير عبد الله بن الحسين. وقد طوّرت العائلة الهاشمية البلاد وتعاونت مع العشائر البدوية في شرق الأردن، وخلقّت في

في عمان المنسيور أنطون زيتون سنة ١٩٢٧، وخلفه المنسيور منصور جلاّد سنة ١٩٣٥، فالمنسيور نعمة سمعان سنة ١٩٤٠. وكان هذا أول نائب بطريركي عام يرسم أسقفًا لشرق الأردن، وتمّ ذلك عام ١٩٦٥. وكان المطران منصور جلاّد أول أسقف عربي يرسم في القدس عام ١٩٤٧.

وكان بارلسينا شخصية قوية عاصر الانتداب البريطاني في فلسطين منذ بدايته وحتى نهايته. كما عاصر بداية التحركات القومية الفلسطينية واليهودية وتعامل معها بحكمة وبجرأة. فكان محامياً عن مصلحة الكنيسة والمسيحيين جميعاً. وقد حضر الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥). ورأى حكومة الانتداب البريطاني تفرض الأسر والإقامة الإجبارية على الجزء الكبير من الكليروس الأبرشي والرهباني من الجنسيين الإيطالية والألمانية. وبالرغم من الشدة المالية التي تعرّض لها بسبب هذه الحرب وانقطاع وصول الموارد إليه، فقد صرف همه إلى مساعدة اللاجئين المتضررين من هذه الحرب ولا سيّما من البولنديين الذين توافدوا في تلك الفترة على فلسطين. وتوفي عام ١٩٤٧ قبل بداية المرحلة الحاسمة في الصراع الإسرائيلي الفلسطيني.

ومن أهم أعماله الراعوية أنه وضع سلسلة من كتب التعليم المسيحي بصيغة السؤال والجواب، استخدمتها جميع المدارس الكاثوليكية الرهبانية والأبرشية وكانت الأداة لتربية الأجيال المسيحية في عهده وفي العهود التي تلت حتى الجمع الفاتيكاني الثاني. وبقيت البطريركية من بعده في رعاية مدير

هذا القرن العشرين دولة حديثة نعمت بالاستقرار والهدوء.

وفي فلسطين بدأ أيضاً نظام حكم جديد هو الانتداب البريطاني. وفي الوقت نفسه بدأ الصراع بين القوميتين الفلسطينية واليهودية. وقد بدأت التحركات الدبلوماسية من قبل قادة الحركة الصهيونية منذ القرن الماضي لدى السلطنة العثمانية. واستمرت هذه التحركات لدى الحكومة البريطانية. ووقعت الصدامات الأولى الدامية بين العرب واليهود في فلسطين عام ١٩٢٠. ثم تالت أعمال المقاومة والعنف بين الطرفين. وكانت المقاومة من كلا الطرفين معاً، اليهودي والفلسطيني، توجه الضربات أيضاً إلى حكومة الانتداب البريطاني. وفي عام ١٩٤٨ قرّرت بريطانيا ان تنسحب من فلسطين. فبدأ الصراع الحاسم بين الفلسطينيين والدول العربية من جهة وبين إسرائيل من جهة أخرى. وأعلن عن قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ في القسم الغربي من فلسطين، في حين انضمّ القسم الشرقي إلى أمانة شرق الأردن وكون معها المملكة الأردنية الهاشمية. وبدأت بذلك حقبة تاريخية جديدة الملامح سياسياً وحضارياً وثقافياً. ونشطت في هذه الفترة الأحزاب القومية المختلفة مناوئة للحكومات القائمة. وكان للمسيحيين عامة قسط كبير في الوعي السياسي الجديد.

وأصبحت الأبرشية البطريركية اللاتينية تقع في قسمين مختلفين منعزلين سياسياً بعضهما عن بعض، الأول هو المملكة الأردنية الهاشمية والثاني دولة إسرائيل. وأصبحت أوضاع الناس صعبة، لأنها أخذت تعيش في وضع صراع

مستمر ومتعدّد الأشكال والطرق بين الشعبين اليهودي والفلسطيني أو الأردني. وقد تأثرت بهذا الصراع كافة الشعوب العربية.

وأصبح الاتصال بين جزئي الأبرشية، الأردن وإسرائيل، شاقاً وأحياناً غير ممكن. وكان مقرّ البطريركية في القدس القديمة، أعني القسم الأردني. وبقي البطريرك وحده مع بعض الأشخاص من حاشيته قادراً على زيارة قسم الأبرشية الواقع في دولة إسرائيل الجديدة.

وأتاح الله للبطريركية أن يدير شؤونها في هذه الفترات الانتقالية شخصيات مؤمنة قوية الاتصال بالله وبالناس وبالسلطات الحاكمة التي كانت تصوغ وجه البلاد الجديد.

وفي القدس، بعد فترة الوصاية، من ١٩٤٧ وحتى ١٩٥٠، عيّن البطريرك ألبرتو غوري (Alberto Gori) (١٩٥٠-١٩٧٠). وقد اهتمّ بتنظيم شؤون البطريركية بعد أن تغيرت معالمها بسبب التقلبات السياسية الجديدة في إسرائيل وفلسطين والأردن. فقد زال بعض الرعايا عن الوجود بسبب رحيل الناس وهجرة اللاجئين، مثل رعيتي اللدّ ويسان في إسرائيل، أو بقيت الكنائس مفرغة من مؤمنّيها مثل المجيدل وطبريا في إسرائيل أيضاً، في حين ظهرت رعايا جديدة في شرق الأردن تكوّنت من اللاجئين الفلسطينيين ومن بداية تحرك أردني داخلي من الريف إلى المدينة. فرعية عمان مثلاً التي كانت تعدّ بعض المئات أصبحت تعدّ الألاف، وفيها اليوم (عام ١٩٩٥) تسع رعايا مستقلة. ونشأت مدينة الزرقاء أيضاً وأصلها معسكرات للجيش الأردني وأماكن سكن لعائلات الجيش. وفيها نشأت رعيتان للاتين.

وتضاءلت بعض المراكز القديمة في شرق الأردن مثل رعية السلط، إذ أصبحت المرتبة الأولى الآن لعمان. وأصبحت رعية نابلس في فلسطين بعد هجرة الدوائر الحكومية عنها رعية صغيرة لا شأن لها من ناحية مسيحية. وأما القدس فقد شهدت تقلصاً كبيراً في عدد المسيحيين، فبعد أن كان عددهم يربو على الثلاثين ألفاً عام ١٩٤٨، أخذ يتقلص بعد هذا التاريخ حتى بلغ السبعة عشر ألفاً عام ١٩٦٧. واليوم في عام ١٩٩٥، لا يكاد يصل إلى العشرة آلاف. وأما في مدينتي الجليل، الناصرة وحيفا، فقد تضخم عدد المسيحيين، وذلك بسبب هجرة القرى إليهما.

النائب البطريك في الأردن

عام ١٩٤٨، كان النائب البطريك في شرق الأردن الأب نعمه السمعان من مواليد الرامه في شمال فلسطين عام ١٩٠٨. عين نائباً بطريكياً في عمان منذ عام ١٩٤٠. وقد واكب ميلاد المملكة الأردنية الهاشمية وتكوينها وعرف جميع رجالاتها. أشرف عام ١٩٤٨ على مجيء اللاجئين، إذ فُتحت الأديرة والمدارس لاستقبالهم وتقديم أول ماوى لهم. وتبدل وجه الرعايا بمقدم اللاجئين المسيحيين إليها من فلسطين. فألزم هذا التحرك السكاني داخل البطريكية توفير أبنية جديدة عديدة من كنائس ومدارس.

وكان النائب البطريك نعمه السمعان من أبرز الشخصيات المسيحية في عصره. وقد عمل بغيرة وإخلاص، لا في سبيل الكنيسة الكاثوليكية فقط، بل وفي سبيل جميع المسيحيين أيضاً. ولهذا تعاونت معه الكنيسة الأرثوذكسية أيضاً وسائر الكنائس في عمان، لما أبدى من مقدرة وكفاءة في خدمته للمسيحيين جميعاً.

آثار الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧

صرف البطريك أليوتو غوري جهده اذن إلى مواجهة الظروف الجديدة. فبنى الكنائس والمدارس في المواقع الجديدة ونظّم الأبنية

وتضاءلت بعض المراكز القديمة في شرق الأردن مثل رعية السلط، إذ أصبحت المرتبة الأولى الآن لعمان. وأصبحت رعية نابلس في فلسطين بعد هجرة الدوائر الحكومية عنها رعية صغيرة لا شأن لها من ناحية مسيحية. وأما القدس فقد شهدت تقلصاً كبيراً في عدد المسيحيين، فبعد أن كان عددهم يربو على الثلاثين ألفاً عام ١٩٤٨، أخذ يتقلص بعد هذا التاريخ حتى بلغ السبعة عشر ألفاً عام ١٩٦٧. واليوم في عام ١٩٩٥، لا يكاد يصل إلى العشرة آلاف. وأما في مدينتي الجليل، الناصرة وحيفا، فقد تضخم عدد المسيحيين، وذلك بسبب هجرة القرى إليهما.

النائب البطريك في اسرائيل

كان منذ البداية نائب بطريك في الناصرة، لرعاية شؤون الكنيسة في شمال فلسطين. فأصبحت رسالته مع الظروف السياسية الجديدة أكثر أهمية. وكان النائب البطريك عام ١٩٤٨، يوم وقوع الانقسام وولادة دولة اسرائيل، الأب أنطون فرغاني. وقد قام في هذه الفترة الانتقالية بجهود لا تثنى في سبيل تنظيم شؤون الكنيسة، بل وشؤون الشعب العربي كله، في المرحلة الانتقالية الدقيقة. ودافع عن الفقير والمظلوم وأحسن مخاطبة الدولة الجديدة لمساعدة كل محتاج.

ومن بعده أصبح النائب البطريك في الناصرة أسقفاً. وعين أول مطران للناصرة من بين الرهبان الفرنسيسكان وهو المطران كياييرو. ثم خلفه مساعده المطران حنا كلداني عام ١٩٦٤، من مواليد مادبا في شرق الأردن عام

الكنيسة ملجأً وملاداً في الأوضاع الجديدة التي زعزعت المسلّمات والتقاليد. وقد ساعد على رسوخ خصوصيات هذه العقلية الجديدة العزلة السياسية التي أحاطت بدولة إسرائيل، ولا سيّما فيما يختص بالاتصال مع الدول العربية. فلم يتمكّن المؤمنون من الاتصال بسائر الرعايا أو سائر المسيحيين في القسمين الباقيين من الأبرشية.

وفي الضفة الغربية المحتلة والمتعاملة مع احتلال وحكم عسكري، أخذت تتكوّن عقلية المقاومة، وأصبحت الشبيبة بمجملها مسيّسة، ملتزمة تقريباً كلها مع مختلف الأحزاب السياسية من الوسط واليسار. وقد أثر ذلك إلى حدّ بعيد في مهمة المدارس ورسالتها التربوية وكما وفي مهمة العائلة وسلطانها على الأبناء والبنات.

وفي الأردن ظلّ المجتمع محافظاً على التقاليد، متمسكاً بالقومية العربية وقيمها، بالرغم من انفتاحه النسبي على الحضارة الغربية. وظلّت مهمّة المدرسة والكنيسة والعائلة أكثر يسراً في تعاملها مع الشبيبة والأجيال الصاعدة.

البطريرك يعقوب بلتريتي (١٩٧٠-١٩٨٧)

عام ١٩٧٠، خلف البطريرك بلتريتي العام وهو في الثمانين من عمره. والمطران بلتريتي كان أسقفاً معاوناً لسلفه وله حق الخلافة بموجب براءة بابوية سابقة. وهو أول بطريرك يعين من كهنة الأبرشية، في حين كان جميع أسلافه قادمين من أبرشيات أخرى. وهو إيطالي، ولكنه نشأ منذ صغره في إكليريكية

القديمّة، كما بدأت في عهده حركة دينية نشطة بدخول شتى أشكال الرسالة التي عُرفت باسم «العمل الكاثوليكي» ومثلها أيضاً الأخوية المريمية. وتمّ في عهده توسيع المدرسة الإكليريكية في بيت جالا. كما تمكّن من تنظيم مالية البطريركية بمساعدة جمعية فرسان القبر المقدّس، في حين كان سلفه بارلسينا قد تعرّض لأزمة مالية خانقة من جرّاء الحرب العالمية وثقّة الموارد المحليّة.

وفي عهد البطريرك ألبرتو غوري، وقع أيضاً الانقلاب العسكري والسياسي الثاني الذي غير وجه الأبرشية مرة ثانية، في أقل من عشرين سنة، وهي الحرب الاسرائيلية العربية عام ١٩٦٧، والاحتلال الاسرائيلي للقسم الباقي من فلسطين. فأصبحت الأبرشية في عهده ثلاثة أقسام. القسم الأول القدس المحتلة والضفة الغربية وقطاع غزة، والثاني إسرائيل والثالث الأردن. وظلّت صعوبة التنقل بين أقسام الأبرشية قائمة. ولهذا بدأت تتكوّن في كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة من الأبرشية عقليات يختلف بعضها عن بعض من ناحية اجتماعية وسياسية ووعي ديني، بالرغم من انتماء جميع المؤمنين إلى التاريخ الفلسطيني والأردني الواحد وإلى قاعدة المجتمع العربي الواحد.

ففي إسرائيل كان للمجتمع الإسرائيلي وللحضارة الإسرائيلية الغربية أثر في تكوين عقليات جديدة في المجتمع المسيحي عامة، تقيّم الأمور بحسب المقاييس المادية، ولا تقبل بالمسلّمات. وتولّدت فحة ابتعدت عن الكنيسة، في حين بقيت فحة أخرى قريبة منها، بل تجذّرت في

بيت جالا، وأتم جميع دروسه فيها وأتقن اللغة العربية. ورسم كاهناً للآرشيّة البطريركية اللاتينية.

لم تتغير الأوضاع السياسية في زمنه، بل استمرت الهوة تزداد من ناحية العقليات وأنماط المعيشة والنظر إلى الأمور في أقسام الآرشيّة الثلاثة. وسار البطريرك يعقوب بلترتي على آثار سلفه، فتابع عمله في البناء والترسيم. وكانت له الرسائل الراعوية العديدة، في شتى المواضيع الدينية، إذ كان في كل عام تقريباً يوجه رسالة إلى أبرشيته، إكليروساً ومؤمنين.

وفي عهده أعيد تنظيم الإكليريكية في بيت جالا من حيث فريق الكهنة الذي كان يديرها. ففي أول نشأة المعهد، أداره كهنة البطريركية أنفسهم، وقد مر بنا أن البطريرك فالرغا تولّى في مرحلة التأسيس إدارة المعهد بنفسه. وفي فترة لاحقة، في بداية القرن العشرين تولّى إدارة المعهد رهبان البندكتان الألمان من جبل صهيون. واستمرّوا في أداء هذه الرسالة للإكليروس الأبرشي حتى عام ١٩٣٢. وفي هذه السنة عهد البطريرك بارلسينا بإدارة الإكليريكية إلى رهبانية فرنسية تأسست في أواسط القرن التاسع عشر في جنوب فرنسا، واسمها «جمعية آباء قلب يسوع الأقدس» أو «آباء بيتارام»، نسبة إلى البلدة التي نشأت فيها الرهبانية. وكانت رهبانية حديثة نشطة معروفة بتقواها وعلمها. فأنشأت أجيال الكهنة في البطريركية حتى عام ١٩٨٠. ولما تيسر على الرهبانية الاستمرار في هذه الرسالة نظراً إلى تناقص أعداد أعضائها، من جرّاء الأزمة الدينية العامة التي ألمت بأوروبا في

السبعينات وما بعدها، عاد البطريرك بلترتي وعهد بإدارة الإكليريكية إلى كهنته الأبرشيين. وأول كاهن عهد إليه بهذه المهمة هو الأب سليم الصائغ، وكان إذ ذاك رئيساً للمحكمة الكنسية اللاتينية في القدس. وما زال فريق كهنة من البطريركية يقوم بإدارة هذا المعهد إلى اليوم.

واهتم البطريرك يعقوب بلترتي بكتب التعليم المسيحي في مدارس الرعايا. فأشرف على ترجمة وتأليف عدّة سلاسل من الكتب، منها «النور البهي» و«نور الحياة». وهي كتب معدة لجميع الصفوف منذ الابتدائي الأول وحتى نهاية المرحلة الثانوية في الصف الثاني عشر.

وقد بدأت محاولة لتجديد كتب التعليم المسيحي في الآرشيّة بحسب الأساليب التربوية الجديدة في عهد البطريرك بلترتي، ثم استمرت في عهد خلفه البطريرك ميشيل صباح، وأشرف على هذه المهمة الأب رفيق خوري، المسؤول عن قسم التربية المسيحية في الآرشيّة.

ولما بلغ البطريرك يعقوب بلترتي الخامسة والسبعين من عمره قدّم استقالته إلى الكرسي الرسولي، عملاً بما يوصي به الحق القانوني الجديد. وهو أول بطريرك في الآرشيّة يقدم استقالته. واستمرّ في مهامه حتى عين الكرسي الرسولي خلفاً له البطريرك ميشيل صباح في نهاية عام ١٩٨٧. وقضى آخر سنه في دير رافات وهو مزار لسيدة فلسطين على مسافة نصف ساعة من القدس. ووافته المنية في إحدى زياراته إلى القدس في ١ تشرين الأول (نوفمبر) ١٩٩١.

البطريك ميشيل صباح

تم تعيينه بطريكاً في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧. وقبل الرسامة الأسقفية من يد البابا يوحنا بولس الثاني في ٦ كانون الأول (يناير) ١٩٨٨. كان نبأ تعيينه مفاجأة للكنيسة وللعالَم. وأبرزت وسائل الإعلام العالمية هذا الحدث بصورة لم يسبق لها مثيل. ذلك ان قضية الشعب الفلسطيني كانت تمر في مرحلة حاسمة امتزعت انتباه الدول ووسائل الإعلام بصورة مكثفة. والبطريك المعين جديداً لرأس كنيسة القدس فلسطيني مولود في الناصرة عام ١٩٣٣. وكان قد غادر الناصرة إلى المعهد الإكليريكي في بيت جالا في عهد الانتداب البريطاني وقبل قيام دولة إسرائيل. وفي أواخر ١٩٨٧، بدأت الانتفاضة الفلسطينية والمقاومة العنيفة للاحتلال الإسرائيلي. وأصبح السؤال في كل محفل: هل يستطيع الشعب الفلسطيني أن يحكم نفسه وأن ينجح في هذه المرحلة الأخيرة من مقاومته؟

ورأى الكثيرون في هذا الاختيار من قبل البابا يوحنا بولس الثاني اختياراً له دلالة خاصة وعلاقة مباشرة بما يجري من أحداث في فلسطين وإسرائيل. وكان البطريك الجديد أول بطريك من أبناء الأبرشية. وجعلت منه وسائل الإعلام العالمية، بكثرة المقابلات التي أجرتها معه منذ بداية عهده وفي ما بعد أيضاً وجهاً عالمياً، لا يهم كنيسته وأبرشيته وحسب، بل والعالَم، ولا سيما في ما يتعلق بقضية العلاقات بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. وهو في قرارة نفسه يعتبر مجال عمله الأول حمل رسالة

الكنيسة وإنجيل ربنا يسوع المسيح. وبعد تسلمه مهام البطريكية في القدس، وبعد فترة وجيزة من الصمت وتلمس الطريق في ما يختص بالأوضاع العامة في فلسطين، أخذ يتكلم ويعبر بجرأة عن موقف الكنيسة. وتناولت رسالته الراحوية الأولى في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٨٨ جوهر الرسالة الأسقفية، أعني الإيمان، وعلى ضوء الإيمان تناول مواضيع السلام في ما يختص بالعلاقات الفلسطينية العربية الإسرائيلية، والحوار مع الأديان، الإسلام واليهودية، وواقع الأقلية المسيحية ودورها، وأخيراً دور الرهبان والراهبات في الأرض المقدسة. وفي الرسالة الثانية «أسألوا السلام لأورشليم»، نشرها في عيد العنصرة عام ١٩٩٠، تناول قضية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بصراحة. وقد ورد في بداية رسالته: «بدأ هذا الصراع بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي منذ سنين بعيدة. والكثيرون منكم ولدوا فيه. ومد رأوا النور، فتحوا أعينهم على المأساة التي فرضت على آباؤهم. فوجدوا أنفسهم، وقد زج بهم في المأساة بلا رحمة، منذ بداية حياتهم. وما زال الوضع يسوء يوماً بعد يوم». واستعرض معطيات الانتفاضة التي أثرت في الشعب والكنيسة معاً. فالشعب هو الكنيسة. وتكلم على الحلول. وقال انه لا بد من ان يتكلم الخصمان وجهاً لوجه، وأكد، يوم كان المجتمع الاسرائيلي والكثيرون من المجتمع الدولي لا يرون في الفلسطينيين سوى إرهابيين، أنه لا بد من أن يكون الحوار بين الخصمين، والخصمان هما إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. ومن حيث العنف، قال انه ليس

طريقاً للحل: «لن يكون العنف بين إرشاداتنا. . . وإن موقفنا من كل ظلم وعنف وإرهاب ومن جميع مظاهر العنف هو شجب لكل ظلم ولكل عنف وإرهاب، مهما كان مصدره، سواء كان الدولة أم الجماعة أم الفرد». وطرح السؤال المباشر بهذه الصورة: «يسألوننا مراراً: هل تؤيد الكنيسة المظاهرات والضجيج والعنف والانتفاضة؟ وقد أجبتنا دوماً بما يلي: ليس هكذا يطرح السؤال. بل السؤال الذي يجب أن يطرحه كل صاحب إرادة صالحة وصادقة هو التالي: هل يحق لشعب ما ان يطالب بحقوقه وهل هو ملزم بذلك؟ فان كان الجواب بالإيجاب فهو إذن ملزم بالمطالبة. ويحق له ان يسمع صوته لينال حقوقه. لا يحق لأحد، لأي حجة كانت، ان يطالب أناساً مظلومين بالسكوت. وألاً يطالبوا بحقوقهم. ولكننا نقول أيضاً انه لا يحق لأحد ان يملأ بحقد عقيم قلوب المظلومين، إذ إن الهدف ليس كراهية الخصم، بل تحقيق العدالة».

واتهمت الحكومة الإسرائيلية البطريك الجديد بأنه يتدخل في السياسة وفي قضايا لا صلاحية له للكلام فيها، وانه منحاز إلى جهة دون أخرى. وكان جوابه علناً: ان العمل السياسي المباشر ليس من اختصاص الكنيسة. ولكن من واجب الكنيسة ان تبين وتندد بالسياسة التي تقرّر ظلم الناس، ومن واجب الكنيسة ومن صلاحياتها ان تدافع عن المظلوم أيّاً كان ظلمه وأياً كانت المجالات التي يظلم فيها. وأما في ما يختص بالانحياز، فكان رده أن الكنيسة لا تنحاز إلى أحد دون غيره، بل تنحاز إلى الفقير والمظلوم. والآن فالمظلوم هو

الشعب الفلسطيني، فلا بد من رفع هذا الظلم عنه. وكان يقول مخاطبته من الإسرائيليين: عندما يصبح الشعب اليهودي هو المظلوم، سنقف أيضاً إلى جانبه لرفع الظلم عنه. وكانت هذه الرسالة الراعوية الأولى التي أسمعت الكنيسة فيها صوتها في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. وقد كان للرسالة صدى وأثر إيجابياً في الأوساط السياسية نفسها.

وأما رسالته الراعوية الثالثة فهي رسالة قصيرة وجهها بمناسبة الصيام الأربعيني عام ١٩٩٠. وتناول فيها موضوع هجرة المسيحيين. وثمّ جاء فيها: «أمام ظاهرة الهجرة فانه من واجبتنا ان نقول: يجب ان تبثوا أمناء لوطنكم ولأرضكم وكنيستكم. فان الأيام الصعبة ليست أيام هرب، بل أيام ثبات وتضامن مع جميع من يتألمون ويتحملون الصعوبات. فكل سفر هو إضعاف للإخوة الباقين وهو إضعاف للوطن والكنيسة الباقية، والتي من واجبتنا ان تبقى حيث أرادها الله. . . والعيش في الأرض المقدسة هو دعوة وبركة ونعمة: دعوة توجه إلى النفوس القوية وإلى مواطنين يقتحمون الحياة الصعبة».

وتناول في الرسالة الرابعة التي نشرها في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٣ موضوع الكتاب المقدس والعهد القديم. وعنوان الرسالة «قراءة الكتاب المقدس في أرض الكتاب المقدس». عرض فيها موقف الفلسطيني المسيحي وتساؤلاته أمام العهد القديم، بسبب تسخير بعض الخصوم لكتاب الله وزجه بصورة تعسفية في الصراع السياسي. وقد طرح في بداية الرسالة ثلاثة أسئلة: «أولاً ما هي العلاقة بين

اضطهدته في شتاته. وفي نظره، يشكل الله والدولة والأرض مثلث أمنه وأمانه.

ولكن من جهة أخرى هذه الأرض نفسها هي منذ قرون ملك لشعب آخر هو الشعب الفلسطيني. ومنذ زمن التوراة أيضاً، بقيت هذه الأرض أرض شعب آخر عاش فيها جنباً إلى جنب مع الشعب اليهودي.

وهي بالإضافة إلى ذلك مهد المسيحية وموقع أحداثها الأساسية. فهي، بالنسبة إليها، الأرض المقدسة الأولى. وهي للإسلام أيضاً أرض مقدسة. إنها إذن أرض مقدسة لجميع المؤمنين من اليهود والمسيحيين والمسلمين... فهناك إذن شعبان لهما حقوق سياسية في الأرض، وللدينيات الثلاث تاريخها الديني في الأرض نفسها، وكلها من نسل إبراهيم من حيث النسب المادي أو الروحي. وقد وعد الله بالأرض لإبراهيم ونسله. فلن تكون الأرض؟

باسم الدين يحق للدينيات الثلاث حقاً متساوياً العيش في هذه الأرض أو التوجه إليها لأداء واجب العبادة فيها. وأما الحق السياسي فيها لأي دين من الأديان الثلاثة أو أي مؤمن من مؤمنها فهو متوقف على العمل السياسي الذي تقوم به السلطات السياسية المعنية. وهذا العمل يحكمه القانون الدولي. وقد لاقت هذه الرسالة قبولاً، لمواجهة الصريحة قضايا لم يتجرأ أحد على مواجهتها حتى اليوم، في العالمين العربي والغربي. ولاقت ردود فعل متحفظة من قبل بعض الجماعات التي تود الربط بين الكتاب المقدس والوقائع الراهنة اليوم.

وبالإضافة إلى اقتحام هذا المجال في الحياة العامة، فقد عمل البطريرك الجديد على متابعة

العهدين القديم والجديد؟ وثانياً ما تفسير قصص العنف الواردة في العهد القديم والمنسوبة إلى الله؟ وثالثاً، في العلاقات الحالية بين الإسرائيليين والفلسطينيين، كيف يمكننا ان نفهم أرض الميعاد والشعب المختار والعهد؟ أو من الممكن ان يفرض الإله العادل والرحيم الظلم والجور على شعب لصالح الشعب الذي اختاره؟».

وجاءت ردود فعل مختلفة على هذه الرسالة بعضها متحفظ جداً، ولا سيما من قبل جماعات الحوار المسيحي اليهودي وفي مفهوم الأرض بالذات. لأن البطريرك قال ان مفهوم الأرض «قد تطور في مختلف مراحل الوعي: ابتداء بالمعنى المادي والجغرافي والسياسي وانتهاء بالمعنى الروحي والرمزي، ولم تعد عبادة الله مقيدة بأرض بعينها. ليس هناك أرض محددة للعبادة. وليست الأرض القيمة الأولى والمطلقة. وإنما الأول هو الله سبحانه وتعالى وعبادته».

وفي ما يختص بحقوق الشعبين اليهودي والفلسطيني والدينيات الثلاث في أرض فلسطين، قال في ملخص كلامه: «السؤال الأساسي الذي يطرحه الفلسطيني المسيحي وكل مؤمن بالكتاب المقدس هو التالي: هل يعطي الكتاب المقدس اليوم وهو كلام الله الحق للشعب اليهودي ليمتلك الأرض ويخرج منها الشعب الفلسطيني؟»

ان اليهودي المؤمن - وكذلك الشعب اليهودي والدولة أيضاً - يجد نفسه أمام الموقف التالي: ان هذه الأرض هي أرض مقدسة له. وقد وعد بها الله إبراهيم ونسله. وفي هذه الأرض يجد اليوم أمنه في وجه الشعوب التي

تنظيم البطريركية الداخلي، ولا سيما التركيز على ضرورة تعمق العلماني في معرفة الإيمان واتخاذ دوره في الكنيسة والتزامه في الحياة العامة.

خاتمة

البطريركية اللاتينية الأورشليمية اليوم

البطريركية اللاتينية الأورشليمية اليوم (في بداية ١٩٩٥) تعدُّ نحو سبعين ألف مؤمن في الأردن وفلسطين وإسرائيل وقبرص. وقد يقابل هذا العدد عدد مماثل من الكاثوليك اللاتين الأجانب المقيمين في البلاد من العمال ورجال الأعمال والسفارات المختلفة. وفي إسرائيل أيضاً جماعة ناطقة باللغة العبرية، بعضهم يهود متصرّون وبعضهم ليسوا يهود ولكنهم يعيشون في الوسط الإسرائيلي اليهودي، ولغتهم اليومية كما ولغة الليتوانية هي اللغة العبرية. ويتبعون الطقس اللاتيني وهم جزء من الأبرشية. وعدددهم قليل لا يتجاوز المئات.

ويعدُّ الإكليرس البطريركي الأبرشي اليوم نحو خمسة وثمانين كاهناً. وفي الأبرشية أعداد كبيرة من الرهبان والراهبات، منهم من يتفرَّغ للعمل الأبرشي ويختلف الخدمات في الأبرشية من مؤسسات للصلاة والتعبّد ومدارس ومستشفيات ومؤسسات اجتماعية متنوّعة. ومنهم من يتفرَّغ لخدمات تختصُّ بالكنيسة الجامعة، كمعاهد الكتاب المقدّس واستقبال الحجّاج ومرافقتهم.

ويدير البطريركية اليوم بطريرك مقيم في القدس في البلدة القديمة، وهو المبني نفسه الذي أنشأه البطريرك العائد والمؤسس يوسف فالرغا. ويساعد البطريرك مطارنة مساعدون، أحدهم في القدس، والثاني نائب بطريركي عام للأردن، ويقوم في عمان، والثالث نائب بطريركي عام لإسرائيل، ويقوم في الناصرة. وفي قبرص أيضاً نائب بطريركي عام ليس أسقفًا. وهناك أيضاً نائب بطريركي خاص للجماعة الناطقة باللغة العبرية.

والبطريركية اللاتينية عضو في مجلس الأساقفة اللاتين في البلدان العربية. ويضمُّ هذا المجلس الأساقفة اللاتين في كل من الأردن وفلسطين وإسرائيل وسورية ولبنان والعراق ومصر والكويت وشبه الجزيرة العربية والصومال وجابوتي. وليس أعداد اللاتين في هذه البلدان متساوية. ففي بعضها لا يتجاوز بضعة ألوف. إلّا أن عدد اللاتين مرتفع جداً في الكويت وشبه الجزيرة العربية حيث يزيد على نصف المليون، وكلهم من العمالة الوافدة على تلك المناطق، منهم عرب من الشرق الأوسط ومنهم أجانب ولا سيما من الفلبين والهند.

والبطريركية اللاتينية عضو في مجلس رؤساء الكنائس الكاثوليكية في الأرض المقدّسة، وعضو في مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك. وهي أيضاً مع سائر الكنائس الكاثوليكية عضو في مجلس كنائس الشرق الأوسط.

عادت البطريركية اللاتينية إلى القدس في منتصف القرن التاسع عشر، ولقيت في عملها الرسولي نجاحاً وقبولاً بين الناس وفي المجتمع

الطرفين. وكان اثنان من البطارقة من الشخصيات الفرنسكانية المرموقة وهما لودفكو ييافي (١٨٨٩-١٩٠٥) وأبرتو غوري (١٩٤٩-١٩٧٠)، وقد تركا أثراً طيباً في العلاقات بين البطريركية وراهبية الفرنسكان.

ولكن ما هي أبعاد وجود كنيسة كاثوليكية لاتينية في الشرق؟ وما هي الميراثات التاريخية لهذا الوجود؟ هذه التساؤلات وغيرها أُثيرت في المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢-١٩٦٥)، وصدرت دراسات عديدة رداً على هذه التساؤلات، وعرضت أفكار متباينة تطرح تصورات متعددة لمستقبل الوجود الكاثوليكي في فلسطين. لا نريد ان نختم هذا العرض الموجز بإضافة صفحة جديدة إلى أدب الاعتراض على وجود البطريركية اللاتينية والردّ عليه، بل نكتفي بالقول ان البطريركية اللاتينية اليوم هي كنيسة محلية وعربية ياكليسها وأبنائها، وعلى عاتقهم تقع مسؤولية الاختيار والقرار.

وقد تمّ التوصل إلى هذا الطابع المحلي تدريجاً بكياسة وحكمة ويسر، وبفضل بعد نظر البطريرك العائد والمؤسس يوسف فالرغا. ففي عام ١٩٨٧ جلس على السدة البطريركية يعقوبية الأورشليمية البطريرك ميشيل الصباح كنتيجة حتمية لتطور ناضج ومدروس. ومع ذلك ما زال الإكليروس البطريركي يحوي بين صفوفه كهنة أبرشيين عرباً وأجانب وراهباناً من مختلف الجنسيات. وظلّت فكرة المؤسس قائمة وحية في نفوس أبنائه، ألا وهي فكرة الإكليروس البطريركي المختلط ببعديه المحلي

المسيحي والمسلم على السواء، في الأردن وفلسطين. والسبب في ذلك التفات البطارقة إلى حاجات المؤمنين الروحية والثقافية والاجتماعية، على الرغم من الظروف القاسية التي ألمت بهم وبمترسليهم. وقد أولوا جلّ عنايتهم لما فيه رفعة مسيحي الشرق. وراهن البطريرك فالرغا منذ البداية على الإكليروس المحلي، وكان هذا أيضاً من أسباب النجاح الرئيمة. فالبطريركية اللاتينية الأورشليمية في القرن العشرين أبرشية شرقية في كامل الشركة مع الكنيسة الكاثوليكية الجامعة.

عاش كهنة البطريركية واقع رعاياهم وعشائهم التي انحدروا منها، واختبروا ظروف المؤمنين الحياتية القاسية. فراقوا الجماعات المسيحية في حلّها وترحالها، يقيمون الصلاة ويفتحون المدارس في أقصى القرى ومضارب العربان في البادية، ممّا قربهم إلى أفئدة المؤمنين وحبّهم إليهم. وأتقن الكهنة الأجانب في الإكليروس البطريركي اللغة العربية وحتى اللهجات القروية والبديوية، وتوصلوا إلى سبر أغوار العقلية والمشاعر العربية. فصار الوجود المسيحي الكاثوليكي في فلسطين والأردن شعبياً وذا صبغة محلية.

وكان لراهبية الآباء الفرنسكان الفضل الكبير في البقاء في الأماكن المقدسة وفي رعاية المؤمنين حولها منذ العهد القديمة، وفي ظروف أدت أحياناً إلى الاستشهاد. ووجدت البطريركية اللاتينية مجالاً آخر للعمل كملت به عمل الرهبان وتضحياتهم عبر العصور. مرّت العلاقات بين الحراسة والبطريركية بمراحل حرجة في البداية، ثم تمّ التفاهم والتنسيق بين

والدولي، والتمسك بواقع الكنيسة المحلية من جهة، ومن جهة أخرى بعالمية كنيسة القدس «أم الكنائس»، وبنافتها على كنائس العالم فاطبة، لاحتوائها الأماكن المقدسة ولكونها قبلة كل مسيحي وتراثاً روحياً عالمياً.

وتسمى مختلف المجالس البطريركية والأسقفية الكاثوليكية والمسكونية المذكورة آنفاً في النظر معاً في هذه القضايا المصيرية المشتركة.

والمستقبل ماذا يكون؟

ان القضايا التي تواجه البطريركية اللاتينية اليوم هي القضايا نفسها التي تواجه سائر المسيحيين في الشرق. وهي قضية الهجرة وقضية العدد القليل والحوار والعيش المشترك مع العالم الإسلامي. وفي فلسطين وإسرائيل ما زالت قضية السلام والنزاع بين الشعبين اليهودي والفلسطيني قائمة، بالإضافة إلى قضية الحوار والعيش المشترك مع الشعب اليهودي والديانة اليهودية. وهناك أخيراً قضية وحدة المسيحيين في الشرق كله.

يكون بحسب ما يصنعه المسيحيون جميعاً قلباً واحداً ويداً واحدة. فأمام التحديات الكبيرة التي تواجهنا في العالم المعاصر لا يجوز للمسيحيين ان يبقى كل منهم مغلقاً على نفسه أو مدافعاً فقط عن تراثه والتقاليد الخاصة به. لأن الإيمان والليترجية والتقاليد الخاصة يجب ان تكون مصدر حياة لا جمود، ومصدر دفع إلى الخارج حتى يلتقي الجميع في خدمة الكنيسة والأوطان المختلفة، حيث يجب على كل كنيسة ان تتحمل مسؤولياتها تجاه الحاضر والمستقبل.

الكنيسة المارونيّة

بقلم الأب بولس صفيّر*

* عميد كليّة اللاهوت في جامعة الروح القدس
وحافظ المكتبة البطريركية المارونيّة

١. مهد المارونية ونشأة عقيدتها اللاهوتية^(١)

يُجمع المؤرّخون الثقات^(٢) على ان الموارنة هم، في امتداد جذورهم التاريخية، من الكنعانيين والآراميين الذين دانوا بالعقيدة المسيحية منذ الاجيال الأولى للنصرانية، وانتسبوا إلى القديس مارون الناسك كأب روحي، بعد ان اعتنق القسم الأكبر منهم الدين

المسيحي على يده ويد تلامذته النَّسَّك الأقدمين. وقد عاش القديس مارون فوق قِمة جبل قورش من جبل سورية الثانية في النصف الأخير من القرن الرابع، وتوفي براحة القداسة حوالي سنة ٤١٠.

ولكنّ الموارنة اشتهروا كمنظمة كنسية، لها تأثير روحي كبير، عندما تألّبو حول دير مار مارون الشهير، الكائن على ضفاف نهر

(١) أصدرت مجلة المنارة في مطلع سنة ١٩٨٥ عدداً خاصاً في ذكرى مرور ١٣٠٠ سنة على تأسيس البطريركية المارونية، يقع في ٣٤٤ صفحة، وفيه ٢٠ مقالاً تناول شتى جوانب تاريخ الطائفة منذ نشأتها حتى أيامنا الحاضرة. ويجد القارئ في هذه المقالات تبسّطاً في بعض النقاط التي نعالجها في هذا البحث. ولذلك نضرب صفحاً عن الاستشهاد بها في الحواشي محلين القارئ على هذه المراجع المذكورة.

(٢) راجع البطريرك اسطفانس الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية، نشرة رشيد الحوري الشرتوني، بيروت ١٨٩٠، تاريخ الأزمنة، نشرة الأب فردينان توتل اليسوعي ١٩٥٠؛ ونشرة الآبائي بطرس فهد، الكرم ١٩٧٦. المطران يوسف الدبس: الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصّل، بيروت ١٩٠٥. المطران

يوسف دريان: باب البراهين الجلية عن حقيقة أمر الطائفة المارونية، ١٩١١. الأب بطرس ضو: تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، ظهر منه ستة أجزاء (١٩٧٠-١٩٨٠)؛ ثم ظهر جزء باللغة الانكليزية ١٩٨٤، وترجمته باللغة الفرنسية ١٩٨٥. المطران مختايل ضوميط: الموارنة، بيروت ١٩٥٥. فؤاد اqram البستاني: مار مارون، بيروت ١٩٦٥. الدكتور كمال سليمان الصليبي: الموارنة، صورة تاريخية، ملفّ النهار، ١٩٦٩؛ متعلق تاريخ لبنان، بيروت ١٩٧٩. الأب بولس نعمان: المارونية بين الدين والدولة، رأي في نزاع الشرق الأوسط، الكسليك، ١٩٧٠، DIB, P.: *Histoire de l'Eglise Maronite*, 3 vols. Beyrouth, 1962-1973.

وجود طبيعتين كاملتين في شخص المسيح، قد لجأ إلى الرهبان والنسّاك تلامذة القديس مارون لمناصرته. فسعى، بعد رواج أفكاره ومساندة البابا لأون الكبير له، في بناء هذا الدير لهم بالقرب من أديرة آفاميا، حيث كانت تسيطر المدرسة الانطاكية والنظرية الثنائية لطبيعتي السيد المسيح. فشيدته على اسم القديس مارون^(٤). وسرعان ما تعاطم شأن هذا الدير بعد تحديد العقيدة الكاثوليكية في المجمع الخلقيدوني المنعقد سنة ٤٥١، وتأكيد وجود طبيعتين كاملتين في السيد المسيح، إلهية وإنسانية. فنبواً هذا الدير المركز الأول بين أديرة سورية الثانية، وأصبح «القلعة الوطيدة الاركان للعقيدة الكاثوليكية، بحسب التحديد الخلقيدوني»^(٥).



مار مارون

وانضوى، على اثر انعقاد هذا المجمع، عدد واف من المؤمنين المسيحيين المجاورين للدير وغيرهم من بقايا الشعوب المسيحية القديمة المنتشرة في أنحاء سورية الثانية وفي مناطق أخرى، تحت لواء المعتقد الكاثوليكي الخلقيدوني، واستناروا بتعاليم رهبانه في ممارسة شعائر إيمانهم وديانتهم المسيحية، وكانوا يلوذون بحمايتهم العقائدية والقومية كلما تعرّضوا لهزات الاضطهاد ومناوأة الاعداء. ومع توالي الأيام، سمّي هؤلاء المسيحيون

العاصي إلى الشرق من حماة وشيزر^(٣). وقد بنى هذا الدير، بحسب قول الجغرافي العربي أبي الفداء (١٢٧٣-١٣٣١)، الامبراطور مرقيانس سنة ٤٥٢، على اثر انعقاد المجمع الخلقيدوني. كان تيودوريطس، أسقف قورش المناهض للمدرسة الاسكندرية والمؤيد لعقيدة

عين أسقفاً على منطقة قورش الجبلية حيث تعرّف عن كتب إلى تلامذة القديس مارون، ولما كان الرأي العام الرهباني في مصر يميل بكامله إلى تعاليم المدرسة الاسكندرية، لم يبق لزعيم المدرسة الانطاكية سوى اللجوء إلى رفاقه القدامى رهبان دير النقرة قرب آفاميا، وإلى أصحابه الجدد، فسعى في بناء دير لهم، وشيدته على اسم القديس مارون».

(٣) هكذا حدّد موقعه المؤرّخ العربي الشهير الحسن بن علي السمرودي المتوفى سنة ٩٥٧، في كتابه، التيه والاشراف، طبعة باريس ١٨٩٦، ص ١٥٤.

(٤) راجع الأب بولس نعمان، المرجع المذكور ص ٩-١١، حيث يقول: «في سنة ٤١٦، قصد منطقة النقرة، قرب آفاميا، شاب انطاكي ثري اسمه تيودوريطس، فعاش في دير النقرة سبع سنوات، ثم

(٥) نعمان، المرجع السابق، ص ١١.

«موارنة» نسبة إلى دير مار مارون وسكانه، وكان معظمهم يقطن الأرياف حيث توجد مساحات زراعية شاسعة، وكانت اللغة السريانية، وهي فصحي اللغة الآرامية، لغة الطقس الكنسي عندهم^(٦).

وأما نسبة انتماء المسيحيين الخلقيدونيين إلى دير مار مارون وعقيدة سكانه، فكانت مرتفعة في نواحي حمص وحماة وآفاميا وشيزر، كما كانت مرتفعة في الوقت نفسه في بعض المناطق الشمالية الساحلية في لبنان، وبوجه التحديد في مناطق عرقا وطرابلس وبعض مدن وقرى بلاد جبيل والبترون. فألف هؤلاء المسيحيون نواة الكنيسة المارونية. وظلت العلاقة بين هذه المناطق ودير مار مارون وثيقة طيلة الاجيال الخمسة الأولى من تاريخ المارونية، وظل هذا الدير يتمتع بزعامة روحية وعقائدية كبيرة حتى خرب مع الزمن «بتواتر الفتن من الاعراب وحيف السلطان»^(٧)، حوالى منتصف الجليل العاشر. فيعتبر هذا الدير بحق مهد المارونية، وتعتبر نشأة الفطرة المارونية متجسدة منذ البداية في المعتقد الخلقيدوني الكاثوليكي والفكر اللاهوتي الانطاكي.

٢. تطور المارونية من عقيدة إلى قومية مناضلة

بعد الفتح الاسلامي، وبوجه التحديد، في الفترة الممتدة بين سنة ٦٣٤ وسنة ٦٤٤، تراجع المسيحيون أمام المسلمين في سورية ومصر والبلدان المجاورة لهم. ففرق شملهم

وأرغم العديد منهم، من جراء الاضطهاد والمنازعات، على ترك المدن الكبيرة والهرب إلى الجبال والأرياف النائية، ومنها جبال لبنان الشاهقة وأوديته السحيقة. فأصاب الموارنة الساكنين قرب دير مار مارون ما أصاب بقية المؤمنين القاطنين في الشام وحلب وحمص وحماة واللاذقية. وهذا ما حملهم على أخذ موقف الدفاع عن النفس. فتحول، على الأثر، انتماءهم من معتقد كاثوليكي وفكر لاهوتي إلى شبه قومية في نطاق طائفة مناضلة ومرتبطة بوطن معين، هو لبنان. أما الاسباب الداعية إلى ذلك فمعروفة، ويرجع معظمها إلى فرض اعتناق الدين الاسلامي على الشعوب المسيحية. فقوبل هذا الضغط بالمقاومة والرفض من قبل الموارنة، كما قوبل قبله بالرفض استبدال معتقدهم المسيحي الخلقيدوني بأي معتقد مسيحي آخر، والتنازل عن لغتهم السريانية وحضارتهم الآرامية لصالح أية حضارة أو لغة أخرى.

وظلت الحملات الاسلامية تتوالى على الموارنة في مناطق سورية طيلة الفتح العربي، وكانوا هم يجابهون الاضطهاد بالثبات والتصدي والاستشهاد. ولكن، عندما ضاقت بهم سبل العيش في سورية، آثروا النزوح عنها والتخلي عن تلك السهول الخصبة في سبيل المحافظة على حرية معتقدهم المسيحي وكرامتهم الانسانية. فولوا وجوههم شطر لبنان الشمالي، وسلكوا، من جملة ما سلكوا من طرق، لدى

(٧) المسعودي، المرجع السابق، ص ١٢١.

(٦) راجع كمال الصليبي: منطلق تاريخ لبنان،

ينتسبون إلى رهبان دير مار مارون ويدينون بعقيدتهم الكاثوليكية والانطاكية. وهؤلاء المسيحيون قاموا على السواحل اللبنانية وفي مناطق أخرى من لبنان، منذ فجر النصرانية بعدما بشر الرسل الساحل الفينيقي لدى مجيئهم من أورشليم إلى انطاكية، مروراً بصور وصيدا وبيروت وجبل وطرابلس. ومع مرور الزمن، أضيف إليهم مسيحيون آخرون كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي في الجبال العالية على أثر تبشير تلامذة مار مارون، كإبراهيم الناسك (٤٢٨٤) (١٠)، وتلامذة مار سمعان العمودي (٤٥٩٤). فانصهر هؤلاء المسيحيون اللبنانيون مع إخوانهم المسيحيين الخلقيدونيين الذين سموا موارنة، وأتوا من مناطق سورية الثانية على أثر الاضطهادات والمنازعات في وحدة مترابطة في جبل لبنان، بعدما وثقت فيما بينهم العقيدة واللغة الطقسية والصمود في مجابهة سوء المصير.

٣. نشأة البطريكية المارونية

بعد الفتح الإسلامي، كان الموارنة، كمجموعة مسيحية، تابعين للبطريك الملكي الجالس على الكرسي الانطاكي. ولفظة «مَلَكِي» هنا تعني نسبة البطاركة الانطاكيين إلى

تاريخ الموارنة، الجزء الأول، ص ٨٤-٩٠، و٢١٥-٢١٦. أما المطران بطرس ديب فيؤكد، في مؤلفه المذكور بالفرنسية، الجزء الأول، ص ٧٠، ان الهجرة المارونية من سورية إلى لبنان تمت على دفعات متقطعة، منذ الجيل السابع حتى العاشر، دون ان يشير، ولو بطريق العرض، إلى وجود ماروني سابق في لبنان.

جلائهم عن مواطنهم القديمة في سورية، طريق ضفاف الأنهر حتى وصلوا إلى منبع نهر العاصي في الهرمل، حيث لا تزال آثارهم ظاهرة هناك حتى يومنا هذا. ومن منطقة الهرمل، تسلقوا جبال الأرز وخطوا رحالهم في أماكن عديدة من مناطق لبنان الشمالي، واستوطنوا بوجه خاص منطقة الجبّة ووادي قاديشا وقنوين (٨). فألقوا في تلك المنطقة أمة لها عاداتها وتقاليدها ونزعتها إلى الاستقلال، وحفظوا كيانهم بفضل تماسكهم والتفافهم حول بطاركتهم وأساقفتهم وكهنتهم ونسآكهم. وهذا ما أشار إليه فنصل فرنسا رستلهوير، في بيروت، قال: «ما ان اعتصم الموارنة في جبالهم، حتى ألقوا أمة على نصيب كبير من الاستقلال. فقد تمكّنوا، في ظلال جبالهم العالية والعصية، من صدّ الزحف العربي، حتى أصبح لبنان وكأنه قلعة مسيحية طبيعية. وقد تنظّموا بإدارة اكليسهم وكبار ملاكيهم تنظيمًا اقطاعيًا قويًا، ولّد عندهم شعورًا قوميًا وطنيًا، ظهر في تعلق كل فرد منهم بشخص السيد البطريك، وما كان أقوى هذا الشعور بأن الملّمات في وجه العدو المشترك (٩)».

وما لا شكّ فيه انه كان في لبنان الشمالي، قبل الفتح العربي، مسيحيون

(٨) راجع نعمان، المرجع السابق، ص ١٢.

(٩) RISTELHUEBER, R.: *Traditions françaises au Liban*, Paris 1918, pp. 12-13. الكتاب ترجمة عربية بقلم القس بولس عبّود: تقاليد فرنسا في لبنان، بيروت ١٩١٨.

(١٠) لمزيد من المعلومات عن نشاط تلامذة القديس مارون الرسولي، راجع الأب بطرس ضو:

شرعية - في الفترة التي سبقت نشأة البطريركية
المارونية، هؤلاء البطارقة، وهم (١٢):

(١) مقدونيوس من ٦٤٠ حتى ٦٦٥ .
أقام في القسطنطينية وحرمه البابا مرتين
الأول، لأنه حمل لقب بطريك أنطاكية دون
ان يكون بطريكاً شرعياً، ولم يتمكن بسبب
الحروب المتواصلة بين العرب والبيزنطيين من
الدخول إلى انطاكية، فمات قبل تسلّم زمام
سلطتها الروحية .

(٢) مقاريوس من ٦٦٥ حتى ٦٨٠ . أقام
في القسطنطينية أيضاً، وحرمه المجمع المسكوني
السادس المنعقد في القسطنطينية ٦٨٠، لتمسكه
ببدعة المشيعة الواحدة. فلم يتمكن هو الآخر
من الدخول إلى كرسي انطاكية. فأقاله المجمع
وانتخب مكانه بطريكاً آخر يدعى تاوفانس .

(٣) تاوفانس من ٦٨٠ حتى ٦٨٥ . وهذا
أيضاً، بالرغم من شرعية انتخابه، لم يتمكن
من دخول البطريركية الانطاكية ومن تسلّم
زمام أمورها وسلطتها الروحية. فظلّ في
القسطنطينية حتى وفاته في أواخر ٦٨٥ .

كان من الطبيعي، بعد شغور الكرسي
الانطاكي من بطارقة شرعيين يقيمون بين أبناء
كنيستهم، ان يؤدي هذا الوضع الشاذ إلى
انتخاب بطريك أصيل وشرعي يقيم في نطاق
البطريركية الانطاكية، ويسهر على مصالح
المؤمنين فيها، ويحامي عن معتقدتهم السليم
ويشدّد عزائمهم أبان حملات الاضطهاد

ملك الروم في القسطنطينية. غير ان العلاقة
بينهم وبين هذا البطريرك لم تكن دائماً وثيقة
وحسنة، بسبب الفوارق الاجتماعية العميقة من
جهة، واللغة اليونانية التي هي لغة أهل الحكم
من جهة أخرى. ولما اضطّر الروم، على أثر
الفتح الاسلامي ٦٣٤، إلى الخروج من بلاد
الشام، ولم يعودوا قادرين على التحكم
بمصرهم والاهتمام بأمور دينهم وديارهم،
خرج البطارقة الملكيون أيضاً من انطاكية، ولم
يستطيعوا البقاء فيها بسبب الحروب
والمنازعات. فلجأ بعضهم إلى القسطنطينية
واستقروا فيها نهائياً، ولم يبق لهم من رئاسة
الكنيسة الانطاكية سوى الاسم فقط. فأقاموا
هكذا في أمكنة نائية وبعيدة عن كرسيم
الأصيل وعن أبناء كنيستهم ورعاياهم الذين
مكثوا في انطاكية ومناطق سورية المترامية
الأطراف، مشتتين كخراف لا راعي لها.
ونتيجة لهذا الخلل، وبسبب التعسف الديني
والجور والاضطهاد، شغل الكرسي الانطاكي
من بطريك شرعي، بعد وفاة البطريرك الأصيل
انستازيوس في أيلول (سبتمبر) ٦٠٩ . ولم
يُنتخب بعده أي بطريك آخر بطريقة شرعية
وقانونية (١١)، بل كان الملوك البيزنطيون يعيّنون
بعض الأحيان بطارقة اسميين فقط لانطاكية.
وكان هؤلاء يقيمون في القسطنطينية، دون ان
تطأ أقدامهم أرض البطريركية الانطاكية.
وتعاقب على الكرسي الانطاكي - بطريقة غير

Cf. PIETRO J. SFEIR: *La Messa Siro-* (١٢)
Maronita, Roma 1949, pp. 119-122، وطرس ضو،
المرجع السابق، الجزء الأول، ص ٣٣٢-٣٣٥ .

(١١) حول ظروف شغور الكرسي الانطاكي
راجع الأب بطرس فهد: حول كتاب الهدى وتاريخ
الطائفة المارونية، جونه ١٩٥٤، ص ٩٣ .

أخرى من سورية الثانية، ومعهم القسم الأكبر من المسيحيين الخلقيدونيين، على رفض الأمر الواقع بتعيين خلف للبطريرك الشرعي تاوفانس من قبل الملوك البيزنطيين. فاجتمعوا في أواخر ٦٨٥ وأوائل ٦٨٦ (١٣)، وانتخبوا رئيس كهنتهم المدعو يوحنا مارون السرومي (١٤)، بطريركا شرعياً على كرسي انطاكية.



القديس يوحنا مارون

وتفيد التواريخ المارونية القديمة التي وردت عند علماء الطائفة المارونية ومؤرخيها (١٥) ان البطريرك القديس يوحنا مارون كان في عداد الرهبان الذين حضروا جلسة الحوار الجدلي التي جرت في مجلس معاوية، حول المعتقد الكاثوليكي الصحيح، بين الاساقفة اليعاقبة وتلامذة مار مارون وأنصاره في السنة الرابعة عشرة للملك قسطنس الثاني (١٦). ولما غلب أساقفة اليعاقبة على أمرهم في هذا الحوار، أمر معاوية بأن يدفعوا له عشرين ألف دينار في السنة لئلا يكفّ يده عنهم، فيتعبهم عندئذ أنصار القديس مارون. وبعد هذا الحوار الجدلي، تفيد

والمنازعات. وهذا ما حمل الإكليروس الماروني والمؤمنين الموارنة المنتشرين حول دير مار مارون على ضفاف العاصي والموجودين في مناطق

بواسطة نائبه يوحنا أسقف فيلادلفيا.

(١٤) السرومي نسبة إلى بلدة سروم التي تقع في جبل اللكام بالسويدية القريبة من انطاكية.

(١٥) راجع، المطران يوسف دريان: أصل الجراجمة والمردة والموارنة، ص ٣٨؛ الخوري ميخائيل عبد الله غيرثيل: تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية، مج ١، بعداً ١٩٠٠، ص ٢٥٥ وما بعدها؛ فهد، المرجع السابق، ص ٨٨.

(١٦) اكتشف هذا الحوار الجدلي العالم الألماني Noldeke، ونشره في المجلة الاسورية Zong، وقد عربيه معلقاً عليه الأب هنري لامنس في «المشرق» ١٨٩٩، ص ٢٦٥.

(١٣) اختلف المؤرخون في تحديد سنة ارتقاء القديس يوحنا مارون الكرسي الانطاكي. فمنهم من قال انه انتخب في انطاكية في مجمع الاساقفة بإجماع الاصوات سنة ٦٨٥، ومنهم من ذكر انه ذهب إلى رومة، فأقامه البابا سرجيوس، الانطاكي الاصل، بطريركاً على انطاكية حوالي ٦٨٧، ومنهم من ربط تاريخ إقامته بطريركاً بتاريخ الانفصال الذي حصل في الشام بين الملكين الموالين للروم والموارنة أتباع القديس مارون، في العام الأول أو الثاني من خلافة يزيد بن معاوية (٦٨٠-٦٨٣). ومنهم من قال، وهو الأرجح في رأينا، ان الاكليروس والشعب الماروني أقاموه بطريركاً عليهم بعد وفاة البطريرك الشرعي تاوفانس في أواخر ٦٨٥ وأوائل ٦٨٦، فنتبّه البابا سرجيوس

البتريك الأول القديس يوحنا مارون، فتعود إلى كتاب الهدى، دستور الموارد وناموسهم في العصور الوسطى، حيث تذكر هذه الوثيقة صراحة، في الفصل الثاني من القسم الأول، وفي معرض الكلام عن قانون الايمان، أسماء «فرق» المسيحيين الخمس، فتقول ما حرفيته: «فأول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة، الفرقة المنسوبة إلى آريوس. ثم النسبورية وهي المنسوبة إلى نسطور. ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى بردعا، ولذلك يقال له يعقوب البرادعي. ثم الملكية المنسوبة إلى الملك قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل. ثم المارونية وهي منسوبة إلى مارون يوحنا بطريك انطاكية العظمى» (١٩).

وهذه الوثيقة، التي ترجع إلى سنة ١٠٥٩، لا يسبقها زمناً، إضافة إلى كلام تلمحري المذكور، إلا إشارة واضحة وأكدية وردت في صلب قانون إيمان النصارى، على لسان ابن نصير مؤسس هذه الديانة في القرن التاسع. ففي نصوص القدّاس الثالث للنصارى المعروف بالأذان، يذكر ابن نصير هذه «اللغات» التي يقذف بها كل من لا يعترف بألوهية الامام علي ابن أبي طالب، فيقول: «والعن أبا بكر وعمر ومعاوية... وأجعل للجنة على يوحنا مارون البتريك المعون» (٢٠).

المخطوط الغاتيكاني السرياني، رقم ١٢٣، معارضاً إياه بنصوص عدّة مخطوطات أخرى قديمة. وأما تاريخ نسخ هذا المخطوط فيعود إلى ١٤٠٢.

(٢٠) سليمان أنندي الاذني: كتاب الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصرانية، (بدون تاريخ)، ص ٤٥.

التواريخ عينها ان يوحنا مارون أقيم أسقفًا على البترون سنة ٦٧٦، وثبت من قبل النائب الرسولي لبتريكيتي انطاكية وأورشليم، السيد يوحنا مطران فيلادلفيا (عمان حالياً) الذي كان قد عينه الكرسي الرسولي نائباً له سنة ٦٤٩، حفاظاً على النظام الكنسي في الشرق المسيحي. فأظهر القديس يوحنا مارون، بعد ارتقائه إلى الدرجة الاسقفية، غيرة متقدة على حفظ الايمان الكاثوليكي وتوطيد دعائمه ومناصرة تعاليم الجامع المسكونية. وتوصل، بعلمه وتقواه، إلى هداية الكثيرين إلى الايمان الحق (١٧).

ولم يطل الوقت بعد ارتقاء يوحنا مارون السدة البتريكية الانطاكية، حتى أخذت تظهر في الكتب والمصادر التاريخية معلومات عن نشأة البتريكية المارونية، وترقية الأساقفة والبطاركة فيها. وكان أول من ألمح إلى انتخاب البطاركة والاساقفة لدى الموارد، في منتصف القرن الثامن، البتريك اليعقوبي ديونيسيوس تلمحري، عندما روى حادثاً تاريخياً جرى في دير مار مارون سنة ٧٤٥، قال: «وظلّ الموارد، كما هم الآن، يتخبون بطريكاً ويرسمون أساقفة من جمهور ديرهم» (١٨).

وأما أقدم وثيقة مارونية تاريخية عن

J. ASSEMANI: *Bibliotheca Orientalis*, (١٧) I, Roma 1719, p. 499.

Chronique de Michel le Syrien, trad. J.B. (١٨) CHABOT, Paris, 1901, t. I, p. 467.

(١٩) الأخ بطرس تامر فهد: كتاب الهدى، حلب ١٩٣٥، ص ٣٧-٣٨. لقد اعتمد الناشر

جرجس من قرية بسبل الذي توفي سنة ١٦٧٠، وقد نسخها داود بن إبراهيم سنة ١٦٢٤ لليونان، أي سنة ١٣١٣ للمسيح. فتكون أقدم من تحرير ابن القلاعي بمئة واثنتين وثمانين سنة^(٢٢).

٤. الموارنة في عهد الصليبيين

بعد لجوء الموارنة إلى لبنان واستيطانهم في مناطق الشمال، انقطعوا لفترة غير قصيرة عن أجواء الاضطرابات، ورفع عنهم كابوس المخن والتكبات، فراحوا يهتمون بتنظيم أوضاعهم الدينية والاجتماعية والسياسية، مؤثرين شطف العيش، في جبال لبنان الجرداء ووديانه السحيقة، على رحيه في سهول سورية الحصبة والمترامية الأطراف. فالتفوا، أولاً، حول بطاريكتهم ورؤسائهم الروحانيين الذين كانوا لهم مرجعاً في كل شيء. ثم بدأوا ينظمون حياتهم القروية وشعائر عباداتهم الدينية. فاهتموا ببناء الكنائس والأديار إلى جانب تعمير القرى وتشيد البيوت. ومن الكنائس التي بنيت في منتصف القرن الثامن كنيسة مار ماما في اهدن التي يرقى بناؤها إلى سنة ٧٤٩^(٢٣). ومع الوقت، أصبح الموارنة شعباً قوياً الايمان متراصاً الصفوف، شديد المراس، حريصاً على

فهذه الوثائق والمستندات التاريخية تدعم إلى حد بعيد تأكيد مؤرخي الموارنة وعلمائهم المستمر على نشأة البطريركية المارونية في نهاية القرن السابع، وإقامة أول بطريرك منهم على كرسي انطاكية، في شخص يوحنا مارون الذي عاش في لبنان وقضى حياته مجاهداً في تثبيت إيمان أبنائه على المعتقد الكاثوليكي السليم، ثم انتقل من هذه الحياة سنة ٧٠٧، ودفن في دير في كفرحي في منطقة البترون الوسطى.

وتعاقب بعده على الكرسي الانطاكي حتى اليوم ٧٥ بطريركاً^(٢٤). وكان أول من اهتم بجمع المعلومات التاريخية عن سلسلة بطاركة الموارنة الانطاكيين، البطريرك العلامة اسطفانس الدويهي (١٦٧٠-١٧٠٤) فهذا البطريرك الكبير يقول عن البطاركة الخمسة الأوائل، وفي مقدمتهم البطريرك يوحنا مارون ما يلي: «ان هؤلاء البطاركة الخمسة: يوحنا مارون، قورش، جبرائيل، ويوحنا مارون الثاني، ويوحنا الدلصاوي، أمرهم واضح من الرسالة التي أرسلها سنة ١٤٩٥ جبرائيل ابن القلاعي إلى القس جرجس بن بشاره في الفصل الحادي عشر. ووجدنا ذكرهم أيضاً في كراسة سرانية كانت عند سالفنا المغفور له البطريرك

بحرفتها الأب يوسف محفوظ: مختصر تاريخ الكنيسة المارونية، الكسليك ١٩٨٤، ص ٣٩-٥٥.

(٢٢) فهد، المرجع السابق، ص ٩١ دريان، المرجع السابق، ص ٤٤٢ ديب، المرجع السابق، ص ١٤٧-١٤٩.

(٢٣) راجع ديب، المرجع السابق، ص ٧١، فهد، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٢٤) تصرف النظر، حياً للاختصار، عن إعادة نشر سلسلة البطاركة الموارنة. وإنما نشير هنا إلى انه، بالإضافة إلى السلسلة التي وضعها الدويهي، هناك سلاسل أخرى منشورة للسمعاني والعنيسي والبطريرك بولس مسعد، وهي تختلف بعضها عن بعض قليلاً. ونحيل القارئ إلى تلك التي نشرناها في مجلة «الفصول اللبنانية» ٣ (١٩٨٠)، ص ١٠٢-١٠٧ وقد اعتمدها

وساعدت الروم على استرجاع الجزء الغربي من بلاد الأناضول من السلاجقة. ثم دخلت بلاد الشام، فاحتلت انطاكية والرها، ثم توجهت جنوباً نحو القدس. وفي ربيع ١٠٩٩، وصل الصليبيون إلى عرقا قرب طرابلس، فمروا بالساحل القينيقي الممتد بين طرابلس وجبيل، سالكين طريق البحر. فنزلت وفود الموارنة لاستقبالهم، وتمّ هناك اللقاء الأول يوم عيد الفصح في ١٠ نيسان (أبريل) من تلك السنة. وكان هذا اللقاء بين الموارنة والصليبيين فاتحة عهد مساندة ووفاق. تصادق الفريقان، واستمرت علاقات الود والمصالح المشتركة وثيقة طوال وجود الصليبيين في الشرق^(٢٤).

وفي صيف ١٠٩٩، احتلّ الصليبيون مدينة القدس، ثمّ تحوّل فريق منهم شمالاً، فاستولوا على مدينة جبيل الفينيقية ١١٠٢، وأخضع مدينة طرابلس ١١٠٩. وتأسست هكذا مع الوقت في الساحل الفينيقي الشمالي وبعض مناطق الجبّة وطرابلس امارّة صليبيّة امتدّت تخومها من فروح كسروان جنوباً إلى منطقة اللاذقية شمالاً، ومن مشارف وادي العاصي شرقاً إلى البحر غرباً. فشملت هذه الامارة معظم المناطق المارونية من جبل لبنان.

ولمّا أحكم الصليبيون سيطرتهم على بلاد الشام، تعزّزت العلاقات بينهم وبين الموارنة من جهة، وبين بطاركة هؤلاء وأساقفتهم ورومة من جهة ثانية. فانتعشت في هذه الحقبة حربيّة إقامة الشعائر الدينية، وتوطّدت العلاقات مع الكرسي الرسولي، وقد تجلّى ذلك في المظاهر الآتية:

كيانه ومبادئ ديانتها، ماهراً في القتال وعينياً في الدفاع عن النفس. فبرزت، على الأثر، البطريركية المارونية، وكأنها مؤسسة كنسيّة دينيّة مستمرة، ذات سلطة روحية ونفوذ زمني كبير تجاوز لبنان إلى المشرق. فكان البطاركة والأساقفة يعيشون إلى جانب أبناء شعبهم القروي الكادح بيساطة ووداعة، يقاسمون شظف العيش ويشاركونه في الأفراح والأحزان، ويقومون بمهام الرعاية والقيادة والتدبير. فيرشدونه في أموره الروحية والزمنية، ويسهرون على مصالحه، مؤمنين له حرية التصرف وأخذ المبادرات في تقرير المصير والانفتاح على بقية الأديان والمذاهب والحضارات.

وحدث، بعد نزوح الموارنة إلى لبنان، ان الخلفاء الفاطميين في مصر تمكّنوا، في منتصف القرن العاشر، من طرد الروم من سورية ففقدت هذه البلاد تحت سيطرة المسلمين، وتعرّض المسيحيّون آنذاك لموجة قاسية من الاضطهادات، وظهر الضعف في دولة الروم. فاضطرّ أباطرة القسطنطينية إلى طلب النجدة من الغرب المسيحي. فلبّت كنيسة رومة النداء، ودعت الملوك وأمراء الفرنجة إلى تنظيم حملات عسكريّة على نطاق واسع، هدفها نجدة الروم ضد السلاجقة من جهة واستعادة الأماكن المقدّسة في فلسطين من جهة أخرى. وسُمّيت هذه الحملات فيما بعد بالحملات الصليبيّة. وفي سنة ١٠٩٦، بدأت جيوش الصليبيين تتحرّك نحو القسطنطينية. فوصلتها برّاً وبحراً

(٢٤) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص ١٦.

والممثلين البابويين إلى البطارقة الموارنة في أيام هذا البطريرك وخلفه غريغوريوس الحالاتي .

توجت علاقات البطارقة الموارنة بالأخبار الأعظمين في أيام الصليبيين ، عندما وجه البابا اينوقنطوس الثالث دعوة خاصة إلى البطريرك إرميا العمشيتي لحضور المجمع المسكوني اللاتراني سنة ١٢١٥ . قلبى البطريرك الدعوة ، وسافر إلى المجمع وحضر بعض جلساته ، وكان أول بطريرك يزور الأعتاب الرسولية (٢٧) .

٥ . الموارنة في عهد المماليك

لم يدم عهد الصليبيين ، الذي أخذ يتقلص أمام حكم المماليك ، أكثر من مئة وخمسين سنة في الشرق . ولم ينعم الموارنة طيلة هذه المدة بأيام رخاء وسلام ، كما كانوا يأملون . بل كانت لهم مواقف متناقضة من القرنجة بحيث كان يناصرهم فريق ويخاصمهم فريق آخر . ولكن هذا التناقض في المواقف لم يوقر عليهم نقمة المماليك الذين عرفوا بعدائهم المتواصل للموارنة أصدقاء الصليبيين . وتحتّم على رؤساء الطائفة وأبنائها ان يدفعوا غالياً ثمن صداقاتهم للقرنجة .

دُعيت دولة المماليك في زمانها دولة الاتراك من ١٢٥٠ حتى ١٣٨٢ ، ثم دولة الجراكمة ، من ١٣٨٢ حتى ١٥١٦ . فكان

أولاً - بدأ الموارنة ينون الكنائس بحرية تامة ويشيدون الأديرة في مختلف المدن الساحلية والقرى الجبلية ، وأخذوا ، منذ ذلك الحين ، «يدقون في أجراس من نحاس للصلاة والقداس الإلهي بدلاً من الخشب ، لأن الدول الاسلامية كانت تمنع رعاياها المسيحيين من استعمال الاجراس النحاسية وتجبرهم على الاستعاضة عنها بنواقيس من خشب» (٢٥) .

ثانياً - ازداد الموارنة تقريباً من كنيسة رومة والأخبار الأعظمين ، بعد ان تأمنت لهم طرق المواصلات ، وأزيل خطر القرصنة البحرية ، وأبعد عنهم حتى الخلفاء والولاة المسلمين . وقد توطلدت هذه العلاقات بتبادل الرسائل بين الفريقين من جهة ، بعد ان بلغت رسائل الأخبار الأعظمين إلى بطارقة الموارنة ، ما فوق الخمس عشرة رسالة في عهد الصليبيين وبعده بقليل (٢٦) ، وبإيفاد القصاد والممثلين بين الفريقين من جهة ثانية . وكان البطريرك يوسف الجرجسي ، المقيم في دير سيدة يانوح سنة ١٠٩٩ ، أول من سعى إلى هذا التقرب بإيفاده من يمثله مع الوفد الصليبي الذي ذهب إلى رومة ليزف إلى البابا اربانس الثاني بشرى احتلال القدس . ولما عاد ممثل البطريرك من رومة حمل له من عند قداسة أبي المؤمنين تاجاً وعصا . وبالمقابل ، تكرر إيفاد القصاد الرسولين

(٢٥) راجع الدويهي: تاريخ الأزمنة ، طبعة فهد ، ص ١٠٤ .

(٢٦) هذا ما أكدته جبرائيل ابن القلاعي في رسالته إلى البطريرك سمعان الحدشي سنة ١٤٩٤ .

(٢٧) روى ابن القلاعي والدويهي ان البطريرك إرميا العمشيتي كان يقنّس يوماً في حضرة البابا

اينوقنطوس ، ولما انتهى إلي رفع القربان فوق رأسه أبان الذبيحة الإلهية ، بقي مرتفعا في الفضاء ، فعظمت قداسة البطريرك لدى البابا ، وأمر بنقش صورة هذه الآية على جدار كنيسة مار بطرس القديمة . راجع المطران يوسف الدبس: الجامع المقتصد ، ص ١٩٩ .

والصندي لها البطريرك دانيال الحدشيتي بنفسه (٢٩). فأوقف جيوش المماليك أمام اهدن أربعين يوماً، ولم يتمكنوا منها إلا بعدما حاولوا إمساكه بالحيلة. فأخذوا اهدن، وهدموا قلعتها في حزيران (يونيو)، ثم سارت فرق التركمان في تلك المنطقة من بلدة إلى بلدة، مطاردة البطريرك ومن معه، حتى وصلت إلى الحدث في ٢٢ آب (أغسطس) من تلك السنة. فحاصرتها بضعة أيام، ثم استولت على قلعتها وأخذت البطريرك الحدشيتي أسيراً. بعدما خلقت وراءها القتلى بالمئات، وأطلقت يدها في النهب والاستيلاء على الارزاق والممتلكات. وقد وصف لنا ابن عبد الظاهر الذي كتب سيرة السلطان قلاوون هذه الحادثة، قال: «اتفق ان في بلاد طرابلس بطركاً عتا وتجبّر واستطال وتكبر وأخاف صاحب طرابلس وجميع الفرنجة، واستغوى أهل تلك الجبال وأهل تلك الاهوية من ذوي الضلال، واستمر أمره حتى خافه كل مجاور. وتحصن في الحدث وشمخ بأنفه، وما قدر أحد على التحيل عليه من بين يديه ولا من خلفه. ولولا خوفه من سطوة مولانا السلطان لخرّب تلك البلاد، وفعل ذلك أو كاد. فاتفق ان التوآب ترصدوه مراراً فما وجدوه. فقصدته التركمان في مكانه وتحيلوا عليه حتى أمسكوه وأحضره أسيراً حميماً. وكان من دعاة الكفر

يؤكد مؤرخو الموارنة جميعهم انه دانيال الحدشيتي؛ راجع الأب أنطوان ضو: «دور البطريركية المارونية في السياسة اللبنانية» مجلة الفصول، ٣، (١٩٨٠)، ص ٩٣؛ الجوراسقف يوسف داغر. بطارقة الموارنة، بيروت ١٩٥٧، ص ٣٤.

السلطين يقيمون في القاهرة، وتميزت دولتهم بالتنظيم الاداري المتقن. وبعد ان أحكموا السيطرة على بلاد الشام، قسموها إلى ست ممالك، بينها مملكة طرابلس. فجعلوا على رأس كل مملكة نائباً للسلطان قابلاً للعزل. وكانت القرارات السياسية تصدر من القاهرة، فيطبّقها نوآب السلطان كلّ في مملكته. وشملت مملكة طرابلس كامل الامارة الصليبية التي كانت تمتدّ من فتوح كسروان جنوباً إلى منطقة اللاذقية شمالاً، والتي كان يقطنها الموارنة في غالبية مناطقها (٢٨). ولما راحت معاقل الصليبيين تسقط الواحدة تلو الأخرى في منتصف القرن الثالث عشر، أمام زحف جيوش المماليك، كانت امارة طرابلس آخر ما تبقى للفرنجية في بلاد الشام. فأغاروا عليهم مرتين في عهد السلطان بيبرس، وأخذوا القلعات في سهل عكار، وهدموا قلعتها سنة ١٢٦٤. وكان المماليك يتحينون الفرص للنيل من الموارنة والقبض عليهم والتكيل بهم. فراحوا يسومونهم أمر العذابات ويضطهدونهم مضيعين عليهم، بالحد من حريتهم وتنقلاتهم، قاطعين طريق البر والبحر عليهم.

وفي شهر أيار (مايو) ١٢٨٢، حرّض المماليك فرقاً من التركمان للإغارة على جبة بشري. ولما حاولوا الدخول إليها عن طريق اهدن، قاد رجال الدفاع لمواجهة تلك الغارة

(٢٨) راجع الصليبي: منطلق تاريخ لبنان، ص

١٢٥.

(٢٩) ورد عند الدكتور كمال الصليبي في مقاله المذكور أعلاه ص ١٩، ان البطريرك الذي قاد رجال الدفاع لمواجهة المماليك هو لوقا البهناني، في حين

وطواغيهم. واستراح المسلمون منه وأمنوا شره. وكان امسাকে فتوحاً عظيماً، أعظم من افتتاح حصن أو قلعة، وكفى الله مكره» (٣٠).

ولم يكن البطريرك الخلدشيتي ضحية اضطهاد المماليك وجورهم وتصفهم الوحيدة، بل قبض المماليك على البطريرك جبرائيل حججولا وأماتوه حرقاً في النصف الأخير من القرن الرابع عشر. وكان مقتله ردة فعل على ما حدث سنة ١٣٦٥، عندما أغار فرنجية قبرس على الاسكندرية ونهبوها وأعملوا في أهلها السيف. فاستشاط المماليك غضباً ضد الطوائف المسيحية في مختلف الانحاء المصرية والشامية، وتعرضت هذه الطوائف على الأثر لاضطهادات عنيفة. وكان الموارنة في جملة من اضطهد. قبض المماليك على عدد من أساقفتهم وكهنتهم واقتادوهم إلى السجن في دمشق. فهرب البطريرك جبرائيل من وجه المضطهدين واحتبأ في قريته حججولا. فكتب نائب دمشق إلى نائب طرابلس رسالة محرّضاً إياه على ضرورة إلقاء القبض عليه. فأمر نائب طرابلس حالاً بالقبض على زعماء الموارنة وعلى أربعين رجلاً من حججولا وأجبرهم بإحضار بطريركهم. ولما رأى هذا البطريرك القديس ما حلّ بأبنائه الموارنة من التعسف والجور والملاحقة

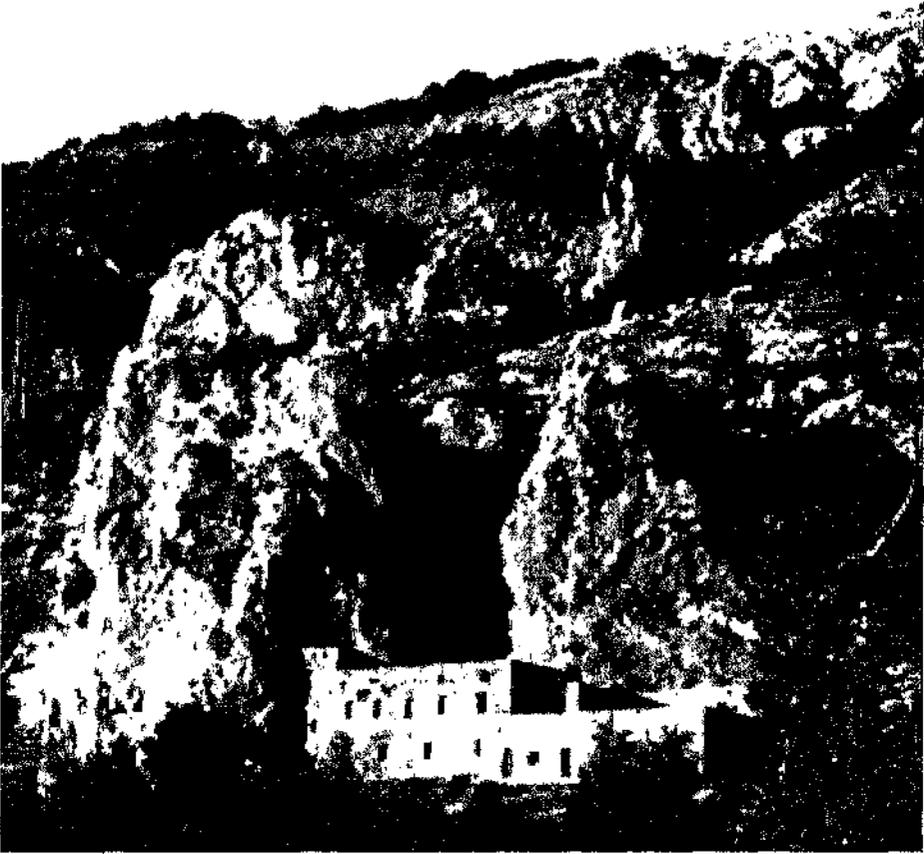
بسببه، استسلم مختاراً، وقدم نفسه طوعاً فداءً عن أبناء الرعية. فأحضره الجند أمام نائب طرابلس الذي أمر بحرقه حياً في أول نيسان (أبريل) ١٣٦٧، خارج مدينة طرابلس عند جامع طيلان (٣١).

وبعد مقتل البطريرك الحججولوي، أقام خلفاؤه في دير سيدة ميفوق، وظلّوا تحت سيطرة نائب طرابلس. فاضطروا إلى الانقطاع عن العالم المسيحي في الخارج. غير أنهم ظلّوا متمسكين بالاعتاب الرمولية والاتحاد الوثيق بالاحبار الأعظمين. وكانوا، فور انتخابهم، يسعون إلى الحصول على درع التثبيت وكمال الرئاسة من الاحبار الرومانيين بواسطة المرسلين الفرنسيين. وكان هذا التثبيت يتأخّر وصوله أغلب الاحيان، بسبب صعوبة المواصلات، بضع سنوات.

وللحدّ من سلطة البطاركة الزمنية، شجّع المماليك وقوّوا سلطة مقدّمي القرى والبلدات المارونية. وراح يتنازع السلطة عندئذ، بطريقة خفية أو علنية، كل من الفريقين. وكان المقدّمون على علاقة حسنة بحكام طرابلس ونوابها، ودعم هؤلاء سلطتهم واعترفوا لهم بالزعامة في مختلف مناطق الجبل، وقد وجدوا فيهم خير عون وسند على جباية الاموال

(٣٠) راجع مخطوط مكتبة باريس الوطنية، رقم ١٧٠٤، ص ٩٤-٩٥. راجع الأب فيليب السراني: «السلطان منصور قلاوون في لبنان وسوريا»، في «المنارة» ١٩٣٤، ص ١٩٢-٢٠٧، وفي صورة لهذا النص يخطّ مؤلفه ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والصور في سيرة الملك المنصور، القاهرة ١٩٦١، ص ٤٧.

(٣١) راجع الدويهي: سلسلة بطاركة الطائفة المارونية، طبعة رشيد الشرتوني بيروت ١٩٠٢، ص ٢٩، يقول الناشر نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي، ان قبر البطريرك جبرائيل حججولا الشهيد قرب جامع طيلان في طرابلس أصبح مزاراً وقد نال منه الشفاء مرضى وسقماء عديدين، والمسلمون يسمّونه مزار الشيخ مسعود.



دير قروبين

المارونية هي وحدها على علاقة حسنة بكنيسة رومة، وكان متسلماً زمام سلطتها آنذاك البطريرك يوحنا الجاجي، أرسل إليه دعوة لحضور هذا المجمع. فامتدعى البطريرك الجاجي الأخ جوان رئيس الرهبان الفرنسيين في بيروت، وكلفه الاستنابة عنه في المجمع المذكور، كما طلب منه ان يحمل إليه بعد رجوعه من رومة درع الثبيت. فسّر البابا بمثل

والضرائب. وكان من هؤلاء المقدمين يعقوب بن أيوب الذي نصب مقدماً على مدينة بشري ١٣٨٢، فعظم شأنه حتى شملت مقدمته الجبة بأمرها. وظل حتى وفاته ١٤٤٤، وخلفه في المقدمة أولاده وأحفاده (٣٢).

وعندما اتضع للبابا أوجانيوس الرابع، قيل انعقاد مجمع فلورنسا ١٤٣٩، ان الكنيسة

المذكور، ص ٢١.

(٣٢) راجع مقال الدكتور كمال الصليبي

هذا العهد بالعهد العثماني. ولما امتدَّ الأمن في ظلِّ حكم السلطان الجديد، أُعيد تنظيم البلدان والاقطار العربيَّة وفقاً للنظم العثمانية، واستُعيض عن الممالك بالولايات والايالات. فجعلت مصر ولاية واحدة وبلاد الشام ثلاث ولايات، هي: دمشق وحلب وطرابلس. وأصبح الموارنة، في جبة بشرى وبلاد جبيل والبترون وجبة المنيطرة، تابعين لولاية طرابلس والعثمانيين، كما كانوا تابعين لنوابها المماليك من ذي قبل (٣٤).

واتَّسم العهد العثماني، في سنيه الأولى بطابع التهدئة والاستقرار، ونعم الموارنة بفترة هدوء وارتياح. ولكن ما عثم ان تسرَّبت إلى ولاية طرابلس روح الفوضى، وساء تدبير الولاة لها، فتفشَّت الرشوة في جميع الدوائر، وعمَّ ابتزاز الاموال جميع مراكز القضاء ودور الحكَّام والمسؤولين. فسيطرت موجة من تدهور الاخلاق في صفوف المواطنين، لم يسبق لها مثيل في العهود الغابرة. وسرعان ما أُحيطت الدولة العثمانية بالأمر، فوكلت تدبير ايالة طرابلس إلى ولاية دمشق. فراح هؤلاء يخضعونها لرعيِّم محليّ يضمن جباية الضرائب. وأخذ هذا بدوره يعهد الجباية في المناطق تارة لزعمائها المحليين وطوراً لأتباعه وأعوانه. وهذا ما ألحق بالشعب الماروني الكادح جوراً عظيماً. ولم يطل الأمر حتى بدأ الموارنة في النزوح من طرابلس والشمال إلى

البطريك الماروني في المجمع، وأرسل إليه درع التثبيت معترفاً به بطريكاً على انطاكية وسائر المشرق. ولما عاد الأخ جوان إلى لبنان، هرعت الوفود المارونية إلى طرابلس لاستقباله، فأُقلق ذلك نائب طرابلس. وكانت قد سرت إشاعة بين سكَّان المدينة المسلمين بأن الروم والفرنجية إنما اجتمعوا في فلورنسا لرسم خطة جديدة لاسترجاع الاماكن المقدَّسة من يد سلطان مصر. فأمر بالقبض على الأخ جوان ورفاقه، وأرسل فرقة من العسكر إلى مقرِّ البطريك في ميفوق، فأمسكت بعضاً من الكهنة والرهبان والاعيان، وأسرتهم وقتلت أنقاراً منهم ونهبت ممتلكات الدير. وسببت نكبة مركز البطيركية آنذاك نقله من ميفوق إلى دير صيدة قُويين في جبة بشرى، حيث استقرَّ البطارقة الموارنة في حمى المقدَّمين وحمى وعورة المسالك في الوادي المقدَّس، ما يقارب الأربعمئة سنة (٣٣).

٦. الموارنة في عهد العثمانيين

انتهى عهد المماليك بانزمامهم سنة ١٥١٦، أمام هجوم السلطان سليم الأول العثماني على معسكرهم في معركة مرج دابق، قرب حلب. ومن هناك تابع هذا السلطان زحفه إلى احتلال بلاد الشام ومصر. فأخضعهم لحكمه، وأطلَّ هكنا عهد جديد على بلدان الشرق منذ بداية القرن السادس عشر. فلقَّب

السمرائي، ١٩٨٢، ص ٥١.

(٣٤) راجع الصليبي، المقال المذكور سابقاً، ص

٣٣.

(٣٣) راجع مقالنا بعنوان «البطريك يوحنا

الجماعي من خلال الوثائق والمستندات التاريخية» المدرج في كتاب: جاج في التاريخ، للأب فيليب

المناطق الجنوبية من جبل لبنان سعياً وراء الأمن والاستقرار، وهرباً من وطأة الضرائب الباهظة. وكانت هذه المناطق الجنوبية، وهي كسروان والمتن والجرد والغرب والشوف، تابعة لولاية دمشق، وكان الأمراء العسافيون التركمان موكلين من قبل الدولة والوالي عليها، بعد ان أتى بهم المماليك، سنة ١٣٠٦، إلى هذه المنطقة واستولوا عليها.

وعندما افتتح السلطان سليم الأول بلاد الشام، لم يلق أدنى مقاومة من الأمير عساف التركماني. فشمله، بعد استيلاء الامن، بعطفه وخصّص له المال المترتب عليه. فانتعشت بلاد كسروان على أثر ذلك، وأصبحت أكثر المناطق اللبنانية ازدهاراً. فأخذ الموارنة النازحون من الشمال يستقرون فيها. وكان الشيخ حبيش ابن موسى، بن عبد الله، بن ميخائيل من موارنة يانوح، في جبة المنيطرة، قد انتقل مع عياله في أوائل العهد العثماني إلى كسروان واستوطن غزير، قاعدة آل عساف. فدخل هو وأبناؤه وأحفاده في خدمة الأمراء العسافيين، واستعان بهم الامير منصور الذي ولي الامارة سنة ١٥٢٣، للقضاء على مناوئيه من الشيعة وغيرهم. وفي سنة ١٥٤٥، جاء من جاج بيت كعيد والشدياق سر كيس ابن الحازن واستوطنوا ساحل علما وبلونه، وبيت الجميل ذهبوا إلى بكفيا في قاطع كسروان(٣٥).

وبالرغم من توثيق عرى الصداقة بين آل حبيش والأمراء العسافيين في كسروان، أخذ الموارنة من جبة بشرّي وولاية طرابلس، وعلى رأسهم البطريك موسى العكاري (١٥٢٤-١٥٦٧)، يفكرون ويطالبون بالاستقلال الذاتي والتمتع ببعض الامتيازات. فطلبوا، لتحقيق أمنيتهم هذه، مساندة الامبراطور الغربي شارلكان. فوجه إليه البطريك، في ٢٥ آذار (مارس) ١٥٢٧، رسالة يقول فيها: «منذ أربع سنوات ونحن نترجى جلالتكم كي تهتموا بمساعدتنا على نيل استقلالنا، وعندنا خمسون ألف مقاتل من الرماة مدربين أحسن تدريب وعلى أتم استعداد لخدمتكم في الحرب الاستقلالية»(٣٦).

ولما لم يحصل البطريك موسى على منغاه بقوة السلاح، حاول بالأسلوب الدبلوماسي والحوار المباشر، فأوفد، سنة ١٥٥٠، الأب أنطون الحصريوني ابن الحاج فرحات لبقابلة السلطان سليم، وطلب منه رفع الظلم والكف عن ملاحقة الموارنة وبتطيركهم، كما التمس من مكارم السلطان المحافظة على شبه استقلال داخلي. فنزل السلطان عند رغبة البطريك، وأنفذ خطأً همايونياً إلى والي طرابلس يطلب منه عدم التعرض للموارنة.

وقويت في عهد العثمانيين زعامة آل حبيش، وتميزت بنوع خاص بالانفتاح على

شارلكان، مجلة «الفصول» ١٢ (١٩٨٤)، ص ٨٦-٩٢؛ راجع الأب أنطون ضو، المقال المذكور أعلاه. ص ٩٤.

(٣٥) راجع الدويهي: تاريخ الأزمنة، نشرة فيهد، ص ٣٩٢.

(٣٦) قام بتعريب هذه الرسالة الأستاذ كميل افرام البستاني بعنوان: «رسائلان إلى الامبراطور

ولايتي طرابلس ودمشق. وأصبح الأمراء المعينون الدرّوز حاكمي منطقة الشوف وملتزميها، كما أصبح الأمراء العسافيون التركمان السنيون ملتزمي منطقة كسروان وحاكميها. ولما خلف الأمير فخر الدين والده الأمير قرقماز في زعامة درّوز الشوف، سنة ١٥٨٤، آتته الظروف وقويت شوكة وامتدّت سيطرته، سنة ١٥٩١، حتى شملت الغرب والجرد والمثن ومدينة صيدا بالاضافة إلى الشوف. ولما أراد هذا الأمير الاستيلاء على مدينة بيروت ومنطقة كسروان، وكان يخشى مناوئيه، حذا في سياسته حذو العسافيين، وأحاط نفسه بمسئرين ومدبرين من الموارنة وعلى رأسهم آل الخازن أعيان كسروان. فوثق الموارنة، كنيسةً وشعباً، بالامير الدرزي، وأصبحوا أنصاراً له حيثما وجدوا وأيضا اتّجهوا.

وكان الامير فخر الدين بحاجة إلى الدعامة القوية التي آمنها له الموارنة. ذلك بأن الدرّوز لم يقفوا صفّاً واحداً إلى جانبه منذ البدء، بل كان منهم من ناوّه أشدّ المناوأة، وخاصةً في الشوف قاعدة آل معن. فأخذ يشجّع أنصاره الموارنة على النزوح إلى هذه المناطق ويسهلّ لهم سبل العيش، مؤمناً لهم الكسب الخلال من أبوابه المشروعة (٣٨). وكان الامير شديد الاهتمام بإنتاج الحرير والصناعة

الذي رفعه إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٨، فقال لقدامته عن الموارنة: «انهم بدأوا يسكنون بين الدرّوز». راجع الحوري بولس قرألي: فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان، إدارته وسياسته، حريصاً سنة ١٩٣٧، ص ٣٦.

المسلمين من جهة، والسعي لحماية مصالح الطائفة المارونية وبنو قومهم من جهة ثانية. وهي لم تكن زعامة دينيةً روحيةً كزعامة البطاركة، كما انها لم تكن زعامة محليةً ضيقة ذات أطماع وآرب خاصة كزعامة المقدّمين. فوقفوا موقفاً محايداً من الكنيسة، ولم يكن هناك أي تنافس بينهم وبين البطاركة كما كان بين هؤلاء والمقدّمين. بل أظهروا بالعكس غيرة قوية على مصالح الكنيسة المارونية. فكانوا يحمونها من جور حكام طرابلس، بما لهم من نفوذ لدى الامراء ويدعمون بطاركتها وأساقفتها ضدّ مقدّمي بشرّي وغيرهم الذين استمرّوا يناوئونهم من وقت إلى وقت. وتركّزت مكائنتهم على قريهم من هؤلاء الامراء وقدرتهم على خدمة مصالح الطائفة بما لهم من احترام وتقدير لديهم (٣٧).

٧. الموارنة في عهد الأمراء المعينين (١٥١٦-١٦٩٧)

اتّسمت سياسة الدولة العثمانية بتقوية الزعامات المحلية القائمة في المناطق اللبنانية والمتتملة ببعض العائلات الاقطاعية. وأوكل الولاة إلى أرباب هذه الزعامات جباية الضرائب والمحافظة على الأمن وقضّ المشاكل العالقة دون ان تتدخل الدولة مباشرة في شؤونهم. فسيطر هكذا رجال الاقطاع على مناطق محدّدة من

(٣٧) راجع الصلبي، المقال المذكور، ص

٢٥.

(٣٨) بدأ نزوح الموارنة من الشمال إلى الشوف قبل ان يتولى الأمير فخر الدين الامارة سنة ١٥٨٤، كما ألمح إلى ذلك الأب جيوفاني بطيستا إيانو في تقريره

غريغوريوس الثالث عشر المدرسة المارونية في رومة بإدارة الآباء اليسوعيين، وكانت الغاية من تأسيسها تنشئة الطلاب الموارنة على الروح الإكليريكية الأصيلة وتدريبهم وتضلعهم من العلوم اللاهوتية المعاصرة. فقامت هذه المدرسة بدورها في تاريخ الطائفة المارونية، وساهمت إلى حد بعيد في النهضة العلمية والثقافية التي قام بها مشاهير علمائها وتوزيع طلابها في لبنان والشرق^(٤١). وعلى أثر رجوع الافواج الأولى من هذه المدرسة إلى وطنهم الأم، نشطت الاتصالات بين الكنيسة المارونية والكنيسة الكاثوليكية، وأفضت البعثات التي قام بها المرسلون الأجانب، من فرنسيسكان ويسيوعيين وغيرهم، إلى عقد مجمع طائفي سنة ١٥٩٦، في دير قنوبين المقرّ البطريركي آنذاك، حضره ممثّل البابا الأب هيرونيمس دنديني اليسوعي، وثبت هذا المجمع صلات الاتحاد الوثيقة التي كانت قائمة منذ نشأة البطريركية بين رومة والطائفة المارونية.

ورافق المدّ الماروني من الشمال إلى الوسط فالشوف تحالف البطارقة والأساقفة الموارنة مع الأمير، وطلبهم لحمايته القوية. فأحاطهم هو ببالغ الرعاية، وأزّلهم في الديار الدرزية،

المحلّية، فساعد نزوح الموارنة إلى المناطق الدرزية على تقوية هذا الانتاج، إذ استقرّ الفلاحون منهم في المزارع حيث اشتغلوا في تربية دود الحرير، بينما استقرّ غيرهم في البلدات الكبرى وبيروت وصيدا حيث اشتغلوا في تجارة الحرير. فتوطدت عرى الصداقة ووحدة الحال بين الموارنة والامارة المعنية عن طريق المصلحة الاقتصادية، كما قويت سطوة الأمير بتأييد الموارنة لسياسة حكمه، فانضوى إلى ألوية جيشه آلاف من شبانهم^(٣٩). فوجد الأمير هكذا من الوفاء والمساندة لدى الموارنة ممّا جعله يخصصهم بعناية فائقة. فأصبحت لهم في عهده مكانة ممتازة وصفها البطريرك اسطفانس الدويهي بقوله: «وفي دولة فخر الدين ارتفع رأس النصاري، فعمّروا الكنائس وركبوا الخيل بسروج ولفوا شاشات وكرور، ولبسوا طوامين وزنابير مسقطه، وحملوا الفاص والبندق المجوهره. وقدموا المرسلين من بلاد الفرنج وأخذوا السكنى في جبل لبنان، لكون غالب عسكريه كانوا نصاري، وكواخيه وخدامه موارنة»^(٤٠).

وفي السنة التي تولّى فيها فخر الدين الحكم، وهي سنة ١٥٨٤، أنشأ البابا

(٤١) راجع المحاضرات والندوات التي أقيمت في جامعة الروح القدس: «الذكرى المئوية الرابعة لتأسيس المدرسة المارونية، ١٥٨٤-١٩٨٤»، الكسليك ١٩٨٦؛ أيضاً، العدد الخاص الذي أصدرته مجلة المنارة ١٩٨٤، عن المدرسة المارونية. Cf. NASSER GEMAYEL: *Les échanges culturels entre les Maronites et l'Europe*, 2 vols. Beyrouth, 1984.

(٣٩) بعد نكبة ١٥٨٥ التي قتل فيها إبراهيم باشا والي مصر ستين ألفاً من الدرروز لم يعد باستطاعة الأمير فخر الدين ان يجنّد منهم أكثر من اثني عشر ألفاً، فاستعان عندئذ بالموارنة الذين انضوى من شبانهم إلى ألوية جيشه عشرون ألفاً، وكان أكثر قادة هذا الجيش منهم: راجع قرأني، المرجع ذاته، ص ٣٨.

(٤٠) الدويهي: تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، ص ٤٤٩٧ وطبعة تول، ص ٣٢٩.

الامير فخر الدين ضد العثمانيين. وكان العلامة إبراهيم الحاقلائي ذا مقام خطير في إيطاليا والفاثيكان، فساعد كثيراً البطريرك والامير المعني على ما فيه خدمة وطنه لبنان، حتى لُقّب بسفير الامير المتجول^(٤٣). ولما كان المطران عميره يقوم بمساعده لدى البابا وأمير توسكانا، كلّفه الامير فخر الدين وضع كتاب في هندسة الابراج والحصون والقلاع، أمّمه على أحسن ما يرام، حتى نَحِلَّ للمطلّعين عليه كأنه من ذوي الاختصاص في بناء القلاع والحصون وفي معرفة فنون الحرب.

ولم تقتصر علاقة فخر الدين برؤساء الموارنة على البطريركين مخلوف وعميرة، بل تعدّتهما إلى بعض الاساقفة وأعيان الشعب. فاستعمل هذان البطريركان نفوذهما لدى الاحبار الاعظمين والحكّام الغربيين، ووضعاً تحت تصرّف الامير نخبة من الاساقفة والعلماء لبدء المفاوضات وإعداد المعاهدات، كالمطرانين جرجس مارون^(٤٤)، وسركيس الجمري؛ فقاما بالمهمّة خير قيام.

وبعد ان تقلّبت الاحوال على الامير المعني، واضطّرّ إلى التخلّي عن الامارة طيلة خمس سنوات، وبعد ان عاد إلى بلاده سنة

وسمح لهم ببناء الكنائس وتشيد المعابد. ففي سنة ١٦٠٩، اجتمع الرؤساء وأكابر الشعب وأجلسوا على الكرسي الانطاكي الأسقف يوحنا مخلوف الهدناني باختيار كل الرعيّة، ومن كثرة المظالم التي كانت صائرة على الكرسي من القسطنق ومن الشدياق خاطر (مقدّم بشري)، اضطر إلى أن يتوجّه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الامير فخر الدين. وعندما حضر على الامير فخر الدين، قبله بكل كرامة. وصدف، قبل ذلك الزمان، ٣١٥ ان وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل المعروش وكثرت القتلى بين الجانبين حتى انهم اتّفقوا على بيع القرية والخروج منها. فاشتراها منهم الامير علي ابن الامير فخر الدين باثني عشر ألف ودفعتها للنصاري. فنزل البطريرك في مجدل المعروش وعمّر كنيسة وداراً واستمرّ فيها حتى قصد زيارة القدس^(٤٥).

واتّفق الامير آنذاك مع البطريرك مخلوف على إرسال المطران جرجس عميره، وهو الذي سيخلفه على السدة البطريركية، سفيراً إلى رومة وإلى توسكانا للمفاوضة مع البابا اربانس الثامن، والفراندوق فردينان الاول، أمير توسكانا، لإيجاد صيغة تحالف بينهما وبين

لبنان وفرديناندو الثاني أمير توسكانا (١٦٢١-١٦٣٥)، حريصاً ١٩٣٨، ص ٣١٥.

(٤٤) كان الهدف من سفارة المطران جرجس ابن مارون، من قبل الامير فخر الدين إلى الغرب المسيحي، مفاوضة الكرسي الرسولي ودولتي اسبانيا وتوسكانا في احتلال الأراضي المقدسة واستخلاصها من يد الدولة العثمانية. راجع قرأني، المرجع المذكور، ص ٢٦٦.

(٤٥) راجع الدويهي، المرجع السابق، ص

٤٦٢.

(٤٣) اقتضت مهمّة الحاقلائي، إضافة إلى المساعي السياسية لتعزير موقف الامير من مناهضة الدولة العثمانية، على شراء أسلحة وذخائر واتقاء خبراء في صبّ المدافع، وعلى بيع كميّة من حبوب الامير في توسكانا وإيداع ثمنه في مصرف الرحمة في فلورنسا. راجع قرأني: فخر الدين المعني الثاني أمير

٨. الموارنة في عهد الشهابيين (١٦٩٧-١٨٤٢)

في سنة ١٦٩٧، توفي الأمير أحمد بن ملحم بن يوسف المعني دون عقب، وانقرضت بوفاته السلالة المعنية. فاجتمع أعيان المناطق الدرزية واختاروا مكانه ابن أخته الأمير بشير من الأمراء الشهابيين السنين في ودي التيم. فأقيم بشير هذا وكيلًا عن الأمير الفتى حيدر الشهابي سبط الأمير أحمد المعني، في الحكم، إلى أن توفي مسمومًا سنة ١٧٠٦، فخلفه الأمير حيدر. وما عثم أن دارت على الأثر حرب ضارية بين الدرروز القيسية والدرروز اليمينية. ولم تحسم المعركة إلا في موقعة عين دارا ١٧١١، التي أوقع فيها الشهابيون والدرروز القيسية وحلفاؤهم الموارنة الهزيمة بالدرروز اليمينية وآل علم الدين. فاستتب الأمر للأمير حيدر، وانتزع معظم مناطق اليمينية من زعمائها ووزعها على أنصاره من القيسية. واعترف، في الوقت ذاته، بمشيخة آل الخازن في كسروان، ومشيخة آل حيش في قاطع غزير. فوضع هاتين الأسرتين على قدم المساواة مع المشيخات الدرزية في الجرد والغرب والشوف. وهكذا أصبحت الامارة الشهابية شراكة اقطاعية بين المشايخ الدرروز والموارنة على حد سواء، يرأسها الأمير الشهابي السني كوال للبلاد^(٤٦). فارتاحوا إلى هذا التنظيم الجديد الذي ساوى

١٦١٨، تعاطم شأنه مرة أخرى، وحارب يوسف سيفًا واستولى على بلاد جبيل والبترون وجبة بشرّي. وباستيلائه على هذه البلاد، انتهى فيها أمر سطوة المقدّمين، وجعل فخر الدين عوضًا عنهم مشايخ آل الخازن وكلاء عليها، كما جعلهم وكلاء على بلاد جبيل. وكان آل الخازن قد تسلّموا، سنة ١٦١٥، حكم كسروان عن يد شقيقه الأمير يونس، عندما كان فخر الدين مقيمًا في إيطاليا. وبعد أن أضيفت إليهم بلاد جبيل وجبة بشرّي، أصبحوا الأسرة الأولى بين الموارنة دون منازع، وسار آل الخازن على خطى من سبقهم من مشايخ آل حبيش. فاتبوا تجاه طائفتهم السياسة نفسها التي اتبعتها هؤلاء قبلهم، فسهرروا على تعزيز شأن طائفتهم وخدمة مصالح بني قومهم المادية والمعنوية بشتى الوسائل، وبكل ما كان لهم من نفوذ لدى الأمراء المعنيين^(٤٥).

يبدو واضحًا بما تقدّم أن الموارنة، في عهد المعنيين، توصلوا بفضل سياستهم وغماسكهم وتعلقهم برؤسائهم الروحيين، وانفتاحهم على بقية الطوائف، وصلابتهم وثباتهم على الكفاح المستمر، توصلوا بعد توليهم حكم مناطق الجبة وجبيل والبترون وكسروان، إلى تكوين كيان سياسي لهم وقومية اجتماعية كادت توازي القومية المعنية.

(٤٦) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص

(٤٥) راجع مقال الصليبي المذكور أعلاه، ص

بينهم وبين الدرّوز في المكّانة. وشكّل هذا التنظيم منعطفاً تاريخياً في حياة الموارنة إذ لم يسبق له، حتى في عهد المعنّين، ان تساوى رجال الاقطاع الدرّوز برجال الاقطاع الموارنة. فدعم الفلّاحون والتجار منهم الامارة الشهبائية، إذ وجدوا فيها ضماناً لهم ضد سطوة الغزاة. ولم يختلف آل الخازن وآل حبيش في دعمهم للإمارة عن سائر الموارنة.

وان الذي وطّد مكانة مشايخ آل الخازن، بوجه خاص، هو تعيين دولة فرنسا الشيخ أبا نوفل الخازن قنصلاً لها في مدينة بيروت (٤٧). والجدير بالذكر ان فرنسا - وهي الدولة الكاثوليكيّة الكبرى في أوروبا آنذاك - كانت قد أخذت على عاتقها، منذ أواسط القرن السابع عشر، حماية الموارنة في لبنان والشرق. وتوطّدت هكذا علاقات الصداقة بين الامارة الشهبائية ودولة فرنسا عن طريق الموارنة وبواسطة نفوذهم، ممّا قوى مركز هذه الامارة تجاه الدولة العثمانية. فزاد ذلك من اهتمام الشهبائين بالموارنة، كما زاد هذا الاهتمام من تعلق الموارنة بالشهبائين (٤٨).

ولم يظل الوقت حتى تخلى الدرّوز القيسيّة هم أيضاً عن مساندتهم لآل شهاب.

فبعد ان خلف الامير ملحم شهاب والده الامير حيدر، سنة ١٧٣٢، عاد زعماء الدرّوز من قيسيّة ويمنيّة إلى مناوأة الشهبائين. وأمام هذه المعارضة الدرّزيّة، أخذ الامراء الشهبائيون ينحازون شيئاً فشيئاً إلى الموارنة الذين كانوا يجلبون الامير الشهبائي ويعتبرونه صاحب حقّ وراثي في الحكم. كما وانهم كانوا يرون في امارته ضماناً لكيان لبناي ينعمون في ظلّه بالحرية والكرامة. وما لبث هذا الانحياز أن أحدث تغييراً في هويّة الحكام الشهبائين. فعندما اضطر الامير ملحم شهاب، سنة ١٧٤٥، إلى التخلّي عن الحكم لمصلحة أخويه منصور وأحمد بسبب مقاومة الدرّوز له، انتقل إلى بيروت وسكن بقرب أصدقائه الموارنة حتى توفي، سنة ١٧٦١. وكان للمحم أخ ثالث في بيروت يدعى علي اعتنق هو وبنو بيته المذهب الماروني، وحذا حذوه أبناء أخيه ملحم فتنصّروا هم أيضاً. ولم يظل الوقت حتى أخذ غيرهم من آل شهاب ينضمّ إلى الكنييسة المارونية، وكذلك أنساباؤهم من آل أبي اللمع الدرّوز، أمراء المتن. وعندما خلف الامير يوسف بن ملحم شهاب عمّه منصور في الامارة، سنة ١٧٧٠، كان أفراد العائلة

(٤٨) لم يكن الوجه الثقافي في عمين صداقة الشهبائين بالموارنة أقل أهمية من الوجه السياسي. فكثير من الذين تخرّجوا في المدرسة المارونية في رومة، عادوا إلى لبنان وأنشأوا مدارس محلية راحت تزوّد الأمراء الشهبائين بالكتابة والمعانين، وهكذا نشأت، على مرّ الايام، طبقة من المتعلّمين الموارنة، تبوأت أعلى المراتب في الحياة العامّة، وأملت، في الكثير من الاحيان، سياسة الامارة. راجع الصليبي، المرجع المذكور.

(٤٧) ثمّ تعيين الشيخ أبو نوفل الخازن نائب قنصل لدولة فرنسا ثم قنصلاً لها في بيروت سنة ١٦٥٥، وظلّ أحفاده يعدّون بتوارثون هذا المنصب حتى ١٧٥٨. وجرى، في ما بعد، تعيين مارونيين آخرين في هذا المنصب، أحدهما غندور السعد من عين تراز، كبير معاوني الامير يوسف. راجع كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، بيروت ١٩٨٤، ص ٤٢.

الحاكمة قد تنصّروا، وتحوّلت هكذا الامارة الشهابية إلى إمارة مارونية في أواخر القرن الثامن عشر^(٤٩). ومهما تكن الاسباب السياسية التي أدّت إلى تنصّر الحكام الشهابيين، إلا أن حكمة الاكليرس الماروني وتقواه ومثله الصالح والسهر الدائب على خلاص النفوس قد ساعدت كثيراً وراققت عن قرب طريقة اعتناق الأسرة الحاكمة للديانة المسيحية.

وبالرغم من تنصّر الحكام الشهابيين، فقد أخذت الكنيسة المارونية بشخص بطاركتها وأساقفتها موقفاً حكيماً عادلاً وشجاعاً من هؤلاء الحكام. فكانت تساندهم في الملمات وتشدّد إزرهم لدى إحقاق الحق وإحلال العدل، وتقف بوجههم عندما كانوا يعرضون مصالح المواطنين للخطر، ويهقون كاهل الشعب الكادح بفرض الضرائب الباهظة واستنزاف أمواله بمضاعفة الميرة المفروضة عليه. ومثل هذا الموقف الحازم من هؤلاء الامراء كلّف البطريرك يوسف التيان (١٧٩٦-١٨٠٨) تقديم استقالته من أعباء البطريركية إلى الكرسي الرسولي^(٥٠)، والمطران يوسف

اسطفان الثاني حياته^(٥١)، عندما هدّد الأول الأمير بشير بالحرم لدى رفعه الميرة من قرش إلى ستة قروش، والثاني عندما وقف إلى جانب الشعب الماروني الكادح في عاميتي لحفد وأنطلياس.

وفي عهد الامراء الشهابيين المنتصرين، خطت الكنيسة خطوات واسعة في مراقبي النمو والازدهار، وتطوّرت كثيراً عمّا كانت عليه من ذي قبل. والفضل في ذلك كله يعود إلى خريجي المدرسة المارونية في رومة الذين بدأوا يتبوأون الكرسي الانطاكي ويحتلون أعلى المراتب الكنسية. ثم كان تأسيس الرهبانيات، وانعقاد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦، الذي أقرّ الاصلاح في تنظيم الكنيسة المارونية. كما أنشئت المدارس التي تخرّج منها عدد وافر من الشبان الذين دخلوا في خدمة الامراء الشهابيين وغيرهم من الأسر النافذة، فأصبحوا طبقة مارونية متعلّمة ذات شأن في البلاد؛ فوافق نمو الطائفة المارونية الاداري تطوّر ثقافي وعلمي بارز. وتميّز هذا التطور، على يد تلامذة المدرسة المارونية، باهتمام جديد بكتابة تاريخها

(٤٩) إضافة إلى الاسباب الدينية التي أدّت إلى تنصّر الأسرة الحاكمة، هناك أسباب أخرى حملت أفراد هذه الاسرة على اعتناق الدين المسيحي، منها: النزاع الزبكي - الجنبلاطي الذي جعل من الدرّوز أقلية في مناطقهم، وازدياد قوة الموارنة في شتى الميادين، وتوسّعهم الشامل، وارتباطهم بصناعة الحرير اللبناني التي أحييت الصلات التجارية بين أوروبا والشرق وعزّزت ثقافتهم الاقتصادي في البلاد. فتأثر الامراء باختلال هذا التوازن بين الطوائف، وأفضى ازدياد النفوذ الماروني إلى اعتناقهم دين هذه الطائفة، راجع

الصليبي، المرجع المذكور، ص ٤٠-٤١.

(٥٠) كثيرون يعتقدون ان استقالة البطريرك يوسف التيان كانت حبا للزهد والتسك، أما في الواقع فكانت احتجاجاً على سياسة الامير بشير الثاني الكبير الظالمة. راجع مقال الأب أنطوان ضو المذكور أعلاه، ص ٩٥.

(٥١) دسّ الامير السمّ القتل للمطران اسطفان في فنجان القهوة عندما كان يقوم بزيارة له في بيت الدين ١٨٢٢، فمات على اثر ذلك ودفن في دير مار روحانا البقعة - كسروان.

الزعماء الدرّوز الناقمين عليها.

ومّا زاد في نقمة الدرّوز على الموارنة هو دعمهم للأمير بشير الثاني الكبير وتأييدهم لسياسته، وخاصةً بعد ان امتدّت سيطرة الشهابيين من الشوف إلى المناطق المارونية في ولاية طرابلس، وأصبح الدرّوز في رقعة مساحة الامارة أقلية ضئيلة تواجه أكثرية مارونية ساحقة. ولما احتلت جيوش محمد علي باشا المصري بلاد الشام، سنة ١٨٣٢، بالتعاون مع الأمير بشير، وما عتمت ان أُجبرت على الخروج منه، سنة ١٨٤٠، بتدخل الدول الكبرى في الامر، ساءت أوضاع الامير بشير السياسية وزادت نقمة المعارضين له، فأرغم على التخلّي عن الامارة وأرسل إلى المنفى (٥٢). فحصلت على اثر ذلك اصطدامات دامية بين الموارنة والدرّوز، في المناطق الجنوبية، حملت الحكم العثماني على وضع لبنان تحت سيطرته المباشرة بعد القضاء على الامارة الشهابية. وما ان تمّ ذلك، في أوائل سنة ١٨٤٢، حتى هبّ الموارنة، كنيسةً وشعباً، يطالبون بعودة الشهابيين إلى الحكم. فرفض العثمانيون ذلك رفضاً باتاً، متذرعين بعداء الدرّوز المعلن للأسرة الشهابية. وكانت دولة انكلترا آنذاك، بسبب التنافس السياسي بينها وبين فرنسا في بلاد الشرق، وراء هذا الرفض، إذ كانت تدعم موقف الدرّوز وتسهّل على الدولة

وتنظيم طقوسها وضبط سلسلة بطاركتها، والسهرة على تنقيف شبيبتها، والغيرة على خلاص النفوس. وهكذا وعى الموارنة، أكثر من ذي قبل، هويّتهم التاريخية والمكانة البارزة التي أصبحت لهم في ظلّ الامارة الشهابية.

٩. الموارنة في عهد القائمقاميتين والمصرفية (١٨٤٢-١٩١٤)

يتّضح ممّا تقدّم انه، في عهد الشهابيين، بلغ الموارنة أعلى مستوى من التقدّم والرفق، وأصبح لهم، كطائفة مسيحية، نظراً إلى تماسكهم الداخلي، وإلى بعض الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها، مكانة ميسية فريدة من نوعها في البلدان الخاضعة للدولة العثمانية. وهذا الرفق الحضاري والتفوق الثقافي والعمراني أفلق جيرانهم الدرّوز، وأوغر صدر ممثلي الدولة العثمانية في صيدا ودمشق وطرابلس. فانعكس نموّ الطائفة وتطورها نقمة إسلامية عارمة ضدها وضدّ الطوائف المسيحية الأخرى في البلاد العثمانية، إذ كان المسلمون يعتبرون هذه الطوائف مؤيدةً للدول الأوروبية المسيحية الحاربة للسلطنة. والذي أثار الشكوك العثمانية بوجه خاص هو علاقة الموارنة والامارة الشهابية برومة والبايوّة وفرنسا. فعمد العثمانيون، في آن معاً، إلى الحطّ من مكانة الامارة الشهابية وإلى إذلال الموارنة بالتعاون مع

الوضع في لبنان. وقد عجز عن ان يظفر بولاء الدرّوز أو النصارى. راجع الدكتور فيليب حنّي: تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر، بيروت ١٩٧٨، ص ٥٢٨.

(٥٢) نفي الامير بشير الثاني الكبير إلى اسطنبول سنة ١٨٤٢، وعين الباب العالي رجلاً هنغارياً كان قد انضم إلى الجيش التركي لمحاربة إبراهيم باشا في سورية، والياً على لبنان، هو عمر باشا النمساوي؛ وكانت تقصه المقدرة والحكمة السياسية ليدرك حقيقة

العثمانية فرض سياستها في جبل لبنان. ورفض الموارنة بالمقابل التعاون مع الحكم العثماني المباشر، ووضعوا عليه هم والدروز شروطاً لم يتمكن من قبولها.

وأمام هذا الرفض المعلن لسيطرة الحكم العثماني، عدل الباب العالي عن التجربة وقرّر، بموافقة الدول الكبرى، تقسيم لبنان إلى قائمقاميتين، واحدة مسيحية تضمّ مناطق بشرّي والكورة والبترون وجبيل وكسروان والمثن، والثانية درزية تضمّ مناطق الجرد والغرب والشوف. وجاء هذا التقسيم، الى حدّ ما، موافقاً لمصالح الزعماء الاقطاعيين الدروز، إذ أتاح لهم السيطرة على مناطقهم والتصرف بها كما يشاؤون. أما المسيحيون، فكانوا متشربين في جميع أنحاء جبل لبنان، بما فيها المناطق الدرزية حيث فاق عددهم عدد الدروز^(٥٣). ووضع هذا التقسيم الموارنة وغيرهم من المسيحيين في القائمقامية الدرزية تحت رحمة زعماء الاقطاع الدروز. فنقم أعيان الموارنة على هذا الترتيب وأخذوا يطالبون بتعديلات تضمن لهم مصالحهم. فدعمت الكنيسة المارونية موقف أبنائها في القائمقامية الدرزية وأخذت تشجّعهم على المطالبة بحقوقهم. فرأى الدروز في ذلك تحدياً طائفيًا لهم. فكان ذلك من جملة أسباب

الاصطدامات الدامية بينهم وبين الموارنة وغيرهم من المسيحيين في المناطق المختلطة. ولم يحصل مثل هذا الالتفاف في الصف الماروني حول زعمائهم الاقطاعيين. فلما حاول آل الخازن وآل حبيش الاقتداء بالزعماء الدروز واستغلال ضعف حكم القائمقامين المسيحيين لتقوية سيطرتهم على كسروان، أخذ الفلاحون ينتظمون لمقاومتهم. وما ان حلّ عام ١٨٥٨، حتى ثاروا في كسروان على آل الخازن وآل حبيش وأطاحوا بالسيطرة الاقطاعية في منطقتهم، وكان على رأسهم طانيوس شاهين الريفوني^(٥٤).

وبعد نجاح حركة الفلاحين على الاقطاعيين في منطقة كسروان، حاول المسيحيون في القائمقامية الدرزية مناوأة رجال الاقطاع الدروز، فتعاونوا مع بقية الطوائف المسيحية الأخرى لخلق نير هذه الاقطاعية. فالتفّ عندئذٍ الدروز حول زعمائهم بالاتفاق مع السلطات العثمانية المحلية، وباغتوا المسيحيين في مناطقهم وانتفضوا عليهم بمساندة الحاميات العثمانية وأهلكوا أعداداً وافرة منهم مسبباً المذابح الدموية في أمكنة عديدة من لبنان، ويوجه خاص في راشيا وحاصبيا ودير القمر وحمّانا والقرى المجاورة لها. فباعدت تلك الاحداث الدامية بين الطوائف وظلّت، بعد

الزعامة وأبي سفك الدماء البريفة، وطانيوس شاهين هذا كان يطارا يحمل في دير الآباء اللازاريين في بلدته ريفون، فيعد ان طرد آل الخازن وأعياناً آخرين من الموارنة، من ديارهم في كسروان، أعلن سنة ١٨٥٨ قيام حكومة الفلاحين ونصّب نفسه حاكماً مطلقاً عليها. راجع أنطوان العقيلي: ثورة وثقة في لبنان، بيروت ١٩٣٨، ص ٨٢-٩٠.

(٥٣) بلغ عدد المسيحيين المقيمين في القائمقامية الدرزية ٣٨١٤٠ مسيحياً، وكان من أصلهم ١٧٣٥٠ مارونيا، بينما كان عدد الدروز في القائمقامية نفسها ٢٥٤٥٠ درزيًا. راجع حثي، المرجع السابق، ص ٥٢٨-٥٢٩.

(٥٤) تزعم طانيوس شاهين ثورة الفلاحين بعد جرجس صالح صغير من عجلتون الذي تنازل عن هذه

حكم التاريخ عليها، وصمة عار على جبين التعايش السلمي بين الطوائف اللبنانية. وعرفت تلك الاحداث في التاريخ بأحداث سنة ١٨٦٠ (٥٥).

وبالرغم من ان غدر الدرروز بالمسيحيين جاء كردة فعل لسياسة التحدّي التي أتبعها الموارنة في الاقطاعية، إلا ان هذا التحدّي الماروني كان يمثّل وجهة نظر أكثر تجاوبا وتطوراً مع متطلبات العصر، وأكثر تطلّعاً إلى المستقبل. فبينما كانت الزعامات الدرزية تصرّ على الابقاء على تقاليد وحقوق إقطاعية موروثه تعرقل نمو البلاد وتمنع إعادة وحدتها السياسية، كان الموارنة يشددون على ضرورة إلغاء نظام القائمقاميتين والاستعاضة عنه بنظام أكثر فعالية يعيد وحدة الكيان اللبناني ويضع حداً لنفوذ الأسر الاقطاعية، بما فيها الأسر المارونية، ويؤمن مصالح الطبقة الوسطى الناشئة في مختلف أنحاء الجبل. فكانت فرنسا تدعم موقف الموارنة من الخارج، إلا ان مساندة

(٥٥) لم تكن هناك أسباب مباشرة لنشوب أحداث ١٨٦٠، بل ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت فتنة مندبرة. فبدأت تلك الاحداث في شهر نيسان (أبريل) سنة ١٨٦٠، وظلّت نيرانها تستعر حتى أواخر تموز (يوليو). فاندلعت الشرارة الأولى من حادث مشاجرة وقعت بين صبيّين درزي وماروني في صيف ١٨٥٩، ثم ما عزم مشايخ الدرروز ان راحوا يتصلون علناً بخورشيد باشا، ويتسلّمون أسلحة بواسطة، وكان قائد الحامية التركية يعرض حمايته للمسيحيين مقابل تسليمهم الاسلحة، ثم يقف يتفرّج عليهم يذبحون. فقتل من دير القمر ٢٦٠٠ نسمة، ومن جزين وجوارها ١٥٠٠، ومن حاصبيا قتل من الروم الأرثوذكس وحدهم ١٠٠٠ ويصوّرة بريرة، وفي راشيا هلك ٨٠٠. وكانت أوامر قيادة الثورة في

انكلترا للإقطاعية الدرزية وإصرار الدولة العثمانية على إبقاء نظام القائمقاميتين قد حلالا دون إحداث أي تغيير يتلاءم مع مطالب الموارنة. وجاءت حوادث ١٨٦٠ تؤكد فشل نظام القائمقاميتين، وتفسح في المجال أمام الدول الأوروبية ودولة الأستانة للاعتراف بكيان ممتاز للبنان يتألّف من جميع المناطق المسيحية والدرزية من الجبل اللبناني على حدّ سواء، وينعم باستقلال إداري ضمن الدولة العثمانية.

وبعد مذابح ١٨٦٠، جاءت ردة الفعل المناوئة لحكم القائمقاميتين، بأن تمّ الاتفاق بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية (٥٦) على ان يتولّى الحكم في جبل لبنان متصرف مسيحي غير لبناني يعينه السلطان من بين رعاياه الكاثوليكين. فيقوم هذا المتصرف بمهامّه بالتعاون مع مجلس إداري منتخب يمثّل جميع الطوائف في البلاد. وألغى النظام الجديد جميع الصلاحيات الاقطاعية في المناطق، وقسم البلاد إدارياً سبعة أفضية، جاعلاً على كل منها

حاصبيا ألا يبقى على ذكر من السابعة إلى السبعين. وبلغ عدد المسيحيين الذين سقطوا خلال ثلاثة أشهر في مناطق الدرروز ١٢٠٠٠ قتيلاً. وكانت الحسارة في الاملاك تقدر بأربعة ملايين ليرة إنكليزية ذهبية. راجع حّي، المرجع السابق، ص ٥٣٠-٥٣٢.

(٥٦) هي فرنسا، بريطانيا، النمسا، بروميا، روسيا، تركيا، وقد انضمت إليها إيطاليا ١٨٦٧. (٥٧) كان القائمقام من الطائفة التي تنتمي إليها الأكثرية في القضاء. وعلى هذا الاساس فقد جاء توزيع القائمقامين على النحو الآتي: ثلاثة من الموارنة، درزي واحد، مسلم واحد، روم أرثوذكس واحد، ووم كاثوليك واحد. راجع حّي، المرجع ذاته، ص ٥٣٨.

فائماً يعينه المتصرف^(٥٧). فنجحت هذه الترتيبات في خلق إطار إداري صالح للنمو، وأصبح لبنان مضرب مثل بحسن التنظيم والرقى.

وفي ظلّ المتصرفية راح الموارنة ينضجون سياسياً أكثر فأكثر كقفة حاكمة. وبالرغم من انه كان لهم مآخذ على نظام المتصرفية، وأهمها ان هذا النظام أخذ الحكم من أيدي اللبنانيين ووضعه في أيدي غربية، فقد أتاحت الترتيبات الادارية التي أوجدها هذا النظام لعدد كبير منهم الاشتراك مع المتصرفين في الحكم. فأخذوا يتدربون على تولي المسؤولية، وتحولت هكذا تدريجاً طموحاتهم الفردية كطائفة إلى ولاء للبنان كوطن يجمع بينهم وبين جميع الطوائف الأخرى في البلاد، ضامنا مصالح كل طائفة ومؤمناً العيش الحرّ الكريم للجميع. فنشأت القومية اللبنانية وترعرعت في ظلّ طموحات مارونية، وغدت الكنيسة المارونية القوام الأساسي لهذه الفكرة والمؤسسة المحسنة لها في غياب دولة لبنانية تقوم بهذه المهمة.

وبقيت المتصرفية على حالها حتى انتهى أمرها مع الحرب العالمية الأولى. فألغى العثمانيون العمل بنظامها سنة ١٩١٥، بعد دخولهم الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا،

وروضوا جيل لبنان تحت الحكم العسكري. ١٠. الموارنة إحدى دعائم دولة الاستقلال في ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤، اندلعت الحرب العالمية الأولى بتحالف النمسا وألمانيا وتركيا ضد روسيا وصربيا وانكلترا وفرنسا وبلجيكا. فاحتلت تركيا لبنان وحلت حكومته الشرعية التي كنت قائمة في عهد المتصرف أو هانس باشا، وألقت هيئة حكومية جديدة برئاسة جمال باشا السفاح قائد الجيش العثماني الرابع، دامت حتى انتهاء الحرب. ولما تسلّم القائد الجديد مهامه العسكرية والادارية، أعلن الاحكام العرفية، وعلّق العديد من اللبنانيين على أعواد المشانق، وأرغم البطريرك الياس الحويك على طلب الفرمان من الدولة العثمانية^(٥٨).

ومرت على لبنان، في سني الحرب العالمية الأولى، أيام ضيق وشدة لم يسبق ان احتمل الشعب اللبناني مثلها من ذي قبل. فعمت المجاعة والعوز جميع أنحاء الوطن، وغطت أسراب الجراد سماء الصافية. فمات الآلاف من اللبنانيين ومن أبناء الطائفة المارونية جوعاً، وأوغرت المقابر فاهها وابتلعت الكثيرين منهم. ولما ضاقت على جثث الموتى، كان الناس الأحياء يدفنون موتاهم بالقرب من البيوت. وفي ٢٩ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨،

الطلب من الدولة العثمانية يجدون مخرجاً للتخلص من تلبية رغبة السلاطين. وأما البطريرك الحويك فلم يجد مهرباً تحت وطأة الحرب وتهديد جمال باشا من طلب الفرمان، ولو مكرها، تقاديا لشر مستطير قد ينزل بشخصه أو بأبناء طائفته.

(٥٨) كانت قد جرت قبل هذا التاريخ محاولات عدّة من قبل سلاطين بني عثمان في فرض طلب الفرمان على البطارقة الموارنة. وكان هؤلاء لا يطلبون تثبيتهم في الكرسي الانطاكي إلا من أجاب رومة الأعظمين. وكانوا كلما أُلجئوا إلى مثل هذا

إدارياً في بيروت (٥٩).

وكان أول عمل أناه الحلفاء، بعد ان خسرت تركيا الحرب، هو إرجاع حكومة لبنان الشرعية إلى سابق عهدها. فعاد مجلس الإدارة المنتخب عن إرادة الشعب بانتخاب حرّ، إلى مزاوله مهامه الإدارية والسياسية، وهو المخوّل دون سواه بأن يتكلّم باسم الشعب اللبناني. وعلى أساس هذا العرف، استمدّت الوفود الثلاثة التي أرسلها لبنان إلى مؤتمر الصلح في فرساي سلطتها التشريعية والقانونية من مجلس الإدارة الذي استمدّ بدوره سلطته من الشعب اللبناني.

وفي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩، أُلّف مجلس إدارة لبنان وفداً من أعضائه ليعرض على مؤتمر الصلح مطالبه، وكان هذا الوفد مؤلّفاً من السادة داود بك عمّون مندوباً أولاً، ومحمود بك جنبلاط واميل اده وإبراهيم بك أبو خاطر وتامر بك حماده، أعضاء. وأما مطالب مجلس الإدارة، فتتلخّص بما يلي:

أولاً: توسيع حدود لبنان بحيث تتناول جميع الانحاء المنسلخة عنه في عهد الدولة العثمانية،

ثانياً: الاعتراف باستقلاله التام وبحقّه في اختيار نوع الحكم الذي يصلح له،

ثالثاً: إنشاء مجلس نوّاب منتخب على قاعدة التمثيل النسبي تأميناً لحقوق الأقليات، ويكون لهذا المجلس حقّ التشريع والتمتع بجميع



البطيرك الياس الحوريّ

وضعت الحرب العالمية أوزارها وجلا الأتراك عن لبنان بعد ان حكموه مع معظم بلدان الشرق الأدنى أربعمائة سنة (١٥١٦-١٩١٨). وفي أول تشرين الأول (أكتوبر)، دخل الامير فيصل دمشق على رأس كتيبة ليتقلّد زمام الحكم في هذه المدينة. ومن هناك أوعز إلى بلدية بيروت برفع راية الحجاز فوق دور الحكومة، وأوفد شكري الأيوبي لتشكيل حكومة جديدة فيها. فردّ الجيش الفرنسي الأيوبي على أعقابها، فعاد إلى دمشق بعد ان أكره على إنزال الراية العريّة عن مباني الحكومة. فتعيّن عندئذ الكولونيل دي بياباب الفرنسي حاكماً عاماً

العناية الصمدانية، جونه ١٩٣٤، ص ٥٨٣-٥٨٨.

(٥٩) راجع الحوري إبراهيم حرفوش: دلائل

ما تتمتع به مجالس النواب في الحكومات الديمقراطية في العالم من الحقوق والامتيازات.

رابعاً: مساندة فرنسا له ومساعدتها لحكومته الوطنية وتأييدها لاستقلاله.

وفوض مجلس الادارة إلى المندوبين المذكورين أعلاه عرض هذه المطالب على مؤتمر الصلح المشار إليه، وملاحقة تأييدها وتقريرها. وعاد الوفد بعد بضعة أشهر دون الحصول على مبتغاه، لأن الأمير فيصل لم ينفك عن مواصلة مسعاه في ضمّ لبنان إلى سورية، وحمل الحلفاء على الاعتراف بأن هذين البلدين هما من البلدان والممالك العربية. وفي ٣ شباط (فبراير) سنة ١٩١٩، تقدم هو بنفسه إلى مؤتمر الصلح بمطالبه مدعياً انها مطالب الاقطار العربية برمتها، وفي مقدمتها المطلب المتعلق بسيطرته على لبنان وسورية. وبالرغم من ان المؤتمر لم يستجب إلى طلبه بضمّ لبنان إلى سورية، فقد تمكّن، خلال وجوده في باريس، من حمل الحكومة الفرنسية على الاعتراف بحكمه لسورية، مقابل وعد حرّ من جانبه بأن يوعز إلى الحزب العربي في دمشق بالاعتراف بالانتداب الفرنسي. وبعد رجوعه في أيار (مايو) سنة ١٩١٩، أخذ يجهد بكل قواه على استمالة لبنان إليه، وعلى ان يكون هذا البلد مضموماً إلى سورية التي هو أمير عليها. ومما زاد فيصل تشيئاً بمطلبه هذا هو ما شهدته في باريس من

فشل الوفد اللبناني وإخفاقه في مهمته، رغم مجاملة الحكومة الفرنسية لأعضائه، وما رآه من سعي الفرنسيين لحمل اللبنانيين على الانضمام إلى دمشق. فلم يذعن اللبنانيون لما كان يصير إليه الامير، واتفقوا على ألا يمكّنه من بسط سيادته على لبنان. فعزموا على فصل بلادهم عن سورية ونادوا باستقلالهم، وأجروا مظاهرات سلمية أمام سراي بعيدا وجونيه وغير أماكن. وتألّفت وفود من كبار القوم وأتت إلى بكركي تطلب إلى البطريك الياس الخويك (١٨٩٩-١٩٣١) تحقيق رغبتها بأن يسافر إلى باريس سعياً وراء استقلال لبنان (٦٠). وقد انضم إليهم مسيحيو بيروت والبقاع والشمال ومرجعيون وقسم من دروز لبنان. أمّا البطريك فجمع أساقفة الطائفة المارونية في بكركي وفاوضهم في هذا الامر الهام؛ فأجمع الاحبار على الاستجابة لرغبة اللبنانيين. وبالرغم من ان البطريك كان قد بلغ السادسة والسبعين من سنه، فلم يحجم عن تجشّم مشقّات السفر وركوب البحر، مستهيناً في سبيل استقلال لبنان أعلى التضحيات ومستسهلاً أقسى المشقّات.

ويوم الثلاثاء في ١٥ تموز (يوليو) ١٩١٩، سافر البطريك الخويك بتفويض من مجلس الادارة، على ظهر الباخرة «كسار» إلى رومة، ومنها إلى باريس، بصحبة المطارنة: اغناطيوس مبارك، ويطرس القغالي، وشكر الله

(٦١) المطرانان شكر الله حوري ويوسف الحازن لم يرافقا البطريك الخويك من لبنان، ولكنهما انضمّا إلى الوفد هناك لوجودهما صدقة في العاصمة الفرنسية.

(٦٠) لمزيد من التفاصيل عن سفر الخويك إلى باريس، راجع حرفوش، المرجع السابق، ص ٥٩٤-٦٠٠.

خوري ويوسف الخازن(٦١)، والخوري اسطفان الدويهي، وشقيقه لأنون بك الخويك، وانضم إليهم في باريس المطران كيرلس مغيب مطران زحلة للروم الكاثوليك الذي انتخب فيما بعد بطريركاً، والكاهنان تودوسيوس معلوف وقبريانس شهاب معاونا المطران مغيب.

وصل البطريرك إلى رومة في ٢٠ تموز (يوليو) وهناك قضى مدة شهر راح يمهد فيها لنجاح زيارته إلى فرنسا. وفي ٢١ آب (أغسطس)، سافر إلى باريس حيث قوبل بأجمل مظاهر الترحاب والاحترام. وبعد ان استقبله السيد بوانكركه رئيس الجمهورية الفرنسية في قصر الأليزه في ٢٨ آب (أغسطس) ١٩١٩، والسيد كليمنصو رئيس الوزراء، وبعد ان اجتمع مراراً بأقطاب السياسيين الفرنسيين وتبادل الزيارات مع ممثلي الحلفاء في باريس، وباحثهم في ما قدم لأجله إلى العاصمة الفرنسية، تقدم البطريرك في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر)، إلى مؤتمر الصلح بمذكرة إضافية ضمنها مطالب اللبنانيين في ١٥ صفحة، أثبت فيها أهلية لبنان للحكم الذاتي والاستقلال التام، مؤيداً حقه في الحياة الحرة المطلقة من القيود السياسية بالحجج والبيانات، معللاً صواب مطالبه بما تجلّى لعيون العالم المتمدّن من فضائل قومه وأهليتهم لاقياس أفضل ما في الحضارة العصرية من المعيزات المثبتة للأخلاق والمهذبة للنفوس والموسعة للإدراك(٦٢).

وبعد هذه المراجعات والاتصالات، قدّم

رئيس وزراء فرنسا السيد كليمنصو إلى البطريرك الخويك عريضة يعترف فيها بحقوق لبنان وصواب مطالبه، ويعاهده باسم الحكومة الفرنسية على العمل لصيانة هذه الحقوق وتحقيق تلك المطالب. ومّا جاء في هذه العريضة: «ان رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتية ونظام وطني مستقلّ تنفق تمام الاتفاق مع التقاليد الحرة الفرنسية. وليكن اللبنانيون على ثقة من انهم بمعاونة فرنسا ومساعدتها سيحافظون على تقاليدهم ويوسعون نطاق نظاماتهم السياسية والادارية ويعملون بأنفسهم لاستثمار كل منافع بلادهم، وذلك بالاستقلال عن كل جماعة خارجة عن نطاق وطنهم(٦٣).

بعد تسلمه عريضة رئيس الوزراء الفرنسي، سرّ البطريرك الخويك لنجاح مهمته في باريس، فغادر العاصمة الفرنسية مرتاح الضمير مطمئن البال إلى ما لقيه من الحفاوة والاحترام، وإلى ما أدّت تلك المساعي من تحوّل في السياسة الأوروبية بوجه عام والسياسة الفرنسية بوجه خاص لصالح استقلال لبنان. وصادف وجود البطريرك الخويك في باريس آنذاك زهاب الأمير فيصل إليها. ومّا قابل هذا السيد كليمنصو رئيس الوزراء وباحثه بشأن مسألة لبنان والشواطئ البحرية، حصل منه علي هذا الجواب الفاصل: «قد كان لبنان دائماً مستقلاً، ولا أريد منذ الآن وصاعداً ان تفكّر به أو تطمع بضمّه إلى سورية».

حمل البطريرك معه إلى لبنان، الذي وصل

استقلال لبنان».

(٦٣) راجع حروفوش، المرجع السابق، ص

٦٠١-٦٠٢.

(٦٢) هناك نسخة عن هذه المذكرة في ارضيف

البطريرك الياس الخويك الذي نظّمناه حديثاً، وقد ضمت إلى اضبارة «سفر البطريرك الخويك إلى باريس سعياً وراء

الحويكت بكتابات توصية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزرائها والوزراء. ودفع إليهم بعد وصوله إلى العاصمة الفرنسية صكّ التوكيل الرسمي من البطريرك الماروني ومن مجلس إدارة لبنان. وهذا أهم ما جاء فيه:

«لما كان هذا المجلس الممثل للشعب اللبناني نيائياً قد وجه، في مضبطته الصادرة في تاريخ ١٩ حزيران (يونيو) ١٩١٩، رجاءً وتكليفاً إلى غبطة البطريرك الماروني الياس الحويكت بالسعي لدى مؤتمر الصلح وسائر رجال الحلّ والمعقد في باريس وغيرها «في سبيل» تأييد استقلال جبل لبنان الكبير بحدوده التاريخية والطبيعية، استقلالاً تاماً إدارياً وسياسياً وفقاً لقرارات المجلس السابقة، ولما كان من الضروري للمصلحة الوطنية ان يوجد الآن من يلاحق المطالب اللبنانية المقدم ذكرها لدن المراجع الايجابية، فبناءً على ذلك كله قد قرّر هذا المجلس تفويض وتوكيل سيادة المطران عبد الله حوري الموجود الآن في باريس لإكمال السعي لدى مؤتمر الصلح وسائر المراجع الايجابية في باريس وغيرها للحصول على المطالب والاماني المار ييانها على الشكل المصرح به في هذه المضبطة وتقرير هذه الحقوق في مؤتمر الصلح بالصورة النهائية في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠. وتلي التواقيع: حبيب السعد رئيس المجلس، خليل عقل، سعد الله الحويكت، عيد الحلليم الحجّار، محمود جنيلات، داود عمّون، سليمان كنعان، محمد الحاج

إليه في ١٩١٩/١٢/٢٥، عريضة السيد كليمنصو المؤرخة في ١٩١٩/١١/١٠، وحمل الامير فيصل معه معاهدة موقّعة منه ومن كليمنصو نفسه، جاء في أحد بنودها: «يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسي، وستعين الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هذا بعين الاعتبار لإتمام حقوق ومصالح وأماني الأهلين» (٦٤).

غير ان الامير فيصل لم يتقيّد بالمعاهدة في ما يتعلّق بحدود لبنان، وخصوصاً بعد عقد مؤتمر سان ريمو، وصرّح بعد عودته من مؤتمر الصلح، ويده المعاهدة، بأن لبنان لا تتوسّع حدوده، وانما يستقلّ عن سورية فقط. فقلقت الحواطر لهذا التصريح، واضطرب بال بطريرك وأوجس خيفة من ان تهدم أنواء السياسة المعادية ما بناه في باريس من أسس واتفاقيات لقيام دولة الامتقلال. فعمد عندئذٍ إلى إيفاد نائبه المطران عبد الله حوري رئيساً للوفد الثالث، لإكمال ما بدأ به غبطته ومتابعته. فرافق المطران حوري في مهمته هذه كل من الامير توفيق ارسلان والشيخ يوسف الجميل والاستاذ إميل اده، ولحق بهم في ٢٤ آذار (مارس) ١٩٢٠، المطران كيرلس مغنّيب.

غادر المطران عبد الله حوري بكركي في أول شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأبحر مع الوفد المرافق في الثاني منه، بعد ان أصبحه البطريرك

(٦٤) راجع حرفوش، المرجع السابق، ص ٦١١.

محسن، محمد صبرا دلاغور، فؤاد عبد الملك، الياس شويري، نقولا غصن، يوسف بريدي» (٦٥).

وصل الوفد إلى باريس في ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأخذ فور وصوله في مباشرة مهمته. فزار أولاً السيد جورج بيكو المطلع على مجرى الحوادث في لبنان، فأعلمه هذا أن أرباب الأمور عقدوا العزم على توسيع حدود لبنان بضمّ بيروت والبقاع إليه. وبعد اتصالات عديدة واجتماعات مطوّلة وزيارات فردية وجماعية لشخصيات فرنسية بارزة، وبعد مناقشات في المجالس الخاصة والعامة، وبوجه خاص في مجلسي الوزراء والنواب الفرنسيين، تعيّنت حدود لبنان بموجب الخارطة التي كان قد رسمها أركان حرب الحملة الفرنسية سنة ١٨٦٠، وهي تضمّ، إضافة إلى الجبل اللبناني، بيروت وطرابلس وصور وصيدا، وسهل البقاع مع راشيا وحاصبيا ومنطقة الهرمل - بعلبك. ولما رأى رئيس الوفد مع مرافقيه ان مهمتهم قد انتهت، عادوا إلى لبنان في ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠.

وفي هذه الأثناء كان الجنرال غورو قد أعلن في اليوم الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، استقلال دولة لبنان الكبير في قصر الصنوبر في بيروت، وكان إلى يمينه البطريرك الياس الحويك، إلى يساره الشيخ مصطفى نجما،

ومن حولهم الأساقفة والرجال الرسميون والوجهاء والاعيان. وعلى اثر هذا الاعلان، صدر مرسوم بتنظيم دولة لبنان الكبير؛ فقُسّمت البلاد إلى متصرفيات وأقضية، وأعيد تنظيم دوائر الحكومة المركزية على قاعدة الوزارات المصقّرة، وعيّن لها مستشارون فرنسيون. أمّا منصب الحاكم العام فعُهد إلى الكومندان ترايو الذي بقي في منصبه حتى ١٢ أيار (مايو) ١٩٢٣.

وظلّ لبنان بحدوده الحاضرة تحت الانتداب الفرنسي من ١٩٢٠ حتى ١٩٤٣. ولما كان، طيلة هذه المدّة، فريق من اللبنانيين يأبون الاعتراف بلبنان كدولة مستقلة ويطلبون من حين إلى آخر الالتحاق بسورية، عقد في سنة ١٩٤٣ مؤتمر عام حضره أصحاب الرأي ورجال السياسة من الطوائف المسيحية والاسلامية، وفي طليعتهم الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح، وتمّ الاتفاق فيه بالاجماع على ان يعترف المسلمون بلبنان ضمن حدوده الحاضرة وطناً لهم ويعدلوا عن طلب الالتحاق بأية دولة في الجوار مقابل تخليّ المسيحيين عن التمسك بأية حماية غريبة وموافقتهم على ان يكون لبنان وطناً لجميع أبنائه على السواء، وان يتّجه في سياسته اتّجهاً قومياً استقلالياً وطنياً. وهذا ما أسموه «بالميثاق الوطني»، منذ سنة ١٩٤٣، حتى

(٦٥) نستقي هذه المعلومات الدقيقة من يوميات سفر المطران عبد الله خوري إلى باريس التي ما تزال محفوظة في اضرابة خاصة به في ارشيف بكركي، ومن مؤلّف الأب حرفوش، المذكور أعلاه، ص ٦١٤-٦١٨؛ ومن مخطوطة أطروحة دكتوراه، أعدّها

حكمت الحدّاد، وناقشها بإشرافنا في قسم التاريخ في جامعة الروح القدس، ١٩٨٥، بعنوان: الأوطاع السياسية في لبنان بين ١٩١٨-١٩٢٠، ودور البطريركية المارونية في إعلان دولة لبنان الكبير.

يوماً هذا.

١١. من الامتيازات إلى الاستقلال الناجز التام.

والحوار مع الآخرين قبل أخذ القرارات، والوفاء لكل من مد لهم يوماً ما يد المساعدة وأظهر نحوهم عطفاً وتفهماً وحسن مبادرة. ان هذا كله مكنّ الموارنة من المحافظة على حقوق الانسان في العيش بحريّة وكرامة على مرّ الاجيال، ومن المساهمة في خلق وطن يضمن هذا الحقّ لجميع أبنائه» (٦٦).

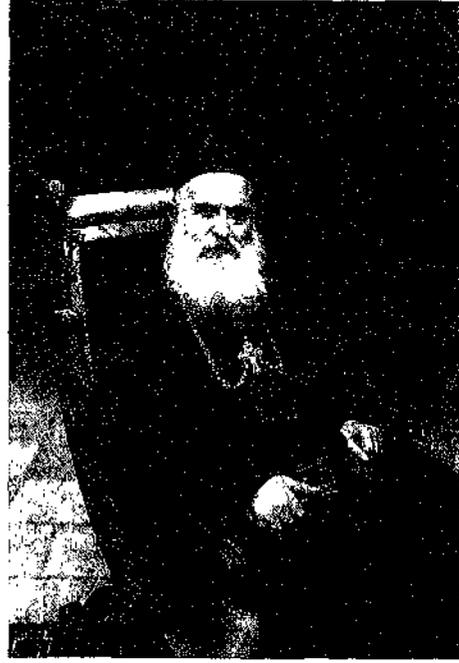
كان من الطبيعي ان يتسلّم الموارنة، كلبنانيين، دقة الحكم في جمهورية كان لهم الدور الأساسي في خلقها. وكان من الطبيعي أيضاً، بعد ان قامت الجمهورية اللبنانية تجسّد فكرة الاستقلال والدفاع عن حدود الدولة وسلامة أراضيها، أن تحمل هذه الدولة محلّ الكنيسة المارونية في تحمل المسؤوليات السياسية والوطنية. إلا أن الكنيسة، كمؤسسة دينية وروحية، يبقى عليها ان تدافع عن حرية المعتقد والاخلاق، وان تعش الروح الوطنية في الكيان اللبناني، وان تحارب الاحاد والزيف عن الايمان والهتافات، وان تكافح الظلم والاباحية وتردّي الاخلاق من استرسال في استباحة المحرمات والإدمان على المخدرات، وان تسهر على القيم والآداب السليمة والمثل العليا.

وهذا ما برح ينادي به، ويدافع عنه، ويدعو له جميع البطاركة الموارنة على مرّ التاريخ، وبوجه خاص بطاركة القرن العشرين: من الياس الحويك إلى أنطون عريضة، فيلى بولس المعوشي، فيلى نيافة الكردينال أنطونينوس

يبدو واضحاً مما تقدّم ان لبنان لم يكن، في وقت من الاوقات، وخاصةً في عهد الدولة العثمانية، مستقلاً استقلالاً تاماً ناجزاً، كما هو اليوم. بل جلّ ما في الواقع التاريخي أنه كان حاصلًا على بعض الامتيازات ومستقلاً استقلالاً إدارياً داخلياً. وقد ظهر هذا الاستقلال بصورة جليّة في عهد الأمراء المعيّنين والامراء الشهابيين، وعهد القائمقاميتين والمتصرفية، أي من ١٥١٦ حتى ١٩١٤. ولما أصبح حرّاً في تقرير مصيره بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٨، وتقلص ظلّ الحكومة العثمانية عن البلدان الشرقية، توصلّ الموارنة مع بقية اللبنانيين، وبوجه خاص المسيحيين منهم، إلى انتزاع استقلالهم التام السياسي والإداري بواسطة دولة فرنسا، التي حققت حلم الموارنة القديم بإعلانها، في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، دولة لبنان الكبير بحدوده الحاضرة كدولة مستقلة ذات سيادة حرّة على جميع أراضيها. وهذا الحلم لم يكن ليتحقّق لو لم «يتمكّن الموارنة عبر العصور، من المحافظة بدافع فطرتهم القومية، على هويتهم التاريخية عن طريق الثبات في الموقف، والكفاح المستمرّ ضدّ الجور، والتعليم من الاخطاء، والحكمة في انتقاء الاصدقاء، والاستعداد للتفاهم مع الغرباء والاضداد، والانفتاح على الحضارات،

(٦٦) راجع الصليبي، المقال المذكور، ص ٤٧.

معاً، عدم الانحياز إلى الغرب وعدم الالتحاق بالشرق. واجتازوا المراحل الأولى، بعد ١٩٤٣، بنجاح، وتوصلوا إلى المحافظة على كياناتهم وعلى النظم الديمقراطية الحرة برغم الصعوبات والاختطارات الكثيرة التي كانت تحيق بهم. وعرف لبنان، قبل أحداث ١٩٧٥، عهد ازدهار اقتصادي وأخوة إنسانية، بدأ معه، وكأنه في وقت من الاوقات، مثلاً يحتذى به، ورائداً في مجال إقامة نوع جديد من العلاقات بين الناس. وجاء نموذج التعايش السلمي بين اللبنانيين دليلاً على أنه بالامكان إقامة مجتمع وطني متماسك الاطراف، متعدد المعتقدات والثقافات والايديولوجيات، وهذا ما جعل من لبنان رمزاً بين الامم.



البطريك أنطوان عريضة

ان التوازن والاستقرار الذي أراده الموارنة واللبنانيون نهائياً لوطنهم وثابتاً، قضت عليه قضاءً مأساوياً، في الآونة الأخيرة، تحركات في المنطقة الشرق-أوسطية، ومداخلات أجنبية في لبنان. وجاءت المأساة الفلسطينية لتزيد من خطورة هذا الوضع وتوقد نيران الفتنة وتطلق الأزمات. وجاءت بعد ذلك الأحزاب المتطرفة، كالشيوعية والاشتراكية والقومية، والحركات الدينية المتعصبة، كالحمينية والتوحيدية، لتمعن في تفتيت البلد، وتشردم الجيش وتضعف الشرعية.

خريش الذي لم يترك سانحة دون ان يسمع صوته في المحافل الدينية والمدنية، ويتخذ الموقف الحكيم والرزين الذي يمليه عليه الضمير، من الاشخاص والاحداث.

١٢. تجربة الميثاق الوطني والمداخلات الخارجية

قد يكون الموارنة، وبوجه خاص الذين تحملوا مسؤولية الحكم في لبنان، قد أسأوا حسن الادارة والتدبير. ولكن، يبقى ان جوهر الأزمة هو أبعد من المطالبة بحقوق، وإصلاح النظام، والتمتع بمبدأ المساواة، وإبطال امتيازات طائفة على حساب طائفة أخرى. ان

ان تجربة الميثاق الوطني كانت تجربة ناجحة في بدء استقلال الجمهورية اللبنانية سنة ١٩٤٣، وقد تمكّن اللبنانيون، مسلمون ومسيحيون، إلى حد ما، من العيش في وطن حر، سيد، مستقل، يضمن لهم، في آن

تابع الاحداث من سنة ١٩٧٥ حتى اليوم يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بان ما يريد الأخصام إنما هو اقتلاع المسيحية من الشرق، والقضاء على المارونية وغيرها من الطوائف المسيحية في لبنان.

ان دور الطائفة المارونية اليوم، وحضورها حالياً في لبنان، هو هو كما كان بالأمس، في أيام المماليك، وفي عهد العثمانيين، وأبان أحداث ١٨٦٠، أي ان تظلّ، كما سبق وقلنا، محافظةً بدافع فطرتها القومية، على هويتها التاريخية عن طريق الثبات في الموقف، والصمود المستمر في وجه الجور والظلم، والتعليم من الأخطاء، والحكمة في انتقاء الأصدقاء، والاستعداد للتفاهم مع الأخصام، والانفتاح للحوار مع الآخرين بصدق وإخلاص ووفاء.

١٣. تطّعات مستقبلية وانفتاح على ثقافة الغرب

ان دور الكنيسة المارونية اليوم وحضورها في لبنان هو ان تظلّ منفتحة في محيطها الجغرافي وعلى بقية الطوائف اللبنانية، وان يكون لها التأثير الفاعل والمميز في مختلف التفاعلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في هذا الشرق. فإذا تطّعتنا إلى الماضي، بيان لنا، على ضوء الاحداث التاريخية المتتالية، تأثير الكنيسة المارونية في الامارات اللبنانية الثلاث: العسافية، والمعنية، والشهاية. فمنذ بداية القرن السادس عشر، بدأ الانفتاح، من خلال نزوح العائلات المارونية إلى الوسط فالشرف فالجنوب، على بقية

الطوائف والحكام المحليين. ثم خرجت الكنيسة المارونية من مقلها القديم في وادي قاديشا وقزحياً وقنوبين، وراحت تتغلغل في الجبل اللبناني من الشمال إلى الجنوب. فدخل الموارنة كعنصر فعّال في الامارات الثلاث، والتقت مصالح كنيستهم مع مصالح هؤلاء الامراء من الناحية المادية والاقتصادية والمعنوية والسياسية. وكانت حيوية الشعب الماروني تستمدّ قوةً فعاليتها من قداسة سيرة، وصلابة عقيدة، وشدة مراس، وثبات عزيمته في الاكليرس الماروني والرهبانيات. فاستقر الفلاحون والمزارعون من أبناء الشعب الماروني، بعد نزوحهم من الشمال إلى المناطق الشوفية، في المزارع والقرى الجبلية، حيث تعاطوا حراسة الارض وتربية دود القز، في حين زاول غيرهم الاعمال التجارية في المدن الكبرى. وهكذا توطّدت وحدة الحال بين الطرفين. فأصبح نشاط الفلاحين والتجار قواماً لاقتصاد الامارة، كما كان تأييد البطاركة والأساقفة الموارنة دعامة لسطوة الامراء.

ولم يقتصر الانفتاح على المجتمع اللبناني وأبناء بقية الطوائف الأخرى وحسب، بل تعداه إلى الغرب المسيحي، عن طريق المراسلات وإيقاد المرسلين الكاثوليك من فرنسيسكان وكبوشيين وكرمليين ويسوعيين ولعازريين وغيرهم. ونتيجة لذلك، توطّدت العلاقات بين الكنيستين المارونية والرومانية، وزاد اهتمام الاحبار الاعظمين بشؤون الكنيسة المارونية، فأخذوا يعيّنون لها كردينالاً خاصاً من كرادلة الكنيسة لرعاية مصالحها. وأنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٨٤، المدرسة المارونية في رومة، كما سبق ورأينا.



مدرسة عين ورقة قبل ترميمها

في ارتداد بعض أبناء الطوائف الشرقية الأرثوذكسية إلى الكنيسة الكاثوليكية، ووفروا لرؤسائهم الروحيين من أساقفة وبطاركة، مع بعض العائلات المارونية النافذة، مقراً لسكانهم في جبل لبنان. وتوصل الأكليرس الماروني، بواسطة مداخلاته ونفوذه، وبدافع من غيرته الرسولية، إلى تنصير الأمراء الشهابيين في نهاية القرن الثامن عشر.

وعلى الصعيد الثقافي، تجلّى نشاط الكنيسة المارونية في بعث النهضة العلمية التي قام بها تلامذة المدرسة المارونية في لبنان والشرق. فهذه المدرسة شكّلت منعطفاً تاريخياً في حياة الكنيسة المارونية. منها انطلقت الشرارة الأولى التي أضاءت مشعل الحضارة والنهضة الثقافية التي قاد مسيرتها تلامذتها

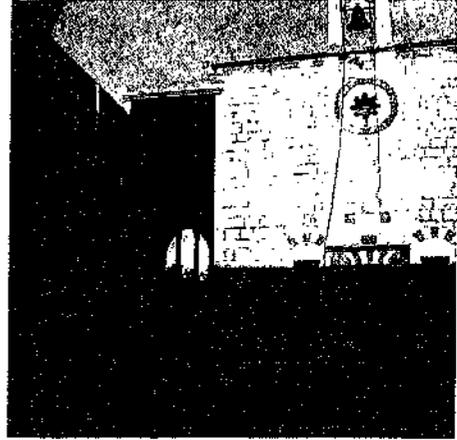
وعقد سنة ١٥٩٦، أول مجمع إصلاحي في الكنيسة المارونية، وجدّد فيه الموارنة تمسكهم بالاعتاب الرسولية وخضوعهم للاجبار الرومانيين.

ولم يطل الوقت، حتى بدأت الكنيسة المارونية تقطف ثمار انفتاحها على الغرب المسيحي، مع رجوع تلامذة المدرسة المارونية إلى أرض لبنان والشرق. فنتى غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر، تبوأ الكرسي الانطاكي ستة من خريجي هذه المدرسة، كما رفّعي عشرات الكهنة منهم إلى الدرجة الأسقفية. فراحوا ينشطون معاً في إعادة تنظيم كيستهم وتدير أبنائها وإدارة كنائسها وأوقافها، وضبط طقوسها، وتعزيز النشاط الرسولي في الأبرشيات. فساهموا إلى حدّ بعيد

المجتمعات الأوروبية، حتى عرّف بهم في تلك
الاساط والاندية العالمية هناك، بهذا اللقب
«عالم كماروني». وتعتبر مصنّفاتهم، حتى
يومنا هذا، مرجعاً أولياً لا يستعاض عنه
بسهولة. فتأليف السمعاني الكبير كانت ولا
تزال مفتاح العلوم الشرقية ومنهلاً للآداب
السريانية العريقة. وللسمعاني أناداً قبله وبعده،
كابن القلاعي، وشلقى، والدويهي،
والحاقلاني، والسماعة الأخرين ونيرون الباني
في رومة، والصهيوني والحصروني في
باريس، والغزيري في اسبانيا، وتادروس
العظيم وأنطون عريضه في براغ وغيرهم.

١٤. حيوية ناشطة وشهادة الدم

وتجلّت حيوية الكنيسة المارونية، في
أواخر القرن السابع عشر، بتأسيس الرهبانية
اللبنانية بفرعيها اللبناني والحلبي سنة ١٦٩٥،
وتأسيس الرهبانية الانطونية سنة ١٧٠٠.
فساعدت هذه الرهبانيات الثلاث في نمو الحياة
الروحية، وازدهار الاقتصاد اللبناني، كما
أسهم العديدون من أبنائها في إنعاش النشاط
الرسولي في القرى والارياف النائية. وفي الربع
الأول من القرن الثامن عشر تنادى عدد من
خريجي المدرسة المارونية إلى تأسيس رسالة
مارونية عمّت نشاطاتها معظم قرى لبنان
وسورية وفلسطين وجزيرة قبرس. ويبقى
الحدث الأهم بالنسبة إلى تنظيم الكنيسة المارونية
في النصف الأول من القرن الثامن عشر، وهو
انعقاد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦، في دير سيدة
اللوزية. فأقر هذا المجمع، فيما أقره، فصل
ديورة الرهبان عن الراهبات، وتقسيم



سيدة اللوزية كنيسة المجمع اللبناني

المجلّون، وإليها يعود الفضل في انفتاح الغرب
المسيحي على كنوز الشرق وبقية الاديان
والمذاهب، كما أسحت في المجال لأبناء
الشرق لاكتشاف حضارة الغرب، عن طريق
الترجمات وتعليم اللغات الأوروبية على
أنواعها. فكانت المدرسة المارونية نقطة انطلاق
لدفع عجلة العلم والتربية في لبنان، وإنشاء
المدارس المحلية العديدة التي تخرّج منها، وبوجه
خاص، من مدرستي عين ورقه وعيتطورا،
عدد وافر من الشبان الموارنة الذين أدّوا أجلاً
الخدم لوطنهم ومحيطهم المشرقي. فدخلوا في
خدمة الامراء الحاكمين، وأصبحوا مع توالي
الايام طبقة مارونية متعلّمة ذات شأن في البلاد.
وقد جلتى منهم غير واحد في العلم والأدب
والشعر في لبنان والبلدان العربية، فرفعوا
مستوى اللغة، وأغنوا آدابها بالتأليف النفيسة،
كما رأس العديدون منهم تحرير المجلّات
والجرائد اليومية.

وأفسحت المدرسة المارونية في مجال
تفوّق بعض تلامذتها في شتى العلوم في

البطريكية المارونية إلى ثمانى أبرشيات، يتولّى احداها البطريرك الماروني مباشرة، ويعين لكل من السبع الأخرى مطراناً خاصّاً بها. وكانت الكنيسة المارونية حتى ذلك التاريخ في جبل لبنان منطقة واحدة يديرها البطريرك بمعاونة مطارته.

ورافق تنظيم الكنيسة المارونية، في هذه الحقبة، اهتمامٌ جديّ بكتابة تاريخها من قبل البعض من خريجي المدرسة المارونية. فأكبوا على دراسة التواريخ القديمة، وعلى تجميع وتقيّم المراجع والمعلومات المشتتة هنا وهناك في المخطوطات والمصاحف الموزعة على الكنائس والديورة، كما جدّ البطريرك اسطفانس الدويهي في البحث عن آثار الموارنة في الغرب المسيحي كما في الشرق. وبعد ان توفرت لديه المعلومات التاريخية الصحيحة، وضع أوّل تاريخ منسّق لكنيستهم، وضبط سلسلة تاريخية لبطاركتهم.

وفي سنة ١٨٦٥، أسّس المطران يوحنا حبيب جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة، غايتها الوعظ والارشاد والتعليم. كما أسّس المطران الياس الحويّك، سنة ١٨٩٥، جمعية راهبات العائلة المقدّسة المارونيات لتهديب الفتيات في القرى. وكانت قد تأسّست في بداية القرن الثامن عشر، إلى جانب الرهبانيتين اللبنانية والانطونية، جمعيتان رهبانيتان للنساء. قاتر أعضاء هاتين الجمعيتين العيش أولاً بمقتضى الحياة النسكية الديرية، حتى تحوّلت إحداهما بعدئذ سنة ١٩٣٢، وهي جمعية الراهبات الأنطونيات، إلى رهبانية رسولية، في حين بقيت الأخرى جمعية رهبانية ديرية. وهناك

أيضاً راهبات مارونيات يفرغن للصلاة وعمل اليد ضمن حصن الدير، كراهبات البشارة في الذوق، وراهبات الزيارة في عينطورا، وراهبات مار يوحنا حراش، وراهبات سيده الحقلية. وفي سنة ١٩٣٥، أسّس الحوراسقف أنطون عقل راهبات القديسة تريزيا الطفل يسوع، اللواتي يقمن بتربية الناشئة في المدارس، ويعتّين بالمرضى في المستشفيات. وفي سنة ١٩٦٦، أسّس الحوري اميل جعاره راهبات القربان الأقدس المرسلات اللواتي يوجّهن عنايتهن إلى تثقيف الفتيات في المناطق الجبلية والأرياف.

ان من يحلّل عن كُتب المراحل التي مرّت بها الكنيسة المارونية عبر تاريخها الطويل، ويتوقّف عند الاحداث المصيرية الهامة التي ألحنا إليها، يرى ان هذه الكنيسة تميّزت بقوة دافعة، وحيوية ناشطة، تمثّلت، لدى بعض الفئات من أبنائها، في أداء الشهادة لمعتقداتها الديني وإيمانها، حتى سفك الدم، وفي الانقطاع عن العالم والزهد في أباطيله حتى البطولة وفي نشر الثقافة والرسالة في مختلف الاوساط، وفي المغامرة في الحفاظ على الحرية والكرامة، وفي كسب العيش الكريم حتى آخر رمق من الحياة.

أمّا على صعيد الشهادة للمعتقد الديني حتى سفك الدم، فقدّمت الكنيسة المارونية على مذبح وفائها لمحبتها للمسيح معات القربان والضحايا البريئة الذين قضوا في سبيل الدين أو دفاعاً عنه، نذكر منهم الثلاثمانية والخمسين شهيداً في بداية القرن السادس، والبطيريك جيراثيل حجولا ١٣٦٧، وأبا كرم يعقوب الحديثي ١٦٤٠، ويونس أبي رزق البشعلاني

وبرزت كمؤسسة كنيسية حول ديره على ضفاف العاصي، فاستتارت بتعاليمه السامية، وجذبها نمط حياته القشفة، فتأثرت أكثر من سائر الكنائس الشرقية بالمسلك النسكي والرهباني معاً، حتى بدت، في بعض مراحل حياتها وكأنها جماعة رهبانية. فالقديس مارون هو أبوها الروحي ومرشدها، وحجر الزاوية في أساس بنائها. منه يبدأ ذلك المشعل الروحاني الجذاب الذي يتلأأ نوره على طول الطريق، وإليه يرجع زخم ذلك المعين الدفأق لتراث نسكي جليل، ما زالت الاجيال الطالعة تنهل منه حيوية وبطولة وقداسة. فحذا حنوه، وهو على قيد الحياة، عدد كبير من التلاميذ، منهم: يعقوب الكبير، وليمانوس، ويوحنا السائح، وأنطيوخس، وأنطونينس، ومارانا، وكورا، ودوميتا.

وبعد أن ولّى الموارنة وجوههم شطر جبل لبنان، على أثر الاضطهادات والمنازعات، منذ منتصف القرن السابع، وقطنوا مناطقه الشمالية، وتوغّلوا في وادي قاديشا وقزحياً، وقّوبين، نما بينهم عد الزهّاد والنسّاك، ودلف كثيرون منهم إلى تلك المغاور الطبيعية والصوامع النائية. فازدهرت الحياة النسكية في ذلك الوادي المقدّس، واشتهر من النسّاك الموارنة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، هؤلاء الآتية أسماؤهم: يونان المترجي، وجبرائيل الاهدني، ويوحنا اللحفدي، وملكا البقوفاني، وميخائيل الرزي، وسركيس الرزي، ويوسف البسلوقي، ويعقوب عصّاص السراني، وفرنسوا غالوب دي شامتويل، الفرنسي الأصل.

١٦٩٧، والشيخ كنعان الضاهر ١٧٤١، وإبراهيم البشراني الراهب اليسوعي الذي استشهد في الحبشة، والاخوة المسابكين الثلاثة في دمشق ١٨٦٠، وراهبان دير سيدة ممشوشة وعددهم اثنان وعشرون في السنة نفسها، وشهداء الاحداث الدامية الأخيرة من سنة ١٩٧٥ حتى سنة ١٩٩٠، وهم أكثر من ان يحصوا؛ ولكن نذكر منهم شهداء الرهبانية اللبنانية الآباء: بطرس ساسين، وأنطونيوس ثمينه، وجرجس حرب، ويوسف فرح، وفرنسيس بو أنطون، والأخ يوحنا مقصود. والخوري فيليب أبو سليمان خادم رعية بحدون، والاخت فيلومن خوري من راهبات القديسة تريزيا، وشهداء بريمي وعلى رأسهم كاهن الرعية، وجميع الذين قتلوا في معركة الجبل ومنطقة صيدا والاقليم، وقد مثل بهم أفظع تمثيل، ولم تشفع بالعديد منهم شيخوخة مهدمة، أو نضارة فتوة. وكم من شهيد وشهيدة في مناطق عديدة من لبنان، وفي كل قرية وبلدة ومزرعة ودسكرة ومدينة، سقطوا ضحايا الغدر، والعيش المشترك، فأغمضوا عيونهم عن أنوار هذه الدنيا، ولسان حالهم يقول للسيد المسيح: «اننا نموت من أجلك كل يوم، وقد حسبنا كغنم للذبح».

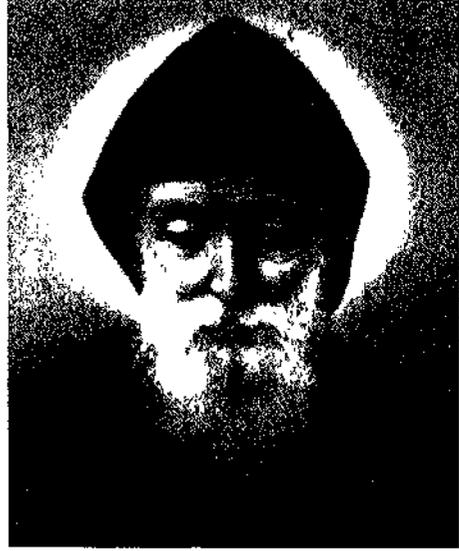
١٥. الشهادة للعالم الآخر

وعلى صعيد الانقطاع عن العالم المرثي والشهادة للعالم الآخر والزهّد في أباطيل الدنيا، فقد أعطت الكنيسة المارونية أكثر من مثل يحتذى به. فتأسست هي أولاً، حول صومعة أبيها الاكبر القديس مارون التامك،

البابا يوحنا بولس الثاني الأخت رفقا، الراهبة المحصنة في دير مار يوسف جربتا، وقدمها مثالا للحياة المكرسة لله، في عطاء كامل، وسط أشد العذابات والآلام الجسدية.

وفي هذه السنوات الأخيرة، ترك الأب أنطونيوس شيئا رئاسة دير مار أنطونيوس قزحياً ليدخل محبسة مار بولا أول الحبيساء، المطلّة على الوادي المقدس. فهو يكمل اليوم حلقات سلسلة النسك الموارنة الذين عاشوا على مرّ الاجيال في الكنيسة المارونية.

١٦. الموارنة في العالم



القدّيس شربل مخلوف

وبعد ان تأسست الرهبانية اللبنانية بفرعيها الحلبي واللبناني، في نهاية القرن السابع عشر، لم تقفل معها أبواب الصوامع والمحابس في لبنان، لا بل تنظمت هذه الحياة، فسنت لها القوانين والرسوم، وعادت فعمرت المحابس مرة أخرى بالزهاد والمتوحدين، قرب أديرة مار أنطونيوس قزحياً، ومار مارون عتايّا، ومار أنطونيوس حوب، وسيدة ميفوق، ومار شليطا القطارة، ومار بطرس كرم الثين، وسيدة مشموشة، وسيدة طاميش. وقد بلغ عدد هؤلاء الحبيساء في الرهبانية اللبنانية المارونية وحدها، العشرات، وكان من أبرزهم أسماء، وأرفعهم شأنًا، وأعظهم شهرة وقداسة، الحبيس البار القدّيس شربل مخلوف، مثال الحياة النسكية الأعلى في العصر الحديث، كما كان القدّيس مارون في القديم. وفي ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥، طوّب قداسة



الطوباوية الأخت رفقا

الواسعة. فكان منهم رجل الاعمال النشيط، والتاجر الحكيم، والشاعر الملم، والأديب الكبير، والعالم العلامة، والسياسي الختكت، والطبيب البارع، والمحامي اللامع، والمهندس الناجح. ودخلوا المعترك السياسي، ففازوا برئاسة الولايات والانتخابات النيابية، وأسندت إلى العديد منهم الحقب الزارئية، وتوصل بعضهم إلى رئاسة الدولة.

ولما كثر عدد أبناء الكنيسة المارونية في دنيا الاغتراب، حتى كاد يفوق العشرة ملايين، بحسب الاحصاءات الأخيرة، لجأ الكرسي الرسولي في الثلاثين سنة الماضية، نزولاً عند رغبة مجمع الاساقفة، إلى إنشاء أربع أبرشيات في بلدان لاغتراب، وتعين اساقفة موارنة لها. فعندما عدد الابرشيات، إضافة إلى أبرشيات حلب والقاهرة واللاذقية، الموجودة خارج لبنان، يضاهاى عدد الابرشيات الموجودة في داخله. وبات الموارنة المتحدرون من أصل لبناني والموجودون تحت سماء البلدان والقارات في دنيا الاغتراب، يفوقون أضعاف الأضعاف عدد اخوانهم المقيمين في لبنان.

فالتقديرات الأخيرة للاحصاء، الذي أجراه المركز الكاثوليكي للاعلام للموارنة المتحدرين من أصل لبناني في القارات الخمس، أعطت ما يفوق العشرة ملايين مارونياً، نظراً إلى الاجيال المتعاقبة التي راحت تنصهر مع الوقت في المجتمعات المقيمين فيها. فحيث لا يوجد كاهن أو أسقف ماروني يجمع شمل مؤمنيه، ويوحد صفوفهم، ويعزز تماسكهم الديني والوطني، تنقطع علاقة هؤلاء مع الوطن الام، وينضمون إلى المجتمعات المسيحية

وبعد هذه المحطّات التاريخية التي توقفتنا عندها في بحثنا هذا، نفيد بأن عدد الموارنة المقيمين في لبنان يتجاوز المليون والمائتين ألف، وهم موزعون على تسع أبرشيات:

عرف عن الماروني تمسكه بالحرية والكرامة مهما غلت التضحيات، وتوالت النكبات، وتفاقت الصعاب. كما عرف عنه ميله إلى حبّ المغامرة والطموح في الوصول إلى أعلى مستوى ثقافي واجتماعي وسياسي. وعلى صعيد الاقتصاد والتجارة عرف عنه كفاحه المستمر في سبيل كسب عيش حرّ وكريم. فلم يعبأ الموارنة بشظف العيش بعد نزوحهم عن سهول سورية الخصبة، ولجؤهم إلى جبال لبنان الجرداء، فطحنوا صحوره الصلدة وحوّلوها إلى جنائن غناء. فحيث نزلوا عمروا وأعلوا البنيان، وفجروا ينابيع المياه من بطون الأرض، وأجروها في الجلالتي المتتوية، دققاً مستمراً لمواسم الخير والبركة، حتى كاد يكون جبلهم مخصباً كالسهول التي تركوها في سورية.

ولما ضاق بهم المجال في لبنان، مع توالي الايام والسنين، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى، وعلى أثر المجاعة العامة، تطلّحوا إلى الآفاق البعيدة، إلى ما وراء البحار؛ فخرّبوا عن وطنهم الأم إلى بلدان العالم وقارأت الأرض. هاجروا، أولاً، إلى مصر حيث أسسوا نهضة علمية رائدة، ومن ثمّ إلى أوروبا وإلى الأميركيتين ومنها إلى أفريقيا وكندا وأستراليا. وفي كل بلد أو قارة استقرّوا فيها، أسهموا إسهاماً فعّالاً في تعميرها وازدهار اقتصادها وإنماء مصالحها الحيوية وأراضيها



سيدة لبنان في حريصا

والانفتاح على الآخرين لتكوين كيان سياسي وقومية اجتماعية، والكفاح المستمر للثبات بوجه الغزاة والمستعمرين، والالتفاف حول زعمائهم المدنيين والتعلق برؤسائهم الروحانيين للحفاظ على الفطرة المارونية ووحدة الصف وتقرير المصير. وان ما يطلب منهم اليوم هو استمرارية لما سعى إليه الآباء والأجداد

الملايين، ويصبح أولادهم وأحفادهم أبناء تلك الكنائس المحلية.

خاتمة

بعد هذه اللوحة التاريخية عن دور الكنيسة المارونية في لبنان والعالم، يبدو واضحاً أن للموارنة تراثاً جليلاً لا يمكنهم التنازل عنه، وهو العيش بحرية المحتقد وكرامة الشخص البشري؛

ملحق

بقلم المطران يوسف ضرغام*

بالأمس .

خطاياها وخطايا العالم، إذ تعتبر ذاتها مسؤولة عنها. تاريخها أسبوع آلام مستمرّ بدءًا باضطهاد أتباع الطيعة الواحدة إلى الخليفة المأمون وظلمه إلى اضطهاد المالِك ثم العثمانيين . . . تاريخ طويل من العذاب والألم وعيش صعب في جبال وعرة قاحلة وخوف دائم من عدو متربص بهم وهرب من الظلم والاضطهاد، بحيث ان بطريركهم لم يكن يستقرّ به المقام في مكان واحد معين .

مقدمة

هناك عاملان أساسيان طَبعا الحياة الروحية المارونية وهما النظام الرهباني الذي كان في أساس قيام الكنيسة المارونية، والصعوبات والاضطهادات التي قاساها شعب مارون طوال تاريخه. تأثير هذين العاملين مجده في الروحانية والطقوس والفن .

هذا الوضع حمل الموارد على الصلاة والصوم والتشّف والصمود والصبر والرجاء .

١٧ . الروحانية

لكنهم كانوا يعرفون ان الصليب هو الطريق إلى القيامة والحياة. فكانت فضيلة الرجاء تنير طريقهم الرعر وتعزيهم في بلاياهم. فهم أهل صليب وأهل رجاء في آن معاً، ينادون سيدهم، مع صاحب الرؤيا «مارانانا»: «إننا نتنظر مجيئك» .

قامت الكنيسة المارونية حول أديرة الرهبان فجماعت كنيسة مصليّة. وكانت تعرف ان «ليس لنا هنا مدينة ثابتة» فراح ترو إلى «المدينة العتيقة». من هنا أهمية التوبة والانسحاق أمام المصلوب والتطلّع الدائم إلى حسن الجزاء في الحياة الثانية. إنّها كنيسة المصلوب المتألّمة التي تتأمّل بآلام سيدها وتبكي

إلى روحانية الزهد والتشّف أضافوا

* مطران مصر وأفريقيا .

تكريم العذراء أم الله التي أصبحت المحامية والشفيعة والعون في التجارب والمصاعب. فكل مراكز بطارتهم تأسست على اسم أم القادي: سيدة يانوح وميقوق وقنوين والديمان وبكركي... وهي في قراهم ومدنهم سيدة البزاز والزروع والبيدر والحفلة والنجاة والمعونات والتعزية... ومع استيطانهم لبنان، أصبحت سيدة لبنان. روحانية هي وليدة إيمان وحياء. إيمان صلب وحياء قاسية تتطلب جهداً وصموداً في وجه الشيطان وتجاربه. مثالهم الراهب المتعبّد الزاهد، من مارون إلى شربل مروراً بكل النسّاك الذين كانت المغاور والكهوف تمتلئ بيخور صلواتهم والوديان تردّد صدى ترانيمهم.

١٨. الليترجية

يتميّز الطقس الماروني بالبساطة والصفاء ومشاركة المؤمنين. يجد جذوره في الطقس الانطاكي السرياني، وإن تأثر بعض الشيء بالطقس الأورشليمي. كما انه، منذ زمن الصليبية وخصوصاً بعد تأسيس مدرسة رومة في أواخر القرن السادس عشر، دخلت عليه عناصر لاتينية جمّة كادت تخفي العناصر الأصيلة.

لكن هناك حركة إصلاح طقسي بدأت تباشيرها في القرن السابع عشر مع العلامة الدويهي ثم مع المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦. لكن هذه التباشير لم تؤت ثمرها قبل هذا القرن حيث عيّنت لجان لدرس التراث وتنقية الطقس من العناصر الدخيلة والعودة إلى

الاصالة مع الأخذ بالاعتبار أهمية التجديد حيث تقضي الحال. وككل نهضة تكثرت المحاولات فيتعمّن على المسؤولين وأهل الاختصاص عملية الغرلة والضبط.

السنة الطقسية المارونية تبدأ في الأحد الأوّل من تشرين الثاني (نوفمبر) وتنتهي في الأحد الأخير من تشرين الأول (أكتوبر). وهي تتمحور حول شخص المسيح وحياته على الأرض حيث تظهر الأعياد السيديّة كمحطات تسمى أزمنة: الميلاد والدنح (الظهور) والصيام والآلام والموت والقيامة والصعود ثم حلول الروح القدس على التلاميذ وارتفاع الصليب.

وفي الطقس الماروني أوقات مقدّسة تتطلب الاستعداد بالصوم والصلاة. فعيد القيامة يسبقه الصوم الخمسيني وعيد الرسولين بطرس وبولس يسبقه صوم الرسل في شهر حزيران (يونيو) وعيد انتقال العذراء يسبقه صوم آخر في شهر آب (أغسطس). كما ان هناك صوماً يسبق عيد الميلاد المجيد. كما ان الانقطاع عن أكل اللحم مطلوب يومي الأربعاء والجمعة. هذا في الأصل، لكن تعديلات عديدة دخلت على هذه التقاليد وبذلت فيها ولا سيّما بعد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني.

صلوات الطقس الماروني مأخوذة من الكتاب المقدّس أو هي شرح له وتأمّل فيه. كما ان هناك صلوات عديدة وترانيم تعود إلى آباء الكنيسة السريانية كالقدّيس افرام والقدّيس يعقوب السروجي وغيرهما.

شعب يصلي مع رهبانه الفرض الرهباني كل مساء، وحتى الأمس القريب، حيث حدّت متطلبات المدينة العصرية من هذه

للقرارات والوعظ. مذبح صغير (أو أكثر من مذبح حيث للكنيسة أكثر من فناء) يعلوه صليب من الخشب أو من النحاس.

على جانبي الفناء، قرب الخورس، مائدتان توضع عليهما الكتب الطقسية يجتمع حولها المصلون لإقامة صلاة الخورس بين جوقين. كما تجد بعض الآنية البسيطة الرخيصة الثمن من خشب أو معدن توضع الشمع والبخور والقرآن ومواه من مستلزمات العبادة.

علي المذبح، في وسطه، خشبة صغيرة أو حجر حفر عليه صليب، يدعى «طليت»، كرمه السيد البطريرك أو الأسقف، توضع فوقه القرايين. قد تجد في بعض الكنائس القليلة، بعضاً من الفميفساء على الجدران أو في أرض المعبد.

الكتب الطقسية العديدة كتبت أكثرها باليد باللغة السريانية أو بالعربية والخط الكرشوني، وهي كتب القراءات والقداس والجنائز وساعات الفرض والزيارات وغيرها.

الانطباع العام من زيارة إحدى هذه الكنائس هو ان الكنيسة، قبل ان تكون حجراً، هي شعب يصلي، شعب يعيش لإيمانه محبة ورجاء، شعب متعلق بتراته فخور به على تواضعه وفقره، شعب يعرف انه حامل رسالة لن يتنازل عنها.

تزال قائمة كشهر القديس يوسف (آذار - مارس) وشهر العذراء (أيار - مايو) وشهر قلب يسوع (حزيران - يونيو)... وتبلغ الليترجية ذروتها في القداس الإلهي الذي يشارك الشعب كله فيه بترانيمه وصلواته. وتظهر التقوى بنوع ملحوظ في مناسبات الاعياد الهامة كاحتفالات أسبوع الآلام حيث يصلي المؤمنون ساعات حول «القراءة» وحيث تقام الرياضات الروحية في الرعايا استعداداً للاعتراف والمناولة الفصحية.

١٩. الفن الكسي

والفن هو أيضاً وليد الظروف التي ذكرنا. هندسة الكنيسة المارونية وهندسة أي بيت ماروني هي هي. ما يميز الكنيسة عن سواها، في وسط بيوت الرعية، هو علوها ونسقتها والقبة التي تحمل الجرس (بعد أن سمح للموارنة باستعمال الجرس). لا كاتدرائية فخمة ولا بازيليك ملوكية. بل بناية بسيطة مستطيلة سقفها معقود بالحجر الكلسي الابيض أو الاسمر مغطى بالتراب.

داخل الكنيسة فناء ينتهي بالمذبح إلى الجهة الشرقية منه. ولبعض الكنائس فناءان أو ثلاثة. وراء المذبح حنية تسمح بالمرور من ورائها. في الحائط بعض طاقات صغيرة. أما الباب الرئيسي فهو واطئ لمنع دخول الاعداء على أحصتهم إلى الكنيسة. داخل الكنيسة جرن عماد ومنبر

كيسة أثيوبيا الكاثوليكية

بقلم الأب صلاح أبو جوده اليسوعي*

* باحث .

١. نبذة تاريخية

انتشار المسيحية

عن يد القديس أنثاسيوس، بطريرك الإسكندرية (٢٩٥-٣٧٣)، وعاد ثانية إلى أكسوم، ناقلاً معه إليها لتراتجية كنيسة الإسكندرية ونظامها، وهذا ما يفسر وجود الروابط الوثيقة التي طالما قامت بين الكنيسة القبطية في الإسكندرية وكنيسة إثيوبيا.

وفي حوالي سنة ٤٨٠، شهدت المسيحية في إثيوبيا، إبان عهد الملك أميدا (Ameda)، نهضة مهمة بفضل نشاط «القديسين التسعة» السريان، وفقاً للتقليد الإثيوبي. قدم هؤلاء الزهاد من سورية ورومة وأسية الصغرى أو القسطنطينية. ولكن عقيدتهم كانت لا تزال موضع نقاش، إذ لا يعرف بعد هل هم من أنصار عقيدة المونوفيزية القائلة بوحدة الطبيعة في المسيح، أم من المؤمنين الأرثوذكسيين. ومن جهة أخرى، يرجع التقليد إلى القديسين التسعة

ترتقي المسيحية في إثيوبيا إلى القرن الرابع فقط. فروايات التقليد الشعبي، ولا سيما منها الواردة في كتاب «مجد الملوك (Kebra nagast)» التي تتحدث، انطلاقاً من مراجع كتابية^(١)، عن تحول مبكر إلى اليهودية ومن بعد إلى المسيحية، هي مجرد أساطير لا تقوم على براهين تاريخية قاطعة. فال مؤرخ اللاتيني روفينس (٣٤٥-٤١٠)^(٢) يروي قصة اهتداء أسرة أكسوم الملكية إلى المسيحية، بفضل مسيحين من مدينة صور يدعيان فرومنتيوس (Frumentius) وايديسيوس (Aedesius)، اللذان أسرا بعد غرق سفينتهما قبالة شواطئ إثيوبيا. ويروي أيضاً أن فرومنتيوس رسم أسقفاً

(٢) روفينس، التاريخ الكسي، ج ١، ص

٩.

(١) من هذه المراجع: ١ مل ١٠/١٣، ٢ مل ١٠

١٢-١/٩ من العهد القديم، ورسل ٢٦/٨-٣٩ من العهد الجديد.

الفضل في نقل عدد من الأعمال اللاهوتية إلى الجعز (ge'ez)، إحدى لغات الإثيوبيين العامية القديمة. ويروي أنهم نقلوا إلى تلك اللغة أيضاً قوانين القديس باخوميوس الخاصة بالحياة الديرية، وحياة القديس أنطونيوس التي كتبها القديس أناسيوس، بالإضافة إلى مجموعة من كتابات آباء الكنيسة.

لا شك أن الروايات الشعبية التي تحدثت عن اعتناق مبكر لليهودية ومن ثم للمسيحية قد تأثرت ببعض الحقائق التاريخية، وأهمها هي التالية:

١. إن اللغة الإثيوبية التقليدية، الجعز، هي لغة سامية، تشبه الآرامية والعبرية.
٢. وجود جماعة يهودية في إثيوبيا تدعى «الفلاشاه» (Falāshā)، جماعة نجمل أصلها التاريخي.
٣. تمسك المسيحيين الإثيوبيين بعادات وتقاليد من العهد القديم، أهمها: الحتان، والحج إلى أورشليم، واحترام راحة السبت (عند بعضهم)، الخ.
٤. بعض المراجع الكتابية، من العهدين القديم والجديد، التي تأتي على ذكر بلاد الحبشة.

ولكن هذه الحقائق التاريخية لا تجيز استنتاج ما يعتقدته التقليد الشعبي الإثيوبي المشار إليه أعلاه.

بحسب رواية كتاب «مجد الملوك» (nagart) (Kebra)، كانت ملكة سبأ سيّدة إثيوبيا (في حين أن سبأ التي يشير إليها الكتاب المقدس هي اليمن)، وقد أنجبت ولداً من الملك سليمان، سمته مينيلك (Mēnilek). وعندما بلغ هذا الولد سنّ الشباب، عقد العزم على الذهاب من إثيوبيا إلى أورشليم ليتعرف إلى أبيه. فأعجب اليهود به، لا سيما أنه كان شبيهاً بأبيه، وأراد سليمان استبقائه لكي يخلفه على العرش. إلا أن الشاب أبى وأثر العودة إلى إثيوبيا. فأذن له أبوه، فرحل ومعه جميع أبنكار إسرائيل. وبمؤازرة بعض الكهنة الذين تبعوه، استطاع اختلاس تابوت العهد وجاء به إلى إثيوبيا حيث هو مستقر إلى الآن، كما يؤمن بذلك كثيرون، في كنيسة صهيون بأكسوم. وبحسب رواية الكتاب نفسه أيضاً، اعتنق الإثيوبيون اليهودية منذ ذلك العهد، واهتدوا إلى المسيحية بفضل عماد ملكة الحبش عن يد فيليّس، على ما جاء في أعمال الرسل ٨/٢٦-٣٩.

الذين تركوا العالم واجتهدوا في حياة زهدية بقيادة مرشد روحي.

توسّع مملكة أكسوم وانحصارها

وفي سنة ٥٢٣، قاد الملك كالب إلالا أصبيحة (Kaleb Ella Aṣbeḥa) حملة عسكرية على المملكة الحميرية في اليمن بعد أن قام ملكها، الذي اعتنق اليهودية، باضطهاد المسيحيين. فاستطاع كالب، بمساعدة

وما لبثت الحياة الرهبانية أن شهدت انتشاراً في سائر أنحاء البلاد، ولا سيما ابتداءً من القرن السادس، وأمسّت الأديرة مراكز فكرية وروحية استقطبت العديد من الشبان الإثيوبيين



القديس مرقس الإنجيلي

الكتب اللاهوتية وكتب الشَّرع الكنسي وتأليفها، ولعلَّ أبرز تلك الكتب كتاب «مصحفه برهان» (Maṣḥafa berhān)، أو «كتاب النور». أمَّا حرص الملك على وحدة الكنيسة، فلم يقتصر على كنيسة بلاده، بل تعدَّاهُ إلى الكنيسة الجامعة، عندما أرسل مندوبين ليشاركوا في مجمع فلورنسا (١٤٣٨-١٤٤٥). وفضلاً عن ذلك، حارب الملك المذكور بدعتين ظهرتا في القرن الرابع عشر. البدعة الأولى، وعرف أنصارها باسم الميخائيليين (Mikaélites)، هي إحدى البدع الغنوصية. أمَّا الثانية، فلقب أنصارها بالإسطفانيين (Stéphanites) الذين رفضوا

الأسطول البيزنطي، أن يعبر البحر الأحمر ويقهر الحميريين. ثم بنى عددًا من الكنائس في أنحاء اليمن. وتمكَّن الإثيويون، مع الوقت، من توميع رقعة انتشارهم في شبه الجزيرة العربية، حتى مطلع القرن السابع، عندما وضع الاجتياح الفارسي حدًا لسيطرتهم في هذه المنطقة.

ومن مكان آخر، حافظت الكنيسة الإثيوبية على علاقات وطيدة مع شعوب البحر المتوسط، من خلال تبعيتها لبطيركية الإسكندرية، ورحلات الحج المتواصلة التي كان أبناؤها يقومون بها إلى الأراضي المقدسة.

وكان لظهور الإسلام وانتشاره تأثير كبير في مملكة أكسوم، التي أخذت قوتها البحرية والتجارية تضعف. فانهسرت بقعة سيطرتها الجغرافية، وسادتها فترة تقلبات سياسية بسبب كثرة الثورات، الأمر الذي آل إلى إتلاف ملقات السلالات التي حكمت قبل القرن الثالث عشر. ولم تعرف المملكة استقراراً إلا عند وصول السلالة السليمانية إلى الحكم سنة ١٢٧٠. فاستطاع الملك يكونو أملاك (Yekuno 'Amlāk) أن يعزِّز السلطة المركزية، ويحيي التجارة، ويساعد الكنيسة على التقدم.

ووصل ازدهار الكنيسة الإثيوبية إلى أوجه في عهد الملك زرعاً يعقوب (Zar'a Yā'eqob) (١٤٣٤-١٤٦٨)، الذي نجح في توحيد كنيسة بلاده عن طريق التوصل إلى تسوية بين الإفسطانيين، الذين أرادوا مراعاة سبت اليهود إلى جانب الأحد المسيحي، وباقي المسيحيين المتقيدين بسلطة بطريرك الإسكندرية. ولم يقف نشاط الملك عند هذا الحد، بل شجّع ترجمة

تكريم الصليب والقديسة مريم. ولكن، على الرغم من الاضطهاد، فقد دامت هاتان البدعتان ناشطتين في بعض الأديرة المنعزلة حتى النصف الثاني من القرن السادس عشر.

التأثير الغربي

نجح بعض المرسلين الفرنسيين الدومنيكان، في القرن الرابع عشر، وبعد جهد جهيد، في الدخول إلى إثيوبيا. وفي سنة ١٤٠٤، زارت مجموعة إثيوبيين رومة. وابتداءً من سنة ١٤٨٦، أخذت البعثات البرتغالية تزور إثيوبيا لضمان الطرق البحرية إلى الهند، عن طريق إنشاء قلاع على شواطئ البحر الأحمر. ولكن ملوك إثيوبيا لم يظهروا إلا القليل من الحماسة لتطوير علاقاتهم المتجولة بالأوروبيين.

غير أن موقفهم هذا سرعان ما تبدل عندما استنجد الملك لبنا دنغل (Lebna Dengel) بالبرتغاليين ليوقف زحف أمير هرار، أحمد بن إبراهيم الغازي، الذي أخذ يهاجم إثيوبيا ابتداءً من سنة ١٥٢٥، وتوصل في سنة ١٥٣١ إلى السيطرة على معظم أراضيها. استجابت البرتغال لطلب الملك وأرسلت قوات لها تمكنت، بعد أكثر من موقعة، من قتل أمير هرار وتشيتت قواته. فكان ذلك بمثابة عصر جديد من الانفتاح الإثيوبي على أوروبا. فالمرسلون اليسوعيون اقتفوا أثر القوات البرتغالية، وبدأوا عملهم لدى السلطات الإثيوبية لتوحيد كتبهم بالكرسي الرسولي في رومة. فاستطاع الأب يرو بايز (Pero Paez) أن يقنع الملك سوسينوس (Susenyos) سنة

١٦١٤. بالموافقة على الوحدة. ولكن، بعد وفاة الأب بايز سنة ١٦٢٢، تعالت أصوات معارضي الوحدة، ولا سيما الأديار، فإن رهبانها اعترضوا على استبدال الطقوس الإثيوبية القديمة بالليترجية اللاتينية. فكان نتيجة ذلك أن أعاد الملك فاسيلادس (Fasilādes)، خليفة سوسينوس، علاقات كنيسة بلاده ببطريركية الأقباط في الإسكندرية إلى سابق عهدها، وأبعد المرسلين اليسوعيين عن إثيوبيا.

ولكن تجدر الإشارة في هذا الشأن إلى إنجازين مهمين لهؤلاء المرسلين: الأول، هو أنهم ساهموا في تنوير الغرب عن تاريخ إثيوبيا وعروقها البشوية وديانتها. والثاني هو نجاحهم في تبني اللغة الشائعة، الأمهرية (amharic)، في الكتابات الدينية، بدلاً من لغة الجعز (Ge'ez) الميتة.

التاريخ الحديث

لم تتوقف المجادلات اللاهوتية في إثيوبيا مع رحيل المرسلين الأوروبيين عنها، بل تجددت في القرن السابع عشر على أثر ظهور تيار لاهوتي في أوساط إفسطائية قال بأن وحدة الطبيعتين - الإلهية والإنسانية - في المسيح لم تتم إلا بعد مسحة العماد. وآلت هذه المجادلة إلى إثارة مجادلة أخرى بعد أن أخذ بعضهم يتكلم على ولادات ثلاث في التجسد (سوست ليدت) (Sost Ledat): الكلمة المولود من الأب، والمسيح المولود من مريم العذراء، وابن مريم، ابن الله الأب بالتبني. وقد أدت هاتان المجادلتان إلى انقسامات في قلب الكنيسة الإثيوبية، وإلى اضطهادات في بعض الأحيان.



«المسيح»: كنيسة بيت مرقوريوس في كيبلا

وإبان عهدها، سنة ١٩٢٦، توفّي رئيس أساقفة البلاد، فأخذ الإثيوبيون يطالبون بخليفة من بينهم. فتمّ التوصل إلى تسوية، في سنة ١٩٢٩، قضت بتعيين رئيس أساقفة مصريّ، أبونا كيرلس، ورئاسة أربع أساقفة إثيوبيّين.

وفي ١ نيسان ١٩٣٠، تمكّن رأس تفرّي من التغلّب على جيش الملكة في موقعة عسكرية، فأعلن نفسه امبراطورا باسم «هياسلاسي»، أي «قوة الثالوث»، وهو اسمه في العمامد. ولكنّ العقد الأوّل من عهده كان في غاية الاضطراب بسبب حربه ضدّ الإيطاليّين (١٩٣٥-١٩٣٦)، واحتلال هؤلاء بلاده حتى سنة ١٩٤١.

في ظلّ الاحتلال الإيطالي، طرد رجال الدّين الإثيوبيّون كيرلس وانتخبوا أحدهم،

حرّم الملك يوحنا الرابع (١٨٧٢-١٨٨٩)، الذي أظهر حماسة لا تخلو من قلة التسامح، بدعة «ولادات المسيح الثلاث»، واهتمّ، من مكان آخر، بدعم الدير الإثيوبيّ في أورشليم حيث شرع في بناء كنيسة خارج أسوار المدينة القديمة. وفي سنة ١٨٨٩، لاقى هذا الملك حتفه في ميدان إحدى المعارك ضدّ المهديّين، أنصار إحدى شيع الإسلام المتعصّبة في السّودان.

كان للكنيسة الإثيوبيّة، إبان عهد الملك يوحنا الرابع، رئيس أساقفة وثلاثة أساقفة جميعهم من المصريّين رسمهم بطريرك الأقباط في الإسكندريّة.

وخلف يوحنا الرابع الملك منليك (Mänilek) الثاني الشاويّ (Le Šawā) (١٨٨٩-١٩١٣). وتميّز هذا الملك بلباقته الدبلوماسية وحسن إدارته ورغبته في تحديث بلاده. فأسّس عاصمة جديدة في وسط شاوا سماها «أديس أبابا»، أي «الزهرة الجديدة»، وشجّع المرسلين على فتح المدارس العصريّة والقيام بالأعمال الخيريّة. توفّي منليك سنة ١٩١٣، فخلفه ليح إياسو (Lejj 'Iyāsu) الذي لم يتوجّ ملكاً، بل حرّمته الكنيسة وتخلّى عن الحكم سنة ١٩١٦، لما أظهر من تعاطف مع الإسلام وتركيا والمانيا، الأمر الذي أثار رية الإثيوبيّين فتوجّت زوديتو (Zawditu)، إحدى بنات منليك الثاني، ملكة. ولكنّ أحد أبناء عمّ أيها، رأس تفرّي مكوين (Rā's Tafarri) (Makounen)، أخذ يزاحمها على السلطة. كانت الملكة مسيحيّة متفانية، وحامية للكنيسة شديدة التزمّت.

الاقامة الجبرية حتى تموز ١٩٧٩. ومذ ذاك التاريخ فقد له كل أثر.

عقد سينودس في ٧ تموز (يوليو) ١٩٧٦ انتخب بطريركاً بديلاً هو «أبونا تكلا حايمانوت» (Abuna Takla Hāymānout). وفي السنة التالية أعلنت التغييرات في تشكيل مجمع الاساقفة، الأمر الذي أحدث صدمة، إذ أُحيل ثمانية أساقفة، رسموا في عهد الإمبراطور، إلى التقاعد.

وبعد وفاة البطريرك تكلا حايمانوت، في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٨٨، انتخب «أبونا مارقوريوس» (Mārqurewos) خليفة له.

٢. الكنيسة الكاثوليكية في إثيوبيا

بعد أن أفلح اليسوعيون في الدخول إلى البلاد، إبان القرن السابع عشر، اغتيل مرسلان كيبوشيان سنة ١٦٣٨. فكان أن انقطع عمل المرسلين في أعقاب ذلك، إلى سنة ١٨٣٨، عندما أقدم الأب اللعازاري سبيتو (Sapeto) على تأسيس منزل في أدوا (Aduwa). ومن ثم، قام الأب غومستينو دي جاكوبس (Giustino de Jacobis) بعمل رسولي فعال في أدوا وتغره (Tigré)، فوصل عدد الكاثوليك إلى خمسة آلاف. كما أنشأ الأب نفسه إكليريكية، كان الهدف منها تحضير شبان من السكان الأصليين للكهنة، ورسم منهم، سنة ١٨٥٢، خمسة عشر كاهناً كاثوليكياً. وفي أثناء الاضطهاد الذي أثاره ملك الحبشة، ثيودورس، قتل أول كاهن

أبونا إبراهيم، رئيس أساقفة. وبعد وفاة إبراهيم، خلفه أبونا يوحنا. إلا أن كيرلس عاد إلى إثيوبيا سنة ١٩٤١، بعد الاحتلال الإنكليزي. فتمّ التوصل إلى اتفاق سنة ١٩٤٩، يعين بموجبه بطريرك الإسكندرية رئيس أساقفة إثيوبي. ولم تتحرر الكنيسة الإثيوبية من وصاية بطريركية الإسكندرية إلا في سنة ١٩٥٩، إذ أصبح لها، منذ ذلك التاريخ، بطريركها الخاص. إلا أن تحرر الكنيسة الوطنية هذا كان من عواقبه خضوعها المتزايد للسلطة السياسية التي أسست مركزية.

ثورة ١٩٧٤ ونتائجها

وفي ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤، أطاح الجيش بالإمبراطور هيلاسي بعد تردّي الأوضاع الاجتماعية وانتشار المجاعة في البلاد. وما لبث الانقلابيون أن أعلنوا قيام الجمهورية الاشتراكية الإثيوبية. ولكن الثورة لم تقف عند هذا الحد، بل بدأت تتهج سياسة تأميم المؤسسات، في ظلّ حكم الكولونيل مانغستو هايلامريم، بطريقة حاسمة. ففي مطلع ١٩٧٥، أممت المصارف والشركات، ولاحقاً، في السنة نفسها، أممت الملكيات الخاصة في المدن. وفي ٢٢ آذار (مارس) ١٩٧٦، أصبحت البلاد جمهورية شعبية ذات نهج ماركسي لينيني متشدّد.

وفي ما يختصّ بالكنيسة، فهي لم تسلّم من سياسات الانقلاب، إذ صودر جزء كبير من ممتلكاتها في سنة ١٩٧٥. وفي شباط (فبراير) ١٩٧٦، أوقفت الحكومة العسكرية البطريرك توفلوس (Tewoflos)، ووضعت في

كاثوليكِيّ إثيوبيّ، الأبَا غِبري ميخائيل (Abba Ghebré Michael)، سنة ١٨٥٥ .

أما الكيوشيون، فقد باثروا رسالة في النيابة الرسولية بغالا (Galla)، سنة ١٨٤٦، وافتتحوا إكليريكية في كافا (Kaffa). وفي سنة ١٨٨١، افتتح الأب توران شاني (Tourin Chagne) مؤسسة حيرية في حرار. وأسس الأب ماري برنارد، سنة ١٩١٥، جمعية راهبات إثيوبيات.

وفي سنة ١٩٣٧، أنشئت قصادة رسولية في أديس أبابا، قوامها تسع إرساليات، وثلاث نيابات رسولية (في أديس أبابا وجمّة وهرار)، وأربع مديريّات رسولية (في دسيه (Dessie) وغندار ونغليّه (Neghelli) وتيغره)، ألحقت بها سنة ١٩٤٠ أندير (Endeber) وهوزانة (Hozanna).

أما في سنة ١٩٦١، فأصبحت الكنيسة الكاثوليكية مقسمة إلى ثماني مقاطعات: مديريّتان رسوليّتان في هوزانة (Hozanna) ونغليّه (Neghelli) (طقس لاتينيّ)، وثلاث نيابات رسولية في أسمره وجمّة وهرار (طقس لاتينيّ)، وأبرشيّتان في أديكرات وأسمره (طقس إثيوبيّ)، وأبرشية رئيس أساقفة في أديس أبابا.

وقد بلغ عدد الكاثوليك في أديس أبابا، سنة ١٩٦٣، ٢٤ ألفاً من أصل سبعة ملايين نسمة ألفوا حينذاك مجموع سكان العاصمة. وكان الكاثوليك موزعين على ١٣ رعية يخدمها ١٨ كاهناً أبرشياً، إضافة إلى وجود ٣٣ كاهناً يتمون إلى جمعيات مختلفة، وخمسة أديرة رهبان، شغلها ٤٥ راهباً،

وتسعة أديرة نسائية، ضمت ٤٧ راهبة. أما أديكرات، التي كان عدد سكانها سنة ١٩٦٣ ثلاثة ملايين نسمة، فقد بلغ عدد الكاثوليك فيها سبعة آلاف، موزعين على ١٦ رعية يخدمها ١٦ كاهناً أبرشياً. وتشير إحصاءات سنة ١٩٦٢، إلى أنّ عدد الكاثوليك في أسمره بلغ ٣٧ ألفاً، من أصل مجموع السكان البالغ حينذاك مليون نسمة، وقد وصل عدد الرعايا فيها إلى ٨٤، يخدمها ١١١ كاهناً أبرشياً و٤٠ من كهنة الجمعيات.

إلى ذلك، فقد كرّم البابا بيوس الحادي عشر، في ١٢ شباط ١٩٣٠، الكلية الإثيوبية في الغاتيكان، التي كان قد أسسها البابا بندكتس الخامس عشر، كلية حيرية سنة ١٩١٩، وعهد إدارتها إلى الآباء الكيوشيين.

٣. عقيدة الكنيسة الإثيوبية

المونوفيزية الإثيوبية

تعترف الكنيسة الإثيوبية، على غرار الكنيسة القبطية، بالمجامع المسكونية الثلاثة الأولى: مجمع نيقيا (٣٢٥)، الذي حرم آريوس ودحض معتقده القائل بأن الكلمة ليس ياله، بل خليفة ثانوية أو خاضعة، ومجمع القسطنطينية (٣٨١)، الذي أصدر قانون إيمان سمي القانون النيقاوي القسطنطيني، وأنهى المناظرات الأريوسية، وحرّم البدعة المقدونية التي كانت تشكّ في ألوهة الروح القدس، ومجمع أفسس (٤٣١)، الذي حكم على

تعليم نسطور القائل بوجود شخصين في المسيح والرافض إطلاق لقب «الودة الله» على مريم العذراء.

وبالمقابل، لا تعترف الكنيسة الإثيوبية بالمجمع الخلقيدوني (٤٥١)، الذي أدان أوطيخا صاحب المذهب القائل بوحدة طبيعة الخالص وبعدم التساوي في الجوهر بين جسد المسيح وجسد الإنسان، والذي عزل ديومقورس بطريرك الإسكندرية.

بيد أننا لا نستطيع تحديد تاريخ اعتناق المونوفيزية في إثيوبيا لقلّة الوثائق التاريخية. ولكن من الأرجح أن يكون ذلك قد حدث في أعقاب موقف كنيسة الإسكندرية من المجمع الخلقيدوني (٤٥١). إلا أن كنيسة إثيوبيا لا تستعمل كلمة «مونوفيزية» لتعرف نفسها، بل «تواحيدو=توحيد» (Unification: tawāhedo). فهي: «الكنيسة الأرثوذكسية التوحيدية الإثيوبية» (Eglise orthodoxe unifiée de l'Éthiopie). وفي كلمة «توحيد» إشارة إلى وحدة الطبيعتين الإلهية والإنسانية في المسيح. غير أنّ عزلة إثيوبيا الجغرافية حالت دون تأثر البلاد بالمنظرات اللاهوتية التي أعقبت المجمع الخلقيدوني، واستمرت الكنائس الشرقية، وسببت اضطهادات كثيرة.

الأدب الديني

١. الكتاب المقدس

تعتبر الكنيسة الإثيوبية، على غرار الكنيسة القبطية، أنّ الكتاب المقدس هو القاعدة والمرجع لكلّ ما يتعلق بمسائل الإيمان. ومن

المرجح أنّ أول نصّ كتابي نُقل إلى الجعز هو الإنجيل، وربما تمّ ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس، الذي شهد انتشاراً واسعاً للمسيحية. وبحسب التقاليد، أُنجزت الترجمة الكاملة للكتاب المقدس مع ترجمة سفر الجامعة سنة ٦٧٨. وقد خضعت الترجمة الكاملة هذه لأكثر من مراجعة كان آخرها في مجرى القرن الرابع عشر. وتجدر الإشارة، في هذا الباب، إلى أنّ الكنيسة الإثيوبية لا تعترف بسفري المكابيين، ولكنها، من جهة أخرى، تدخل في لائحة أسفارها المقدسة عدداً من الكتب المنحولة، مثل: أحبار باروك، وصعود أشعيا، وكتاب أخنوخ، وكتاب اليوبيلات، وكتاب الراعي، وغيرها.

٢. آباء الكنيسة

أمّا في ما يختصّ بتفسير الكتاب المقدس، فالإثيوبيون يؤثرون الاستعانة بآباء الكنيسة، لا سيّما منهم القديس باسيليوس، والقديس غريغوريوس النازيانزي، والقديس النيصي، والقديس يوحنا الذهبي الفم والقديس كيرلس الإسكندري، فضلاً عن بعض الآباء السريان والرومانيين. ويعتبر كتاب «هيمنوته أباو» (Haymānota 'Abbāw)، أي «إيمان الآباء»، عملاً نموذجياً في هذا الصدد، إذ يشتمل على مختارات في أصول العقيدة والدفاع عن الإيمان، للاهوتيين تقليديين يقارب عددهم الخمسين. وقد نقل هذا الكتاب عن العربية إلى الجعز إبان عهد الملك الاسكندر (١٤٧٨-١٤٩٤)، وفي وقت لاحق، سنة ١٩٦٧، إلى الأمهرية (amharique).

٣. الأدب الجدليّ والكتابات العقائديّة



«الصلب»: رسم جداري في كنيسة بيت مريم

اختلفت مواضع الأدب الجدليّ وأسلوبه باختلاف العصور ومقتضياتها، ولكنّ غاية بقيت واحدة، ألا وهي إظهار الإيمان المسيحيّ، سواء أكان ذلك إزاء الوثنيّة أم الإسلام أم الهرطقات، مع التشديد على المونوفيزيّة.

ثمّة كتاب ظهر سنة ١٤٢٤ بعنوان «مصحف مسير» (Mashafa Mestir)، أي «كتاب السرّ»، وفيه دحض للهرطقات المسيحيّة والثالوثيّة، وللمعتقدات آريوس وصابيلوس ونسطور وأوطيخا وأوريجانيس ولتعالم المجمع الخلقيدونيّ.

وفي عهد الملك زرعاً يعقوب، ألّفت عدّة كتب أهمّها: «مصحف برهان»، أي «كتاب النور» والمقصود به هو المسيح، و«مصحف ميلاد» (Mashafa Milad)، أي «كتاب ميلاد ربّنا». وقد ألّفت هذه الكتب للردّ على عبادة الأصنام، وممارسة السحر والشعوذة، والهرطقات، لا سيّما منها الإسطفانيون والمبخائيليون^(٣).

أمّا في عصر الاجتياح الإسلامي لإثيوبيا ووصول المرسلين الأوروبيين، فالكتب التي ظهرت اهتمت بالدفاع عن المسيحيّة في وجه الإسلام، وعن المونوفيزيّة في وجه إيمان الكنيسة الرومانيّة. ومن الكتب المهمّة في هذا

الصدّد، كتاب «أنقسا أمين» (Anqasta Amin)، أي «باب الإيمان»، بقلم أحد رؤساء الأديار، وفيه ذكر لآيات قرآنيّة وبراهين عن صحّة المسيحيّة وشموليّتها. كما ظهر كتاب بعنوان «مازغبا حيمنوت» (Mazgaba Hāymānot)، وهو قراءة تاريخيّة للمجماع المسكونيّة الأربعة الأولى، ويهدف إلى دحض ادّعاءات المرسلين. أمّا تاريخ ظهوره، فيعود إلى أواسط القرن السّادس عشر.

ونذكر أخيراً كتاب «أمست أعمدا مسطر» (Amest 'a'ameda mestir)، أي «أعمدة السرّ الخمسة»، وهو كتاب التعليم الدينيّ في إثيوبيا، وكان قد نقل عن الجزع إلى الأمهريّة سنة ١٩٥٢.

عن هذه البدعة، واسم الكتاب «فكاري ملكوت» (Fekkaré Malakot)، أي «تفسير الألوهيّة». ولا يخلو هذا الكتاب، الذي يمتاز بأسلوبه الأدبيّ الأنيق، من الأفكار الغنوصيّة.

(٣) كان للمبخائيليين عدد من المؤلّفات منها «همارا نفس» (Hamara Nafs)، أي «سفينّة الرّوح»، و«مرس أمين» (Mars Amin)، أي «المرفأ الأمين». ويستحسن أن نذكر في هذا السياق كتاب أحد المنشقّين

٤. اللاهوت الروحي والأخلاقي

إن الأعمال الكتابية في الحقل الروحي والأخلاقي هي ترجمات لنصوص آباية وسريانية، وهي تعتبر أساسية في الحياة الروحية، ولا سيما في تكوين الرهبان. في ما يختص بالنصوص الآباية أولاً، فعددها كبير ومصادرها متنوعة. فهناك ترجمات لعظات القديس يوحنا الذهبي الفم، وعلى الأخص «شرح للرسالة إلى العبرانيين»، وترجمة لـ «شرح الأنجيل»، لديونيسيوس برصليبي. وتجدد الإشارة إلى طابع هذه المؤلفات العقائدي إلى جانب فحواها الروحي.

أما الأعمال السريانية الأصل، فقد نقلت عن العربية إبان عهد الملك ليناندغل، ويبلغ عددها ثلاثة. يتناول العمل الأول منها، وعنوانه «فيلكيسوس» (Filkesyus)، أي «فيلوكسين»، وينسب إلى فيلوكمين المنبجي (توفي سنة ٥٢٣)، حياة آباء البرية المتوحدين، على شكل أسئلة وأجوبة. أما العمل الثاني فيعرف باسم «الشيخ الروحاني»، وهو مجموعة مؤلفات ترويضية ليوحنا سابا، تتضمن دروساً في الاخلاق والحياة الروحية، وبعض رسائل سابا. وأما العمل الثالث، والأخير، فهو «رسالة في ترويض النفس» لاسحاق النينوي (توفي في نهاية القرن السابع). وقد نقلت هذه الرسالة إلى الأمهرية سنة ١٩٢٣.

مسيحية الكنيسة الإثيوبية

تؤمن الكنيسة الإثيوبية بأن طبيعة المسيح

الإلهية قد توحدت مع طبيعته البشرية لحظة حبل مريم العذراء به. ولكن، في الوقت نفسه، لا تدوب طبيعة في أخري. فلاهوت المسيح وناسوته لم يلحقهما أي تغيير. فالطبيعتان تتحدان الواحدة بالأخرى، كما يتحد الروح والجسد في الانسان ليؤلّفا طبيعة واحدة. إلا أنه ما من ثنائية في هذه الوحدة، إذ لا يمكن الفصل بين الطبيعتين.

من جهة أخرى، فالله الأب ولد الكلمة قبل أن يكون العالم. وبعد خلق العالم، ولد الكلمة من العذراء مريم، ولذا من الحق أن تدعى مريم «أم الله»، وأن يكون الكلمة قد ولد مرتين.

المجادلات اللاهوتية

١. الإفسطاثيون (Les Eustathiens)

إن مؤسس هذه البدعة هو الأب إفسثاتوس (Abbā 'Ewostātewos) (حوالي ١٢٧٣-١٣٥٢)، الذي نادى بضرورة احترام «السبتين»، أي سبت العهد القديم أو سبت اليهود، والأحد المسيحي. فخرج بذلك على تعاليم كنيسة الإسكندرية التي ألحّت على إلغاء السبت اليهودي واحترام يوم الأحد. فكان أن ألّف الإفسطاثيون بدعة انتشرت على وجه الخصوص في بعض الأديرة بجنوب البلاد، وبقيت مستقلة عن الكنيسة المحلية، إلى أن توصل الملك زرعاً يعقوب إلى تسوية أجازت للإفسطاثيين احترام السبتين من دون خروجهم على الكنيسة.

٢. الميخائيليون (Les Mikaélites)

ذلك بأن أوساطاً رهبانية إفسطائية أخذت تروج نظرية لاهوتية تقول بأن الاتحاد التام بين طبيعتي المسيح إنما حصل بعد مسحة عماد يسوع في الأردن، فالمسيح منذ تلك اللحظة فقط أصبح ابن الله. فكان من أمر هذه النظرية أن انتقصت من لاهوت يسوع جاعلة منه، على مثال بدعة التبنية adoptianisme، إنساناً عادياً نال بنوة الله. فتتج من ذلك انعقاد عدّة مجامع وطنية في محاولة لإيجاد حلّ بين أنصار هذه البدعة وباقي الكنيسة الإثيوبية التي أصرت على أزلية الابن. إلا أن هذه المساعي باءت بالفشل، فقد استمرت المجادلة، وساهم في إعمارها مواقف الملوك المتعاقبين بين مؤيد لبدعة المسحة ومعارض لها. فكان أن اتخذ الجدل بعداً لاهوتياً جديداً، مع تبني بعضهم نظرية ولادات المسيح الثلاث (سوست ليدت) (Sost Ledat).

ظهرت هذه البدعة في مجرى القرن الرابع عشر. وقد امتدّ أتباعها معتقداتهم من كتب متأثرة بالفكر الغنوصي. ومن هذه الكتب: «حياة القديسة حنة» و«الاسكندر (الكبير) بطل الطهارة»، و«كتاب الأسرار». ويقوم مذهبهم على الاعتقاد بأنه لا يمكن لإنسان أن يتقدّم في معرفة الله إلا بالتدريج، ويفضل معلمين أسبغ الروح القدس عليهم. وقد استندوا في حججهم إلى بعض المراجع الكتابية مثل يوحنا ١٨/١: «إن الله ما رآه أحد قط»، و١ يوحنا ١٢/٤: «إن الله ما عاينه أحد قط»، و١ طيموتاوس ١٦/٦، الخ. ولقد اضطهد الملك زرعاً يعقوب هذه البدعة التي دامت، بالرغم من ذلك، حتى القرن السادس عشر.

٥. جدل حول ولادات المسيح الثلاث

قال أصحاب نظرية ولادات المسيح الثلاث بأن وحدة الطبيعة في المسيح هي خاصّة جداً، وما ذلك إلا عمل الله الأب. فوحدة الطبيعة في المسيح لم تتمّ إبان مسحته، بل في ولادته، إذ تبناه الله. وهذا ما حدا أنصار هذه البدعة على الاعتراف بولادات ثلاث في حدث التجسد: الكلمة المولود من الأب قبل كلّ الدهور، والمسيح المولود من مريم العذراء، وأخيراً، المسيح المولود بسمّة الروح القدس. وقد دامت هذه البدعة فاعلة في الكنيسة الإثيوبية إلى حين وصول الملك يوحنا الرابع (١٨٧٢-١٨٨٩) إلى العرش. فقد اضطهد يوحنا أنصار هذه البدعة وأيد عقيدة الكنيسة المحلية.

٣. الإسطفائيون (Les Stéphanites)

لقب أتباع هذه البدعة بالإسطفائيين نسبة إلى مؤسسهم الراهب إسطفانس (توفي حوالي ١٤٥٠). مارس رهبان هذه البدعة ترويضاً للنفس، وأظهروا تعصباً شديداً لمعتقدهم الذي نصّ على احترام السبتين، ورفض إكرام العذراء مريم والصليب. حاربهم الملك زرعاً يعقوب في القرن الخامس عشر، وبنتيجة ذلك أخذت البدعة تضعف تدريجياً حتى انتهت في القرن التالي.

٤. جدل حول «المسحة»

لم تنته المجادلات اللاهوتية فصولاً مع انتهاء بدعة الإسطفائيين، فقد شهد القرن السابع عشر قيام جدل جديد حول «المسحة».

القانونية، فالكنيسة الإثيوبية تعترف بالأسرار السبعة التي تمارسها الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية.

١، العماد والتثبيت

يُمنح سرّ العماد للذكر بعد ٤٠ يوماً على ولادته، وللأنثى بعد ٨٠ يوماً. ويتمّ العماد عن طريق تغطيس الجسم ثلاث مرّات في الماء. كما يسمح المعتمد بالميرون، إشارة إلى هبة الروح القدس. ومن عادة الإثيوبيين أن يحتفلوا بالإفخارستيا بعد منح سرّ العماد، ويشترك المعمد أثناءها في المناولة، أسوة بالكنائس الأرثوذكسية.

أمّا سرّ التثبيت، فيمنحه الكاهن بعد العماد بفترة، وهو غالباً ما يلغى، كما في سائر الكنائس المونوفيزية.

٢. الإفخارستيا

يُقسم القدّاس الإثيوبيّ إلى قسمين رئيسيين، قسم ما قبل النافور وفيه يشترك الموعوظون، وقسم النافور ويقتصر على المعمدين فقط. أمّا القسم الأوّل، فهو يتألف من تبخير المذبح وتحضيره، وتبريك الخبز والحمز وتقديمها، إضافة إلى صلوات الشكر والطلبات والتريصاجيون، وأربع قراءات تؤخذ من رسائل القديس بولس والرسائل الجامعة وأعمال الرسل والإنجيل. ويختتم هذا القسم بتلاوة قانون الإيمان بعد صرف الموعوظين.

أمّا القسم الثاني، أو النافور، فهو مركز النقل في الليترجية وله اسمان: فري قدّاسي (ferē qeddāsē)، أي ثمرة الليترجية،

باستثناء مسألة انبثاق الروح القدس (ذلك بأن الكنيسة الإثيوبية تتبع التعاليم البيزنطية في هذه النقطة)، وناسوت المسيح، تعترف الكنيسة الإثيوبية بباقي العقائد الإيمانية التي تسلّم بها الكنيسة الكاثوليكية، ولكن مع بعض التفاصيل الناتجة عن الكتب المنحولة والتقاليد الشعبية. فيسوع، على سبيل المثال، قد تعمّد يوم الثلاثاء في ١٩ كانون الثاني (يناير) من العام ٥٥٣١ بعد خلق العالم، وله من العمر ٣٠ سنة و١٣ يوماً...

أمّا عن مريم، فقد وُلدت سنة ٥٤٨٥ بعد خلق العالم ليواكيم وحنة اللذان كرّسا ابنتهما لله. وعندما كان لها من العمر ثلاث سنوات، صعد الملاك فائوئيل بها إلى السماء، وأعطاهما لتأكل وتشرب، ثم عاد بها إلى أرضها حيث كان باستقبالها الشعب والكهنة. فقرروا استبقاها في الهيكل، فبقيت فيه وكانت الملائكة تخدمها. وعندما أصبح لها خمسة عشر عاماً، اختار لها الله يوسف، ابن داود، من عشيرة يهوذا، ليهتمّ بها...

٤. الحياة الطقسية

الأسرار

يتمسك الإثيوبيون ببعض التقاليد الشعبية التي منها ما يعود إلى تعاليم العهد القديم، وإن كانت الكنيسة الوطنية لا توصي بها صراحة. فالإثيوبيون يختنون ذكورهم بعد انقضاء أسبوع على ولادتهم، ومنهم من يختنون إناثهم أيضاً. وختان الذكور، في نظرهم، هو علامة عهد الله مع إبراهيم، على ما ورد في سفر التكوين ١٠/٧ و٤/٢١. أمّا من الناحية

نوافير القُدَّاسِ الإِثْيُوبِيِّ

تعدّ الكنيسة الإثيوبية واحدة من الكنائس الغنيّة بالنوافير، إذ يبلغ عددها سبعة عشر نافوراً. ويعيد التقليد هذه النوافير، مثلما هي الحال في سائر الكنائس الشرقية، إلى الرسل وآباء الكنيسة وبعض القديسين. أمّا النوافير فهي: نافور ربنا يسوع المسيح (الذي، بحسب التقليد، تعلمه الرسل من يسوع نفسه بعد قيامته)؛ ونافور القديسة مريم (وينسب إلى القديس قرياقس (Cyriaque) المصري)؛ ونافور القديس يوحنا الإنجيلي؛ ونافور القديس يعقوب أخي الرب؛ ونافور القديس مرقس الإنجيلي؛ ونافور الآباء ٣١٨ (أي الآباء الذين اشتركوا في مجمع نيقية في سنة ٣٢٥)؛ ونافور القديس أثناسيوس؛ ونافور القديس باسيليوس القيصري؛ ونافور القديس غريغوريوس النيصي؛ ونافور القديس أيفانيوس (أسقف سلامين قبرص في القرن الرابع)؛ ونافور القديس يوحنا الذهبي الفم؛ ونافور القديس كيرلس الإسكندري؛ ونافور القديس يعقوب السروجي (أسقف بطنان بالقرب من الرها. توفي سنة ٥٢١)؛ ونافور القديس ديوسقورس (بطريك الإسكندرية ٤٤٤-٤٥١)؛ ونافور القديس غريغوريوس المنور (رسول أرمينية). ويضاف إلى هذه النوافير الخمسة عشر، نافور ثان للسيدة العذراء ينسب إلى القديس مرقس الإنجيلي؛ ونافور ثان ينسب إلى القديس كيرلس الإسكندري.

الصلوات، منها أدعية من أجل السلام، والمجد لله وقبلة السلام، والقُدَّوس، والشكريس، وكسر الخبز، والصلوة الربية، والتناول. وتسبق تناول عادة صلاة توبة طويلة، مع ترداد جملة «ارحمنا أيها السيد المسيح» واحد وأربعين مرة.

ويمتاز القُدَّاس الإثيبيّ بوفرة نوافيراته، إذ يبلغ عددها سبعة عشر. إلا أن أكثرها استعمالاً هو نافور الرسل.

يحتفل بالقُدَّاس أيام الآحاد والأعياد، ويومي الأربعاء والجمعة في الرعايا الكبيرة والأديار. ويفترض عادة وجود كاهنين وثلاثة شمامسة. ويتناول المؤمنون الأسرار تحت شكلي الخبز والخمر.

٣. سرّ التوبة

لا يبدو سرّ التوبة إلزامياً للمؤمن في أوقات معينة، إلا أن السرّ يمنح عادة، مع اعتراف المؤمن بخطاياها، للمنازعين. والغفران في الواقع هو صلاة استرحام.

٤. سرّ الزواج

تمسك الكنيسة الإثيوبية بطابع الزواج غير القابل للفسخ. وهذا ما يحلوه الكثيرون إلى عقد قرانهم خارج الكنيسة، عن طريق عقد اتفاقات تأخذ أشكالاً مختلفة أكثرها مؤقت. ولذا يجد الكثيرون أنفسهم في حالة حرم، فلا يتقدمون من الأسرار إلا بعد منحهم الحل، وخضوعهم لقوانين الكنيسة.

أمّا في ما يختص بالكهنة، فلا يجوز لهم

وأكوتيت قربان (akotet qurban)، أي ذبيحة الشكران. وهو يتضمن عدداً كبيراً من

الزواج غير مرة واحدة. وفي حال وفاة الزوجة، على الكاهن أن يلتحق بأحد الأديار، إلا في حال عدم توقّر من يرعى شؤون الأولاد.

٥. مسحة المرضى والدرجة

إنّ الكنيسة الإثيوبية، وإن كانت تعرف بسرّ مسحة المرضى على ما ورد في رسالة يعقوب ١٤/٥-١٦، فممارستها له نادرة جداً.

أما سرّ الدرجة، فيمنحه المتربوليت للكاهن والشمّاس بحسب الطقس القبطي. وبما أنّ دور الشمّاس مهمّ في الإفخارستيا والصلوات الليتورجية، فإن درجة الشماسية تمنح لعدد كبير من الصبيان.

٥. الفنّ الإثيوبيّ المسيحيّ

فنّ عمارة الكنائس

إنّ الكنائس الإثيوبية القديمة العهد، لا سيّما التي شيدت في شمال البلاد، لها شكل مستطيل. ويرقى هذا الشكل الهندسيّ، الذي يشبه الباسيليكاات السريانية القديمة، إلى الفنّ المعماريّ الأكسوميّ. وكان المذبح في هذه الكنائس ظاهراً للمؤمنين. وفيما بعد، حجب

القبّال^(٤)، المستطيل الشكل دوماً، عن نظر الجمهور بواسطة حائط، هو بمثابة الإيقونسطاس^(٥) المعروف في الكنائس الشرقية. وبعد القرن الرابع عشر. أُقفل على المذبح نهائياً بما يشبه قدس الأقداس، وأصبح الولوج إليه مقتصرًا على الكهنة والشمّامسة.

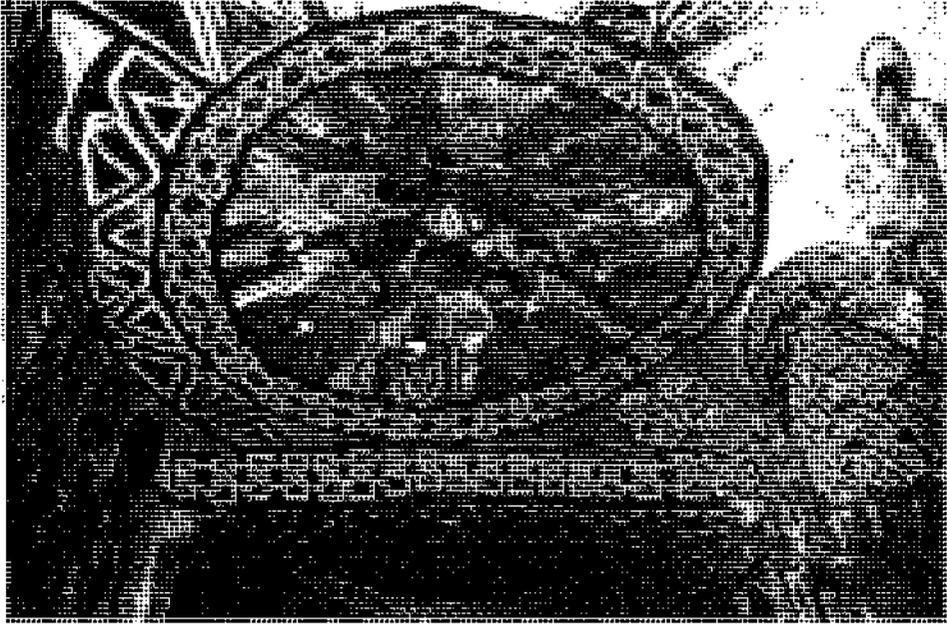
غير أنّ أكثرية هذه الكنائس القديمة قد زالت مع الأسف، إمّا بسبب الحروب المتعاقبة، أو بسبب الإهمال. فلم يبق من الكنائس المستطيلة الأربع، التي تعود إلى القرون الوسطى، إلا كنيسة واحدة، هي كنيسة دير دبرادامو (Dabrā Dāmo).

إلى جانب الكنائس المستطيلة، عرف فنّ عمارة الكنائس الإثيوبيّ الشكل المستدير، وهو الشكل الأكثر انتشاراً في الوقت الحاضر، ولا سيّما في وسط البلاد وجنوبها. تشبه هذه الكنائس الأكواخ المستديرة المعروفة في الأرياف الإثيوبية، حيث يتألّف سقف الكنائس من القش أو الصفيح المتّوجّج. ولعلّ هذا الشكل الهندسيّ قد اعتمد بعد التدمير الهائل الذي لحق بالكنائس القديمة إبّان حب جران.

وَبقي أن نشير في هذا الباب إلى الكنائس الصخرية، التي تعتبر من الآثار المسيحية المهمة في إثيوبيا، وحتى في الشرق المسيحيّ. وهذه الكنائس هي ثلاثة أنواع: المغاور التي حوّكت إلى كنائس، ولها واجهات ظاهرة على مثال آثار البتراء والكنائس الأحادية الحجر

(٥) الإيقونسطاس: حجاب مرتفع، توضع عليه الأيقونات، ويفصل بين صحن الكنيسة والقدس. وله ثلاثة أبواب (عن معجم الإيمان المسيحيّ).

(٤) القبّال: في بعض الكنائس، طرف مستدير، في شكل محارة، موجه عموماً نحو الشرق، يقع وراء المذبح والخورس (عن معجم الإيمان المسيحيّ).



«رسل»: جزء من قبة كنيسة غوط

حشبية. أما قبل ذلك العهد، فكانت الرسوم الجدارية المائية في الكنائس هي الفن الشائع. وقد مثلت، في معظمها، مشاهد إنجيلية أو حياة قديسين. كما عرفت الكنيسة الإثيوبية بعض المخطوطات المزوقة.

إنّ الإيقونوغرافية الإثيوبية قد تأثرت، على مرّ العصور، بالمنتجات الفنية البيزنطية والفارسية والأرمنية وحتى الهندية، وابتداءً من القرن الخامس عشر، على وجه خاص، بالمنتجات الأوروبية. وهذا ما أفقدها طابعها الإثيوبي الأفريقي الخاص.

وفضلاً عن ذلك، يُعبّر في الإيقونوغرافية الإثيوبية، كما الحال هي في إيقونوغرافية الشرق المسيحي، عن معتقدات الإيمان الأرثوذكسي. ولذا نجد أنّ المقاييس الطبيعية لا

والكنائس المبنية تحت الأرض، وهي حفرت في الصخور أو الأجراف، وأخفيت ملامحها الخارجية.

عرف هذا الخط المعماري انتشاراً في إثيوبيا الوسطى والجنوبية، وبوجه خاص في عهد أسرة زاغوي (Zāgwē) الحاكمة (القرن ١١ و١٢م). وتعدّ مجموعة الكنائس في مكان لاليبلا (Lalibē) من منطقة لاستا (Lāstā) (إثيوبيا الوسطى)، من أجمل الكنائس الصخرية وأكثرها عدداً.

فن الرسم

لم تعرف الكنيسة الإثيوبية فن رسم الأيقونات إلا ابتداءً من القرن الخامس عشر، إذ أخذ بعضهم يرسم الأيقونات على ألواح

تراعى في الرسم، فالهدف الأساسي هو جعل المفاهيم اللاهوتية منظورة وحسب.

ومن ناحية أخرى، اكتسب الإثيوبيون شهرة في صناعة السجاد والجدرايات والمطرزات المزخرفة بالرسم الدينية، إلى جانب صناعة الأدوات الليترجية من كؤوس وصلبان الخ.

٦. بنية الكنيسة الإثيوبية

الكنيسة والسلطة السياسية

كان للملوك دور بالغ الأهمية في شؤون الكنيسة، ولا سيما عند نشأتها في القرنين الرابع والخامس. ذلك بأن نموذج الإمبراطورية البيزنطية، التي تدخل أباطرتها في أمور كنسية ومسائل لاهوتية، كان غالباً آنذاك. فكان يجوز للملوك الدخول إلى قدس الأقداس في الكنائس، أسوة بالكهنة والشمامسة، والدعوة إلى عقد المجامع. وطالما اعتبر الإثيوبيون ملوكهم رواداً في الدعوة إلى اعتناق الإيمان المسيحي والدفاع عنه. وقد قام الكثير من الملوك، في الواقع، بدعم الكنيسة وتعزيزها كما رأينا في القسم التاريخي.

احتفظ البلاط الملكي الإثيوبي بكهنة لم تشملهم سلطة المتروبوليت، بل كان لهم رئيسهم الخاص. وقد أدى هذا الوضع، في فترة من فترات عهد هيلاسيلاسي، إلى خلق توتر بين البطريكية ذات النزعة المحافظة، ورئيس كهنة البلاط حبتا ماريام ورقنه (Habta Maryām Warqnah)، الذي أقدم على تأسيس

مدرسة لاهوتية ومكتبة حديثة وجريدة، إضافة إلى عدد من منظمات للشبيبة.

ولكن ما لبثت هذه المؤسسات أن حلت، وألغى دور كهنة البلاط في آب (أغسطس) ١٩٧٤، بعد الثورة.

السلطة الكنسية

بعد الاتفاق الذي عقد بين بطريركية الإسكندرية وكنيسة إثيوبيا سنة ١٩٤٩، رسم متروبوليت إثيوبيا القبطي جرجس (Gerios) أساقفة إثيوبيين. وبعد وفاته سنة ١٩٥١، حل محله المتروبوليت باسيلوس، وهو إثيوبي ورئيس للرهبان والراهبات آنذاك. رسم هذا المتروبوليت خمسة عشر أسقفاً وزعمهم على أقاليم البلاد الأربعة عشر، وعلى أورشليم. وفي سنة ١٩٥٩، أصبح المتروبوليت باسيلوس أول بطريرك في الكنيسة الإثيوبية.

في ما يختص بالكهنة، فعددهم في إثيوبيا لافت للنظر، إذ وصل إلى ٦٩٧٢ كاهناً سنة ١٩٧٠. والكهنة غالباً ما يستمر في البيت الواحد، فيصبح الابن كاهناً على غرار أبيه. ويحاط الكهنة باحترام كبير، ويتمتعون بامتيازات كثيرة، ويقومون بدور اجتماعي مهم. إلا أنهم، بوجه عام، يفتقرون إلى تكوين لاهوتي وفكري متين.

وعدت السلطات الإثيوبية الحاجة إلى ضرورة توفير تكوين لاهوتي معاصر للكهنة، فطلبت، في سنة ١٩٤٤، من بطريركية الإسكندرية إنشاء مدرسة لاهوتية حديثة في إثيوبيا. إلا أن الطلب لم يلب. فوجب الانتظار حتى سنة ١٩٦٠ ليتم تأسيس معهد الثالث

منه. فينخرطون في مدارس كنسيّة متخصصة ليدرسوا الموسيقى الدينيّة والتراتيل والتفسير التقليديّ للكتاب المقدّس، إضافة إلى آباء الكنيسة واللاهوت الأخلاقيّ وقواعد اللغة. وتدوم فترة تكوينهم غالباً عشر سنوات. وفضلاً عن دورهم المهمّ في العبادة، فهم يتطوّعون للتدريس في المناطق التي تفتقر إلى مدارس.

يصل عدد الدبترّا في بعض الرعايا إلى المئات، وفي كنائس الأرياف إلى مئة على الأقل.

التوحيد

مع بداية المسيحيّة في إثيوبيا، إبّان القرن الرابع، شهدت الحياة التوحيدية نمواً سريعاً وانتشاراً شمل مختلف أنحاء البلاد. وقد كان للمتوحّدين دور أساسيّ في تبشير المناطق الوثنيّة، ولا سيّما في وسط إثيوبيا وجنوبها. فاحتلّت الحياة التوحيدية مقاماً اجتماعياً ودينيّاً مميّزاً، أخذ يترسّخ مع الوقت. وفي نهاية القرن الثالث عشر، قام الأبّا إياسوس ماو (Iyāsus Mo'ā)، رئيس دير القديّس إسطفانس في حيق (Hayq)، بدور مهمّ لصالح الملك يَكُونو أملاك (Yekuno 'Amlāk). فاعترف الملك، بالمقابل، بسيادة رئيس ذلك الدير على الإكليروس العلمانيّ. ثمّ انتقلت هذه السيادة، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، إلى رئيس دير ذبره ليبانوس (Dabra Libānos) في شوا (Choa).

فأصبحت الحياة التوحيدية، منذ ذلك



«راهبان»: رسم جداري في كنيسة غوط

الأقدس في العاصمة أديس أبابا، ذلك المعهد الذي أغلق زعماء الثورة أبوابه سنة ١٩٧٤. فحاولت السلطات الكنسيّة أن تستعيض عنه عن طريق إنشاء عدد من الإكليريكيات والمدارس الحديثة، غير أن مستواها بقي دون مستوى المعهد السالف الذكر.

الدبترّا (Dabtarā)

إلى جانب الكهنوت والشماسيّة، هناك في الكنيسة الإثيوبيّة ما يُسمّى بالدبترّا، وهي وظيفة ذات شقّين: الترتيل والتعليم. ولهذا السبب، يستفيد المرشّحون لهذه الوثبة من تكوين أشمل من تكوين الكهنة وأكثر إتقاناً

الصيانة الداخليّة. ومنهم من ينصرف إلى الدراسة ونقل المخطوطات. ولذا يعتبر الرهبان حماة التراث الأدبيّ والفنيّ. وتتميّز الأديار عامّة بكرم الضيافة.

يصل عدد الأديار الرجالية حالياً إلى ٨٠٠ ديراً، يمكن أن يحصى في مقابلها عدد مماثل من الأديرة النسائيّة. وتتركز أكثرية هذه الأديار في مقاطعات عجم (Gojjam) وتغري (Tegrē) وغندر (Gondar).

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أنّ مهمّة رئيس الحياة التوحديّة، أو الإيشغي (ečage)، قد أُسندت، ابتداءً من سنة ١٩٥١، إلى رئيس الكنيسة الإثيوبيّة.

العصر، خاضعة لنظام تلسلسيّ، على رأسه رئيس ينتخبه مجمع دير ديره لبانوس، ويعينه الملك. فعزّز هذا الواقع مكانة الرهبان الاجتماعيّة والوطنية، لا سيّما وأنّ المتروبوليت كان، حتى سنة ١٩٥١، لا يزال مصريّاً.

وإلى جانب الأديار التوحديّة والرجالية، تأسست جماعات نسائيّة تخضع قانونياً وروحياً للأديار الرجالية. ومن مكان آخر، عرفت الكنيسة الإثيوبيّة، على مرّ العصور، نسوة اعتزلن العالم، وأمضين حياتهنّ بالصوم والصلاة والتأمّل في الكتاب المقدّس.

يمضي الرهبان والراهبات أوقاتهم في الأديار في الصلاة وأعمال تقشّف قاسية، إضافةً إلى انصرافهم إلى الزراعة والبناء وأعمال

المراجع

- Walbert BÜHLMANN, *Visage de l'Église d'Afrique*, Desclée, Paris, 1967.
- *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*, t. XV, Paris, 1963; article: «Éthiopie», col. 1176-1181.
- *New Catholic Encyclopedia*, vol. V, Washington, 1967; article: «Éthiopie», p. 583-590.
- Habte Sellassie SERGEW, *Ancient and Medieval Ethiopian History to 1270*, Addis Ababa, 1972.
- Kristen STOFFREGEN-PEDERSEN, *Les Éthiopiens*, coll. «Fils d'Abraham», Editions Brepols, Belgique, 1990.

أنجزت المطبعة الكاثوليكية في عاريا - لبنان
طباعة هذا الكتاب في الخامس عشر من
تشرين الثاني ١٩٩٧

١٩٩٧/١١/١٥ - ٣ - ٠١٩٧٠١